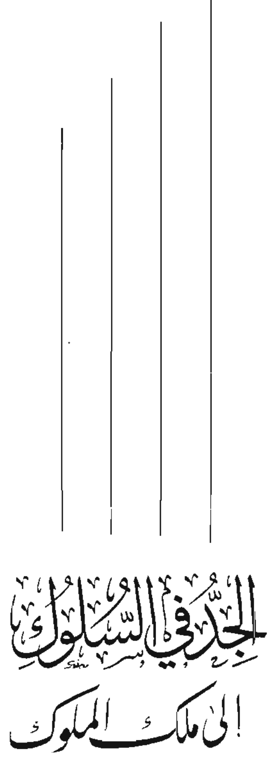

الجد في السلوك
إلى ملك الملوك

ٱلطَّبْعَةُ ٱلأُولَىٰ
١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية
الصاغرجي : أسعد محمد سعيد
الجِدُّ في السلوك إلى ملك الملوك
ردمك : ٧ / ٧١٢ / ٣٨ / ٩٩٦٠
العنوان : ديوي / ٢٦٠
رقم الإيداع : / ٤٧٠٩ / ٢١ عام / ١٤٢١هـ

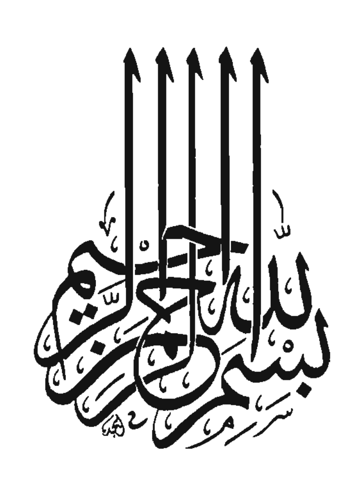


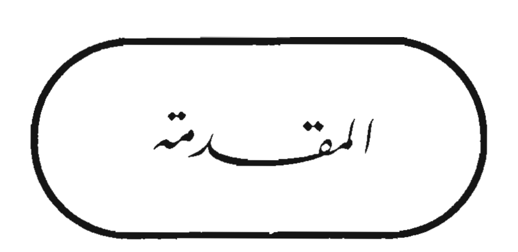
دمشق - حلبوني - شارع مسلّم البارودي . هاتف ٢١٢٩٨٨٦ ص.ب ٣٠٥٥٢
بيروت ص ب : ١١٣/٦٢١٨



تأليف
الشيخ أسعد محمد سعيد الصاغرجي

دار الكلم الطيب
دمشق - بيروت





المقدمة

علم السلوك من أجلِّ العلوم قدراً ، وأسناها شمساً وبدراً ، هو لباب الشريعة ، ومنهاج الطريقة ، ومنه تشرق أنوار الحقيقة .

تعريفه : قال الجنيد : هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به ، وقال أيضاً : أن تكون مع الله بلا علاقة ، وقيل : ألا تملك شيئاً ولا يملكك شيء . وقيل : استرسال النفس مع الله على ما يريد . وقيل : الأخذ بالحقائق والإياس مما في أيدي الخلائق .

١ ـ ومعنى أن يميتك الحق عنك ويحييك به : أن تموت أوصافك السيئة فتحيا عندئذ بأوصافك الحسنة ، وتحتاج إلى مجاهدة نفس ، وذكر ، وقيام ليل ، ومحاسبة نفس على الدوام ، وتكون عند كل كلمة تريد قولها ، فإن كانت حسنة قلتها ، وإن كانت سيئة استغفرت منها ، ولم تتفوّه بها ، وأن تكون مع الصادقين والصالحين .

٢ ـ ومعنى أن تكون مع الله بلا علاقة : أن الإنسان في مخالطته وعيشه ينشأ مُعَلّقاً قلبه بالعوائق والعلائق ، ومع الله تعالىٰ كذلك ، فإن تجرّد عن كل هذه العلائق ، وقطعها مع الخلق من قلبه حتى يصير لو فتشت قلبه لوجدته حرّاً ، وصار أهلاً للدخول إلى حضرة الملوك . فيذكر الله تعالىٰ لأمره لا غير ، لا لجنة ولا لنار ، ولا لفتح ولا لولاية ولا لقربة . كما قال القائل :

ولما رأيت الأمر لله وحده   قطعت عن الأغيار كلَّ علائقي

٣ ـ ومعنى أن لا تملك شيئاً ولا يملكك شيء : يعني أن تكون عبداً لله والعبد لا يملك شيئاً ، فإنه وما ملكت يداه لمولاه ، ولا يملكك شيء ، فإنه من كان عبداً لشيء كان مملوكاً له .

والله عز وجل لا يقبل الشركة ولو بجزء يسير . ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف : ١١٠] .

ومعنى استرسال النفس مع الله على ما يريد : أن تجعل هواك فيما شرع خالقك ، وتجعل مشيئتك في مشيئته ، وإرادتك في إرادته ، فلا تتقرّب له إلا فيما شرع وأنزل في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ ، قد محيت نفسك ، فلا هوى عندك ، ولا هناك من يأمر وينهى إلا الله .

ومعنى الأخذ بالحقائق والإياس مما في أيدي الخلائق : أن تعلم أن الذي خلق العالم هو الله ، وتعلم أنه الممدّ له في كل لحظة ، فهو مفتقر إليه سبحانه بإيجاده وإمداده ، وهو الغني عن كل ما سواه والمفتقر إليه كل ما عداه ، وتتحق بهذا ، وتوقن بأن الناس فقراء إلى الله والله هو الغني الحميد ، فتوحد وُجْهَتك ، وتقطع بأنه ليس لك مُمِدٌّ إلا هو .

وقد ادّعى التصوف كثير من أدعيائه ونُسِبوا إليه ، ولا تصح نسبتهم إليه ، وبعضهم أخذ عن شيوخ صادقين لهم باع فيه ، ثم انحرف عنهم وسلك طريقاً غير طريقهم ، فضلّ وأضلّ .

وإني أقدم للقارىء الكريم سبيلاً للتصوف القائم على الكتاب والسنة ، والذي من سلكه فقد هيّأ لنفسه التعرض لنفحات الحق ، والتي يستأهل بها تنزلات الحق ، التي يخص الله بها أولياءه المتقين ، والتي يحقق الله بها أولياءه في عبادتهم التي طلبها منهم ، وهي هي الطريقة التي رسمها المحققون من أوليائه في الزمان الذي تلا قرون الخير ، لمن يريد الوصول إلى حضرة الحق ، ومنهم شيخ المحققين مولانا عبد الكريم بن هوازن القشيريّ ، المتوفى ٤٦٥هـ ، في كتابه « الرسالة القشيرية » وقد قرأه محمد بن علي الطائي سبعاً وعشرين مرة ، تحت قبة النّسر في مسجد بني أمية ، فعمدت إلى قراءتها بعد أن قرأتها على سيدي الشيخ سعيد البرهاني في جملة من تلامذته الأجلاء في عام ١٩٦٠م ، وقمت بالاقتباس منها والزيادة عليها من شرح شيخ الإسلام الشيخ زكريا الأنصاري والشيخ مصطفى العروسي ، وربما طويت بعض أسطر

منها ، لنظري القاصر عن إدراك معانيها ، وأقدمها للقارىء الكريم في عنوان جديد سميته « الجد في السلوك إلى ملك الملوك » سائلاً الله تعالىٰ أن ينفع بها قارءها وكاتبها وناشرها ، إنه سميع مجيب .

المدينة المنورة غرة محرّم ١٤٢١هـ   وكتبه أسعد محمد سعيد الصاغرجي

❊ ❊ ❊ ❊

الكِتَابُ الأَوَّلُ

صِفَاتُ، وَقَوَاعِدُ، وَعَقَائِدُ أَهْلِ السُّلُوكِ

١ ـ صفاتهم وأخلاقهم .

٢ ـ قواعدهم وأصولهم .

٣ ـ عقائدهم .

٤ ـ من أين جاء التصوف ؟

٥ ـ تعريف التصوف .



صِفَاتُ، وَقَوَاعِدُ، وَعَقَائِدُ أَهْلِ ٱلسُّلُوكِ

١ ـ صفاتهم وأخلاقهم :

جعل الله هذه الفئة المتخلِّقين بكمال الصفات صفوة أوليائه ، وفضَّلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم ، وجعل قلوبهم معادن أسراره ، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره ، فهم الذين يسكن غضب الحق برؤيتهم ، وهم الدائرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق ، صفّاهم من حظوظ أنفسهم ورقّاهم إلى مجال المشاهدات ، بما كشف لهم من حقائق الأحدية ، وأقدرهم للقيام بآداب العُبودية ، وأشهدهم تصرفاته فيهم وفي غيرهم ، من العطاء والمنع والإسعاد والإضلال ، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف ، واتصفوا بما حصل منه سبحانه لهم من التقليب والتصريف ، ثم رجعوا إلى الله بصدق الافتقار ونعت الانكسار ، ولم يتكلوا على ما حصل منهم من الأعمال أو صفا لهم من الأحوال ، علماً بأنه جلَّ وعلا يفعل ما يريد ، ويختار من يشاء من العبيد ، لا يحكم عليه الخلق ، ولا يتوجّب عليه لمخلوق حق ، فالكل متفضَّلٌ عليه من بحر فضله وجوده ، ثوابه ابتداء فضل محض ، وعذابه حكم بعدل ، وأمره قضاء فصل .

ثم اعلموا رحمكم الله أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ، ولم يبق في زماننا من هذه الطائفة إلا أثرهم ، كما قيل :

أمـا الخيـام فـإنهـا كخيـامهـم ... وأرى نساءَ الحي غير نسائها

مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء ، وقلَّ الشباب الذين كان لهم بسيرهم وسننهم اقتداء ، ارتحلت عن القلوب حرمة الشريعة ، فعدُّوا قلة المبالاة في الدين أوثق ذريعة ، رفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام ، واستخفوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصوم والصلاة ،

والزكاة ، وركضوا في ميادين الغفلات ، وركنوا إلى اتباع الشهوات ، وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات ، ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال ، فادعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال ، وأنهم قائمون بالحق تجري عليهم أحكامه وهم محو ، وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عَتْب ولا لوم .

ولما طال الابتلاء فيما نحن فيه من الزمان ، بما أشرت ببعضه ، غيرةً على هذه الطريقة أن يذكر أهلها بسوء ، ويجد مخالف لثلبهم مساغاً ، إذ المخالفون لهذه الطريقة والمنكرون عليها شديد ، أحببت أن أوضح في هذه الكراسة الطريقة الصحيحة التي مشى عليها أولئك الكبار ، فذكرت سيرهم وآدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وعقائدهم بقلوبهم ، وما أشاروا عليها من مواجيدهم وكيفية ترقيتهم من بدايتهم إلى نهايتهم ، لتكون لمريدي هذه الطريقة قوة ، ومنكم لي بتصحيحها شهادة .

وما كان لي أن أخط بقلمي هذا لولا خوفي على هذه الطائفة أن تنال بسوء ، وهم ورَّاث الحبيب المصطفى ﷺ .

٢ ـ قواعدهم وأصولهم :

بنيت قواعد أهل السلوك على أصول صحيحة في التوحيد ، صانوا بها عقائدهم عن البدع ، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل ، وعرفوا ما هو حق القدم ، وتحققوا بما هو نعت الموجود من العدم .

قال الجنيد سيد هذه الطريقة : التوحيد إفراد القدم عن الحدث ، يعني أن كل ما سوى الله حادث .

فالتوحيد : اعتقاد وحدانية الله تعالىٰ في ذاته وصفاته وأفعاله ، وكل شيء سواه حادث ، والحادث يمكن إزالته وإعدامه ولو بصرفه ، في حين أن القديم لا يمكن صرفه ، فهو الموجود الباقي .

وأَحكمتْ هذه الطائفة أصول العقيدة بواضح الدلائل والشواهد ، فلم يعرّجوا على التقليد .

قال الجُريري : من لم يقف على علم التوحيد بشاهد من شواهده زلّت به قدم الغرور في مهواة من التلف ، هذا الشاهد أو الدليل إنما يُحَصّل عليه من ملازمة الكتاب والسنة ، وترك الأهواء والبدع ، وتعظيم حرمات السلف ، والتماس الأعذار للخلق ، والمداومة على الأوراد ، وترك الرخص والتأويلات .

فالتقليد في العقائد ممتنع ، فيجب على كل أحد النظر والاستدلال ، كما أجاب الأعرابيُّ الأصمعيَّ عن سؤاله بم عرفتَ ربك ؟ فقال : البعرة تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، ألا تدلُّ على اللطيف الخبير . فالدليل الإجمالي الذي يستدل به على الله تبارك وتعالىٰ وعلى سائر صفاته هو هذا الكون كله ، وهذا كاف بالنسبة للعامة ، أما النظر والاستدلال على طريقة المتكلمين من تحرير الأدلة وتدقيقها ، ودفع الشبه عنها ، فهو فريضة كفاية على المتأهلين له .

قال الراجز :

إِذْ كلُّ من قلّد في التوحيد   إيمانه لم يخل من ترديد

ومن تأمل ألفاظ القوم ، وتصفَّح كلامهم ، وجد أن القوم لم يقصّروا في التحقيق عن شأو الشأو : (الغاية والأمل) ولم يعرّجوا في الطلب على تقصير .

وها أنا أعرض بعض جملهم فيما يتعلق بمسائل الأصول ، وما يحتاج إليه في صحة الاعتقاد ، على وجه الإيجاز والاختصار إن شاء الله تعالىٰ .

قال أبو بكر الشبلي في توحيد الله عز وجل : الواحد المعروف قبل الحدود وقبل الحروف . وهو تصريح من الشبلي : أن القديم سبحانه وتعالى لا حدّ لذاته ولا حروفَ لكلامه ، فهو قديمٌ مُنَزّهٌ عن الحدوث في ذاته وفي صفاته .

وقال رويم : وقد سئل عن أول فرض افترضه الله عز وجل على خلقه ما هو ؟ فقال : المعرفة بالله تعالى ، لقوله عز وجل : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات :] ، قال ابن عباس : ليعرفون ، فهو إنما خلق العالم ليستدل به عليه ، ولذا قيل : أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه ، فمن عرف نفسه بالحدوث عرف أن ربه قديم ، لوجوب افتقار الحادث إلى محدث قديم .

وقال الجنيد : (إن أول ما يحتاج إليه العبد من عقد الحكمة) أي : اعتقادها ، والحكمة : تقال لإصابة الصواب قولًا وعقداً وفعلاً ، وللعلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه وبما فيها من المصالح ، ولعلم الشرائع (معرفة المصنوع صانعهُ ومعرفة المحدَث كيف كان إحداثه ؟ فيعرف صفة الخالق من المخلوق ، وصفة القديم من المحدث ، ويذل لدعوته ، ويعترف بوجوب طاعته ، فإنّ من لم يعرف مالكه بصفات الألوهية التي من جملتها الملكية المطلقة ، المقتضية لسائر التصرفات الملائمة وغيرها ، لم يعترف بالملك لمن استوجبه) أي : لم يعتقد صحة التصرف في ذاته وروحه وغيرهما لمن وجب له التصرف .

وقال أبو الطيب المراغي : (للعقل دلالة ، وللحكمة إشارة ، وللمعرفة شهادة ، أن صفاء العبادات لا ينال إلا بصفاء التوحيد) فقوله للعقل : هو قوة خلقها الله تعالىٰ يتبعها العلم بالبديهيات عند سلامة الآلات ، يدرك بها صاحبها أنّ صفاء العبادات لا يتم خلوصها لوجه الله تعالىٰ من الرياء وشهود الأعمال والركون إليها . وقوله : للحكمة وهي العلم بحقائق الأشياء وبارتباط الأسباب بالمسببات ، وأسرار انضباط الموجودات ، والعمل بمقتضى ذلك كله ، وهي نوعان منطوق بها ومسكوت عنها ، فالمنطوق بها علوم الشريعة والطريقة ، والمسكوت عنها أسرار الحقيقة .

وسئل الجنيد عن التوحيد ما هو ؟ فقال : إفراد الموحَّد بتحقيق وحدانيته ، بكمال أحديته ، أنه الواحد الذي لم يلد ولم يولد ، بنفي الأضداد والأنداد والأشباه بلا تشبيه ولا تكييف ولا تصوير ولا تمثيل ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ

شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] فهو مفرَدٌ سبحانه وتعالىٰ ، مُنَزَّهٌ سبحانه عن الزمان والمكان والانتقال والحلول .

قال البوشنجي رحمه الله : التوحيد أن تعلم أنه غير مُشَبَّهٍ بالذوات ولا مَنْفِيّ الصفات .

وقال الحسين بن منصور : ألزم الكلَّ الحدثَ لأن القدم ثابت له .

فالمدرَكُ الذي بالجسم ظهوره ، فالعَرَضُ يلزمه لاستحالة خلو الجسم والجوهر عن العرض ، والذي بالأداة اجتماعه فقواها تمسكه ، والذي يؤلفه وقت : (أي : تجتمع أجزاؤه في وقت سبق علمه تعالىٰ باجتماعها فيه) تتفرق أجزاؤه في وقت آخر ، والذي يقيمه غيره (فيكون وجوده بغيره) فالضرورة (أي : شدة الافتقار إلى ذلك الغير) تمسّه ، والذي الوهم يظفر به ويتخيله ، فالتصوير يرتقي إليه ، ومن آواه مَحَلٌ أدركه أين (أي : جاز أن يسأل به عن المكان) ومن كان له جنس طالبه بكيف . (وكل هذه الصفات لوازم الحوادث التي بوضوحها يتحقق القدم لمحدثها جل شأنه) إنه سبحانه لا يظله فوق ، (فليس فوقه شيء ، وهو القاهر فوق عباده بالعظمة لا يماثلهم في شيء) ولا يُقِلُّه تحتٌ ، ولا يقابله حدٌّ (أي : جهة وهو الخالق لهن ولغيرهن) ولا يزاحمه عِنْدٌ (أي : محل) ولا يأخذه خلفٌ ولا يحده (أي : لا يحصره) أمامٌ (ولا غيرها من باقي الجهات) .

ولم يظهره قبلٌ (بل هو ظاهـر قبل وجـود الخلق وبعده) ولم يُفنه بَعدٌ ، (بل هو باق بعد وجود العالم وقبله) ، ولم يجمعه كلٌّ ، (لأنه سبحانه واحد لا يتجزأ فليس مركباً من أجزاء ، لأنه من لوازم الحوادث ، تعالىٰ الله عنها علواً كبيراً) .

ولم يوجده كان ، (فلا يقال في حقه وجد في وقت كذا ، لحدوث الزمان ، فهو موجود دائماً لا أوّل ولا آخر لوجوده ، ولا يقبل الانتفاء لثبوت قدمه تعالىٰ وبقائه) ولم يفقده ليس .

وصفه تعالى : لا صفة له (لعدم تصوره ، فلا يمكن إدراك حقيقة وصفه حتى بكيف) . وفعله لا علة له ولا باعث ولا غرض له (وإن كان فعله لا يخلو عن حكمة ومصلحة يعلمها) كونه لا أمد له (ولا غاية ، فهو سبحانه وجوده لا أول له ولا آخر ، لوجوب القدم والبقاء السرمديين له سبحانه وتعالىٰ) .

تنزه عن صفات خلقه (لاستحالة قيام الحادث بالقديم) ، فليس له من خلقه مزاج ، (فبإيجاده تعالىٰ ليس بالطبع) ، ولا في فعله علاج (بآلة ، أو نحوها كمعين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ [سبأ : ٢٢] . بل فِعله يُوجد بقوله له : كن ، ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٤٠] . ولا يكون بالحرف بل كناية عن سرعة الوجود عند توجُّهِ الإرادة العليّة ، فهو تقريب للعقول القاصرة ، فهي سرعة الوجود لِمَن أراد إيجاده) باينهم بقدمه ، (بل بجميع صفاته ، لما وجب له من مخالفته للحوادث في ذاته وصفاته وأفعاله ، فليس كمثله شيء) . كما باينوه بحدوثهم (بل بجميع صفاتهم . وفيه إبطال لمذهب الاتحاد والحلول ، فلا يعقل اتحاد المتباينين ولا حلول أحدهما في الآخر . فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) .

(إن قلت : متى وُجد ؟ فقد سبق الوقت كونهُ) (أي : وجوده) فلا يقال متى وجد ؟ لأنه سؤال عن وقت وجوده ، وهذا السؤال من الحوادث ، ووجوده تعالىٰ سابق عليها ، كان الله ولا شيء معه ، وهو الخالق المبدع لكل شيء) .

وإن قلت : هو ، (لا يصح أن يخبر به عن كنهه تعالىٰ ، لفساده وبطلانه ، فالهاء والواو خلقه حرفان حادثان لا يصح أن يخبر بهما عن الله أزلًا وأبداً ، لا أن يقال له : هو ، فإنه فاسد ، لوقوعه في القرآن وغيره كثيراً موصوفاً ، قال تعالىٰ : ﴿ هو الأول ﴾ ، وقال : ﴿ وهو الذي خلق السماوات والأرض ﴾ وقال تعالىٰ : ﴿ وهو الغفور الودود ﴾ .

وإن قلت : أين (وجد) ؟ فقد تقدم المكانَ وجوده ، والسؤال عن مكان الوجود من الحوادث ووجوده متقدّم عليه) فالحروف آياته (ودلائله المنزلة على لسان نبيه محمد ﷺ ، التي عجز الخلق عن الإتيان بسورة مثلها) ووجوده إثباته (فاعتقاد وجوده لا يكفي مجرداً عن تحقيق أدلته ، فلا بدّ من إقامة الأدلة على ثبوته ، ولا بُدّ من العلم بوجوده حتى يتخلص المكلف من ربقة الجهالات ويبعد عن طريق المهلكات) .

ومعرفته توحيده (فمن لم يعتقد وحدته تعالىٰ لم يعرفه ، واعتقاد الوحدة له تعالىٰ ذاتاً وصفةً وفعلاً إنما مباينته من مخلوقاته ، بشهود نعوت الكمال له تعالىٰ) فتوحيده تمييزه من خلقه .

ما تصوّر في الأوهام والأذهان فالله بخلافه (فالوهم حصر ، ولا يتخيل ولا يتصور إلا المحصور ، فكل ما يخطر بالخيال والوهم من أحواله تعالىٰ فهو تعالىٰ بخلافه ؛ إذ لا قدرة على تصور ما له تعالىٰ من الأحوال (كل ما خطر في بالك فالله بخلاف ذلك) .

كيف يحل به ما منه بدا من الحوادث ؟ أو يعود إليه ما هو إنشاء منها ؟ (فقيام الحوادث بذاته تعالىٰ مستحيلٌ ، كما أنه لا يعود إليه شيء منها ، فهو الغني المطلَق المفتقر إليه سائر الكائنات) .

لا تماقله العيون (لا تراه العيون بالمقل في جهة من الجهات ، لأنه منزه عنها ، أما رؤيته لا في جهة فجائزة بل واقعة لسيدنا محمد ﷺ في ليلة الإسراء والمعراج ، وفي الآخرة يراه جميع المؤمنين بِإدراكٍ يخلقهُ الله لهم يدركون به ما ليس في جهة ، كما خلق في قلوب العارفين في الدنيا العلم بما ليس في جهة ، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى ، ولا تقابله الظنون .

قربُه (من عبده) كرامته (والإحسان إليه) ، وبعده (عنه) إهانته (له ، لأنه تعالىٰ مُنَزّه عن القرب والبعد في المكان . علوه (علو جلالة وعظمة) من غير توقُّل ، (أي علو مكان لأنه منزه عنه) ومجيئه (مجيء أمره وفضله) من غير تنقل ، هو الأول (قبل كل شيء بلا بداية) والآخر (بعد كل شيء

بلا نهاية ، والظاهر (بالأدلة عليه) والباطن (عن إدراك الحواس) القريب (بكرمه) ، البعيد (بإهانته) ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] .

قام رجل بين يدي ذي النون المصري ، فقال : أخبرني عن التوحيد ما هو ؟ فقال : هو أن تعلم أنّ قدرة الله في الأشياء بلا مزاج (فلا تعليل ولا طبع) وصنعه للأشياء بلا علاج (فلا معالجة ولا سبب ولا وسائط) بل إيجاد الأشياء متوقف على مجرد تعلق إرادته ، وقدرته ، وسبق علمه ؛ وعلة كل شيء صنعه ولا علة لصنعه ، (لأنه منزه عن الأغراض) وليس في السماوات العلا ولا في الأرضين السفلى مُدَبِّرٌ غير الله ، (فالمكونات بأسرها ، وجدت بتدبيره المحكم على وفق سابق علمه الأزلي ، كما أشار إليه الغزالي رحمه الله بقوله : ليس في الإمكان أبدع مما كان) . وكلما تصور في بالك فالله بخلاف ذلك .

قال الجنيد : التوحيد علمك وإقرارك بأن الله فرد في أزليته ، لا ثاني معه ، ولا شيء يفعل فعله ، فالله فردٌ في أزليّته ، لأنه كان ولا شيء معه ، والأزلية ما لا افتتاح له ، بخلاف ما لا يزال فإنه الزمن المتجدد ، ولا يفعل غيره فعله ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٩٦] .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : الإيمان : تصديق القلوب بما أعلمه الحق لِنَبيّه من الأحكام والشرائع ، وإذعانُها بما جاء به النبيّ ﷺ ، مما سبيله الوحي من الغيوب التي أطلعت عليها ، ولم تُعْلَم إلّا بواسطته عليه الصلاة والسلام .

قال أبو العباس السياري : عطاؤه سبحانه على نوعين : كرامة ، واستدراج ، فحذار من الاغترار .

فما تفضَّل به عليك أيها المؤمن من التوفيق والقيام بأنواع الطاعات منقسم إلى نوعين باعتبار شهودك : فما أبقاه عليك بحفظه إياك من الاعتماد عليها ، ورؤيته بالاستناد إليه بدوام خوفك ورجائك فهو كرامة لك ، وما أزاله عنك اغترارك ووقوفك مع العمل فهو استدراج لك وإهانة .

وإن من الأمارات على صحة العمل وقبوله ، دوام الخوف مع اللجوء إلى الله تعالىٰ ، فإن تم هذا للعبد كان العطاء كرامة ، وبالضد يعلم حكم ضده .

فالأفعال كلها خيرها وشرها من الله ، باعتبار نظر الشرع ، قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء : ٧٨] وقوله عز وجل : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال : ١٧]، وقوله جل جلاله: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٩٦] ، خلافاً للمعتزلة القائلين بأن الأفعال الاختيارية بقدرة العبد ، وذلك ضلال .

وإذا أخبرت عن نفسك بالإيمان فقل : أنا مؤمن إن شاء الله ، كما روي عن ابن مسعود ، نظراً إلى العاقبة المجهولة ، لا إلى الحال الراهنة ، أو إلى كمال الإيمان ، أو التبري من الحول والقوة ، أو ذكرها أدباً مع الله تعالىٰ ، لا إن قصد الحال الراهنة ، معتبراً أصل الإيمان ، لأنه يكون حينئذ شاكاً وذلك كفر .

وقال أبو بكر الواسطي : من قال أنا مؤمن بالله حقاً ، قيل له : الحقيقة تشير إلى إشراف واطلاع على المغيّبات ، وإحاطةٍ بها ، فمن فقده بطل دعواه فيها . يعني أن الإيمان المجرّد عن النظر الصحيح المؤدي إلى التصديق بكل ما جاء به النبي ﷺ ، ومما جاء به الأنبياء والمرسلون ، وبالملائكة ، واليوم الآخر ، وبالقدر خيره وشره منه تعالىٰ ، لا ينفع ، لأن صاحبه إما شاكٌّ وإما منافق ، وكل من الهالكين ، ومن لم يحصل له اعتقاد صحيح مستند إلى نظر قوي بطلت دعواه بأنه مؤمن بالله حقاً ، بل هو في هذه الحالة إما شاكٌّ وإما منافق ، ودعواه غير صحيحة بأنه مؤمن حقاً ، وعليه يحمل قول ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما : من قال أنا مؤمن حقاً فهو كافر حقاً . وأما من علم علماً جازماً لا تردُّدَ معه أن الإيمان هو أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، كان محكوماً له بالجنة ، ودعواه صحيحة بأنه مؤمن حقاً . نعم إن قصد رتبة الكمال كما في قوله تعالىٰ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنفال : ٤] ، فهو تزكية للنفس ، وعليه يحمل قول سفيان

الثوري : قول المؤمن أنا مؤمن حقاً بدعة . أما من قال : أنا مؤمن في علم الله ، أو عند الله ، فإن قصد الحال أو الماضي لم يمتنع ، أما إذا قصد المستقبل امتنع ، لأنه يجهل خاتمة أمره في علم الله .

وقال سهل : ينظر إليه المؤمنون في الآخرة بالأبصار ، من غير إحاطة ولا إدراك نهاية ، (وعليه حمل قوله تعالىٰ : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] ، أي : إدراك إحاطة ونهاية ، لأن ذلك إنما يكون في محصور وهذه صفة الأجسام ، وهو تعالىٰ منزّه عن ذلك ، فرؤيته تعالىٰ بالأبصار في الدنيا للنبي ، وفي الآخرة على هذا الوجه جائزة وثابتة) .

قال الجنيد : سئل بعض العلماء عن التوحيد ، فقال : هو اليقين (وهو جزم القلب وإذعانه ، بما يجب له سبحانه وتعالىٰ وما يجوز ، وما يستحيل ، عن دليل وبرهان) . فقال السائل : بيّن لي ما هو ؟ فقال : هو معرفتك أن حركات الخلق وسكونهم فعل الله عز وجل وحده لا شريك له ، فإذا فعلت ذلك فقد وحّدته ، أي : (اعتقادك أن جميع ما يصدر عنهم من خير أو شر فعل الله وحده في الحقيقة ، وإن نسب إليهم بحكم الشريعة) .

وقال الواسطي : ادعى فرعون الربوبية على الكشف (الصريح ، حيث قال : أنا ربكم الأعلى) وادعت المعتزلة القدرية ذلك على الستر ، لأنها تقول : ما شئتَ فعلتَ ، فادعت الربوبية بأفعالها .

(يريد أن مآل ما ذهبت إليه المعتزلة حيث قالوا بخلقهم أفعالهم الاختيارية إلى مذهب فرعون ، وهو لازم لمذهبهم ، وعين ما ذهب إليه فرعون ، ومن أجل ذلك كان كفره متفقاً عليه ، بخلافهم ، فلم يثبتوا شريكاً في الألوهية بمعنى وجوب الوجود كالمجوس ، ولا بمعنى استحقاق العبادة كعبدة الأوثان ، بل لا يجعلون خالقية العبد كخالقية الله تعالىٰ ، لافتقاره إلى الأسباب والآلات التي هي بخلق الله تعالىٰ) .

وقال أبو الحسين النوري : التوحيد : كل خاطر يشير إلى الله تعالىٰ بعد أن لا تزاحمه خواطر التشبيه ، (والتوحيد إفراد الموحّد الحق بكل ما هو فيه ، فهو

يرى حركاته وسكناته المتعلقة بجوارحه الظاهرة والباطنة به تعالىٰ ، بل يراها منه فناء في أفعاله تعالىٰ) .

وقال أبو علي الروذباري : التوحيد : استقامة القلب بإثبات مفارقة التعطيل وإنكار التشبيه . والتوحيدُ : كل ما صوَّرته الأوهام والأفكار فالله سبحانه بخلافه ، لقوله تعالىٰ ﴿ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] .

قال الجنيد : متى يتصل مَن لا شبيه له ولا نظير ، بمن له شبيه ونظير ، هيهات ! هذا ظن عجيب ؛ إلا بما لطف اللطيف ، من حيث لا درك ولا وهم ولا إحاطة إلا إشارة اليقين ، وتحقيق الإيمان .

فمعنى الوصول إليه سبحانه : ليس بالحس والقرب المعهودين ، بل هو كناية عن قوّة الإيمان ورسوخ اليقين بمشاهدة ومراقبة رب العالمين . فالوصول الممكن للعبد : هو شموله بالعناية الإلهية والألطاف الخفية ، حتى يتخلى عن المشغلات ، ويتجلى بالطاعات ، فيصل بذلك إلى درجة الإحسان ، فسبب الوصول إليه سبحانه لطفه بتوفيق عبده ، للقيام به من التخلية والتحلية ، بدوام المراقبة في جميع الحركات والسكنات .

سئل يحيى بن معاذ : أخبرني عن الله عز وجل ؟ فقال : إله واحد ، (أي : هو الموجد للعالم المنفرد في ذاته وصفاته وأفعاله لا شريك له في الملك) فقيل له : كيف هو ؟ فقال : ملك قادر . أي : (هو المتصرف في جميع الكائنات القادر على إيجادها وعلى إعدامها بقدرته الباهرة) فقيل له : أين هو ؟ فقال : بالمرصاد ، أي (هو المراقب لأعمال العباد المحصي لها ، لا يفوته شيء منها) .

(فسلك بالسائل طريق الأدب ، فقد سأل عن حقيقة الله وكنهه وبيان كيفيته وحالته ، فأجابه بأنه لا يسأل عن الحقيقة والكنه ، ولكن يسأل عن صفة الله وفعله ، ولذا أجابه بما له سبحانه من الصفات ، كما أفاده خبر : « لا تُفكّروا في ذات الله . . . » الحديث) .

فقال له السائل : لم أسألك عن هذا ! فقال له : كل ما كان غير هذا الذي أخبرتك به مما هو ظاهر سؤالك عن الماهية والكيفية ، والمكان المنزه عنه تعالىٰ ، كان صفة المخلوق ، فأما صفته تعالىٰ فما أخبرتك عنه . (ومثل ذلك ما صدر من فرعون لموسى ، لما سأله عن الماهية بقوله: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٣] فأجابه بأفعاله الدالة عليه حيث قال : ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ . . ﴾ الآية [الشعراء : ٢٤]) .

وسأل إبراهيم بن شاهين الجنيد عن معنى (مع) في قوله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ ﴾ [الحديد : ٤] وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ﴾ [النحل : ١٢٨] فقال : مع في ذلك على معنيين : أحدهما النصرة ، والآخر العلم ، وتستحيل معنى المصاحبة أو المجاورة أو المداراة ، فهو تعالىٰ مع الأنبياء بالنصرة والكلاءة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٤٦] ومع العامة بالعلم والإحاطة . فقال ابن شاهين : مثلك يصلح أن يكون دالّاً للأمة على الله .

وسئل ذو النون المصري عن قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] فقال : أثبت ذاته (بدلالة قوله الرحمن) ، ونفى مكانه (بدلالة العقل ، لأنه ثابت قبل العرش وغيره من سائر الخلق) فهو موجود بذاته ، (غير مفتقر إلى خلقه . والأشياء المخلوقة موجودة بحكمته كما شاء سبحانه ، فهي مفتقرة إليه) .

(وللفظ ﴿ ٱسْتَوَىٰ ﴾ محامل : جلس واعتدل ، واستولى ، وعلا مكاناً أو رتبة ، وقصد ، كقوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة : ٢٩] أي : قصد إلى فعل أمرٍ فيها) .

فجلس واعتدل وعلا مكاناً محال في حقه تعالىٰ ، واستولى وعلا رتبةً ، وقصد ، جائز في حقه تعالىٰ .

وسئل الشبلي عن قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] فقال : الرحمن لم يزل (قديماً) ، والعرش محدث ، والعرش بقدرة الرحمن

استوى ، (فهو تعالىٰ مستغن عنه وعن غيره ، وإنما خلقه إظهاراً لعظمته لا مكاناً لذاته ، لتعاليه عن ذلك) .

وسئلت أم سلمة عن قوله تعالىٰ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] فقالت : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والجحود له كفر ، والسؤال عنه بدعة ، (لأننا نهينا عن التفكر بذاته في صحيح الخبر) .

(فمعنى غير معقول لأنه من متعلقات الكنه ، ومعنى غير مجهول باعتبار معناه ، فالذي يصح من معناه يحمل عليه ، وما لا فلا) .

وقال جعفر الصادق رحمه الله : من زعم أن الله في شيء ، أو من شيء ، أو على شيء ، فقد أشرك . إذ لو كان على شيء لكان محمولاً ، ولو كان في شيء لكان محصوراً ، ولو كان من شيء لكان محدَثاً ، (واللوازم باطلة لأنها تدل على الجسمية ، والقول بها في حقه كفر) .

وقال أيضاً في قوله تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ [النجم : ٨] : من توهَّم أنه ﷺ بنفسه دنا من ربه جعل ثَم مسافةً بينهما ، وهو تعالىٰ منزه عنها ، إنما التداني أنه كلما قرب منه بقلبه برؤيته ، ومناجاته له ، وامتلاء قلبه بذكره ، بحيث غاب عن جميع الخلق ، بعّده عن أنواع المعارف المتعلقة بالحوادث .

فإن من كمل شغله بجلال الله وكماله ، بَعُدَ قلبه عن ذكر غيره ، بل عن ذكر نفسه وإحساسه بكونه ذاكراً .

قيل لصوفي : أين الله ؟ فقال للسائل : أسحقك الله ، (أي : غيبك عن نفسك ، فهو دعاء له بالفناء عما سوى الله) تطلب مع العين أين ؟ (فكان متحققاً بالحضور ، بحيث لا يرى في كل متحرك ، ولا ساكن ، إلا الله . فالسحق : مَن شغله الله بذكره عن نفسه ، وبقيت فيه بقيّة يتنعّم بها . والمحق أتم من السحق) .

من شغله الله بذكره عن نفسه ، ولم تبق فيه بقية يتنعّم بها . فهو فناء العبد

في ذات الحق ، وفناء أفعاله في فعل الحق ، فالأول لا يرى لشيء حقيقة إلا للحق ، والثاني لا يرى وجوداً إلا للحق .

قال أبو سعيد الخراز : حقيقة القرب بالقلب من الله تعالىٰ فَقْدُ حس الأشياء المخلوقة من القلب ، فيرى اتصال مدد الوجود ونفس الرحمن إليه ، على الدوام بلا انقطاع ، حتى يبقى موجوداً معدوماً بنفسه ، وحتى لا يرى غيره لغيبته عن الكل ، فلا التفات لغيره ، بل ميله دائماً إلى كل ما يصدر عنه تعالىٰ باعتبار أنه مراده ، وهدوُّ الضمير إلى الله تعالىٰ ، لأنه إذا امتلأ قلب العبد بذكر الله تعالىٰ ومناجاته ، فقدَ حِسّ غيره من قلبه .

فائدة : قال بعضهم : حقيقة القرب الوفاء بالعهد السابق بين العبد وربه ، المذكور في قوله جل ذكره : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

قال إبراهيم الخوَّاص : انتهيت إلى رجل وقد صرعه الشيطان ، فجعلت أؤذن في أذنه ، فناداني الشيطان من جوفه ، دعني أقتله فإنه يقول : القرآن مخلوق . ففيه كلام الجن لبني آدم وهو جائز ، ولكنه من خوارق العادات ، وفيه أن القرآن يدل على مثل ما دلَّت عليه الصفة القديمة .

وقال ابن عطاء : إن الله تعالىٰ لما خلق الأحرف في الهواء جعلها سراً له ، فلم يطلع عليها أحداً غير جبريل حين نزل بها ، لإفهام معانيها القائمة بذاته تعالىٰ ، فلما خلق آدم عليه السلام بثَّ فيه ذلك السرّ ، أي : جعل فيه تلك الحروف وأظهرها له ، ولم يبث ذلك السرّ في أحد من الملائكة ، فجرت الأحرف على لسان آدم عليه السلام ، بفنون الجريان ، وفنون اللغات ، قال تعالىٰ : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] فجعلها الله تعالىٰ صوراً لها ، أي : فجعلها قوالب لمعانيها ، بأن تفهم معانيها منها ، فقد صرّح ابن عطاء بالقول بأن الحروف مخلوقة .

قال سهل بن عبد الله : إنّ الحروف لسان فعل لا لسان ذات ، فهي دالة على الفعل لا على الذات ، فهي ليست صفة حقيقية قائمة في ذات الفاعل . فهو تصريح من سهل بأنها مخلوقة ، وفي هذا ردّ على من زعم أن الله يتكلم

بالحروف والأصوات .

وقال الجنيد في جوابات مسائل الشاميين : التوكل عمل القلب ، والتوحيد : قول القلب ، ومعنى عمل القلب فعلُه ، لأنه التفويض إلى من له الأمر كله ، وإنما اللسان ترجمان . ومعنى قول القلب : أي لأنه قول القلب : أذعنت وصدقت بأنه إله واحد في ذاته وصفاته وفعله . والمتوكل من يرى الحق في صور الأسباب ، فاعلاً مختاراً لجميع الأشياء التي ينسبها المحجوبون إليها ، فهو يكل الأمر إلى من له الأمر ، ويرضى به وكيلاً .

وقال أهل الأصول : إن الكلام حقيقة هو المعنى الذي قام بالقلب من معنى الأمر والنهي والخبر والاستخبار . وكلام اللسان مجاز ، وقيل : مشترك بينهما ، وبكلِ حال فالكلام يطلق عليهما ، قال تعالىٰ : ﴿ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ ﴾ [المجادلة : ٨] أي : بألسنتنا مما يخالف الحق ، فجعل القول في النفس واللسان جميعاً .

وقال الجنيد : تفرّد الحق بعلم الغيوب ، فعلم ما كان وما يكون ، وما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون . فقد تعلَّق علمه بالواجب والجائز والمستحيل .

وقال الحسين بن منصور : من عرف الحقيقة في التوحيد ، (بأن عرف إفراد الله تعالىٰ ذاتاً وصفة وفعلاً ، وأنه لا يتغير معلوم ، ولا يتبدل مقسوم) ، سقط عنه الاعتراض على ما يشاهده بِلِمَ كان كذا ؟ أو كيف كان كذا ؟ وأنه لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون .

قال الجنيد : أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد ، أي : التفكر في مجالي الأسماء والصفات ذاتية ، وهي ما لا يتوقف على وجود الغير وإن توقفت على اعتباره ، أو كانت غير ذاتية ، وغرضه ـ نفعنا الله به ـ الحث على التفكر فيما له سبحانه من الأسماء والصفات ، والآثار المصنوعات ، ولا يخفى أن الأشرف التفكر في المصادر والتفكر في عظمة الله ، وجلاله ، ووحدانيته ، في قدمه وبقائه واستغنائه عن خلقه ونحو

ذلك ، أشرف من تفكره في الجنة ، وما فيها من الخيرات ، أو في النار ، وما فيها من أنواع العذاب . والجنات أربع : جنات الأفعال وهي صورية ، إذ هي من جنس الملاذ والمشتهيات ، جعلت بإزاء الخيرات وهي المرادة هنا ، وثانيها : جنات الوراثة ، وهي جنة الأخلاق الحاصلة بمتابعة سيد الكمّل ﷺ ، وثالثها : جنة الصفات ، وهي الجنة المعنوية تحصل من تجلي الصفات والأسماء الإلهية وهي جنة القلب ، ورابعها : وجنة الذات ، وهي من مشاهدة الجمال الأحدي ، وهي جنة الروح ، والله أعلم .

٣ ـ عقائدهم :

قالوا في التوحيد : إن الحق سبحانه وتعالىٰ موجود ، (لأنه الموجد لغيره ، فوجود الغير دليل على وجوده ، إذ لا بد لكل حادث من محدث بالضرورة) قديم (لا أول لوجوده ، يعني : لا افتتاح لوجوده ، وهو ثابت له تعالىٰ) واحد (لا مثل له ، يعني في الألوهية) حكيم (ذو حكمة ، والحكمة وضع الشيء في موضعه ، أو هي الإحكام والإتقان ، وهي صفة ذات ، فهو تعالىٰ صاحب حكمة) قادر (لا يعجزه شيء على إيجاد أو إعدام كل ممكن) عليم (لا يعزب عن علمه شيء ، وهو ذو علم كشفي عام بلا تعمل وفكر ، فمن تجلَّى له الله تعالىٰ من العبيد بهذا الاسم رزق مثل هذا العلم بالصفاء الفطري ، وتأييد النور القدسي .

قال ابن الحاجب : أصح الحدود فيه : إنه صفة توهب تمييزاً لا يحتمل النقيض ، وهو يتعلق بالواجبات والجائزات والمستحيلات جميعها) .

قاهر (أي : غالب لمن رأوه ، ويهزم كل من بارزه وعاداه ، فهو يؤثر في الأكوان ولا يتأثر منها) رحيم (بعباده ، هو الذي تختص رحمته بمن اتقى وأصلح ، كما أن الرحمن هو الذي تعمُّ رحمته العالمين ، فلا يخرج أحد عن رحمته بحسب قابليته) .

مريد (لما يكون ، ولما يشاء) سميع (لجميع ما يقال) مجيد (كريم رفيع ، أي : المكانة لا المكان ، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً) متكلم

(بكلام نفسي) بصير (لجميع العالم ، والسمع والبصر صفتان ينكشف بهما سائر الأشياء انكشافاً تاماً ، زائداً على الانكشاف الحاصل بالعلم مغايراً له) . متعظم (متكبر ، متعال على غيره) قدير (على كل ممكن) حي (لا يموت ، والحياة صفة تصحيح لمن قامت به العلم والقدرة والإرادة وغيرها من الصفات) أحد (بمعنى واحد ، فهو اسم للذات باعتبار انتفاء تعدد الأسماء والصفات والنسب والتعينات عنها ، فمفهومه غيب في هويته ، ومظهره الذاتي متلاش فيه سائر الكائنات) .

باق (على الدوام فلا يلحقه العدم ، والذي لا يلحقه العدم ثابت ، لأن سلب العدم ثبوت) .

صمدٌ : (مقصود في الحوائج على الدوام ، لأن بديهية العقل جازمة بأن الله تعالىٰ مُحدِث للعالم على هذا النمط البديع ، مع ما يشتمل عليه من الأفعال المتقنة ، لا يكون بدون هذه الصفات ، على أن أضدادها نقائص يجب تنزيه الله عنها . وقيل صمد : معناه من لا جوف له) .

وأنه تعالىٰ عالم بعلم ، (والعلم صفة أزلية تكشف المعلومات عند تعلقها بها ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ ﴾ [البقرة : ٢٥٥]) . قادر بقدرة (وهي صفة له تعالىٰ يتأتى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه على وفق إرادته) مريد بإرادة (التي هي صفة أزلية ، يتأتى بها تخصيص كل ممكن بالجائز المخصوص بدلاً عن تقابله ، ولا يخفى أن لها تعلقين كما أن للإرادة ثلاثة ، وهي للتأثير ، كما أن الإرادة للتخصيص ، قال عليه الصلاة والسلام : « أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » .

هي الإرادة مرادفة للمشيئة في أن كلاً منهما للتخصيص بالإيجاد والإعدام، وقيل : إن المشيئة لا تتعلق إلا بالإيجاد ، وإفادة الشيئية التي هي الوجود ، فالإرادة أعم منها) .

سميع بسمع (السمع صفة أزلية التعلق بالمسموعات ، قالت عائشة : الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات) .

بصير ببصر (هو صفة أزلية تتعلق بالمبصرات ، فتدرك إدراكاً تاماً لا على طريق التخيل ، ولا على طريق تأثر حاسة ووصول هواء) .

متكلم بكلام (منزه عن الحروف والأصوات ، والتقديم والتأخير ، إذ لو اتصف بشيء مما ذكر لزم أن يكون حادثاً ، وحدوث الصفة يوجب حدوث الموصوف) .

حي بحياة ، (وهي صفة أزلية تحجب صحة العلم والقدرة والإرادة وغيرها من الصفات) .

باق ببقاء ، (وهو صفة أبدية قائمة ، لا آخر لوجودها ، يعني يجب له تبارك وتعالىٰ أن يكون غير قابل للعدم في الأزل ، وذلك يعني القدم ، ولا فيما يزال ، وهو معنى البقاء ، إذ لو كان قابلاً للعدم لما كان واجب الوجود ، بل كان جائزه فيفتقر إلى المحدِث فيكون حادثاً ، وذلك مستحيل) .

وله يدان (قال تعالىٰ : ﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح : ١٠] . وقال تعالىٰ : ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : ٧٥] لا بمعنى الجارحة ، لاستحالتها في حقه والله أعلم بمراده بهما) فهما صفتان يخلق بهما ما يشاء سبحانه على التخصيص . (خلق آدم بقدرته ونعمته) .

وله الوجه ، (قال تعالىٰ : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص : ٨٨] لا بمعنى الجارحة ، بل بمعنى الذات ، أي : إلا ذاته ، وصفات ذاته ، مختصة بذاته ، لا تجاوزه إلى غيره ، لأنها قديمة ، والقديم لا يقوم بحادث) .

لا يقال هي (أي : صفاته) هو ، ولا هي أغيار له ، (أي : ليست عينه ولا غيره ، لأن من قال : هي هو ، فقد نفى الصفات .

ومن قال هي غيره ، فقد جوّز مفارقتها له ، فلا تكون قديمة مع أنها قديمة ، فهي غير منفكة عن الذات ، لازمة لها) فهي صفات له ، أزلية قديمة ، ونعوت له سرمدية دائمة ، (ولا استحالة في تعدد قدماء من ذات

وصفات ، إنما المستحيل تعددها من ذوات) فهو سبحانه وتعالىٰ أحدي الذات ، ليس يشبه شيئاً من المصنوعات ولا يشبهه شيء من المخلوقات .

وزعم الكرّامية أن صفاته تعالىٰ حادثة .

وخرج بصفات الذات صفات الأفعال ، كالخلق ، والرزق ، فليست أزلية ، وقال الحنفية : إنها صفات قديمة .

ليس بجسم ، ولا جوهر ، ولا عرض ، ولا صفاته أعراض ، لما في ذلك من الحدوث المنزه عنه ذاته تعالىٰ ، وصفاته ، إذ الجسم متركب ومتحيز ، والجوهر اسم للجزء الذي لا يتجزّأ ، وهو متحيز ، وكل من الجسم والعرض لا يقوم بذاته ، بل يفتقر إلى مَحَلٍّ يقوم به ، فيكون ممكناً وكل ذلك أمارات الحدوث .

ولا يتصور في الأوهام ، لأن التصور حصر ، ولا يكون إلا للحادث ، ولا يتقدر في العقول ، لأن ذلك من خواص الأجسام . ولا له جهة ولا مكان ولا يجري عليه وقت وزمان ، فلو كان له مكان فإما في الأزل ، فيلزم قدم الحيّز ، أو لم يكن له ، فيكون محلاً للحوادث ، والزمان عند المتكلمين عبارة عن متجدد يقدر به متجدد آخر ، والله تعالىٰ منزه عن ذلك . ولا يجوز في وصفه زيادة ولا نقصان ، لأن صفاته لا تتبدّل ولا تتغير ، ولا يخصه هيئة ، أي : كيفية وقَدّ ، أي : مقدار ، ولا يقطعه نهاية وحدّ ، ولا يحلّه حادث ، ولا يحمله على الفعل باعث ، ولا يجوز عليه لون ولا كون ، ولا ينصره مدد ولا عون ، لما في ذلك من الحدوث .

لا يخرج عن قدرته مقدور ، ولا ينفك عن حكمة تكوينه وإيجاده مفطور ، ولا يعزب عن علمه معلوم ، ولا هو على فعله كيف يصنع وما يصنع ملوم ، لا يقال له أين هو ؟ ولا حيث هو ؟ ولا كيف هو ؟ لأنه منزه عن المكان والكيفية ، ولا يستفتح له وجود فيقال : متى كان ؟ ولا ينتهي له بقاء فيقال : استوفى الأجل والزمان ، ولا يقال : لم فعل ما فعل ؟ إذ لا علة لأفعاله ، ولا يقال : ما هو ؟ إذ لا جنس له فيتميز عن أنواعه ، بأمارة عن أشكاله

وأمثاله ، فلا تعرف ماهيته فيسأل عنها ، ولذلك قال فرعون لموسى : ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣] ؟ أجابه بالصفة فقال : ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الشعراء : ٢٤] ، فتعجب فرعون وقومه من عدوله إلى ما لا يطابق السؤال ! فقال لمن حوله : ألا تستمعون ؟ ولم يعلم لغباوته أنه المخطىء في سؤاله عن ماهيته ، وأن الذي أتى به موسى في الجواب هو أقصى ما يمكن ، فلما أصرَّ موسى على جوابه بالصفة ثانياً نسبه فرعون إلى الجنون ، وإنما الخطأ والجنون في مقالته هو .

يرى لا عن مقابلة ، وقوله تعالىٰ ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] أي : لا تحيط به كما تحيط بغيره ، ويرى غيره لا عن مماقلة ، فهو منزه عن المقلة ، ويصنع لا بمباشرة ومزاولة ، له الأسماء الحسنى والصفات العلا ، يفعل ما يريد ويَذِلُّ لحكمه العبيد ، لا يجري في سلطانه إلا ما يشاء ، ولا يحصل في ملكه من إيمان وكفر غير ما سبق به القضاء ، وهو إرادته الأزلية المتعلقة بالأشياء ، لو كان الكفر بقضاء الله لوجب الرضا به من حيث كونه مقضي لا من حيث كونه كفر ، فالعبد يرضى بالكفر من حيث إنه فعل الله ومراده ، ويكرهه وينكره ، من حيث كونه كسباً للعباد .

وقد فعلوه باختيارهم ، لأن الله تعالىٰ لم يكلِّفهم إلا بما يطيقون ، بعد أن نصب لهم الأمارات والدلائل ، وأزاح عنهم العلل والآفات .

مبدع ما في العالم من الأعيان والآثار ، قليلها وكثيرها ، ومرسل الرسل إلى الأمم ، من غير وجوب عليه ، متعبد الأنام على لسان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما لا سبيل لأحد باللوم والاعتراض عليه .

ومؤيدُ نبينا محمد ﷺ بالمعجزات الظاهرة والآيات الزاهرة ، بما أزاح به العذر وأوضح به اليقين والذكر ، وحافظ بيضة الإسلام بعد وفاته ﷺ بخلفائه الراشدين ، ثم حاز من الحق وناصره ، بما يوضحه من حجج الدين على ألسنة أوليائه ، عَصَم الأمة الحنيفية عن الاجتماع على الضلالة ، وحسم مادة الباطل بما نصب من الدلالة ، وأنجز بما وعد من نصرة الدين بقوله

﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٣] .

٤ ـ من أين جاء التصوف ؟.

قال القشيري في رسالته : اعلموا رحمكم الله تعالىٰ أن المسلمين بعد رسول الله ﷺ لم يتم أفاضلهم في عصرهم بتسمية سوى صحبة الرسول ﷺ ، إذ لا فضيلة فوقها ، فقيل لهم : الصحابة .

ولما أدركهم أهل العصر الثاني سمي من صحب الصحابة التابعين ، ورأوا أن ذلك أشرف سمة ، ثم قيل لمن بعدهم : أتباع التابعين ، ثم اختلف الناس بعدهم ، فقيل لخواص الناس ـ ممن لهم شدة عناية بأمر الدين ـ الزهاد والعباد ، ثم ظهرت البدع ، وحصل التداعي بين الفِرَق ، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهّاداً ، فانفرد خواصُّ أهل السنة ، المراعون أنفاسهم مع الله ، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم التصوف ، فقيل لهم : صوفيّة .

٥ ـ تعريف التصوف :

التصوف : علم تعرف به أحوال تزكية النفوس ، وتصفية الأخلاق ، وتعمير الظاهر والباطن ، لنيل السعادة الأبدية . وموضوعه : التزكية والتصفية . وغايته : نيل السعادة الأبدية . ومسائله : ما يذكر فيه من المقاصد .

وهذا العلم نتيجة العمل المشار إليه بخبر : « من عمل مما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم » . والمشار إليه بقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] وهو الفقه في الدين .

وعلم التصوف : علم الحكمة التي من أوتيها فقد أوتي خيراً كثيراً .

قيل للحسن البصري : كذا قال الفقهاء . فقال : وهل رأيت فقيهاً قط ؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا ، القائم ليله ، الصائم نهاره ، الذي لا يُداري ولا يُماري ، ينشر حكمة الله ، فإن قبلتَ منه حمد الله ، وإن رددتَ عليه حمد الله .

واشتهر اسم التصوف على هذه الطائفة بعد المئتين من الهجرة .

* * * *

الكِتَابُ الثَّاني

رِجَالُ الصُّوفِيَّة



رِجَالُ ٱلصُّوفِيَّة

١ ـ **منهم** : أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم : كان يأكل من عمل يده ، وكان يقول : أطب مطعمك ولا حرج عليك ألا تقوم الليل ولا تصوم النهار . وقيل : كان عامة دعائه : اللهم انقلني من ذلِّ معصيتك إلى عزِّ طاعتك ، وكان شديد الحفظ على الأمانة يتحمل في سبيلها الآلام ؛ حفظ يوماً كَرْماً لأحدهم ، فمر به جندي فقال : أعطنا من هذا العنب ، فقال : ما أمرني به صاحبه ، فأخذ يضربه بسوطه حتى تعب الجندي من ضربه ومضى ، وكان جواداً كريماً متفتياً على الإخوان ، ينفق عليهم من ماله ، وكان أجود من حاتم طيء ، فقد كان له نصيب وافر من اسمه .

٢ ـ **ومنهم** أبو الفيض ذو النون المصري . وشَوا به إلى المتوكل ، فاستحضره من مصر ، فحضر ، فلما دخل عليه وعظه ، فبكى المتوكل ، وردَّه إلى مصر مكرّماً ، وكان المتوكل إذا ذكر بين يديه أهل الورع ، يبكي ويقول : إذا ذكر أهل الورع فحيهلا بذي النون . قال ذو النون : مدار الكلام على أربع ، حب الجليل ، وبغض القليل ، أي : الدنيا ، واتباع التنزيل ، وخوف التحويل . يعني : إن الصالحين إذا تكلموا فكلامهم في معرفة الله ، أو تصغير الدنيا والإعراض عنها ، أو فيما جاءت به الشرائع ، أو فيما يخاف منه التغيير والتحويل بعد الاستقامة . ومن كلامه رضي الله عنه : من علامات المحب لله عز وجل متابعة حبيب الله ﷺ ، في أخلاقه وأفعاله ، من حلم وعفو وكرم وغيرها ، وأوامره وسننه، قال تعالىٰ: ﴿ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

وسئل عن السفلة من هم ؟ فقال : من لا يعرف الطريق إلى الله عز وجل ولا يتعرفه .

من كلامه رضي الله عنه : لا تسكن الحكمة معدة ملئت طعاماً . لأن كثرة الأكل توجب قسوة القلب وظلمته ، وينشأ عن ذلك فتور الجوارح عن العبادة ، وزيادة الغفلة ، ويتوصل إلى الحكمة بالجوع الموجب للنشاط في العبادة ، والمؤثر في تنوير القلوب حتى تدرك جواهر العلوم ، التي لا تقبل تغييراً ولا تبديلاً .

وسئل ذو النون عن التوبة ، فقال : توبة العوَّام تكون من الذنوب ، وتوبة الخواص تكون من الغفلة ، فالتوبة الأولى قال الله تعالىٰ فيها : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٣١] . والثانية : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [التحريم : ٨] أي : خالصة له وتوبة الأخص وهي خواص الخواص من رؤية الحسنات والالتفات إليها .

٣ - **ومنهم : أبو علي الفضيل بن عياض** . ولد بسمرقند وتوفي بمكة سنة سبع وثمانين ومئة .

كان قاطع طريق ، عشق جارية ، فبينما هو يرتقي الجدران إليها ، سمع تالياً يتلو : ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحديد : ١٦] فقال : يا رب قد آن ، فتاب الفضيل ، وجاور الحرم حتى مات .

قال الفضيل : إذا أحبَّ الله عبداً أكثر غمه بتذكر آخرته ، وتقصيره في أمر دينه ، وعدم نهضته لطاعة ربه عند نفسه ، وإذا أبغض عبداً ، وسّع عليه في دنياه ، وشغله عنه بحبه لها .

ومن كلامه رضي الله عنه : ما أدرك عندنا من أدرك بكثرة صلاة ولا صيام ، ولكن بسخاء النفس ، وسلامة الصدر ، والنصح للأمة . وكان أكثر الناس حزناً في وقته .

قال ابن المبارك : إذا مات الفضيل ارتفع الحزن .

وقال الفضيل : لأن أحلف أني مراء أحب إليّ من أن أحلف أني لست بمراء ، خوفاً من عدم السلامة من شيء من مراتب الرياء ، باختلاف مراتب

الصالحين ، لأن حقيقة الرياء التفات في الطاعات إلى ثواب غير الله .

وقال الفضيل : ترك العمل لأجل الناس رياء ، والعمل لأجل الناس شرك .

وقال أبو علي الرازي : صحبت الفضيل ثلاثين سنة ، ما رأيته ضاحكاً ولا مبتسماً ، إلا يوم مات ابنه عليٌّ ، فقلت له في ذلك ، فقال : إن الله أحب أمراً فأحببت ذلك .

وقال الفضيل : إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي .

٤ ـ **ومنهم : أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي** . كان من المشايخ الكبار مجاب الدعوة ، يستشفى بقبره . يقول البغداديون : قبر معروف ترياق مجرّب ، وهو من موالي علي بن موسى الرضا رضي الله عنه ، مات سنة مئتين ، أسلم على يدي مولاه ، وأسلم أبواه بإسلامه ، وكانوا على دين النصرانية .

قال سري السقطي : رأيت معروفاً الكرخي في النوم ، مكانه تحت العرش ، فيقول الله عز وجل لملائكته : من هذا ؟ فيقولون : أنت أعلم به يا رب . فيقول : هذا معروف الكرخي ، سكر من حبي فلا يفيق إلا بلقائي .

من كلامه رضي الله عنه : حقيقة الوفاء إفاقة السرّ من رقدة الغفلات ، وفراغ الهمّ من فضول الآفات . وقال : طول الأمل يمنع خير العمل ، وقال : من قال كل يوم عشر مرات : اللهم أصلح أمة محمد ، اللهم فرج عن أمة محمد ، اللهم ارحم أمة محمد ، كتب من الأبدال .

وقال : طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب ، وانتظار الشفاعة بلا سبب ، نوع من الغرور ، ورجاء رحمة من لا يطاع ، جهل وحمق .

وقال : ما أكثر الصالحين ، وأقل الصادقين منهم ، وقال : إذا عمل العالم بعلمه ، استوت له قلوب المؤمنين ، فلا يكرهه إلا من بقلبه مرض ، وقال : احفظ لسانك من المدح ، كما تحفظه من الذم .

وقال : التصوف الأخذ بالحقائق والإياس مما بأيدي الخلائق . وقال : قال لي بعض أصحاب داود الطائي : إياك أن تترك العمل ، فإن ذلك الذي يقرّبك إلى رضا مولاك . فقلت : وما ذلك العمل ؟ فقال : دوام طاعة ربك ، وحرمة المسلمين ، والنصيحة لهم .

رؤي معروف بعد موته في النوم ، فسئل ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي. فقيل له: بزهدك وورعك ؟ فقال: لا، بل بقبولي موعظة ابن السمّاك، وموعظة ابن السماك هي : من أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة ، ومن أقبل على الله بقلبه ، أقبل الله برحمته إليه ، وأقبل بجميع وجوه الخلق إليه ، ومن كان مرة ومرة ، فالله يرحمه وقتاً ما . فوقع كلامه على قلبي ، فأقبلت على الله ، وتركت جميع ما كنت عليه إلا خدمة مولاي علي بن موسى الرضا .

وقال محمد بن منصور الطوسي . كنت يوماً عند معروف فدعاني ، ثم عدت إليه من الغد ، فرأيت في وجهه أثر شجة ، فهممت أن أسأله عنها ، وكان عنده رجل أجرأ عليه مني ، فسأله عنها ، فقال له : سل عما يعنيك . فقال : بمعبودك إلا عرفتني ، فتغيّر وقال : لم أعلم أنك تُحَلّفني بالله ؟ صليت البارحة هنا واشتهيت أن أطوف ، فطفت ، ثم ملت إلى زمزم لأشرب من مائها ، فزلقت على الباب ، فأصاب وجهي ما تراه . وهذه كرامة نتجت عن الاستقامة ، فأُكْرِم بِطيِّ البعيد ، وهو كبسط القليل من الزمان .

وقيل لمعروف في مرض موته : أَوْصِ . فقال : إذا أنا مِتُّ فتصدقوا بقميصي ، فإني أريد أن أخرج من الدنيا عرياناً كما دخلتها عرياناً .

ومَرّ معروف وهو صائم بسقّاء ، وهو يقول : رحم الله من يشرب ، فتقدّم فشرب ، فقيل له : ألم تكن صائماً ؟ فقال : بلى ولكني رجوت دعاءه .

ومن كلامه : الدنيا أربعة أشياء : المال ، والكلام ، والمنام ، والطعام . المال يطغي ، والكلام يلهي ، والمنام ينسي ، والطعام يقسي .

٥ - **ومنهم : أبو الحسن سريّ بن مغلّس السقطي** . كان تلميذ معروف وخال الجنيد وأستاذه . كان أوحد زمانه في الورع ، والأحوال السنية ،

وعلوم التوحيد ، ملازماً بيته ، لا يخرج منه إلا للجمعة .

كان يتّجر في السوق ، فجاءه معروف يوماً ومعه يتيم ، فقال له : اكس هذا اليتيم . قال سري : فكسوته . ففرح به معروف وقال له : بغّض الله إليك الدنيا ، وأراحك مما أنت فيه . فقمت من الحانوت ، وليس شيء أبغض إليّ من الدنيا ، وكل ما أنا فيه من بركات معروف .

وقال الجنيد : ما رأيت أعبد من السريّ ! أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رؤي مضطجعاً إلا في علة الموت .

ويحكى عن السري أنه قال : التصوف اسم لثلاث معان ، من قامت به فهو الصوفي ، لأن التصوف مشتقٌّ على الصحيح من الصفاء عن الكدر ، وقد بيّن المعاني الثلاث مع من قامت به فقال :

١ ـ وهو الذي لا يطفىء نور معرفته نور ورعه ، وهو الكف عن محارم الله تعالىٰ ، بخلاف من يطفىء نور معرفته نور ورعه ، بأن يوسوس له الشيطان : إن عملك لا يفيدك شيئاً ، لأنه لا يجري عليك إلا ما سبق لك عند مولاك ، فيترك العمل . فالعلم بما سبق مبهماً لا يمنع من العمل ، لأنه لا يدري ما سبق له على التعيين ، فيجب العمل بمقتضى الأوامر والنواهي ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له »[1] .

٢ ـ ولا يتكلم بباطن في علم يناقضه عليه ظاهر الكتاب والسنة ، فلا يتلفظ بعبارة لها معنى خفي باطن وهو حق وصحيح ولكن ظاهر تلك العبارة ينافيه ظاهر الكتاب والسنة ، فلبشاعة الظاهر منع منه ، وإن حسنت المقاصد .

٣ ـ ولا تحمله الكرامات التي ظهرت منه على هتك أستار محارم الله ، بأن يعتقد أنه ممن لا يؤاخذ بانزلاق ، إذ لو اعتقد ذلك لكان آمناً من مكر الله ، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .

ومن كلامه رضي الله عنه : عجباً لضعيف كيف يعصي قوياً ؟. وقال : إن

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٨٢) ومسلم (٢٦٤٧) (٧) عن عليٍّ رضي الله عنه .

في النفس لشغلاً عن الناس . وقال : احذر أن تكون ثناءً منشوراً ، وعيباً مستوراً . وقال : الشوق والأنس يرفرفان على القلب ، فإن وجدا فيه هيبة وإِجلالًا ، وإلا ارتحلا .

اجتمع ببعض العارفات فقال لها : يا جارية ! قالت : لبيك يا سريّ . فقال : من أين عرفتني ؟ قالت : ما جهلت مذ عرفت ، ولا فترت مذ خدمت ، ولا انقطعت مذ وُصلت ، وأهل الدرجات يعرف بعضهم بعضاً . فقال : أسمعك تذكرين المحبة فلمن تحبين ؟ فقالت : لمن تعرّف إليّ بنعمائه ، وجاد عليّ بجزيل عطائه ، وأنشأت تقول :

ألبستني ثوب وصل طاب مَلبَسُهُ   فأنت مولى الورى حقاً ومولائي
كانت لقلبيَ أهواء مفرقة   فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائي
من غصّ داوى بشرب الماء غصتَه   فكيف يصنع من قد غصَّ بالماء
قلبي حزين على ما فات من زللي   والنفس في جسدي من أعظم الداء
والشوق في خاطري سيما وفي كبدي   والحبُّ مني مصون في سويدائي
إليك مني قصدت الباب معتذراً   وأنت تعلم ما ضمّته أحشائي

ومن كلامه رضي الله عنه : لا تكمل المحبة بين اثنين ، حتى يقول كلٌّ للآخر يا أنا .

يحكى عن الجنيد قال : سألني السريّ يوماً عن المحبة ، فقلت : قال قوم : هي الموافقة للمحبوب ، وقال قوم : هي الإِيثار لغيره على نفسه بالأمور الدنيوية ، وقال قوم : هي كذا وكذا . فأخذ السريّ جلدة ذراعه ومدها فلم تمتد ، ثم قال : وعزته تعالىٰ لو قلت : إن هذه الجلدة يبست على هذا العظم من محبته لصدقت ، ثم غشي عليه ، فدار وجهه كأنه قمر مشرق ، وكان السريُّ به أدمة .

فيه جواز إظهار المشايخ الصفات المحمودة والنطق بها لتلامذتهم ، ليكمل اقتداؤهم .

ويحكى عن السريّ أنه قال : منذ ثلاثين سنة أنا في الاستغفار من قولي

الحمد لله مرة ، قيل له : وكيف ذلك ؟ قال : وقع ببغداد حريق ، فاستقبلني رجل ، فقال لي : نجا حانوتك ، فقلت : الحمدُ لله ، فمنذ ثلاثين سنة أنا نادم على ما قلت ، حيث أردت لنفسي خيراً مما حصل للمسلمين . إذ كان حقه أن يغتمّ لهم فلما فاته ذلك استغفر الله من غفلته كلما تذكَّرها .

ويحكى عن السريّ أنه قال : أنا أنظر في أنفي في اليوم كذا وكذا مرة ، مخافة أن يكون قد اسودّ خوفاً من الله أن يسوّد صورتي ، لما أتعاطاه من التقصير في كمال التعظيم له . وإنما خصَّ الأنف لأن الشخص لا يرى من وجهه غير أنفه .

وقال السريّ : أعرف طريقاً مختصراً قصداً إلى الجنة . فقال الجنيد : ما هو ؟ فقال : لا تسأل من أحد شيئاً ، ولا تأخذ من أحد شيئاً ، ولا يكون معك شيء تعطي منه أحداً . فالاكتساب بقدر الحاجة من وجه طيب فيستغني به عن السؤال ولا يتعلق به أحد من المحتاجين .

وقال السري : أشتهي أن أموت ببلد غير بغداد ! فقيل له : ولم ؟ قال أخاف ألا يقبلني قبري فأفتضح . أحب رضي الله عنه حفظ قلوب العامة من أن يسوء ظنهم بالصالحين ، فإذا رأوا من اشتهر بالصلاح لم يقبله قبره ، دلَّ ذلك على خبث باطنه ، فيسوء ظنهم بأمثاله .

وقال السري : اللهم مهما عذبتني بشيء ! فلا تعذبني بذل الحجاب ! . ومن أكثف الحجاب حجاب الدنيا والخلق والشيطان والنفس ، فإنهن المهالك وأعدى عدو للسالك .

وقال السريّ : اعتللت بطرسوس بعلة القيام (الإسهال) فعادني ناس من القراء ، فأطالوا الجلوس فقلت : ابسطوا أيديكم حتى ندعو ، فقلت : اللهم علِّمنا كيف نعود المرضى ؟ فعلموا أنهم قد أطالوا فقاموا .

٦ ـ **ومنهم : أبو نصر بشر بن الحارث الحافي** . كان رضي الله عنه كبير الشأن علماً وزهداً وورعاً ، كثير الحديث لا يروي إلا الصحيح منه . أخذ عن الفضيل والسريِّ ، ومات سنة عشرين ومئتين ، وقد بلغ من رفيع قدره أن

المأمون استشفع بأحمد بن حنبل في أن يأذن له في زيارته فأبى .

ومن كلامه رضي الله عنه : من أراد أن يلقن الحكمة فلا يعصي الله تعالىٰ ، وقال : ما اتقى الله من أحب الشهرة ، وقال : لا تعمل لتُذكَر ، وقال : إذا أعجبك الكلام فاصمت ، أو السكوت فتكلم . وقال : من سأل الله الدنيا فإنما يسأله طول الوقوف بين يديه ، وقال : من عامل الله بالصدق استوحش من الناس ، وقال : لو تفكر الناس في عظمة الله لما عصوه . وقال : ما أعرف رجلاً أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح . وقال : لا يجد حلاوة الآخرة رجل أحب أن يعرفه الناس ، وقال : العبادة من الفقير كعقد جوهر في جيد حسناء ، ومن الغني كشجرة خضراء على مزبلة ، وقال : نِعْمَ المنزل القبر لمن أطاع . وقال : النظر إلى من تكره حمّى باطنة . وقال : التوكل اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب . وقال : لا يجد عبد حلاوة العبادة حتى يجعل بينه وبين الشهوات حائطاً من حديد ، وقال : النظر إلى البخيل يقسي القلب ، وقال : هب أنك ما تخاف ! أما تشتاق ؟ وقال : غنيمة المؤمن غفلة الناس عنه . وقال : ليس من المروءة أن تحب ما يبغض حبيبك ، وقال : إياك والاغترار بالستر ، والاتكالَ على حسن الذكر . وقال : الليل والنهار حثيثان يعملان فيك فاعمل فيهما ، وقال : أفضل أعمال البر الصبر على الفقر ، وقال : حقيقة المحبة ترك مخالفة المحبوب بكل حال ، والتسليم إليه في الحال والمآل ، وقال : المحبة ذل في عز المحبوب ، ومشاهدة للحتف المجلوب مع امتناع المطلوب ، وقال : القرب من الأغنياء بُعدٌ من الحبيب ، والأنس بهم وحشة منه ، وقال : لقي حكيم حكيماً فقال : لا رآك الله حيث نهاك ، ولا فقدك حيث أمرك ، وقال : كل حرف من العلم يدل صاحبه على الهرب من الدنيا .

سبب توبته : أنه أصاب في الطريق ورقة مكتوباً فيها اسم الله عز وجل وقد وطئتها الأقدام ، فأخذها واشترى بدرهم كان معه غالية فطيب بها الكاغدة أي : الورقة ، وجعلها في شق حائط ، فرأى فيما يرى النائم ، كأن قائلاً يقول

له : يا بشر طيَّبت اسمي لأطيبنَّ اسمك في الدنيا والآخرة . وكذا كل من أجلَّ الله وعظّمه أجَلّه الله وعظمه .

مر بشر ببعض الناس فقالوا : هذا الرجل لا ينام الليل كله ، ولا يفطر إلا في كل ثلاثة أيام مرة ، فبكى بشر بكاء فرح وسرور شكراً لربه في كونه ستر أمره وأظهر جميله ، ورجا أن يفعل به ذلك في آخرته ، فقيل له في ذلك ، فقال : إني لا أذكر أني سهرت ليلة كاملة ، ولا أني صمت يوماً ولم أفطر من ليلته ، ولكن الله سبحانه يلقي في القلوب أكثر مما يفعله العبد لطفاً منه سبحانه بعبده ، وكرماً ، ثم ذكر ابتداء أمره خوفاً من غرور نفسه .

قال بشر : رأيت النبي ﷺ في المنام فقال لي : يا بشر تدري لم رفعك الله من بين أقرانك ؟ قلت : لا يا رسول الله ، قال : باتباعك لسنتي ، وخدمتك للصالحين ، ونصيحتك لإخوانك ، ومحبتك لأصحابي وأهل بيتي ، هو الذي بلَّغك منازل الأبرار .

قال بلال الخوَّاص : كنت في تيه بني إسرائيل ، فإذا رجل يماشيني ، فتعجبت منه ، ثم ألهمت أنه الخضر عليه السلام ، فقلت له : بحقِّ الحقِّ من أنت ؟ فقال : أخوك الخضر ، فقلت له : أريد أن أسألك ، فقال لي : سل ، فقلت : ما تقول في الشافعي رحمه الله ؟ قال : هو من الأوتاد ، فقلت : ما تقول في أحمد بن حنبل ؟ قال : رجل صدّيق قلت : فما تقول في بشر الحافي ؟ فقال : لم يخلف بعده مثله ، فقلت : بأيّ وسيلة رأيتك ؟ فقال : ببرّك لأمك .

أتى بشر بن الحارث باب المعافى بن عمران ، فدقّ عليه الباب ، فقيل له : من هذا ؟ قال : بشر الحافي ، فقالت له بُنَيَّة من داخل الدار : لو اشتريت لك نعلاً بدانقين لذهب عنك اسم الحافي .

قال أبو عبد الله بن الجلاّء : رأيت ذا النون وكانت له العبارة ، ورأيت سهلاً وكانت له الإشارة ، ورأيت بشر بن الحارث وكان له الورع ، فقيل له : فإلى من كنت تميل ؟ قال لبشر بن الحارث أستاذنا .

قيل لبشر : بأي : شيء تأكل الخبز ؟ فقال : أذكر العافية وأجعلها إداماً ، لأن من كان في عافية ، ولم يأكل إلا عند الحاجة ، كما هو السنة ، لم يحتج إلى إدام للخبز لشدة رغبته فيه ، فالعافية من أعظم النعم بعد الإيمان ، فمن رزقها فكأنه ما منع شيئاً من النعم ، وقال بشر : لا يحتمل الحلال السرف ، فلقلّته لا يحتمل التوسع فيه ، فيقتصر على قدر الحاجة أو الضرورة .

رؤي بشر في المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي وأباح لي نصف الجنة ، وقال لي : يا بشر لو سجدت لي على الجمر ما أدّيت شكر ما جعلته لك في قلوب عبادي .

وقال بشر : لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس .

٧ ـ **ومنهم** : **أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي** . عديم النظر في زمانه علماً وورعاً ومعاملة وحالًا ، بصريٌّ مات ببغداد سنة ثلاث وأربعين ومئتين ، إمام المسلمين في الفقه والتصوف والحديث والكلام .

من كلامه رضي الله عنه : من صحّح باطنه بالمراقبة والإخلاص زيّن الله ظاهره بالمجاهدة واتباع السنّة وقال : لو أن نصف الخلق تقرّبوا مني ، ما وجدت بهم أنساً ، ولو أن النصف الآخر أعرضوا عني ، ما استوحشت لبعدهم ، وقال في حديث خير الرزق ما يكفي : هو قوت يوم بيوم لا يهتم لرزق غد ، وقال : فقدنا ثلاثة أشياء : حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن القول مع الديانة ، وحسن الإخاء مع الأمانة .

وقال : إذا لم تسمع نداء الله فكيف تجيب دعاءه ، ومن استغنى بشيء دون الله جهل قدره ، والظالم نادم وإن مدحه الناس ، والمظلوم سالم وإن ذمّه الناس ، والقانع غني وإن جاع ، والحريص فقير وإن ملك ، ومن لم يشكر الله على النعمة فقد استدعى زوالها ، وقال : خير الناس من لا تشغله دنياه عن آخرته ، وقال : من خرج من سلطان الخوف إلى عزة الأمن اتسعت به الخطا إلى مواطن الهلكة .

سُمِّي بالمحاسبيّ لأنه كان يُحاسب نفسه .

ومن كلامه : من أراد أن يذوق لذة طعم معاشرة أهل الجنة فليصحب الفقراء الصالحين .

ورث من أبيه سبعين ألف درهم ، فلم يأخذ منها شيئاً لأن أباه كان قدرياً ، وهم الذين ينكرون القدر خيره وشرّه من الله تعالىٰ ، ويزعمون أن فاعل الشر غيره تعالىٰ ، وهو يخلق الخير فقط ، فرأى رضي الله عنه في الورع ألا يأخذ من ميراثه شيئاً ، لاختلاف العلماء في تكفير القدرية ، وقال : صحت الرواية عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يتوارث أهل ملتين شيئاً »[1] .

فلما حفظ نفسه حفظه الله تعالىٰ ، فكان إذا مدَّ يده إلى طعام فيه شبهة ، تحرّك على أصبعه عِرْق ، فكان يمتنع منه .

قال أبو عبد الله بن خفيف : اقتدوا بخمسة من شيوخنا ، والباقون سلّموا لهم أحوالهم ، وهم : الحارث بن أسد المحاسبي ، والجنيد بن محمد ، وأبو محمد رويم ، وأبو العباس بن عطاء ، وعمرو بن عثمان المكي ، لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق ، بين الشريعة والحقيقة ، ومن جمع بينهما كلّم الناس بقدر ما تقتضيه أحوالهم ، وغير هؤلاء من غلب عليه حاله إنما يكلمهم به ، فلا يصلح أن يقتدى به ، وليس كل سالك يصلح له ذلك ، فالشيخ المقتدى به ينبغي أن يكون طبيباً عارفاً بسائر الأدوية والأمراض ، فيداوي كل عليل بالدواء اللائق بمرضه .

يحكى عن الجنيد أنه قال : مر بي الحارث المحاسبي ، فرأيت فيه أثر الجوع ، فقلت : يا عم تدخل الدار وتتناول شيئاً من الطعام ، فقال : نعم . فدخلت الدار وطلبت شيئاً أقدّمه إليه ، فكان في البيت شيء من طعام حمل إليّ من عرس قوم فقدّمته إليه ، فأخذ لقمة فأدارها في فيه مرات ، ثم إنه قام وألقاها في الدهليز ، ومرّ ، فلما رأيته بعد ذلك بأيام ، قلت له في ذلك ، فقال : إني كنت جائعاً وأردت أن أَسُرَّك بأكلي ، وأحفظ قلبك ، ولكن بيني

---

(١) أخرجه أبو داود في الفرائض (٢٩١١) وابن ماجه في الفرائض (٢٧٣١) .

وبين الله علامة أن لا يسوّغني طعاماً فيه شبهة ، فلم يمكني ابتلاعه ، فمن أين كان ذلك الطعام ؟ فقلت له : إنه حمل إليّ من دار قريب لي من العرس . ثم قلت له : تدخل الدار اليوم ؟ فقال : نعم ، فقدّمت إليه كسراً يابسة كانت لنا فأكل ، وقال لي : إذا قدمت إلى فقير شيئاً فقدّم إليه مثل هذا ، مما تعرف وجه حلّه ، وما تعاطيته بنفسك . فكان الحارث لا يأكل إلا عند الجوع ، ولا يجيب من يدعوه عند الجوع إلا لإدخال المسرة عليه ، وقد أعطي علامتان على الطعام المشبوه : ضرب العرق ، والإساغة .

٨ ـ **ومنهم** : **أبو سليمان داود بن نصير الطائي** . مات بالكوفة سنة خمس وستين ومئة ، كان يحضر مجلس أبي حنيفة فقال له أبو حنيفة : أما الأداة فقد أحكمناها . فقال له داود : فما بقي ؟ قال : العمل بما علمناه فانقطع لذلك .

ومن كلامه : إنما شرع العلم ليعمل به الطالب أوّلاً فأولاً ، فإذا قطع عمره في تحصيله فمتى يعمل ؟ وقال : إنما الليل والنهار مراحل ينزلها الناس مرحلة مرحلة ، حتى ينتهي بهم ذلك إلى آخر عمرهم . فإن استطعت أن تقدم في كل مرحلة زاداً لما بين يديها فافعل ، فتزوّد لسفرك واقض ما أنت قاض فكأنك بالأمر وقد بغتك : [فجأك] والسلام .

وقال : لا تمهر الدنيا دينك ، فمن أمهرها دينه زفت إليه الندم ، وقال : اصحب أهل التقوى فإنهم أيسر أهل الدنيا مؤنة عليك ، وأكثرهم معونة لك ، وقال : ما خرج عبد من ذلّ المعاصي إلى عزِّ التقوى ، إلا أغناه الله تعالىٰ بلا مال ، وأعزّه بلا عشيرة ، وآنسه بلا أنيس .

وقيل : حجم جنيد الحجَّام داود الطائي ، فأعطاه ديناراً ، فقيل له : هذا إسراف ! فقال : لا عبادة (كاملة) لمن لا مروءة له ، وكان يقول بالليل : إلهي همك عطَّل عليّ الهموم الدنيوية ، وحال بيني وبين الرقاد .

قالت جارية داود الطائي له ، لما رأته لا يأكل الخبز ، بل يشرب الفتيت : أما تشتهي الخبز ؟ فقال : بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية .

ولما توفي ، رآه بعض الصالحين في النوم وهو يعدو ، فقال له : مالك

تعدو ؟ فقال : الساعة تخلَّصت من السجن ، فاستيقظ الرجل ، فارتفع الصياح بقول الناس : مات داود الطائي .

وقال له رجل : أوصني فقال له : عسكر الموت ينتظرونك .

ودخل عليه بعضهم ، فجعل ينظر إليه ، فقال له : أما علمت أنهم كانوا يكرهون فضول النظر كما كانوا يكرهون فضول الكلام !.

٩ ـ **ومنهم** : **أبو علي شقيق بن إبراهيم البلخي** . له لسان في التوكل ، مات شهيداً سنة أربع وتسعين ومئة ، وقيل : ثلاث وتسعين ومئة ، قال : رأيت بمكة مقعداً يزحف ، فقلت له : من أين ؟ قال : من سمرقند قلت : وكم لك ؟ فذكر أعواماً تزيد على عشر ، فرفعت طرفي أنظر إليه ، فقال : مالك تنظر إليّ ؟ فقلت : متعجباً من ضعف مهجتك وبعد سفرك ! فقال : أمّا بعد سفري فالشوق يقرّبه ، وأما ضعف مهجتي فمولاها يحملها ، أتعجب من عبد ضعيف يحمله المولى اللطيف ؟ وأنشأ يقول شعراً :

أزوركم والهوى صعب مسالكه والشوق يحمل من لا مال يسعده
ليس المحب الذي يخشى مهالكه كلا ولا شدة الأسفار تبعده

ومن كلامه رضي الله عنه : عملت بالقرآن عشرين سنة ، حتى ميَّزت أعمال الدنيا ، وما عند الله خير وأبقى . وقال : إذا أردت أن تعرف الرجل ، فانظر إلى ما وعده الله ووعده الناس ، فأيهما يكون أوثق ، وقال : اصحب الناس كما تصحب النار ، خذ منها منفعتك واحذر أن تحرقك .

أخذ الفقه عن أبي حنيفة ، وعنه : حاتم الأصم ، وأيوب من الحسن .

قال الذهبي : سافر مرة ومعه ثلاثمئة فقير ، فتوسل إليه المأمون حتى اجتمع به ، واجتمع به قبله أبوه الرشيد ، وقال له : أنت شقيق الزاهد ؟ قال : نعم شقيق ولست بالزاهد . فقال له : أوصني . فقال : إن الله قد أجلسك مكان الصديق ، وإنه يطلب منك مثل صدقه ، ومكان الفاروق ، ويطلب منك الفرق بين الحق وغيره ، ومكان عثمان ، ويطلب منك مثل حيائه وكرمه ، ومقام علي ، ويطلب منك مثل علمه وعدله .

كان شقيق موسراً ، وكان يتفتّى بماله ، وجاهه ، وما يمكنه بكمال مروءته ، ويعاشر الفتيان ، وهو من لا يدّخر ما أمكنه عن قاصده ، وكان علي بن عيسى بن ماهان أمير بلخ ، وكان يحب كلاب الصيد ، ففقد كلباً من كلابه ، فسُعي برجلٍ أنه عنده ، وكان الرجل في جوار شقيق ، فطُلب الرجل ، فهرب ، فدخل دار شقيق مستجيراً ، فمضى شقيق إلى الأمير ، وقال : خلوا سبيله ، فإن الكلب عندي أرده إليكم إلى ثلاثة أيام ، فخلّوا سبيله ، وانصرف شقيق مهتماً لما صنع ، فلما كان اليوم الثالث ، كان رجل من أصدقاء شقيق غائباً من بلخ ، فرجع إليها ، فوجد في الطريق كلباً عليه قلادة ، تدل على أنه معلّم ، فأخذه ، وقال : أهديه إلى شقيق يتفتى[1] به ، فإنه يشتغل بالتفتي ، فحمله إليه ، فنظر إليه شقيق ، فإذا هو كلب الأمير ، فسرّ به ، وحمله إلى الأمير ، وتخلّص من الضمان ، فرزقه الله الانتباه بذلك ، وقال في نفسه : إذا كان لطفه تعالىٰ بي وأنا في حال الغفلة والجفاء ، فكيف إذا رجعت إليه بصدق العبادة ؟ فرجع إليه ، وتاب مما كان فيه ، وسلك طريق القوم .

حكي عن حاتم الأصم قال : كنت مع شقيق في مصاف[2] ، نُحارب الترك في يوم لا نرى إلا رؤوساً تندر ، ورماحاً تتقصّف ، وسيوفاً تنقطع ، فقال لي شقيق : كيف ترى نفسك يا حاتم في هذا اليوم ؟ تراه مثل ما كنت في الليلة التي زفّت إليك امرأتك فيها ؟ فقلت : لا والله . قال : ولكني والله أرى نفسي في هذا اليوم ، مثل ما كنت تلك الليلة ، ثم نام بين الصفّين ، ودرقته تحت رأسه حتى سمعت غطيطه ، وإن قال لا يقول إلا حقاً ، وقال شقيق : تعرف تقوى الرجل في ثلاثة أشياء في أخذه ومنعه وكلامه .

وقال شقيق : من شكا مصيبة نزلت به إلى غير الله ، لم يجد في قلبه لطاعة الله حلاوة أبداً . وإذا أردت أن تكون في راحة فكل ما أصبت والبس ما وجدت ، وارض بما قضى الله عليك .

---

(١) يتفتى : يفعل فعل الفتيان .
(٢) مصافّ : في صف واحد تلقاء العدو .

١٠ ـ **ومنهم : أبو يزيد طيفور بن عيسى البَسْطامي** ، وكان جده مجوسياً أسلم ، وَلَدَ عيسى ثلاثة أولاد : آدم وطيفور وعليّ ، وكلهم كانوا زهاداً عباداً ، وأبو يزيد أجلّهم حالاً ، مات سنة إحدى وستين ومئتين . كان سلطان العارفين يلقبه أبا يزيد الأكبر ، وهو القائل :

غرستَ الحب غرساً في فؤادي   فـلا أسلـو إلـى يـوم التنـاد
جرحتَ القلب مني بالقتال   فشـوقـي زائـد والحـب بـادي
سقـانـي شـربـة أحيـا فـؤادي   بكأس الحب من بحر الوداد

صلَّى الجمعة يوماً فسمع الخطيب يقرأ: ﴿ يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ﴾ [مريم : ٨٥] ففرح فثار الدم من عينيه . وقال : يا عجباً حيث يحشر إليه من هو جليسه ، فإن الله تعالىٰ يقول : « أنا جليس من ذكرني »[١] ، والمتقي ذَكَر الله ذِكْرَ حذر ، فلما حشر إلى الرحمن ، وهو مقام الأمان مما كان فيه من الحذر فرح بذلك ، قال ابن عربي : فكان دمع أبي يزيد دمع فرح ، لا دمع ترح ، كيف حشر منه إليه ، حتى حُشر غيره إلى الحجاب . وقال : أوقفني ربي بين يديه ، وقال : يا أبا يزيد : بأي شيء جئتني ؟ قلت : بالزهد في الدنيا . قال : إنما مقدار الدنيا عندي جناح بعوضة ، ففيم زهدت ؟ قلت : إلهي أستغفرك من ذلك ، جئت بالتوكل عليك . قال : لم أكن ثقة فيما ضمنت لك ؟ قلت : أستغفرك ، جئت بك أو قال بالافتقار إليك ، فقال عند ذلك : قبلناك . وقال : وقفت مع العابدين فلم أر لي معهم قدماً ، فوقفت مع المجاهدين فلم أر لي معهم قدماً ، فوقفت مع المصلِّين والصائمين فلم أر لي معهم قدماً، فقلت: يا رب كيف الطريق إليك ؟ فقال لي : اترك نفسك وتعال .

قال الخوَّاص : فاختصر له الطريق بنصف كلمة وأخصرها ، فإنه إذا ترك حظ نفسه من الدارين قام الحق معه .

---

(١) هو بلفظ « أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني » في البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

ومن كلامه رضي الله عنه : سر في ميدان التوحيد حتى تصل إلى دار التفريد ، وطر في دار التفريد حتى تلحق وادي الديمومية .

وقال : أمر الله العباد ونهاهم ، وأطاعوا فخلع عليهم خلعاً ، فاشتغلوا عنه بالخلع ، وإني لا أريد إلا الله . وقال : قلت يوماً : سبحان الله ، فناداني الحق في سرّي : هل فيّ عيب تنزهني عنه ؟ قلت : لا يا رب ، قال : فنفسك نزه . فأقبلت على نفسي بالرياضة حتى تنزَّهت عن الرذائل ، وتحلَّت بالفضائل ، فقلت : سبحاني ما أعظم شأني ، من باب التحدث بالنعمة .

وقال : ليس العالم من يحفظ كتاب الله فإذا نسي ما حفظ صار جاهلاً ، بل من يأخذ علمه من ربه . أي : وقت شاء بلا تحفظ ودرس ، وهذا هو العالم الربَّاني .

وقال : إذا رأيت من يؤمن بكلام أهل الطريق ، فقل له : يدعو لك فإنه مجاب الدعوة .

وقال : أخذتم علمكم ميتاً عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحيِّ الذي لا يموت . قال ابن عربي : فعلماء الرسوم يأخذون خلفاً عن سلف إلى يوم القيامة ، فيبعد النسب ، والأولياء يأخذون عن الله ألقاه في صدورهم من لدنه رحمة وعناية ، سبقت لهم عند ربهم .

وقال : حركات الظواهر توجب بركات السرائر ، وقال : لم أزل ثلاثين سنة كلما أردت أن أذكر الله أغسل فمي ولساني إجلالًا لله ، وقال : دعوت نفسي إلى ربي فأبت ، فتركتها ومضيت إليه .

الناس بحر عميق والبعد عنهم سفينة
وقد نصحتك فاختر لنفسك المسكينة

وقال : عرفت الله بنور صنعه ، وعرفت صنعه بنوره .

سئل أبو يزيد : بأي شيء وجدت هذه المعرفة ؟ فقال : ببطن جائع وبدن عار ، عملاً بخبر « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطن » ، وعدم الاعتناء بما

يلبسه ، فكان يقتصر على ما يستر البدن ، بأي وجه كان .

وقال أبو يزيد : عملت في المجاهدة ثلاثين سنة ، فما وجدت شيئاً أشدّ عليّ من العلم ومتابعته بالأعمال ، لأنهما لا يتمان إلا بمخالفة الهوى ، والاجتهاد في التقوى ، لا سيما العلم المتعلق بالقلب من الرياء والعجب والكبر ، وغيرها من الأخلاق الذميمة والورع والزهد والإخلاص وغيرها من الأخلاق الحميدة ولولا اختلاف العلماء لبقيت على اجتهاد واحد وهو ما أجمعوا عليه ، واختلاف العلماء رحمة ، إلا في تجريد التوحيد ، فإن المقصود من مسائل التوحيد القطع ، والحق فيها واحد .

وقيل : لم يخرج أبو يزيد من الدنيا حتى استظهر القرآن كله ، أي : حفظه .

وقال لي أبو يزيد : قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية ، وكان رجلاً مقصوداً مشهوراً بالزهد . فمضينا إليه ، فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقته تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلّم عليه ، وقال : هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ ، فكيف يكون مأموناً على ما يدّعيه ؟! .

وقال أبو يزيد : لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء ، فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي ، وحفظ الحدود وأداء الشريعة .

ومن كلام أبي يزيد : الناس يهربون من الحساب ويخافون منه ، وأنا أسأل الله أن يحاسبني ، فقيل له : لم ؟ فقال : لعله يقول في أثناء ذلك لي : عبدي . فأقول : لبيك . فقوله لي : يا عبدي أحب إليَّ من الدنيا وما فيها ، ثم بعد ذلك يفعل بي ما يشاء . وقال له رجل : دلّني على عمل أتقرب به إلى ربي . فقال : أحبب أولياء الله ليحبوك ، فإن الله تعالىٰ ينظر إلى قلوب أوليائه ، فلعله ينظر إلى اسمك في قلب وليّه فيغفر لك .

١١ ـ **ومنهم : سهل بن عبد الله التستري** . لم يكن له في وقته نظير في

المعاملات مع الله تعالىٰ وفي الورع ، صحبه خاله محمد بن سوار ، ولقي ذا النون ، وأخذ عنه الأكابر طبقة بعد طبقة ، فحسده فقهاء بلده ، وأخرجوه ، لأنه كان يقول : التوبة فرض على العبد في كل نفس ، فسكن البصرة ومات فيها . حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين ، وكان وهو ابن عشر يُسأل عن دقائق الزهد والورع وفق العبادة فيجيب ، قال ابن عربي : كان بدء سهل في هذا الطريق سجود القلب ، والقلب إذا سجد لا يرفع رأسه أبداً من سجدته ، وصاحب مقام سجود القلب من عين واحدة هو فيها ثابت ، ولذا لما رأى سهل في ابتداء دخوله الطريق أن قلبه سجد ، وانتظر أن يرفع ، فلم يرفع ، بقي حائراً ، فما زال يسأل شيوخ الطريق عن واقعته ، فما وجد أحداً يعرفها ، فإنهم أهل صدق ولا ينطقون إلا عن ذوق محقق ، فقيل له : إن في « عبّادان » شيخاً لو رحلت إليه ، ففعل ، فقال : أيها الشيخ : أيسجد القلب ؟ فقال : إلى الأبد . فوجد شفاءه عنده ، فلزم خدمته .

ومن كلامه رضي الله عنه : الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، وإذا انتبهوا ندموا ، وإذا ندموا لم ينفعهم الندم . وقال : التائب من يتوب من غفلته في كل لمحة ، وقال : لا يستحق الرجل الرياسة على الخلق ، إلا إن احتمل أذاهم ، وبذل لهم ما في يده ، وزهد فيما بأيديهم . وقال : دخلت الفتنة على العامة من الرُّخص والتأويلات ، وعلى العارفين من تأخير الحق الواجب إلى وقت آخر ، وقال : لا يرى القيامة عمل بر أفضل من ترك فضول الطعام ، والاقتداء بالمصطفى في أكله . وقال : لا أعلم شيئاً أضرّ على طلاب الآخرة من الأكل ، وقال : جعل الله العلم والحكمة في الجوع ، وجعل المعصية والجهل في الشبع ، وقال : ما عبد الله بشيء أفضل من مخالفة الهوى ، وقال : إنما صار الأبدال أبدالًا بإخماص البطون ، والصمت والسهر والخلوة ، وقال : من أعظم المعاصي الجهل بالجهل ، والنظر إلى العامة ، وسماع كلام أهل الغفلة ، وكل عالم خاض في الدنيا فلا تصغ لكلامه ، بل يتهم فيما يقول ، لأن كل إنسان يدفع ما لا يوافق محبوبه .

وقال : أصول طريقتنا سبعة : التمسك بالكتاب ، والاقتداء بالسنة ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، وتجنب المعاصي ، والتوبة ، وأداء الحقوق .

وقال : العيش أربعة ، عيش الملائكة في الطاعة ، والأنبياء في العلم وانتظار الوحي ، والصديقين في الاقتداء ، وسائر الناس في الأكل والشرب كالبهائم . وقال : ما من ولي صحّت ولايته إلا يحضر مكة كل ليلة لا يتأخر . وقال : إن الله سلب الدنيا عن أوليائه ، وحماها عن أصفيائه ، وأخرجها عن قلوب أهل وداده ، لأنه لم يرضها لهم ، وقال : حياة القلب الذي يموت بذكر الحي الذي لا يموت .

يحكى عن سهل قال : قال لي خالي يوماً ، وكان عمره إذ ذاك ثلاث سنين : ألا تذكر الله الذي خلقك ؟ فقلت له : كيف أذكره ؟ فقال لي : قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات ، من غير أن تحرك به لسانك : الله معي ، الله ناظر إليّ ، الله شاهدي ، فقلت ذلك ثلاث ليال ، ثم أعلمته به ، فقال لي قل في كل ليلة سبع مرات ، فقلت ذلك ثم أعلمته ، فقال : قل في كل ليلة إحدى عشرة مرة ، فقلت ذلك فوقع له في قلبي حلاوة ، فلما كان بعد سنة ، قال لي خالي : احفظ ما علمتك ، ودم عليه إلى أن تدخل القبر ، فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة ، فلم أزل على ذلك سنين ، فوجدت لها حلاوة في سرّي ، ثم قال لي خالي يوماً : يا سهل من كان الله معه وهو ناظر إليه وشاهِده أيعصيه ؟ لا ! إياك والمعصية ، فكنت أخلو ، أي : أحب الخلوة ، فبعثوا بي إلى الكُتَّاب ، فقلت لهم : إني أخشى أن يتفرّق عليّ همي ، ولكن شارطوا المعلم إني أذهب إليه ساعة فأتعلم ، ثم أرجع إلى خلوتي ، فمضيت إلى الكُتَّاب ، وحفظت القرآن وأنا ابن ست سنين ، وكنت أصوم الدهر وقوتي خبز الشعير ، إلى أن بلغت اثنتي عشرة سنة ، فوقعت لي مسألة سجود القلب ، فخرجت إلى عبّادان إلى أبي حبيب حمزة بن عبد الله العبّاداني ، فأقمت عنده مدة ، أنتفع بكلامه ، وأتأدب بآدابه ، ثم رجعت إلى تستر فجاهدت نفسي بالصيام أكثر من عشرين سنة ، ثم خرجت أسيح في

الأرض سنين ، ثم رجعت إلى تستر ، وكنت أقوم الليل كله .

قال سهل بن عبد الله : كل فعل يفعله العبد بغير اقتداء شرعي ، طاعة كان الفعل أو معصيةً ، فهو عيش النفس أي : حظها ، وكل فعل يفعله بالاقتداء الشرعي فهو عذاب على النفس ، لأن الاقتداء مخالفة الهوى وقد مدح الله تعالىٰ الناهي نفسه عن الهوى .

وقال رجل لسهل : أريد أن أصحبك ، فقال له : فإذا مات أحدنا فمن يصحب الثاني ؟ قال : يرجع إلى الله . قال : فليفعل الآن ما يفعله غداً .

١٢ ـ **ومنهم : أبو سليمان عبد الرحمن بن عطية الداراني** . مات سنة خمس عشرة ومئتين ، من كبار العارفين ، أحد مفاخر بلاد دمشق وما حولها ، صاحب الكرامات الظاهرة والأحوال الباهرة .

من كلامه رضي الله عنه : لا ينبغي لفقير أن يزيد في نظافة ثوبه على نظافة قلبه ، ليشاكل باطنه ظاهره . وقال : ليت قلبي في القلوب كثوبي في الثياب ، وقال : من صارع الدنيا صرعته ، ومن سكنت الدنيا قلبه ترحلت منه الآخرة ، وقال : يا رب إن طالبتني بسريرتي طالبتك بتوحيدك ، وإن طالبتني بذنوبي طالبتك بكرمك ، وإن جعلتني من أهل النار أخبر أهلها بحبي إياك ، وقال : أقرب ما يتقرب به العبد إلى الله تعالىٰ ، أن يطلع على قلبه فيراه لا يريد أحداً غيره في الدارين ، وقال : كلما ارتفعت منزلة العبد كانت العقوبة أسرع إليه . وقال : أسكَنَهم الغرفَ قبل أن يطيعوه ، وأدخلهم النار قبل أن يعصوه ، لا يُسأل عما يفعل . وقال : القناعة أول الرضا ، والورع أول الزهد ، وقال : مفتاح الآخرة الجوع ، ومفتاح الدنيا الشره ، ومفتاح كل خير الخوف من الله تعالىٰ .

وقال : هانوا عليه فعصوه ، ولو كرموا لمنعهم منها ، وقال : كيف يعجب عاقل بعمله ، وإنما عمله عطية من الله تعالىٰ ، ونعمة منه عليه شكرها . وقال : إذا فتح لك باباً من الطاعة فالزمه ، وقال : مَنْ حَسّن ظنه بالله فقد فتح عليه باب الرحمة ، وقال : القلب كالمرآة إذا جليت لا يمر بها

شيء إلا مثل فيها ، وقال : أحلى ما تكون العبادة لي إذا لصق بطني بظهري ، وقال : القلب إذا جاع وعطش صفا ورقّ ، وإذا شبع عمي وثار ، وقال : من ترك الدنيا للآخرة ربحهما ، ومن ترك الآخرة للدنيا خسرهما ، وقال : الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة ، وعقوبة لأهل الولاية .

وقال : إن الله يفتح للعارف على فراشه ما لا يفتح له وهو قائم يصلي ، وقال : من كان يومه مثل أمسه فهو في نقصان ، وقال : إذا تكلف المتعبّدون ألا يتكلموا إلا بإعراب ذهب الخشوع من قلوبهم . وقال : ليس العبادة أن تصفّ قدميك وغيرك يقوت لك ، ولكن ابدأ برغيفك فأحرزه ثم تعبّد ، وقال : إذا واخيت أخاً فلا تعاقبه على ما تكرهه ، فإنك لا تأمن أن ترى في جوابك ما هو شر من الأول ، وقال : إذا سماك الله باسم فكن عندما سمّاك وإلا هلكت ، وقال : الدنيا تطلب الهارب منها وتهرب ممن طلبها ، فإن أدركت الهارب منها جرّحَتْهُ ، وإن أدركها طالبها قتلته .

ومن كلامه : من أحسن في نهاره بمراقبة حركاته وسكناته مع الله تعالىٰ كوفىء في ليله على ذلك ، ومن أحسن في ليله كوفىء في نهاره عليه ، ومن صدق في ترك شهوة ذهب الله بها من قلبه ، والله تعالىٰ أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت له ، وإذا سكنت الدنيا القلب ترحّلت منه الآخرة ، فلم يجعل الله له إليها التفاتاً ، لأنهما ضرّتان .

وقال أبو سليمان : ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم عن بعض الصالحين من اشتهر بالخير ، فيشهد قلبي بحسنها لتأثيرها فيه ، فلا أقبلها منه حتى أعرضها على شاهدين عدلين الكتاب والسنة ، فإن شهدا لي بحسنها أقدمت وإلا أحجمت .

وقال أبو سليمان : أفضل الأعمال : خلاف هوى النفس . وقال : لكل شيء عَلَم ، وعَلَم الخذلان ترك البكاء ، وقال : لكل شيء صدأ وصدأ نور القلب شبع البطن ، وقال : كل ما شغلك عن الله تعالىٰ من أهل أو مال أو ولد فهو عليك مشؤوم .

وقال أبو سليمان : نمت عن وردي فإذا أنا بحوراء جميلة تقول لي : تنام وأنا أربّى لك في الخدور منذة خمسمئة عام .

قال أحمد بن أبي الحواري : دخلت على أبي سليمان يوماً وهو يبكي ، فقلت له ما يبكيك ؟ فقال : يا أحمد ولم لا أبكي ؟ وإذا جن الليل ونامت العيون وخلا كل حبيب بحبيبه وافترش أهل المحبة أقدامَهم ، وجرت دموعُهم على خدودهم وتقطّرت في محاريبهم ، أشرف الجليل سبحانه فنادى : يا جبريل بعيني من تلذذ بكلامي ، واستراح إلى ذكري ، وإني لمطلع عليهم في خلواتهم أسمع أنينهم ، وأرى بكاءهم ، فلا تنادي فيهم يا جبريل ما هذا البكاء ؟ هل رأيتم حبيباً يعذب أحباءه ؟ أم كيف يجمل بي أن آخذ قوماً إذا أجنهم الليل تملّقوا ، أي : توددوا وتلطفوا لي ؟ فبي حلفت أنهم إذا وردوا عليّ القيامة لأكشفن لهم عن وجهي الكريم حتى ينظروا إليّ وأنظر إليهم .

١٣ ـ **ومنهم : حاتم بن يوسف الأصم** . صحب شقيقاً البلخي من أكابر مشايخ خراسان ، مات سنة سبع وثلاثين ومئتين ، لم يكن أصم وإنما تصامم مرة فسمي به ، جاءت امرأة فسألت حاتماً عن مسألة فاتفق أن خرج منها في تلك الحالة صوت ، فخجلت ، فقال لها حاتم لما أدرك منها ذلك : ارفعي صوتك ، فأرى من نفسه : أنه أصم رحمة لها ، وشفقة عليها ، فسرّت المرأة بذلك ، وقالت : إنه لم يسمع الصوت ، فغلب عليه اسم الصمم .

ومن كلامه رضي الله عنه : من أصبح وهو مستقيم في أربعة أشياء فهو يتقلب في رضا الله ، أولها : الثقة بالله ، فالتوكل ، فالإخلاص ، فالمعرفة ، والأشياء كلها تتم بالمعرفة . وقال : تعهد نفسك في ثلاث إذا عملت : فانظر نظر الله إليك ، وإذا تكلمت فاذكر سمع الله إليك ، وإذا سكت فاذكر علم الله فيك . وقال : من مر بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم ، ودخل عليه بعض الأمراء فقال : ألك حاجة ؟ قال : ألا تراني ولا أراك ، وقال : اصحب الناس كما تصحب النار ، خذ نفعها واحذر أن تحرقك . وقال : من دخل في مذهبنا فليجعل في نفسه ثلاثاً : موتاً أبيض وهو

الجوع ، وموتاً أسود وهو تحمل الأذى ، وموتاً أحمر وهو مخالفة النفس . وأصل الطاعة ثلاث : الخوف ، والرجاء ، والحب ، وأصل المعصية ثلاثة : الحسد ، والكبر ، والحرص . وقال : لا تغتر بموضع صالح ، ففي الجنة لقي آدم ما لقي ، ولا بكثرة علم فبلعام كان يعرف الاسم الأعظم ولقي ما لقي ، ولا بمعرفة الصلحاء فلا أعظم من خاتم الرسل ، ولم ينتفع بلقائه ناس كثير حتى من أهل بيته . وقيل له : عظني . قال : إن كنت تريد عصيان مولاك فاعصه في موضع لا يراك .

قيل له : ألا تشتهي ؟ فقال : أشتهي عافية يوم إلى الليل ، فقيل له : أليست الأيام كلها عافية ؟ فقال : إن عافية يومي ألّا أعصي الله فيه . وحكي عن حاتم الأصم أنه قال : كنت في بعض الغزوات فأخذني شخص فأضجعني للذبح ، فلم يشتغل به قلبي لاشتغاله بمناجاة الله تعالىٰ ، وبالنظر لما تجري به المقادير ، فبينما هو يطلب السكين من خفه أصابه سهم غرب فقتله وطرحه عني ، فقمت وأخذت السكين من يده فذبحته .

١٤ ـ **ومنهم** : **أبو زكريا يحيى بن معاذ الرازي** . كان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، له سطوة ومهابة . نسيج وحده في وقته ، له لسان متين في الرجاء ، مات بنيسابور سنة ثمان وخمسين ومئتين .

من كلامه رضي الله عنه : كيف يكون زاهداً من لا ورع له ، تورع عما ليس لك ثم ازهد فيما لك ، وقال رحمه الله : جوع التوّابين تجربة لهم هل يصبرون عن الطعام ، وجوع الزاهدين سياسة ، أي : قيام على أنفسهم بما يصلحهم وبما يتعودون به الجوع ، فإن أنفسهم معرضة عن الطعام بزهدها ، وجوع الصّدّيقين تكرمة من الله حيث أشغلهم بذكره ، ومناجاته ، ودوام أنسه ، وتلذذهم بما هم فيه عن الطعام .

وقال يحيى : الفوت أشد على النفس من الموت ، لأن الفوت انقطاع عن الحق ، والموت انقطاع عن الخلق ، وقال يحيى : الزهد ثلاثة أشياء : القلة ، والخلوة ، والجوع ، وقال : لا تربح على نفسك شيء أجل من أن تشغلها في

كل وقت بما هو أولى لها .

وقال : من خان الله في السر هتك الله ستره في العلانية ، وقال : تزكية الأشرار لك هُجْنة بك ، أي : قبح ونقص ، وحبهم لك عيب عليك ، وهان عليك من احتاج إليك ، وقال : على قدر حبك الله يحبك الخلق ، وعلى قدر خوفك من الله يهابك الخلق ، وعلى قدر شغلك بالله يشتغل في أمرك الخلق .

وقال : من استفتح باب المعاش من غير مفاتيح الأقدار وُكِل إلى الخلق ؛ وقال : الوحدة جليس الصديقين ؛ وقال : من خالط الناس داراهم ومن داراهم راآهم ؛ وقال : زلة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها . وقال : العقلاء ثلاثة : من ترك الدنيا قبل أن تتركه ، وهيأ قبره قبل أن يدخله ، وأرضى خالقه قبل أن يلقاه . وقال : العمال أربعة : تائب وزاهد ومشتاق وواصل ، فالتائب محجوب بتوبته ، والزاهد بزهده ، والمشتاق بحاله ، والواصل لا يحجبه عن الحق شيء ، وقال : لا يفلح من شممت منه رائحة الرياسة ، وقال : مصيبتان لم يسمع بمثلهما للعبد في ماله : عند موته يؤخذ منه كله ، ويسأل عنه كله . وقال : لا تستبطىء الإجابة إذا دعوت ، وأنت سددت طرقها بالذنوب وأكل الحرام ، وقال : الدنيا قنطرة الآخرة ، فاعبروها ولا تعمروها ، وليس من العقل بناء القصور على الجسور .

وقال : حقيقة المحبة : لا تزيد بالبر ولا تنقص بالجفاء ، وقال : أخوك من عرَّفك العيوب ، وصديقك من حذَّرك الذنوب ، وقال : عجب ممن يحزن على نقص ماله ولا يحزن على نقص عمره . وقال : من قوة اليقين ترك ما ترى لما لا ترى ، وقال : الدنيا خمر الشيطان ، من سكر منها لا يفيق إلا وهو في عسكر الموتى ، وقال : إن الله رضي عن قوم فغفر لهم السيئات ، وغضب على قوم فلم يقبل منهم الحسنات ، وقال : يا غفول يا جهول لو سمعت صرير القلم بذكرك في اللوح لمتّ طرباً . وعلى قدر حب العبد لله يحببه إلى عباده ، وعلى قدر توقير أمره يوقره خلقه ، وقال : أعمال كالسراب ، وقلوب من التقوى خراب ، وذنوب بعدد التراب ، ويطمع مع هذا في الكواعب الأتراب ،

هيهات هيهات ! إن هذا لسكر بغير شراب ! وقال : مسكين ابن آدم لو يخاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة .

١٥ ـ **ومنهم : أبو حامد أحمد بن خضرويه البلخي** . نسبة إلى بلخ بلدة من خراسان صحب النخشبي ، وزار أبا حفص الحداد ، وزار أبا يزيد البسطامي ، وكان كبيراً في الفتوة ، قال أبو حفص : ما رأيت أحداً أكبر همة ولا أصدق حالًا من أحمد بن خضرويه ، وكان أبو يزيد إذا ذكره قال : أستاذنا أحمد ، تبجيلاً وتعظيماً .

قال محمد بن حامد : كنت جالساً عند أحمد بن خضرويه ، وهو في النزع ، وكان قد أتى عليه خمس وتسعون سنة ، فسأله بعض أصحابه عن مسألة فدمعت عيناه ، وقال : يا بني باب كنت أدقه خمساً وتسعين سنة هو ذا يُفتح لي الساعة ، لا أدري أبا لسعادة أم بالشقاوة ، من أين لي الجواب في هذه الحالة ؟ قال بعض أصحابه : وكان عليه سبعمئة دينار استدانها لينفقها في جهة بر ، وغرماؤه عنده ، فنظر إليهم وقال : اللهم إنك جعلت الرهون وثيقة لأرباب الأموال ، وأنت تأخذ منهم وثيقتهم ، وأنا وثيقتهم فأدّ عني ، قال : فدق داقٌّ الباب فقال : أين غرماء أحمد ؟ فقيل له : هم الجالسون ، فقضى عنه ثم خرجت روحه ، ومات رحمه الله سنة أربعين ومئتين .

قال رحمه الله : لا نوم أثقل من الغفلة ، ولا رقّ أملك من الشهوة ، ولولا ثقل الغفلة عليك لما ظفرت بك الشهوة .

وقال : إن التصوف تطهير من الأدناس وتشمير للإيناس ، وقال : القلوب جوّالة ، فإما أن تجول حول العرش أو تجول حول الحش ، وقال : أفضل الأعمال رعاية السر عن الالتفات إلى شيء غير الله ، وقال : القلوب أوعية ، فإذا امتلأت من الحق ، فاضت زيادة أنوارها على الجوارح . وقال : الصبر زاد المضطرين والرضا درجة العارفين ، وحقيقة المحبة معرفته تعالىٰ بالقلب وذكره باللسان في الحضور والاحترام ورفع الهمة عن كل ما سواه .

١٦ ـ **ومنهم : أبو الحسين أحمد بن أبي الحواري عبد الله بن ميمون** . من

أهل دمشق ، صحب أبا سليمان الداراني وغيره ، مات سنة ثلاثين أو أربعين ومئتين ، كان الجنيد يقول : أحمد بن أبي الحواري ريحانة الشام . قال يحيى بن معين : أهل الشام به يمطرون .

ومن كلامه رضي الله عنه : من نظر إلى الدنيا نظر إرادة وحب لها ، أخرج الله نور اليقين والزهد من قلبه ، وقال : من عمل عملاً بلا اتباع سنة رسوله ﷺ فباطل عمله ، وقال : أفضل البكاء بكاء العبد على ما فاته من أوقاته على غير الموافقة ، وقال أحمد : ما ابتلى الله عبداً بشيء عليه أشد عليه من الغفلة والقسوة .

ومن كلامه : من أحب أن يعرف بشيء من الخير أو يذكر به فقد أشرك في عبادته ، وقال : من عرف الدنيا زهد فيها ، ومن عرف الآخرة رغب فيها ، ومن عرف الله آثر رضاه ، ومن لم يعرف نفسه فهو في دينه في غرور .

وقال : إن دخلت القبر ومعك الإسلام فأبشر ، وقال : من أيقن بما بعد الموت ، شد مئزر الحذر ، ولم يكن للدنيا عنده خطر . وقال : العذاب على العارفين أهون من العصيان .

وقال : علامة حب الله حب ذكره ، وقال : إذا حدثتك نفسك بترك الدنيا عند إدبارها فهي خدعة ، وإذا حدثتك بتركها عند إقبالها فذاك ؛ وقال : علامة الرضا ألا يختار إلا ما يختاره مولاه . وقال : إذا وصلوا إلى الله لم يرجعوا عنه ، إنما رجع من رجع من الطريق .

١٧ ـ **ومنهم : أبو حفص الحدَّاد عمرو بن مسلمة** . أحد الأئمة والسادة ، من قرية على باب مدينة نيسابور على طريق تجاري ، أول من أظهر التصوف بنيسابور ، مات سنة أربع وستين ومئتين .

قال أبو حفص : المعاصي بريد الكفر ، كما أن الحمى بريد الموت ، وقال أبو حفص : إذا رأيت المريد يحب السماع فاعلم أن فيه بقيةً من البطالة ، وقال : حسن أدب الظاهر عنوان حسن أدب الباطن ، وقال : الفتوة أداء الإنصاف وترك مطالبة الإنصاف ، وقال : من لم يزن أفعاله وأقواله وأحواله في

كل وقت بالكتاب والسنة ، ولم يتهم خواطره ، فلا تعدّه في ديوان الرجال . ومن كلامه : حرست قلبي عشرين سنة ، ثم حرسني عشرين سنة ، ثم صرنا جميعاً محروسين . وقال : العبودية ترك مالك والتزام ما أمرت به ، وقال : من تجرع كأس الشوق هام هياماً لا يفيق منه إلا عند المشاهدة واللقاء . وقال : البخل ترك الإيثار عند الحاجة . وقال : تركت العمل فرجعت إليه ، وتركني العمل فلم أرجع إليه . وكان لا يذكر الله إلا عند الحضور وتعظيم الحرمة ، فإذا ذكر تغيّر حاله ، فإذا رجع قال : ما أبعد ذكرنا من ذكر المتحققين ، ما أظن من ذكر الله تعالىٰ حاضراً من غير غفلة يبقى بعد ذكره حياً إلا الأنبياء . وقال : الكرم ترك الدنيا لمحتاجها ، والإقبال على الله لاحتياجك إليه . وقال : الزاهد حقاً لا يذم الدنيا ولا يمدحها ، ولا ينظر إليها ، ولا يفرح بها إذا أقبلت ، ولا يحزن عليها إذا أدبرت . وقال : إذا جاع القلب وعطش صفا ورق ، وإذا شبع وروي عمي ، وقال : رَدُّ سبيل العجب بمعرفة النفس ؛ وقال : إني لأمرض فأعرف الذنب الذي سببه المرض . وقال : أحسن ما يتوسل به العبد لمولاه دوام الفقر إليه في كل حال ، وملازمة السنة في جميع الأفعال ، وطلب القوت من حلال . وقال : ما أسرع هلاك من لا يعرف عيبه فإن المعاصي بريد الكفر .

وسئل عن التوبة فقال : ليس للعبد من التوبة شيء ، لأن التوبة إليه لا منه ؛ وقال : ضَحِكُ العارفِ التبسمُ وقال : من عمل شيئاً من أنواع الخير بلا نية أجزأته النية الأولى ، حين اختار الإسلام على الأديان كلها . وقال : أهل الطاعة في ليلهم ألذّ من أهل اللهو في لهوهم ، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا .

١٨ ـ **ومنهم : أبو تراب عسكر بن حُصين النخشبي** . صحب حاتماً الأصم وأبا حاتم العطار المصري . مات سنة خمس وأربعين ومئتين ، نهسته السباع ، كان شيخ عصره . قال ابن الجلاّء : صحبت ستمئة شيخ ، ما لقيت فيهم مثل أربعة ، أوّلهم أبو تراب ، وقف خمساً وخمسين وقفة بعرفة .

ومن فوائده : إن الله يُنطِقُ العلماء في كل وقت بما يشاكل أعمال ذلك الزمن ، وقال : إذا تواترت على أحدكم النعم فليبك على نفسه ، فإنه قد سلك به غير منهج الصلحاء ، فإن أشد الناس بلاءً الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل . وقال : العارف لا يكدره شيء ويصفو به كل شيء . وقال : الناس يحبون ثلاثة وليست لهم : النفس والروح وهما لك ، والمال وهو للورثة ، ويطلبون اثنين ولا يجدونهما : الفرح والراحة وهما في الجنة ، وقال : إذا ألفت القلوب الإعراض عن الله تعالىٰ صحبتها الوقيعة في أولياء الله . وقال : إذا صدق العبد في العمل وجد حلاوته قبل أن يعمله ، فإذا أخلص فيه وجد حلاوته ولذته وقت مباشرة الفعل ، وقال إسماعيل بن نجيد : كان أبو تراب إذا رأى من أصحابه ما يكره زاد في اجتهاده وجدّد توبته ، ويقول : بشؤمي دفعوا إلى ما دفعوا إليه ، لأن الله تعالىٰ يقول : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] وكان أبو تراب يقول : بيني وبين الله عهد ألا أمد يدي إلى حرام إلا قصرت يدي عنه .

وسئل عن التوكل فقال : الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم .

١٩ ـ **ومنهم : أبو محمد عبد الله بن خُبَيْق** . كوفي سكن أنطاكية . عن فتح بن شخرف قال : أول ما لقيني عبد الله بن خُبَيْق قال لي : يا خراساني ! إنما هي أربع لا غير : عينُك وقلبُك ولسانُك وهواك ، فانظر عينك لا تنظر بها إلى ما لا يحل ، وانظر لسانك لا تقل به شيئاً يعلم الله خلافه من قلبك ، وانظر قلبك لا يكن فيه غل ولا حقد على أحد ، وانظر هواك لا تهوى به شيئاً من الشر ، فإذا لم يكن فيك هذه الأربع فاجعل الرماد على رأسك فقد شقيت . وقال : لا تغتمّ إلا من شيء يضرك غداً ، ولا تفرح إلا بشيء يسرك غداً ، وقال : وحشة العباد عن الحق أوحشت منهم القلوب ، ولو أنهم أنسوا بربهم لاستأنس بهم كل أحد ، وقال : أنفع الخوف ما حجزك عن المعاصي ، وأطال منك الحزن على ما فات ، وألزمك الفكرة في بقية عمرك ، وأنفع الرجاء ما

سهّل عليك العمل ، وقال : طول الاستماع إلى الباطل يطفىء حلاوة الطاعة من القلب ، وقال : إن لم تخش أن يعذبك الله على أفضل أعمالك فأنت هنالك ، وقال : رأس الأدب أن يعرف الرجل قدره ؛ وقال : أوحى الله إلى موسى : لا تغضب على الحمقى فيكثر غمك . وقال : كان حبر من أحبار بني إسرائيل يقول : يا رب كم أعصيك ولا تعاقبني ؟ فأوحى الله إلى نبي من الأنبياء ، قل له : أعاقبك وأنت لا تدري ! ألم أسلبك حلاوة مناجاتي ؟ . وقال : من عاتب نفسه في مرضاة الله آمنه الله من مقته ؛ وقال : مكتوب في الحكمة من رضي بدون قدره رفعه الله فوق غايته ؛ وقال : أنت لا تطيع من يحسن إليك ، فكيف تحسن إلى من يسيء إليك ؟ .

وقال : لا يستغني حال من الأحوال عن الصدق ، وهو يستغني عنها كلها ، ولو صدق عبد فيما بينه وبين الله حقّ الصدق ، اطّلع على خزائن الغيب ؛ وقال : خلق الله القلوب مساكن للذكر ، فصارت مساكن للشهوات ، ولا يمحي الشهوات من القلوب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق .

٢٠ ـ **ومنهم : أبو علي الأنطاكي** . من أقران بشر بن الحارث والسقطي والمحاسبي . وأبو سليمان الداراني كان يسميه جاسوس القلوب ، لِحِدَّة فراسته .

قال أبو علي : إذا طلبت صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ ﴾ [التغابن : ١٥] ونحن نستزيد من الفتنة . وقال : إذا صارت المعاملة إلى القلب استراحت الجوارح ، وقال : أصلح فيما بقي يغفر لك ما قد مضى . وقال : الخير كله في حرفين : زوى عنك الدنيا ويمن عليك بالقنع ، ويصرف عنك وجوه الناس ، ويمن عليك بالرضا . وقال : التزيّن اسم لثلاث معان : متزيّن بعلم ومتزين بجهل ومتزيّن بترك التزيّن ، وهو أحبها إلى إبليس . وقال : احذر الغيبة كما تحذر عظيم البلاء فإنها إذا ثبتت في القلب أتتها أخواتها من النميمة ، والبغي ، وسوء الظن ، والبهتان ، وهي مجانبة للإيمان . وقال : كل نفس مسؤولة فمرتهنة أو

متخلصة ، وفكاك المرهون بعد قضاء الديون ، فإذا تلف المرهون أكدت الديون ، فاستوجبوا السجون . وقال : ارجع إلى الاستعانة بالله على شرور هذه الأنفس ، ومخالفة هذه الأهواء ، ومجاهدة هذا العدو . وقال : من قلّ صبره على علاج عدوه ساعد عدوه على مجاهدته ، فهو أهل لأن يضحك منه الضاحكون . وقال : كفى بالعبد عاراً أن يدّعي دعوة لا يحققها بفعله أو يجعل لغير ربه من قلبه نصيباً أو يستوحش مع ذكره . وقال : من كان بالله أعرف كان منه أخوف .

٢١ ـ **ومنهم** : **أبو السريّ منصور بن عمار** . كان من الواعظين الأكابر مات ببغداد سنة خمس وعشرين ومئتين .

من كلامه رضي الله عنه : من جزع من مصائب الدنيا تحوَّلت مصيبته في دينه . وقال : أحسن لباس العبد التواضع والانكسار ، وأحسن لباس العارفين التقوى ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف : ٢٦] . قيل في توبته : إنه وجد في الطريق رقعة مكتوب عليها بسم الله الرحمن الرحيم ، فرفعها فلم يجد لها موضعاً فأكلها ، فرأى في النوم كأن قائلاً قال له : فتح الله عليك باب الحكمة باحترامك لتلك الرقعة .

رؤي في المنام بعد موته فسئل : ما فعل الله بك ؟ قال : قال لي : أنت منصور بن عمار ! فقلت : بلى يا رب . فقال : أنت الذي كنت تزهد الناس في الدنيا وتُرَغِّبُ فيَّ ؟ قلت : قد كان ذلك يا رب ، ولكني ما اتخذت مجلساً إلا بدأت بالثناء عليك ، وثنّيت بالصلاة على نبيك ﷺ ، وثلّثت بالنصيحة لعبادك . فقال صدق ! صُفّوا له كرسيّاً يمجّدني في سمائي بين ملائكتي ، كما كان يمجدني في أرضي بين عبادي .

وقال سليم بن منصور : رأيت والدي في المنام فقلت : ما فعل الله بك فقال : قرّبني وقال لي : يا شيخ السوء تدري لم غفرت لك ؟ قال : لا يا رب . قال : إنك جلست للناس يوماً مجلساً فأبكيتهم ، فبكى فيهم عبد من عبيدي لم يبك من خشيتي قط ، فغفرت له ، ووهبت أهل المجلس كلهم

له ، ووهبتك فيمن وهبت له .

وقال : سلامة النفس في مخالفتها ، وبلاؤها في اتباعها . وقال : الناس رجلان عارف بنفسه ، فشغله المجاهدة والرياضة ، وعارف بربّه فشغله الخدمة والعبادة طلب لمرضاته .

كتب إليه بشر المريسي يسأله في القرآن : أمخلوق هو أم لا ؟ فأجابه : اعلم أن الكلام في القرآن بدعة ، اشترك فيها السائل والمجيب ، فتعاطى السائل ما ليس له ، وتكلّف المجيب ما ليس له ، والله تعالىٰ الخالق وما دون الله مخلوق ، والقرآن كلام الله وانْتَهِ إلى أسمائه التي سماه الله تعالىٰ بها تكن من المهتدين . ولا تبتدع في القرآن من قبلك اسماً تكن من الضالين ، ﴿ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

وقال : الغالب لهواه أشد من الذي يفتح المدينة لوحده ؛ وقال : قلوب العباد روحانية فإذا دخلها الشك أو الخبث امتنع منها روحها ، وقال : الحكمة تنطق في قلوب العارفين بلسان التصديق ، وفي قلوب الزاهدين والعبّاد بلسان التوفيق ، وفي قلوب المريدين بلسان التفكير ، وفي قلوب العلماء بلسان التذكير ؛ وقال : سبحان من جعل قلوب العارفين أوعية الذكر ، وقلوب أهل الدنيا أوعية الطمع ، وقلوب الزاهدين أوعية التوكل .

٢٢ ـ **ومنهم : أبو صالح حمدون بن أحمد القصَّار** . نيسابوري شيخ الملامتية ، والملامتية يسترون صلاحهم بأمور تتداولها العوام وليست بمعاص في الحقيقة . صحب سلماً الباروسي والنخشبي مات سنة إحدى وسبعين ومئتين .

سئل حمدون : متى يجوز للرجل أن يتكلم على الناس ؟ فقال : إذا تعيّن عليه أداء فرض من فرائض الله تعالىٰ في علمه ، أو خاف هلاك إنسان في بدعة ، وهو يرجو أن ينجيه الله منها . وقال : من ظن أن نفسه خير من نفس فرعون فقد أظهر الكبر ، وقال : منذ علمت أن للسلطان فراسة في الأشرار ما خرج خوف السلطان من قلبي . وقال : إذا رأيت سكراناً فتمايل على نفسك

وخف عليها من التغيير والنقص ، لئلا تبغي عليه فتبتلي بمثل ذلك .

وقال عبد الله بن منازل : قلت لحمدون : أوصني . فقال : إن استطعت ألا تغضب لشيء من الدنيا فافعل ، ومات صديق له وهو عند رأسه ، فلما مات أطفأ حمدون السراج ، فقالوا له : في مثل هذا الوقت يزاد في السراج الدهن ! فقال لهم : إلى هذا الوقت كان الدهن له ، ومن هذا الوقت صار الدهن للورثة . وقال : من نظر في سير السلف عرف تقصيره وتخلّفه عن درك درجات الرجال . وقال : لا تفش على أحد ما تحب أن يكون مستوراً منك .

وقال : كفايتك تساق إليك من غير تعب ولا نصب ، وإنما التعب في الفضول .

وقال : لا يجزع من المصيبة إلا من اتهم ربه ، وقال : لا أحد أدون ممن يتزين إلى دار فانية ، ويتذلل إلى من لا يملك له ضراً ولا نفعاً ، وقال : إنما كان كلام السلف أنفع من كلامنا ، لأنهم تكلموا لعز الإسلام ، ونجاة النفوس ، ورضا الرحمن ، ونحن نتكلم لعز النفوس ، وطلب الدنيا ، ورضا الخلق . وقال : أنت عبد ما لم تطلب من يخدمك ، فإذا طلبته خرجت من حد العبودية ، وقال : إذا اجتمع إبليس وجنوده لم يفرحوا كفرحهم بثلاثة : مؤمن قتل مؤمناً ، ورجل يموت كافراً ، وقلب فيه خوف الفقر . وقال : اصحب الصوفية فإنهم ليس للقبيح عندهم خطر ، ولا للحسن عندهم مقدار . وقال : ما دمت لا تعرف عيب نفسك فأنت محجوب . وقال : شكر النعمة أن ترى نفسك فيها طفيلياً . وقال : أوصيكم بصحبة العلماء ، واحتمال الجهال ، ومن رأيتم فيه خصلة من الخير لا تفارقوه . وقال : إن استطعت أن تصبح مفوضاً لا مدبّراً فافعل ، وقال : من استطاع منكم أن لا يعمى عن نقصان نفسه فليفعل . وقال : من شغله طلب الدنيا عن الآخرة ذلّ في الدنيا والآخرة .

٢٣ ـ **ومنهم : أبوالقاسم الجنيد بن محمد** . سيد الطائفتين من نهاوند ، منشؤه ومولده بالعراق ، وكان فقيهاً على مذهب أبي ثور ، يفتي بحضرته ، وهو ابن عشرين سنة ، أبوه كان يبيع الزجاج ، فقيل له : القواريري ، أخذ

التصوف عن خاله السريّ السقطي والحارث المحاسبي ، دعا له السري فقال : جعلك الله صاحب حديث صوفياً ، ولا جعلك صوفياً صاحب حديث ، فمن حصل الحديث والعلم ثم تصوّف فقد أفلح ، ومن تصوف قبل العلم خاطر بنفسه .

ومن كلامه رضي الله عنه : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، وهما الشاهدان العادلان . صحب الجنيد من هذه الطائفة أربع طبقات ، كل طبقة ثلاثون رجلاً ، وانتهت إليه الرياسة .

وقال : ما أخرج الله علماً إلى الأرض ، وجعل للخلق إليه سبيلاً ، إلّا جعل لي فيه حظاً ونصيباً .

كان ورده كل يوم ثلاثمئة ركعة ، وكان الكتبة يحضرون مجلسه لألفاظه ، والفقهاء لتقريره ، والفلاسفة لدقة نظره ومعانيه ، والمتكلِّمون لتحقيقه ، والصوفية لإشاراته وحقائقه .

ومن حِكَمِهِ : من لم يسمع الحديث ، ويجالس الفقهاء ، ويأخذ أدبه عن المتأدبين ، أفسد من اتبعه .

وسئل ما الفرق بين المريد والمراد ؟ فقال : المريد تولّته سياسة العلم ، والمراد تولته رعاية الحق ، فإن المريد يسير والمراد يطير ، وأين السيَّار من الطيّار ؟. وقال : الإخلاص سر بين العبد وربه ، لا يعلمه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، ولا هوى فيهلكه ؛ وقال : الصادق يتقلب في اليوم أربعين مرة ، والمرائي يثبت على حال واحدة أربعين سنة . وقال : الاستئناس بالناس حجاب عن الله تعالىٰ ، والطمع فيهم فقر في الدارين .

وقال : بني الطريق على أربع : لا تتكلم إلا عن وجود ، ولا تأكل إلا عن فاقة ، ولا تنم إلا عن غلبةٍ ولا تسكت إلا عن خشية ؛ وقال : صفاء القلوب على حسب صفاء الذكر وخلوصه من الشوائب . وقال : من زعم أنه يعرف الله وهو كاذب ابتلاه بالمحن ، وحجب ذكره عن قلبه ، وأجراه على لسانه ، فإن تنبّه وانقطع إليه وحده كشف عنه المحن ، وإن أدام السكون إلى الخلق نزعت

من قلوبهم الرحمة عليه ، وألبس لباس الطمع فيهم . فتصير حياته عجزاً ، وموته كمداً ، وآخرته أسفاً ، نعوذ بالله من الركون إلى غيره .

وسئل عن العارف فقال : لون الماء لون إنائه ، أي : فهو بحكم وقته .

وقال : يجعل أحدهم بينه وبين قلبه مخلاة من الطعام ، ويريد أن يجد حلاوة المناجاة . وقال : كنت بين يدي السريّ ألعب وأنا ابن سبع والجماعة يتكلمون في الشكر فقال : يا غلام ما الشكر ؟ قلت : ألّا يعصى الله بنعمه . فقال : أخشى أن يكون حظك من الله القول فلا أزال أبكي على هذه الكلمة .

وقال : حججتُ على الوحدة فجاورت بمكة ، فكنت إذا جن الليل دخلت الطواف وإذا بجارية تطوف وتقول :

أبى الحب أن يخفى وكم قد كتمته ... فأصبح عندي قد أناخ وأطنبا
إذا اشتد شوقي هام قلبي بذكره ... وإن رمتُ قرباً من حبيبي تقرّبا
ويبدو فأفنى ثم أحيا به له ... ويسعدني حتى ألذّ وأطربا

فقلت لها : يا جارية أما تتقين الله في مثل هذا المقام ، تتكلمين بمثل هذا الكلام ؟ فالتفتت إليّ وقالت يا جنيد :

لولا التقى لم ترني ... أهجر طيب الوسن
إن التقى شرّدني ... كما ترى عن وطني
أَفِرُّ من وجدي به ... فحبه هيمني

ثم قالت : يا جنيد تطوف بالبيت أم برب البيت ؟ فقلت : بالبيت . فرفعت رأسها إلى السماء وقالت : سبحانك سبحانك ما أعظم مشيئتك في خلقك ! خلق كالأحجار ، يطوفون بالأحجار ثم أنشأت تقول :

يطوفون بالأحجار يبغون قربة ... إليك وهم أقسى قلوباً من الصخر
وتاهوا فلم يدروا من التيه من هم ... وحلوا محل القرب في باطن الفكر
فلو أخلصوا في الودّ غابت صفاتهم ... وقامت صفات الود بالحق للذكر

فغشي عليّ من قولها ، فلما أفقت لم أرها .

وسئل ما بال أصحابك إذا سمعوا القرآن لا يتواجدون ؟ بخلاف ما إذا سمعوا الرباعيات . قال : القرآن كلام الله ، وهو صعب الإدراك ، والرباعيات كلام المحبين المخلوقين .

وقال : رأيت النبي ﷺ في المنام ، فقلت له : ما تقول في السماع الذي نفعل ويحصل منا الحركات فيه ؟ فقال : ما من ليلة إلا وأحضر معكم ، ولكن ابدؤا بالقرآن واختموا به . وقال : أقل ما في الكلام سقوط هيبة الرب جل جلاله من القلب ، والقلب إذا عري من الهيبة عري من الإيمان .

وقال : ما دام الشاكر يطلب من الله المزيد بشكره فهو غريق في حظ نفسه ، إنما الشكر أن يرى العبد أنه ليس بأهل أن تناله الرحمة لشهوده كثرة معاصيه ؛ وقال : الطريق مسدود إلا على المقتفين آثار المصطفى ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف : ١٠٨] .

وقال : طريق التصوف عنوة لا صلح فيها . وقال : التوحيد الخالص أن يرجع العبد إلى أوّله فيكون كما كان قبل أن يكون . وقال : سبب اضطراب القلب عند السماع أنه تعالىٰ لما خاطب الذرّ في الميثاق الأول بقوله : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] استفرغت عذوبة سماع كلامه الأرواح ، فإذا سمعوا نفحاً طيباً حركهم بذكره وقال : لا يصفو قلب لعمل الآخرة إلا إن تجرّد من حب الدنيا .

وقال : حقيقة المشاهدة وجود الحق مع فقدانك ، وقال : العبادة على العارفين أحسن من التيجان على رأس الملوك . وقال : إن بدت ذرة من عين الكرم والجود ألحقت المسيء بالمحسن ، وبقيت أعمالهم فضلاً لهم . فقال ابن عطاء : متى تبدو ؟ فقال : هي بادية ، قال تعالىٰ : « سبقت رحمتي غضبي » .

وقال : لو كان العلم الذي أتكلم به من عندي لفني ، لكنه من حق بدأ وإلى حق يعود .

وقال : من شارك السلطان في عز الدنيا شاركه في ذل الآخرة .

وقال : لا تيأس من نفسك مادمت تخاف ذنبك وتندم عليه .

وقال : التواضع عند أهل التوحيد تكبر ، قال الغزالي : لعل مراده أن المتواضع يثبت نفسه أوّلًا ثم يضعها ، والموحد لا يثبت نفسه ولا يراها شيئاً حتى يضعها أو يرفعها .

وقال : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ثم أنشد :

طوارق أنوار تلوح إذا بدت فتُظهِر كتماناً وتخبر عن جمع

ومر يوماً ببعض دروب بغداد ، فسمع قائلاً يقول شعراً :

منازل كنت تهواها وتألفها أيام كنت على الأيام منصورا

فقال : ما أطيب منازل الألفة ، وأوحش مقامات المخالفة ، وقال : الفتوة كف الأذى وبذل الندى ، وقال : الخشوع تذلل القلوب إلى علام الغيوب . توفي ببغداد سنة سبع أو ثمان وتسعين ومئتين .

وسئل الجنيد عن العارف فأجاب : من نطق بسرّك وأنت ساكت . وقال : ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات .

وقال الجنيد ، وقد سمع رجلاً يذكر المعرفة بالله وقال : أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الأعمال من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل ، فقال الجنيد : هذا قول قوم تكلّموا بإسقاط الأعمال ، وهو عندي عظيمة ، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا ، فإن العارفين بالله تعالىٰ أخذوا الأعمال عن الله تعالىٰ وإليه رجعوا فيها ، ولو بقيتُ ألف عام لم أنقص من أعمال البررة إلا أن يحال بي دونها .

وقال الجنيد : إن أمكنك ألا تكون آلة بيتك إلا خزفاً فافعل . وقال الجنيد : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ . وقال : لو أقبل صادق على الله ألف ألف سنة ، ثم أعرض عنه لحظة كان ما فاته أكثر مما ناله ، وقال : من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث ،

لا يقتدى به في هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، وقال : مذهبنا هذا مقيد بالأصول الكتاب والسنة . وقال : علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ . قال عليٌّ الحدّاد : حضرت مجلس ابن شريح القاضي فتكلم في الفروع والأصول بكلام حسن أعجبت منه ، فلما رأى إعجابي قال : أتدري من أين هذا ؟ قلت : يقول به القاضي . فقال : هذا ببركته مجالسة أبي القاسم الجنيد .

وقيل للجنيد : من أين استفدت هذا العلم ؟ فقال : من جلوسي بين يدي الله ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة ، وأومأ إلى درجة في داره .

رؤي في يده سبحة ، فقيل له : أنت مع شرفك تأخذ بيدك مسبحة ، فقال : طريق وصلت به إلى ربي لا أفارقه .

وكان يدخل كل يوم حانوته ويسبل الستر ، ويصلي أربعمئة ركعة ثم يعود إلى بيته . وقال أبو بكر العطوي : كنت عند الجنيد حين مات فرأيته ختم القرآن ثم ابتدأ من البقرة وقرأ سبعين آية ، ثم مات رحمه الله تعالىٰ .

ومن كلامه : من طلب عزاً بباطل أورثه الله ذلّاً بحق .

٢٤ ـ **ومنهم** : **أبو عثمان سعيد الحيري** . نسبة إلى الحيرة محلة بنيسابور ، وهي غير الحيرة المعروفة إلى جانب الكوفة .

صحب شاه الكرماني ، ويحيى بن معاذ الرازي ، وقرأ على أبي حفص الحدَّاد ، وتخرّج به ، وزوَّجه أبو حفص ابنته . مات سنة ثمان وتسعين ومئتين ، وكان مجاب الدعوة ، عاش بعد أبي حفص نيفاً وثلاثين سنة .

من فوائده : حق على من أعزه الله بالطاعة ألا يذل نفسه بالمعصية ؛ وقال : أصل التعلق بالخير لقصر الأمل ، وما دمت تتبع شهوتك وإرادتك فأنت مسجون ، فإذا فوضت أمرك لله وسلّمت استرحت .

وقال له رجل : كنت أجد بقلبي حلاوة عند إقبال الليل والآن لا أجدها . قال : لعلك مررت بشيء من الدنيا فذهب بحلاوة ذلك . وقال : اصحب

الأغنياء بالتعزز ، والفقراء بالتذلل ، فإن التعزز على الأغنياء تواضع ، والتذلل للفقراء شرف . وقال : من تفكر بالدنيا وزوالها أورثه الزهدَ فيها ، ومن تفكر في الآخرة وبقائها أورثه الرغبة فيها . وقال : من أضرّ به الرجاء حتى قارب الأمن فالخوف له أفضل ، ومن أضرّ به الخوف حتى قارب اليأس فالرجاء له أفضل . وقال : طول العتاب فرقة ، وتركه خسة . وقال : علامة السعادة أن تطيع الله وتخاف أن تكون مردوداً والشقاوة ، أن تعصيه وترجو أن تكون مقبولًا . وقيل له : متى يكون الرجل صادقاً في حب مولاه ؟ فقال : إذا خلا من خلافه ، فبكى السائل ، ووضع التراب على رأسه ، وقال : كيف أدّعي حُبَّه ولم أخل طرفة عينٍ من خلافه ؟ فبكى الحيري وقال : صادق في حُبِّه ، مقصِّر في حقِّه .

وخرج يوماً فقعد في موضعه الذي يقعد فيه للتذكير ، فسكت طويلاً ، فقال له رجل : ترى أن تقول في سكوتك شيئاً ؟ فأنشد :

وغير تقي يأمر الناس بالتقىٰ   طبيب يداوي والطبيب مريض

ومن كلامه رضي الله عنه : لا يكمل الرجل حتى يستوي في قلبه أربعة أشياء : المنع ، والعطاء ، والذل ، والعز . وقال أبو عثمان : صحبت أبا حفص مدة وأنا شاب ، فطردني مرة وقال : لا تجلس عندي ، فقمت ولم أُوَلِّهِ ظهري ، وانصرفت إلى داري ، ووجهي إلى وجهه ، حتى غبت عنه ، وجعلت على نفسي أن أحفر على بابه حفرة لا أخرج منها إلا بأمره ، فلما رأى ذلك أدناني ، وجعلني من خواصِّ أصحابه .

وروي أن رجلاً دعا أبا عثمان إلى ضيافته ، فلما وافى باب داره ، فقال له : يا أستاذ ارجع فقد ندمت فرجع ، فلما أتى منزله عاد إليه الرجل ، فقال : احضر الساعة ، فقام معه ، فلما وافى باب داره قال له مثل ما قال في المرة الأولى ، ثم فعل به كذلك ثالثاً ، ورابعاً ، وأبو عثمان يحضر ويرجع ، فلما كان بعد ذلك ، اعتذر إليه وقال : يا أستاذ أردت اختبارك ، وأخذ يمدحه ، ويثني عليه ، فقال له : لا تمدحني على خلق تجد مثله مع الكلاب ، الكلب

إذا دُعي حضر وإذا زُجر انزجر .

قال القشيري : ثلاثة لا رابع لهم ، أبو عثمان بنيسابور ، والجنيد ببغداد ، وأبو عبد الله بن الجلاّء بالشام . هذا في نظر قائله وإلا ففي الدنيا فضلاء كثيرون .

وقال أبو عثمان : منذ أربعين سنة ما أقاضي الله تعالىٰ في حال فكرهته ، ولا نقلني إلى غيره فسخطته ، ولما تغير على أبي عثمان الحال ، مزَّق ابنه أبو بكر قميصاً له على نفسه ، ففتح أبو عثمان عينيه ، حين إفاقته من الغشية ، فرأى ثوبه مقطعاً ، فقال له : خلاف السنة يا بني ؟ في الظاهر علامة رياء في الباطن .

وقال : الصحبة مع الله بحسن الأدب ودوام الهيبة والمراقبة ، والصحبة مع الرسول ﷺ باتباع سنته ، ولزوم ظاهر العلم ؛ والصحبة مع أولياء الله تعالىٰ تكون بالاحترام والخدمة ، والصحبة مع الأهل والولد والخادم والأقارب تكون بحسن الخلق ، والصحبة مع الإخوان بدوام البشر ما لم يكن إثماً ، والصحبة مع الجهّال بالدّعاء لهم والرحمة عليهم .

وقال أبو عثمان : من أمرّ السفه على نفسه قولًا وفعلاً نطق بالحكمة ، ومن أمرّ الهوى على نفسه قولًا وفعلاً نطق بالبدعة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ ﴾ [النور : ٥٤] .

٢٥ ـ **ومنهم : أبو الحسن أحمد بن محمد النوري** ، من أقران الجنيد ، صحب السريّ ، وابن أبي الحواري ، واعتلّ فبعث إليه الجنيد بصرة دراهم فردَّها ، ثم اعتل الجنيد فعاده النوري ، وقعد عنده ، ووضع يده على جبهته ، فعوفي فوراً ، وقال له : إذا عدت إخوانك فارفقهم بمثل هذا البرء . ولما سعى غلام الخليل بالصوفية إلى الخليفة ، وأمر بضرب أعناقهم ، فأحضروا وأحضر السياف ، فبادر إليه النوري ، فقال له السياف في ذلك ، فقال : لأؤثرن أصحابي بحياة لحظة ، فتحيَّر السياف ، ورمى السيف ، وأخبر الخليفة ، فردّ أمرهم لقاضي قضاة بغداد ، فسألهم عن مسائل ، فالتفت النوري

يميناً وشمالاً ، ثم أطرق ، ثم أجاب فأعجبه ، ثم قال : إن لله عباداً يقومون بالله ، ويروحون بالله ، وينطقون بالله ، ويحيون بالله ، ويموتون بالله ، ويرجعون في كل أمورهم إلى الله ، يتوكلون عليه ويتقون بجميل نظره لهم ، فبكى القاضي ، وقال للخليفة : إن كان هؤلاء زنادقة ، فما على وجه الأرض مسلم ، فأطلقهم ، وسأله القاضي عن التفاته يميناً وشمالاً ، فقال : سألت صاحب اليمين فقال : لا أعلم . وصاحب الشمال فقال : لا أعلم . فسألت قلبي فأخبرني عن ربّي ، فأجبت .

وكان شديداً في تغيير المنكر ، ولو كان فيه تلفه ، نزل الدجلة يتوضأ ، فرأى زورقاً فيه ثلاثون دناً خمراً فسأل عنها ، فقيل : للخليفة المعتضد ، فأخذ مدراةً فكسرها إلا واحداً ، فقبض عليه ، وأحضر إلى المعتضد وكان قليل الرحمة ، فلما رآه ، قال : من أنت ؟ قال : محتسب . قال : من ولّاك الحسبة ؟ قال : الذي ولّاك الإمامة . فأطرق ثم قال : ما حملك على ذلك ؟ وكيف تركت دناً واحداً ؟ قال : أعجبتني نفسي عند وصولي إليه . فخلّى سبيله .

وسئل النوري عن الحبيب والخليل ، فقال : ليس من طولب بالتسليم كمن بادر بالتسليم ثم أنشد :

وكم رمت أمراً خرت لي في انصرافه وما زلت بي مني أبرّ وأرحما
عزمت على ألا أحس بخاطر من القلب إلا كنت أنت المقدّما
وألا تراني عندما قد كرهته لأنك في قلبي الكبير المعظّما

ومن فوائده : التصوف ترك كل حظ للنفس ، وقال : لا يصح لعبد مقام المشاهدة وفيه نظر لغير الله ، ومتى طلع الصباح استغني عن المصباح . وقال : الجمع بالحق تفرقة عن غيره ، والتفرقة عن غيره جمعٌ به . وقال : من وصل إلى وده أنس بحبه ، ومن توصّل بالوداد فقد اصطفاه الله من بين العباد .

دخل عليه الشبلي يوماً ، فرآه ساكناً لا يتحرك ، فقال له : من أين أخذت

هذه المراقبة والشكوى ؟ فقال : من سنّور لي إذا أراد الصيد لا تتحرك منه شعرة. وقال : نعت الفقير السكون عند العدم ، والبذل والإيثار عند الوجدان.

وقال : أعز الأشياء في زماننا شيئان : عالم يعمل بعلمه ، وعارف ينطق عن حقيقة .

وقال : من رأيته يدّعي مع الله حالة تخرجه عن حَدِّ العلم الشرعي فلا تقربن منه ، فإنه مبتدع . وقال الجنيد : مذ مات النوريّ لم يخبر عن حقيقة الصدق أحد ، وقال المغازلي : ما رأيت أعبد من النوري ! قيل : ولا الجنيد ؟ قال : ولا الجنيد . وقيل : كان يخرج كل يوم من داره ويحمل الخبز معه ، ثم يتصدَّق به في الطريق ، ويدخل مسجداً يصلي فيه إلى قريب من الظهر ، ثم يخرج منه ويفتح باب حانوته ويصوم ، فكان أهله يتوهمون أنه يأكل في السوق ، وأهل السوق يتوهمون أنه يأكل في بيته ، وبقي على هذا النهج في ابتدائه عشرين سنة .

٢٦ ـ **ومنهم** : **أبو عبد الله بن يحيى الجلاّء** . بغدادي الأصل ، مات سنة ست وثلاثمئة ، أقام بالرملة ودمشق ، صحب أبا تراب النخشبي ، وذا النون المصري ، وأباه يحيى الجلاء ، وانتفع بهم .

قال ابن الجلاّء لأبيه وأمه : أحب أن تهباني لله عز وجل ! فقالا : قد وهبناك لله عز وجل ، فغبت عنهما مدة ، فلما رجعت كانت ليلة مطيرة ، فدققت الباب ، فقال لي أبي : من ذا ؟ قلت : ولدك أحمد . قال : كان لنا ولد فوهبناه لله تعالىٰ ، ونحن من العرب لا نسترجع ما وهبناه ، ولم يفتح لي الباب . وقال : من استوى عنده المدح والذمّ فهو زاهد ، ومن حافظ على الفرائض في أول مواقيتها فهو عابد ، ومن رأى الأفعال كلها من الله تعالىٰ فهو موحد ، لا يرى إلا واحداً .

ولما مات ابن الجلاّء نظروا إليه وهو يضحك ، فقال الطبيب إنه حيّ ، ثم نظر إلى مجسّته ، فقال : إنه ميت ، ثم كشف عن وجهه ، فقال : لا أدري أهو ميت أم حي ؟

٢٧ ـ **ومنهم : أبو محمد رويم بن أحمد** . مات سنة ثلاث وثلاثمئة .

من كلامه : من حكم الحكيم أن يوسع على إخوانه في الأحكام ، ويضيق على نفسه فيها ، فإن التوسعة عليهم اتباع العلم ، والتضييق على نفسه من حكم الورع .

ومن كلامه : السكون إلى الأحوال اغترار ، وقال : رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين ؛ وقال : الفقر له حرمة ، وحرمته ستره ، وإخفاؤه والغيرة عليه والضن بكشفه ؛ وقال : لي عشرون سنة لا يخطر بقلبي ذكر الطعام حتى يحضر ؛ وقال : التوكل إسقاط رؤية الوسائط والتعلق بأعلى العلائق . وقال : الإخلاص في العمل ألا يريد عوضاً في الدارين . وسئل عن نعت الفقر فقال : إرسال النفس في أحكام الله تعالىٰ ، وقال : التصوف مبني على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبذل والإيثار ، وترك التعرض والاختيار . وقال : من أحب لعوض تعوّض إليه محبوبه ؛ وقال : الإخلاص ارتفاع رؤيتك عن فعلك ، والفتوة أن تعذر إخوانك في زللهم ، ولا تعاملهم بما يحوج إلى الاعتذار إليهم . وقال : الصبر ترك الشكوى ، والرضا التلذذ بالبلوى ، واليقين المشاهدة بالبصيرة . وقال : الرضا استقبال الأحكام بالفرح . وقال : الشكر استفراغ الطاقة . وسئل عن وجد الصوفية عند السماع فقال : يشهدون المعاني التي تعزب عن غيرهم ، فتشير إليهم إليّ إليّ ، فيتمتعون بذلك من الفرح ، ثم يقع الحجاب فيعود ذلك بكاء ، فمنهم من يبكي ، ومنهم من يصيح ، كل إنسان على قدره .

وقال ابن خفيف له : أوصني . فقال : ما ينال هذا الأمر إلا ببذل الروح ، أي : إفراغ الجهد في الطاعات والإعراض عن الشهوات ، فإن أتلفك الدخول فيه مع هذا ، وإلا فلا تشتغل بترّهات الصوفية . وقال رويم : قعودك مع كل طبقة من الناس أسلم لك من قعودك مع الصوفية مع مخالفتك لطرقهم ، فإن كل الخلق غيرهم قعدوا على الرسوم ، وقعدت هذه الطائفة على الحقائق . وطالب الخلقُ كلُّهم أنفُسَهم بظواهر الشرع ، وطالب هؤلاء أنفسَهم بحقيقة

الورع ، ومداومة الصدق ، فمن قعد معهم وخالفهم في شيء مما يتحققون نزع الله نور الإيمان من قلبه .

وقال رويم : اجتزت ببغداد وقت الهاجرة ببعض السكك وأنا عطشان ، فاستسقيت من دار ، ففتحت صبية بابها ومعها كوز ، فلما رأتني بزي الصوفية قالت استعجاباً : صوفي يشرب بالنهار ؟ فأثَّر كلامها في قلبي ، وكانت لي موعظة ، فما أفطرت بعد ذلك اليوم قط .

وقال رويم : إذا رزقك الله المقال والفعال ، فأخذ منك المقال ، وأبقى عليك الفعال ، فإنها نعمة ، وإذا أخذ منك الفعال وأبقى عليك المقال فتلك مصيبة ، وإذا أخذ منك كليهما فهي نقمة وعقوبة .

٢٨ ـ **ومنهم** : **أبو عبد الله محمد بن الفضل البلخي** . ساكن سمرقند ، أخرج من بلخ فسكن سمرقند ، صحب أحمد بن خضرويه وكان أبو عثمان الحيري يميل إليه جداً ، مات سنة تسع عشر وثلاثمئة ، سئل ما علامة الشقاوة ؟ فقال : ثلاثة أشياء : يرزق العلم ويحرم العمل به ، ويرزق العمل ويحرم الإخلاص ، ويرزق صحبة الصالحين ولا يحترم لهم ، فيعاملهم بأسوء المعاملات ، وكان أبو عثمان الحيري يقول : محمد بن الفضل سمسار الرجال .

ومن كلامه رحمه الله : الراحة في السجن من أماني النفوس ، والدنيا سجن المؤمن ، وقال : ذهاب الإسلام من أربعة : لا يعملون بما يعلمون ، ويعملون بما لا يعلمون ، ولا يتعلمون ما لا يعلمون ، ويمنعون الناس من التعليم .

وقال : العجب ممن يقطع المفاوز البعيدة ليصل إلى بيت الله تعالىٰ وحرمه ، فيرى آثار النبوة ، كيف لا يقطع نفسه وهواه ليصل إلى قلبه ؟ فيرى آثار ربه عز وجل . وقال : إذا رأيت المريد يستزيد من الدنيا فذلك من علامات إدباره ؛ وسئل عن الزهد فقال : النظر إلى الدنيا بعين النقص ، والإعراض عنها تعززاً وتظرفاً وتشرفاً .

وقال ست خصال يعرف بها الجاهل :

١ ـ الغضب في غير شيء .

٢ ـ الكلام في غير نفع .

٣ ـ العظة في غير موضعها .

٤ ـ إفشاء السر .

٥ ـ الثقة بكل أحد .

٦ ـ لا يعرف صديقه من عدوه .

ومن كلامه : أنزل نفسك منزلة من لا حاجة له فيها ، ولا بد له منها ، فإن من ملك نفسه عزَّ ، ومن ملكته ذلّ .

وقال : ما خطوت أربعين خطوة لغير الله سبحانه ، وما نظرت أربعين سنة في شيء أستحسنه حياء من الله تعالىٰ .

٢٩ ـ **ومنهم** : **أبو بكر أحمد بن نصر الزقَّاق** . من أقران الجنيد ، ولما مات الزقَّاق انقطعت حجة الفقراء في دخولهم مصر ، كان أهل الأقطار إذا أتوا مصر مع أنها كثيرة الأرزاق ، لا يتهمون بأن مجيئهم عليها لكثرة الأرزاق ، إذا زعموا أنهم قصدوا الزقَّاق ، فلما مات قال الكتاني : انقطعت حجة الفقراء في دخولهم مصر لعدم من يقصدونه .

ومن كلامه : من لم يصحبه التقى في فقره أكل الحرام المحض ؛ وقال : تهت في تيه بني إسرائيل مقدار خمسة عشر يوماً ، فلما وقفت على الطريق استقبلني إنسان جندي ، فسقاني شربة من ماء ، فعادت قسوتها على قلبي ثلاثين سنة . فكانت الشربة لا تخلو من شبهة .

٣٠ ـ **ومنهم** : **أبو عبد الله عمرو بن عثمان المكي** . شيخ الطائفة ، وإمام القوم ، له مصنفات ، مات ببغداد سنة إحدى وتسعين ومئتين ، قال أبو عبد الله عمرو : كلما توهمه قلبك ، أو رسخ في مجاري فكرتك ، فالله تعالىٰ بعيد عن ذلك ، ألا تسمع إلى قوله تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾

[الشورى : ١١] ، وقال : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص : ٣ ـ ٤] ، وقال : العلم قائد ، والخوف سائق ، والنفس حرون بين ذلك ، جموح خدّاعة روّاغة ، فاحذرها ، وراعها بسياسة العلم ، وسقها بتهديد الخوف ، يتم لك ما تريد ؛ وقال : لا تقع على الوجد عبارة ، لأنه سر الله عند المؤمنين . وقال : ثلاثة أشياء من صفات الأولياء : الرجوع إلى الله تعالىٰ في كل شيء ، والثقة بالله في كل شيء ، والفقر إلى الله في كل شيء ؛ وقال : المروءة التغافل عن زلل الإخوان .

٣١ ـ **ومنهم** : **سُمنون بن حمزة** . صحب السريّ ، وكان من المشهورين بالمحبة ، كان إذا تكلم فيها جعلت قناديل الشونيزية تجيء وتذهب يميناً وشمالاً . قيل له : إنا نذكر الله ولا نجد في قلوبنا حلاوة فقال : احمدوا الله على أن زيّن جارحة من جوارحكم بذكره .

ومن **فوائده** : المحب لا يعبّر عن شيء إلا ما هو أرق منه ، ولا شيء أرق من المحبة ، فلم يعبّر عنها . وقال : أول وصل العبد هجرانه لنفسه ، وأول هجران العبد للحق مواصلته لنفسه . وقال : مضى الوقت فصار الوقت مقتاً ، وقتك خراب وأنت في المحراب ، ومن كانت عبادته عنىً كانت ثمرته ضنى . وقال : ذهب المحبون بشرف الدنيا والآخرة . وقال : إذا بسط الجليل بساط المَجْد ، دخلت ذنوب الأولين والآخرين في حاشية من حواشيه ؛ وإذا أبدى عيناً من عيون الجود ألحق المسيء بالمحسن .

وسئل عن المحبة فقال : صفاء الود مع دوام الذكر ، وعن التصوف فقال : ألّا تملك شيئاً ولا يملكك شيء .

وكان جالساً على شاطىء دجلة ، وبيده قضيب يضرب به فخذه ، حتى بان عظم فخذه وتبدد لحمه وهو يقول :

كان لي قلب أعيش به ضاع مني في تقلّبه
رَبّ فاردده عليّ فقد ضاق صدري في تطلّبه
وأغث ما دام بي رمق يا غياث المستغيث به

أنشد يوماً :

وليس لي في سواك حظ　　فكيفما شئت فاختبرني
إن كان يرجو سواك قلبي　　لا نلت سؤلي ولا التمني

فأخذه الأسر (احتباس البول) من ساعته ، فكان يدور على المَكاتب ويقول : ادعوا لعمكم الكذاب .

وقيل : أنشد هذه الأبيات ، فقال بعض أصحابه لبعض : سمعت البارحة في المنام وكنت في الرستاق (القرى) صوت أستاذنا سمنون يدعو الله ويتضرع إليه ويسأله الشفاء ، فقال آخر : وأنا أيضاً كنت سمعت هذا البارحة ، وكنت بالموضع الفلاني ، وقال ثالث ورابع مثل هذا ، فأخبر سمنون ، وكان قد امتحن بعلة الأسر ، وكان يصبر ولا يجزع ، ولم يكن هو دعا ولا نطق بشيء من ذلك ، فعلم أن المقصود منه إظهار الجزع تأدباً بالعبودية وستراً لحاله ، فأخذ يطوف على المكاتب ويقول للصبيان : ادعوا لعمكم الكذاب ، ولمّا أخذه الأمر ، مكث أربعة عشر يوماً فكان يلتوي كما تلتوي الحية على الرمل ، يتقلب يميناً وشمالاً ، فلما أطلق بولُه قال : يا رب تبت إليك ، وأنشد :

أنا راض بطول صدّك عني　　ليس إلا لأنّ ذاك هواكا
فامتحن بالجفا ضميري على الودّ　　ودعني معلّقاً برجاكا

قال أبو أحمد المغازلي : كان ببغداد رجل فرّق على الفقراء أربعين ألف درهم ، فقال لي سمنون : يا أبا أحمد : ألا ترى ما قد أنفق وما قد عمله ، ونحن ما نجد شيئاً ننفقه ، فامض بنا إلى موضع ، نصلي فيه بكل درهم أنفقه ركعة ، فمضينا إلى المدائن ، فصلَّينا أربعين ألف صلاة . وكان سمنون ظريف الخلق ، أكثر كلامه في المحبة ، مات سنة ثمان وسبعين ومئتين ، وأنشد :

وكان فؤادي خالياً قبل حبّكم　　وكان بذكر الخلق يهزا ويمرح
فلما دعا قلبي هواك أجابه　　فلست أراه عن جنابك يبرح
رميت ببين منك إن كنتُ كاذباً　　وإن كنت في الدنيا بغيرك أفرح
وإن كان شيء في البلاد بأسرها　　إذا غبت عن عيني لعيني يملح

فإن شئت واصلني وإن شئت لا تصل   فلســت أرى قلبــي لغيــرك يصلــح

٣٢ ـ **ومنهم : أبو عبيد البُسري** . نسبة إلى بُسر قرية بحوران ، صحب النخشبي . كان يوماً على نورج يدرس قمحاً له ، وبينه وبين الحج ثلاثة أيام ، إذ أتاه رجلان ، فقالا : يا أبا عبيد تنشط معنا لنحج ؟ فقال : لا ، ثم التفت إلى أبي زرعة الحسني وقال : شيخك على هذا الأمر ـ أي : طي الأرض ـ أقدر منهما ، يعني نفسه .

ومن كلامه : النعم طَرْدٌ ، فمن أحب النعم أحب الطرد ، والبلاء قربة فمن أساءه البلاء أحب ترك القربة .

روى عن ابنه نجيب قال : بينا أنظر إلى البحر ليلة النصف من شعبان ووالدي بمكان مقابلي وإذا بشخص يمشي على الماء ثم على الهواء ، ثم جاء إلى والدي ، فدخل من طاقته التي هو فيها ينظر إلى البحر ، فجلس معه ملياً يتحادثان ، ثم قام والدي يودّعه ، ورجع الرجل من حيث جاء يمشي في الهواء ، فقمت إلى والدي ، وقلت له : يا أبت من هذا الذي كان عندك يمشي على الماء ثم على الهواء ؟ فقال : يا بني وهل رأيته ؟ قلت : نعم . قال : الحمد لله رب العالمين الذي سرَّني بنظرك له . يا بنيّ : هذا الخضر ، نحن اليوم في الدنيا سبعة : ستة يجيئون إلى أبيك ، وأبوك لا يروح إلى واحد منهم .

أقول : إن الله على كل شيء قدير ، وما صح أن يكون معجزة لنبيٍ جاز أن يكون كرامة لولي ، والطيران في الهواء أمر جرى لنبينا ﷺ ليلة الإسراء والمعراج ، وطي الأرض معجزة حصلت لنبينا ﷺ ، وقدرة الله لا تعجز أن تنقل ولياً من مكان إلى مكان ، والتصديق ولاية .

٣٣ ـ **ومنهم : أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرماني** . كان من أولاد الملوك ، صحب النخشبي والبُسري ، وكان أحد الفتيان كبير الشأن ، مات قبل الثلاثمئة ، سمع قائلاً يقول : يا دنيا من خدمك فاستخدميه ، ومن خدمني فاخدميه .

فكان بعد ذلك يتكلف النوم ويقول :

رأيت سرور قلبي في منامي فـأحببـت التنعـس والمنـامـا

من كلامه : من عرف ربه طمع في عفوه ورجا فضله ، وقال : علامة الحياء ثلاثة : وجدان الأنس بفقدان الوحشة ، والامتلاء من الخلوة بإدمان التذكرة ، واستشعار الهيبة بخالص المراقبة .

وقال : من صحبك على ما يحب ، وخالفك فيما يكره ، فإنما يصحب هواه ، وقال : الفتوة من طباع الأحرار ، واللؤم من شيم الأنذال ، وما تعبد متعبد بأكثر من التحبب للأولياء ، لأن محبتهم محبة الله تعالىٰ . وقال : من نظر إلى الخلق بعينه طالت خصومته معهم ، ومن نظر إليهم بعين الله عذرهم فيما هم فيه وقلّ اشتغاله بهم . وقال : علامة الأنس بالله استيحاشه من الغافلين والسكون إلى الوحدة ومراقبة الأحبّة . وقال : التوكل سكون القلب إلى الله تعالىٰ في حالتي الموجود والمفقود ، وقال : لأهل الفضل فضل ما لم يروه ، فإذا رأوه فلا فضل لهم ، ولأهل الولاية ولاية ما لم يروها ، فإذا رأوها فلا ولاية لهم . وقال : علامة الركون إلى الباطل التقرب من المبطلين . وقال : علامة التقوى الورع ، وعلامة الورع الوقوف عند الشبهات ؛ وكان يقول لأصحابه : اجتنبوا الكذب ، والخيانة ، والغيبة ، ثم اصنعوا ما بدا لكم . وقال : من غضَّ بصره عن محارم الله وأمسك نفسه عن الشهوات ، وعمر باطنه بدوام المراقبة ، وظاهره باتباع السنة ، وعوّد نفسه أكل الحلال لم تخطىء له فراسة .

٣٤ ـ **ومنهم** : **أبو يعقوب يوسف بن الحسين** . شيخ الريّ والجبال في وقته ، وكان نسيج وحده في إسقاط التصنّع ، وكان عالماً أديباً صحب ذا النون المصري والنخشبي ورافق الخراز ، مات سنة أربع وثلاثمئة وقال : إذا رأيت المريد يشتغل بالرخص فاعلم أنه لا يجيء منه شيء . بأن يترك المندوبات . ويرتكب المكروهات والشبهات ، ويقول : لم يفتني واجب ولم أرتكب محرّماً .

وكتب إلى الجنيد : لا أذاقك الله طعم نفسك ، فإنك إن ذقتها لم تذق بعدها خيراً أبداً . وشهواتها الذميمة لذة الرياسة ، والمنزلة ، وتعظيم الخلق لك على الطاعة .

قال يوسف بن الحسين : رأيت آفات الصوفية في صحبة الأحداث ، وفي معاشرة الأضداد ، وفي رفقة النسوان . وقال : الصوفية خيار الناس ، وشرارهم خيار شرار الناس ، فهم الخيار بكل حال . وكان يقول : اللهم إنك تعلم أني نصحت الناس قولاً وخنت نفسي فعلاً ، فهب خيانتي على نفسي لنصحي للناس .

٣٥ ـ **ومنهم** : أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي . ترمذ : مدينة على طرف نهر بلخ المسمى بجيحون ، من كبار الشيوخ ، صحب النخشبي وابن خضرويه وابن الجلاّء .

سئل عن صفة الخلق فقال : ضعف ظاهر ، ودعوى عريضة ، وقال : ما صنفت حرفاً عن تدبير ولا لينسب إليّ منه شيء ، ولكن كان إذا اشتد علي وقتي أتسلّى به ، أي : بالتصنيف .

ومن كلامه : كفى بالمرء عيباً أن يسرّه ما يضره ، وقال : إذا سكنت الأرواح بالسرّ نطقت الجوارح بالبرّ . وقال : لا ينكر الكرامات إلا القلوب المحجوبة عن الله ، فإن الكرامات إنما هي صنع الحق . وقال : الولي أبداً في ستر حاله ، والكون ناطق بولايته ، ومدّعي الولاية ناطق بولايته والكون كله يكذّبه . وقال : لا يسمى عالماً إلا من لم يتعد حدود الله مرة في عمره ؛ وقال : ما استصغرت أحداً من المسلمين إلا وجدت نقصاً في معرفتي وإيماني ، وقال : ما منع الناس من الوصول إلا لركضهم في الطريق بغير دليل ، وأكلهم الشهوات ، وارتكاب الرخص والتأويلات . وقال : رأس مالك قلبك ووقتك ، وقد شغلت قلبك بهواجس الظنون ، وضيعت أوقاتك بشغلك بما لا يعنيك . وقال : أقرب القلوب إلى الله سبحانه وتعالىٰ قلبٌ رضي بصحبة الفقراء ، وآثر الباقي على الفاني ، وشهد سوابق القضاء مع الناس من

الأفعال . وقال : القناعة رضا النفس بما قسم لها ، وقال : ما من نور في القلب إلا ومعه رحمة من الله بقدر ذلك ، والعبد ما دام في الذكر ، فالرحمة دائمة عليه كالمطر ، فإذا غفل قحط ، وقال : الدنيا عروس الملوك ومرآة الزهّاد .

٣٦ ـ **ومنهم : أبو بكر محمد بن عمر الورَّاق الترمذي** . صحب ابن خضرويه وغيره .

من كلامه : من أرضى الجوارح بالشهوات غرس في قلبه شجر الندامات ، وقال في ذم الطمع : لو قيل للطمع من أبوك ؟ قال : الشك في المقدور ، ولو قيل ما حرفتك ؟ لقال : اكتساب الذّل ، ولو قيل : ما غايتك ؟ قال : الحرمان .

وكان أبو بكر يمنع أصحابه عن الأسفار والسياحات ، ويقول : مفتاح كل بركة الصبر في موضع إرادتك إلى أن تصح لك الإرادة ، فإذا صحت لك الإرادة فقد ظهرت عليك أوائل البركة .

ومن كلامه : للقلب ست صفات : حياة ، وموت ، وصحة ، وسقم ، ونوم ، ويقظة ، فحياته الهدى ، وموته الضلالة ، وصحته الطهارة والصفاء ، وعلته الكدورة والعلاقة ، ويقظته الذكر ، ونومه الغفلة ، ولكل منها علامة . فعلامة الحياة المعرفة والرهبة ، والعمل بهما ، وعلامة الموت ضد ذلك ، وعلامة الصحة اللذة ، وعلامة السقم ضد ذلك ، وعلامة اليقظة السمع والبصر والنوم بخلاف ذلك .

وقال : شكر النعمة مشاهدة المِنّة ، وقال : من اكتفى بالكلام دون الزهد تزندق ، ومن اكتفى بالزهد دون الفقه والكلام ابتدع ، ومن اكتفى بالفقه دون الزهد والورع تفسّق ، ومن تفنن في هذه كلها فقد تخلّص .

٣٧ ـ **ومنهم : أبو سعيد أحمد بن عيسى الخرّاز** . نسبة إلى خرز الجلود من القِرَب ونحوها ، من أهل بغداد صحب ذا النون المصري والبسري والسقطي وبشراً الحافي وغيرهم ، مات سنة سبع وسبعين ومئتين .

أقام كذا وكذا سنة ما فاته ذكر الحق بين الخرزتين . من كلامه : المعرفة تأتي إلى القلب من عين الجود ، وبذل المجهود ، ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ۚ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] ، وقال : علل الفناء ذهاب الحظ من الدارين . وقال : لا يكون شريفاً أبداً من لا يسكن جوعه إلا بالغذاء ، فإذا صارت الأذكار هي الغذاء فقد حصل الشرف الأعلى ، ومحي الوصف الأدنى . وقال : ليس في طبع المؤمن قول لا ، وقال : ليكن فرحك عند العطاء بالمعطي لا بالعطاء ، وتنعمك بالمنعم لا بالنعم .

قال الخراز لابن له عند موته : عظني . قال : لا تخالف الله فيما يريد ، قال : يا بني زدني . قال : لا تطيق ذلك ، قال : قل ، قال : لا تجعل بينك وبين الله قميصاً ، فما لبس قميصاً ثلاثين سنة .

وقال : إذا بكت أعين الخائفين فقد كاتبوا الله بدموعهم ، وقال : إذا جاءت البلوى تبين عندها الرجال . وقال : الأنس استبشار القلوب بذكر مولاها ، وسرورها به ، وسيرها إليه ، وأمنها معه ، وقال : المحب يتعلل إلى محبوبه بكل شيء ولا يتسلى عنه بشيء ، ويتبع آثاره ولا يدع استخباره . وقال : إذا أراد الله أن يوالي عبداً فتح عليه باب ذكره ، فإذا استلذ به فتح عليه باب القرب ، ثم رفعه إلى مجالس الأنس ، ثم رفع عنه الحجب ، ثم أدخله دار الفردانية ، وكشف له حجاب العظمة والجلال ، فبقي بلا هو ، فصار زمناً فانياً ، فوقع في حفظه سبحانه .

ومن كلامه : كل باطن خالف الظاهر فهو باطل . ورأى إبليس في النوم ، وهو يمر به بعيداً عنه ، فقلت له : قال ما لك تمشي بعيداً ؟ فقال له : إيش أعمل بكم ، أنتم طرحتم عن نفوسكم ما أخادع به الناس ، فقلت له : وما هو ؟ قال : الدنيا ، فلما ولى عني ، التفت إليّ وقال : غير أن لي فيكم لطيفة (أمر يخفى) تضركم فقلت : وما هي ؟ قال : صحبة الأحداث الشباب المرد ، وصحبة النساء الأجانب .

وقال : صحبت الصوفية ما صحبت ! فما وقع بيني وبينهم خلاف ،

قالوا : لم ؟ قال : لأني كنت معهم على نفسي .

وقال : تهت في البادية مرة فقلت :

أتيه فلا أدري من التيه مَن أنا ... سوى ما يقول الناس فيّ وفي جنسي
أتيه على جن البلاد وإنسها ... فإن لم أجد شخصاً أتيه على نفسي

فسمعت هاتفاً يهتف بي ويقول :

أيا من يرى الأسباب أعلى وجوده ... ويفرح بالتيه الدنيّ وبالإنس
فلو كنت من أهل الوجود حقيقة ... لغبت عن الأكوان والعرش والكرسي

وقال أيضاً : كنت ببادية فجعت شديداً فغلبتني نفسي أن أسأل الله صبراً ، فسمعت هافتاً :

ويزعم أنه منا قريب ... وأنا لا نضيّع من أتانا
ويسألنا القوى جهداً وصبراً ... كأنا لا نراه ولا يرانا

فأخذني الاستقلال ، فقمت ومشيت .

قيل له : بم عرفت الله ؟ قال : بجمعه للضدّين ، قال : من لم يعرف نفسه كيف يعرف ربه ؟ وقال : من شهد صنع الربوبية في إقامة العبودية فقد انقطع إلى ربه ، وحينئذ يسلم من الاستدراج .

وقال : حقيقة المحبة تقطيع الفؤاد وتشتيت المراد ، ولولا لطف الله بعبده موسى لأصابه أعظم مما أصاب الجبل حال التجلّي . وقال : المحبة : ألا ترى الإحسان إلا من محبوبك ولا تطيع إلا مطلوبك . وقال : رأيت المصطفى فقلت : اعذرني فإن محبة الله شغلتني عن محبتك ، فقال : يا مبارك من أحب الله فقد أحبّني .

٣٨ ـ **ومنهم : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل المغربي** . أستاذ إبراهيم بن شيبان ، وتلميذ علي بن رزين ، عاش مئة وعشرين سنة ، ومات سنة تسع وتسعين ومئتين ، كان عمدة الصوفية ومرجع أهل الاختصاص .

من كلامه : الفقير لا يرجع إلى مستند في الكون غير الالتجاء إلى من إليه

فقره ، ليغنيه بالاستغناء به ، وقال : الراضون بالفقر أمناء الله في أرضه ، وحجته على عباده ، بهم يدفع البلاء عن الخلق ، وقال : من ادعى العبودية ، وله مراد باق فيه فهو كذاب ، إنما تصح العبودية لمن أفنى مراداته في مرادات سيده .

وقال : العارف تضيء له أنوار العلم ، فينظر بها عجائب الغيب ، قال إبراهيم بن شيبان : ما رأيته انزعج إلا يوماً واحداً ، كان على الطور وهو مستند إلى شجرة خرّوب وهو يتكلم علينا ، فقال في كلامه : لا ينال العبد مراده حتى ينفرد فرداً بفرد ، فانزعج ، واضطرب ، ورأيت الصخور قد تدكدكت ، وبقي ، فلما أفاق كأنه نشر من قبر ، مات على جبل طور سينا . وقال : أفضل الأعمال عمارة الأوقات بالموافقات . وقال : أعظم الناس ذلّاً فقير داهن غنياً أو تواضع له ، وأعظم الخلق عزاً غني تذلل للفقراء وحفظ حرمتهم .

٣٩ ـ **ومنهم : أبو العباس أحمد بن محمد بن مسروق** . من أهل طوس صحب المحاسبي والسريّ ، توفي ببغداد سنة تسع وتسعين ومئتين . من كلامه رضي الله عنه : بكثرة النظر إلى ما سوى الله تذهب معرفة الحق من القلب . وقال : من لم يحترز بعقله من عقله لعقله هلك بعقله . وقال المؤمن مقوّىً بذكر الله ، والمنافق بالأكل والشرب . وقال : الحب قيد المحبين إذا صح ، وزمام المحبوبين إلى المحبين . وقال : من ترك التدبير عاش في راحة . وقال : من راقب الله تعالىٰ في خطرات قلبه عصمه الله في حركات جوارحه . وقال : تعظيم حرمات المؤمنين من تعظيم حرمات الله تعالىٰ ، وبه يصل العبد إلى كل حقيقة التقوى . وقال : شجرة المعرفة تسقى بماء الفكرة ، وشجرة الغفلة تسقى بماء الجهل ، وشجرة التوبة تسقى بماء الندامة ، وشجرة المحبة تسقى بماء الإنفاق والموافقة ، وقال : متى طمعت في المعرفة ولم تحكم قبلها مدارج الإرادة فأنت في جهل ، ومتى ما طلبت الإرادة قبل تصحيح مقام التوبة فأنت في غفلة عما تطلب .

٤٠ ـ **ومنهم : أبو الحسن علي بن سهل الأصبهاني** . من أقران الجنيد ،

قصده عمرو بن عثمان المكي في دَيْنٍ ركبه فقضاه عنه ، وهو ثلاثون ألف درهم .

من كلامه : حرام على من عرف الله أن يسكن لغيره . وقال : من فقه قلبه أورثه ذلك الإعراض عن الدنيا وأهلها ، فإن من جهل القلب متابعة سرور لا يدوم . وقال : التصوف التبري عمن دونه والتخلي عما سواه . وقال : التوجه قريب من الظنون بعيد في الحقائق . وقلت لأصحابي : هي الشمس ضوءها قريب ولكن في تناولها بعد . وقال : المبادرة إلى الطاعات من علامات التوفيق ، والتقاعد عن المخالفات من علامات حسن الرعاية ، ومراعاة الأسرار من علامات التيقظ ، وإظهار الدعاوى من الرعونات البشرية ، ومن لم تصح مبادي إرادته باتباع الكتاب والسنة لا يسلم في منتهى عواقبه .

٤١ ـ **ومنهم : أبو محمد الجريري** . من كبار أصحاب الجنيد صحب التستري ، وأُقعد مكان الجنيد بعد وفاته . مات سنة إحدى عشرة وثلاثمئة ، مات سنة الهبير التي كان فيها هلاك الناس .

من كلامه : ذكرك منوط بك إلى أن يتصف ذكرك بذكره ، فإذ ذاك تخلص من العلل ، فما قُرِنَ حَدَثٌ بقدم إلا تلاشى ، يبقى الأصل وتتلاشى الفروع ، وقال : من رضي بدون قدره رفعه الله تعالىٰ فوق غايته . وقال : إن الله لا يعبأ بصاحب حكاية ، إنما يعبأ بصاحب قلب ورواية ، وقال : من لم يحكم بينه وبين الله التقوى والمراقبة لم يصل إلى الكشف والمشاهدة ؛ وقال : قدمت من مكة فبدأت بالجنيد لئلا يأتي إليّ ، فسلمت ، ثم مضيت إلى منزلي ، فلما صليت الصبح إذا به خلفي ، فقلت : أنا جئتك أمس لئلا تبغيني . قال : ذلك فضلك وهذا حقك . وقال : من توهَّم أن أعماله توصله إلى مأموله الأعلى أو الأدنى فقد ضل عن الطريق ، لأن المصطفى ﷺ قال : « لن يُنجي أحدَكم عمله »[١] فما لا ينجي من المخوف كيف يبلغ المأمول ، ومن صحَّ اعتماده

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٥) و (٢/ ٤٨٢) ومسلم (٢٨١٦) (٧٣) .

على فضله ، فذاك الذي يرجى له الوصول . وجاءه رجل فقال له : كنت على بساط الأنس ، ففتح عليّ باب من البسط ، فزللت زلةً فحجبت عن مكاني ، فكيف السبيل إليه ؟ فبكى وأبكى وأنشده :

قف بالديار فهذه آثارهم ... تبكي الأحبة حسرة وتشوّقا

كم قد وقفت بربعها مستخبراً ... عن أهلها أو حائراً أو مشفقا

فأجابني داعي هواهم مسرعاً ... فارقت من تهوى فعزّ الملتقى

وقال : من استولت عليه النفس صار أسيراً في حكم الشهوات ، محصوراً في سجن الهوى ، وحرم الله على قلبه الفوائد ، فلا يستلذ بكلام الله تعالىٰ ولا يستحليه ، وإن كثر ترداده على لسانه ، لقوله تعالىٰ : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ١٤٦] . وقال الجريري : رؤية الأصول باستعمال الفروع وتصحيح الفروع بمعارضة الأصول ، ولا سبيل إلى مشاهدة الأصول إلا بتعظيم ما عظم الله من الوسائط والفروع .

٤٢ ـ **ومنهم** : **أبو العباس أحمد بن محمد بن عطا الأدمي** . نسبة إلى بيع الأدم ، من كبار مشايخ الصوفية وعلمائهم ، من إخوان الجنيد ، كان الخراز يعظم شأنه ، صحب إبراهيم المارستاني ، مات سنة تسع وثلاثمئة .

من كلامه رضي الله عنه : من ألزم نفسه آداب الشريعة نور الله قلبه بنور المعرفة ، ولا مقام أشرف من متابعة النبي ﷺ في أوامره وأخلاقه وأفعاله ، وقال : الذوق أول المواجيد ، وأهل الغيبة عن الله إذا شربوا طاشوا ، وأهل الحضور إذا شربوا عاشوا . وقال : أقبح من كل قبيح صوفي شحيح ، وقال : ليس كل من صلح للمجالسة صلح للمؤانسة ، ولا كل من صلح للمؤانسة يؤتمن على الأسرار . وقال : من ألزم نفسه السنة عمَّر الله قلبه بنور المعرفة ، وقال : إذا كانت نفسك غير ناظرة إلى قلبك فأدبها بمجالسة الحكماء . وقال : القلب إذا اشتاق إلى الجنة أسرعت إليه هدايا الجنة ، وهي المكروه . وقال : من علامة الصادق رضا القلب بحلول المكروه . وقال : ادن قلبك من مجالسة الذاكرين لعله ينتبه من غفلته . وقال : القبض أول أسباب الفناء ،

والبسط أول أسباب البقاء . فمن قبض فحاله الغيبة ، ومن بسط فحاله الحضور .

وقال : رأيت في النوم قائلاً يقول : أي شيء أصح في الصلاة ؟ قلت : صحة القصد ، فقال هاتف : بل رؤية المقصود بإسقاط رؤية القصد أتم .

وقال : رؤية الثواب عند ذكر الله غفلة عن الله ، وقال : العبودية ترك الاختيار ، ولزوم الافتقار .

وإياك أن تلاحظ مخلوقاً وأنت تجد إلى ملاحظة الحق سبيلاً .

وقال : أي منزلة إذا قام العبد بها قام مقام العبودية ؟ فقال : ترك التدبير .

وقال : لا تجد السلامة حتى تكون في التدبير كأهل القبور .

وقال : الرضا ترك الخلاف على الله تعالىٰ ، فيما يحرمه على العبد .

وقال : الصبر الوقوف مع البلاء بحسن الأدب .

وقال : الشوق احتراق الأحشاء وتقطع الأكباد .

وقال : أعظم الغفلة غفلة العبد عن ربه عز وجل ، وغفلته عن أوامره ونواهيه ، وغفلته عن آداب معاملته . وقال : كل ما سئلت عنه فاطلبه في مفازة العلم ، فإن لم تجده ففي ميدان الحكمة ، فإن لم تجده فزنه بالتوحيد ، فإن لم تجده في هذه المواضع الثلاث ، فاضرب به وجه الشيطان .

وقال : علامة الولي أربعة : صيانة سره فيما بينه وبين الله ، وحفظ جوارحه فيما بينه وبين أمره ، واحتمال الأذى فيما بينه وبين خلقه ، ومداراته للخلق على تفاوت عقولهم .

وقال : لما عصى آدم ربه بكى عليه كل شيء في الجنة إلا الذهب والفضة ، فأوحى الله إليهما : لم لا تبكيان على آدم ؟ فقالا : ما لنا نبكي على من يعصيك ؟ فقال : وعزتي وجلالي لأجعلنَّ قيمة كل شيء بكما ، ولأجعلنَّ بني آدم خدماً لكما .

٤٣ ـ **ومنهم** : **إبراهيم الخواص** . من أقران الجنيد والثوري ، له في

التوكل حظ كبير ، مات بالري سنة إحدى وتسعين ومئتين .

كان مبطوناً ، فكان كلما قام ، توضأ وعاد إلى المسجد وصلى فيه ركعتين ، فدخل مرة الماء فمات .

من فوائده : من لم يصبر لم يظفر ، وقال : من أراد الله يذل له نفسه فأدناه من قربه ، ومن أراد لنفسه أشبعه من جنانه وأدناه من رضوانه .

وقال : الناس رجلان حرّ وعبد ، فالحر مهموم بتدبير نفسه ومتعوب بالسعي في مصلحته ، والعبد طرح نفسه في ظن الربوبية ، والمتوكلون الواثقون بضمانه غابوا عن الأوهام وعن عيون الناظرين ، فعظم خطر ما أوصلهم إليه ، وجلَّ قدر ما حملهم عليه ، فيا طيب عيش لو عقل ، ويا لذة وصف لو كشف ، ويا رفعة قدر لو وصف .

وكان عامة مناجاته :

برح الخفاء وفي التلاقي راحة　　هل يشتفي خل بغير خليله

وتأوَّه فقال : كيف يفلح من يسره ما يضره ؟

وأنشد :

تعودت من الضر حتى ألفته　　وأحوجني طول البلاء إلى الصبر
وقطعت أطماعي من الناس آيساً　　لعلمي بصنع الله من حيث لا أدري

وقال : العالم من عمل بعلمه وإن قلّ ، وقال : بقدر إعزاز المؤمن أمر الله يلبسه من عِز ، ويقيم له العزّ في قلوب الناس .

وقال : شرط الفقير استواء أوقاته في الانبساط .

وقال : لقيت الخضر في البادية فسألني الصحبة فخفت أن يفسد علي توكلي بالسكون له ففارقته .

وقال : المفاخرة والمكاثرة يمنعان الراحة ، والعجب يمنع معرفة عيوب النفس ، والتكبر يمنع معرفة الصواب ، والبخل يمنع الورع .

وقال : الهالك من ضل أواخر عمره حتى قارب المنون .

وقال : التسليم أن تعلم أن الله أشفق عليك من نفسك ؛ وقال : أشد ما يعذب الله به عباده مفارقة حضرته .

وقال : اجتمع رأي سبعين صديقاً على أن كثرة النوم من كثرة شرب الماء .

وقال : دواء القلب خمسة : قراءة القرآن ، والتدبر ، وخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرع عند السحر ، ومجالسة الصالحين .

وكان يقبض على لحيته ويقول :

هذا ولهي وكم كتمت الولها ... صوناً لحديث من هوى النفس لها

يا آخر محنتي ويا أولها ... أيام عناي فيك ما أطولها

وقال : ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما العالم من اتبع العلم واستعمله ، واقتدى بالسنن وإن كان قليل العلم .

٤٤ ـ **ومنهم : أبو محمد عبد الله الخرَّاز** . كان من المتورعين ، مات قبل العشرة وثلاثمئة .

قال رحمه الله : الجوع طعام الزاهدين والذكر طعام العارفين .

٤٥ ـ **ومنهم : بنان الحمّال** . واسطي الأصل ، أقام بمصر ، ومات بها سنة عشرة وثلاثمئة .

سئل بنان عن أجلّ أحوال الصوفية ؟ فقال : الثقة بالمضمون ، والقيام بالأوامر ، ومراعاة السر ، والتخلي من الكونين .

وألقى بين يدي السبع ، فجعل السبع يشمه ولا يضره ، فلما أخرج ، قيل له : ما الذي كان في قلبك حيث شمك السبع ؟ قال : كنت أتفكر في اختلاف العلماء في سؤر السبع .

وقال : رؤية الأسباب على الدوام قاطعة عن شهود المسبب .

وقال : بينا أنا أسير بين مكة وجدة ، وإذا بشخص على بعد ، فأممته ، وسلمت عليه ، وقلت له : أوصني . فقال : يا بنان إن كان الله أعطاك من سره سراً ، فكن مع ما أعطاك ، وإن كان لم يعطكه ، فكن مع الناس على ما هم عليه من الظاهر ، وعليك بكتابة الحديث .

وقال : الحر عبد ما يسمع ، والعبد حر ما قنع ، والبريء جريء ، والخائن خائف ، ومن أساء استوحش .

وقال : ليس بمتحقق في الحب من راقب أوقاته ، أو تحمل في كتمان حبه حتى ينهتك فيه ويفتضح ، ويخلع العذار إدلالًا ، ولا يبالي بما يرد عليه من جهة محبوبه ، ويتلذذ بالبلاء في الحب .

٤٦ ـ **ومنهم** : **أبو حمزة البغدادي** . مات قبل الجنيد ، صحب السريّ والحسن الموجي ، وكان عالماً بالقراءات فقيهاً ، وكان أحمد بن حنبل يقول له في المسائل : ما تقول فيها يا صوفي ؟ كان يتكلم في مجلسه يوم جمعة ، فتغيّر عليه الحال ، فسقط عن كرسيه ومات في الجمعة الثانية سنة تسع وثمانين ومئتين .

قال أبو حمزة : من علم طريق الحق تعالىٰ ، سهل عليه سلوكه ، ولا دليل على الطريق إلى الله تعالىٰ إلا متابعة الرسول ﷺ في أحواله وأفعاله وأقواله .

وقال : من رزق ثلاثة أشياء فقد نجا من الآفات : بطن خال من الطعام ، مع قلب قانع ، وفقر دائم معه زهد حاضر ، وصبر كامل معه ذكر دائم .

٤٧ ـ **ومنهم** : **أبو بكر محمد بن موسى الواسطي** . من فرغانة ، صحب الجنيد والنوري ، أقام بمرو ومات بها بعد العشرين والثلاثمئة .

من كلامه رضي الله عنه : الخوف والرجاء يمنعان العبد من سوء الأدب .

وقال : مطالعة الأعواض على الطاعات من نسيان الفضل . وقال : إذا أراد الله هوان عبد ألقاه إلى هؤلاء الأنتان والجيف ، يريد به محبة الأحداث .

وقال : جعلوا سوء أدبهم إخلاصاً ، وشره نفوسهم انبساطاً ، ودناءة الهمم جلاوة ، فعموا عن الطريق وسلكوا فيه المضيق ، فلا حياة تنمو في شواهدهم ، ولا عبادة تزكو في محاضرتهم ، إن نطقوا فبالغضب ، وإن خاطبوا فبالكبر ، توثب أنفسهم ينبىء عن خبث ضمائرهم ، وشرههم في المأكول يظهر ما في سويداء أسرارهم ، قاتلهم الله أنى يؤفكون .

اجتاز الواسطي يوم جمعة بباب صيدلاني ، فانقطع شسع نعله ، فقال : أيها الشيخ أتأذن لي أن أصلح نعلك ؟ قال : أصلح . فأصلحت شسعه ، فقلت : أتدري لم انقطع شسع نعلي ؟ فقلت : حتى يقول الشيخ ، فقال : لأني ما اغتسلت للجمعة ، فقلت له : يا سيدي ها هنا حمّام تدخله . فقال : نعم ، فأدخلته الحمام فاغتسل .

ومن كلامه : ابتلينا بزمان ليس فيه آداب الإسلام ، ولا أخلاق الجاهلية ، ولا أحلام ذوي المروءة ، وقال : الذكر الخروج من ميدان الغفلة إلى فضاء المشاهدة ، على غلبة الخوف وشدة الحب .

وقال : العلماء بالله هم الذين رسخت أرواحهم في غيب الغيب ، وسر السر ، فعرّفهم الله تعالىٰ ما لم يعرفه لغيرهم ، وأراد منهم من مقتضى الآيات ما لم يرده من غيرهم ، فخاضوا بحر العلم بأنفسهم ، ثم بالكشف الذي كشف لهم عن مدخول الخزائن والمخزون ، حتى شهدوا ما تحت كل حرف وكلمة من عجائب النصوص ، واستخرجوا من بحارها الدرر والجواهر ونطقوا بالحكمة .

وقال : إذا تجلّى الحق على السرائر ذهب الخوف والرجاء .

وقال : ذهبت الطريق وأهلها ولم يبق إلا حسرات .

وقال : أفقر الفقراء من ستر الحق حقيقة حقه عنه .

وقال : من حال به الحال كان مصروفاً عن التوحيد .

وقال : استعمل الرضا جهدك ، ولا تدع الرضا يستعملك ، فتكن محجوباً

بلذته ورؤيته عن حقيقته ما تطالع .

وقال : الموحد لا يرى إلا ربوبيةً صرفة تولت عبودية محضةً ، فيها معالجة الأقدار وفعالية القسمة .

وقال : كائنات محتومة بأسباب معروفة ، وأوقات معلومة ، فاعتراض السريرة لها رعونة .

ولما احتضر قالوا له : أوصنا . قال : احفظوا مراد الحق فيكم ، وقال : الكلمة التي كملت بها المحاسن : الاستقامة .

٤٨ ـ **ومنهم** : **أبو الحسن بن الصائغ** . علي بن محمد الدينوري ، أقام بمصر ومات بها ، وكان من كبار المشايخ .

قال أبو عثمان المغربي : ما رأيت من المشايخ أنور من أبي يعقوب النهرجوري ، ولا أكثر هيبة من أبي الحسن بن الصائغ . مات سنة ثلاثين وثلاثمئة .

من فوائده : حرام على كل قلب مأمور بسبب من أسباب الدنيا أن يسرح في الغيوب . وقال : الأحوال كالبروق فإذا ثبتت فهو حديث نفس .

وسئل عن صفة المريد فقال : كما قال تعالىٰ : ﴿ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ [التوبة : ١١٨] .

وقال : من لم تظهر كراماته بعد مماته ، كما كانت أيام حياته فليس بصادق .

وسئل عن الاستدلال بالشاهد على الغائب ، فقال : كيف يستدل بصفات من له مثل ونظير على من لا مثل له ولا نظير .

٤٩ ـ **ومنهم** : **أبو إسحاق إبراهيم بن داود الرَّقِّي** . من كبار مشايخ الشام من أقران الجنيد وابن الجلاّء ، عمّر إلى سنة ست وعشرين وثلاثمئة .

من كلامه : إثبات الحق على ما هو ، خارجاً عن كل ما هو موهوم .

وقال : القدرة ظاهرة والأعين مفتوحة ، ولكن أنوار البصائر قد ضعفت .

وقال : أضعف الخلق من ضعف عن رد شهواته ، وأقوى الخلق من قوي على ردّها .

وقال : علامة محبة الله تعالىٰ إيثار طاعته ومتابعة نبيه ﷺ .

وقال : قيمة كل إنسان بقدر همته فإن كانت همته الدنيا فلا قيمة له ، وإن كانت همته رضا الله تعالىٰ فلا يمكن إدراك قيمته ، ولا الوقوف عليها .

وقال : خلقت الأرواح من الأفراح ، فهي تعلو أبداً إلى محل الفرع من المشاهدة ، وخلقت الأجساد من الأكماد فلا تزال ترجع إلى كمدها من طلب الشهوات الفانية والاهتمام بها ، ومن قام إلى أوامر الله بالله كان مقبولاً قطعاً ، ومن قام بنفسه كان بين قبول وردّ .

والفترة بعد المجاهدة من فساد الابتداء ، والحجب بعد الكشف من السكون إلى الأحوال .

وقال : من تولّته رعاية الحق أجلّ ممن تولّته رعاية العلم .

وقال : السياحة بالنفس لأرباب الظواهر علماً وشرعاً وخلقاً ، والسياحة بالقلب لأرباب البواطن حالاً ووجداً وكشفاً .

٥٠ ـ **ومنهم : ممشاد الدينوري** . من كبار مشايخ الصوفية مات سنة تسع وتسعين ومئتين .

قال ممشاد : أدب المريد في التزام حرمات المشايخ ، وخدمة الإخوان ، والخروج عن الأسباب ، وحفظ آداب الشرع على نفسه .

وقال : ما دخلت على أحد من شيوخي إلا وأنا خالٍ من جميع مالي من حال ومقام ، أنتظر بركات ما يرد عليّ من رؤيته وكلامه ؛ فإن من دخل على شيخ بحظه ، انقطع عن بركات رؤيته ومجالسته وكلامه .

وقال : الهمة مقدّمة الأشياء ، فمن صلحت همته وصدق فيها صلح له ما وراءها من الأعمال والأحوال .

وقال : أحسن الناس حالاً من أسقط عن نفسه رؤية الخلق ، وكان في

الخلوات بسرّه مراعياً ، واعتمد في جميع أموره على من أضحى له كافلاً .
وقال : المعارف مرآة ، إذا نظر فيها تجلّى له مولاه فيها .

وقال : إنما ورث الحكماء الحكمة بالصمت والتفكر ؛ وقال : طريق الحق بعيد ، والصبر عليه شديد .

وقال : لو جَمَعْتَ حكم الأولين والآخرين ، وادعيت أحوال الأولياء والصادقين ، لم تصل إلى درجة العارفين حتى يسكن سرّك إلى الله تعالىٰ ، وتثق به فيما ضمن لك .

وقال : ما أقبح الغفلة عن طاعة من لا يغفل عن برك ، وعن ذكر من لا يغفل عن ذكرك .

وقال : قد علمت أن أحوال الفقراء كلها جدٌّ لما أمازح فقيراً ، وذلك أن فقيراً قدم عليّ فقال : أريد أن يتخذ لي عصيدة ، فجرى على لساني إرادة وعصيدة ، فتأخر الفقير ولم أشعر ، فأمرت باتخاذها ، وطلبته فقيل : انصرف فوراً وهو يقول : إرادة وعصيدة ولم يزل يكررها حتى مات .

قيل لممشاد عند الموت كيف تجد العلة ؟ فقال : سلوا العلة عني ! فقيل له : قل لا إله إلا الله ، فحوّل رأسه إلى الجدار .

وقال :

أفنيت كُلّي بكلك هذا جزا من يحبك

٥١ ـ **ومنهم : خير بن عبد الله النسّاج** . صحب أبا حمزة البغدادي ، ولقي السريّ ، وكان من أقران النوري ، عاش مئة وعشرين سنة ، ومات سنة اثنتين وعشرين وثلاثمئة ، أستاذ الجماعة ، تاب في مجلسه الشبلي والخوّاص .

كان اسمه محمد بن إسماعيل ، من سامرّاء ، ونزل بغداد ، وإنما سمي خيراً النساج : لأنه : خرج إلى الحج ، فأخذه رجل ظنه عبده الآبق خير ، فاستعمله في نسج الخز ، فكان سيده يقول له : يا خير ، فيقول : لبيك ، ثم قال له الرجل بعد سنين: غلطت فيك لا أنت عبدي، ولا اسمك خير، فمضى.

وقال : لا أغيّر اسماً سمَّاني به رجل مسلم .

وقال : الخوف سوط الله يُقوِّم به أنفاً قد تعوّدت سوء الأدب .

حضرته الوفاة ، فحضرت صلاة المغرب فغشي عليه ، ثم فتح عينيه ، وأومأ إلى ملك الموت في ناحية البيت وقال له : قف عافاك الله ، فإنما أنت عبد مأمور ، وأنا عبد مأمور ، وما أُمِرتَ به لا يفوتك ، وما أُمِرت به أنا يفوتني ، ودعا بماء ، فتوضأ للصلاة وصلَّى ، ثم تمدَّد وغمض عينيه وتشهد ومات ، فرؤي في المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : لا تسألني عن هذا ، ولكن استرحت من دنياكم الوضرة (القذرة) .

من فوائده : الصبر من أخلاق الرجال ، والرضا من أخلاق الكرام .

وقال : العمل الذي يصل به العبد إلى الدرجات العلا رؤية التقصير والضعف والعجز وقال : لا نسب أشرف من نسب من خاقه الله بيده فلم يعصِه ، ولا علم أرفع من علم من علمه الله الأسماء كلها ، فلم تنفعه في وقت جريان القضاء عليه .

٥٢ ـ **ومنهم** : **أبو حمزة الخراساني** . من أقران الجنيد والخرَّاز ، ويأخذ عيشه يوماً بيوم .

من كلامه : من استشعر ذكر الموت حبّب إليه كل باق ، وبغض إليه كل فان .

وقال العارف بالله يدافع عيشه يوماً بيوم .

وقال : علامة الصبر في الصادق أن يفتقر بعد الغنى ، ويذل بعد العز ، ويخفى بعد الشهوة . وسئل هل يتفرغ المحب لشيء سوى محبوبه ؟ فقال : لا ، لأنه بلاء دائم ، وسرور منقطع ، وأوجاع متصلة ، لا يعرفها إلا من باشرها . وقيل له : أوصني . فقال : هيء زادك للسفر الذي بين يديك ، ومن كراماته أنه وقع في بئر في طريقه إلى مكة وسُدّت عليه ، وكان خلاصه منها : بسبع من السباع فأنشأ :

نهاني حيائي منك أن أكتم الهوى وأفنيتني بالفهم منك عن الكشف
تلطفت في أمري فأبديت شاهدي إلى غائبي واللطف يدرك باللطف
تراءيت لي بالغيب حتى كأنما تبشرني بالغيب أنك في الكف
وتحيي محباً أنت في الحب حتفه وذا عجب كون الحياة مع الحتف

٥٣ ـ **ومنهم** : أبو بكر دُلَف بن جحدر الشبلي . بغدادي المولد ، صحب الجنيد ومن في عصره ، وكان شيخ وقته حالًا وظرفاً وعلماً ، عاش سبعاً وثمانين سنة ، ومات سنة أربع وثلاثين وثلاثمئة .

كان الشبلي رحمه الله يقول في آخر أيامه :

وكم من موضع لو مت فيه لكنت به نكالًا في العشيرة

وكان إذا دخل شهر رمضان جدَّ في الطاعات فوق جد من عاصره ، ويقول : هذا شهر عظمه ربي فأنا أول من يعظمه .

سمع بياعاً يقول : الخيار عشرة بدرهم ، فصاح وقال : فكيف الشرار ؟!

وصاح يوماً في مجلس السماع فقيل فيه ، فقال :

لو يسمعون كما سمعت كلامها خرّوا لعزة ركعاً وسجودا

وقال : لا يكمل فقير حتى تستوي حالاته سفراً ، وحضراً ، وغيبة ، وشهوداً .

وقال : ليس من احتجت بالخلق عن الحق كمن احتجت بالحق عن الخلق ، وليس من جذبته أنوار قدسه إلى أنسه كمن جذبته أنوار رحمته إلى مغفرته .

وقال : رفع الله العباد على قدر هممهم ، فلو أجرى على الأولياء ذرة مما أجراه على الأنبياء ، لذابوا وتقطعوا .

وقال : كل صدّيق ليست له كرامة فهو كذاب .

وقال : العارفون نيام والجاهلون أموات .

وقال : من عرف الله حمل السماوات والأرض على شعرة من جفن عينيه ، ومن لم يعرفه لو تعلق به جناح بعوضة ضجَّ لحمله .

وقال : الانبساط مع الحق بالقول ترك أدب .

وقال : إن أردت أن تنظر إلى الدنيا ، فانظر إلى مزبلة ، أو إلى نفسك ، فخذ كفاً من تراب ، فإنك منه خلقت وفيه تعود .

وقال : ليس من استأنس بالذكر ، كمن استأنس بالمذكور ، وأنشد في الذكر :

ذكرتك لا أني نسيتك لمحة ... وأيسر ما في الذكر ذكر لساني
وكدت بلا وجد أموت من الهوى ... وهام عليّ القلب بالخفقان
فلما أراني الوجد أنك حاضري ... شهدتك موجوداً بكل مكان
فخاطبت موجوداً بغير تكلم ... ولاحظت معلوماً بغير عيان

وسئل : أي شيء أعجب ؟ فقال : من عرف الله ثم عصاه .

وقال : لا تأمن على نفسك إن مشيت على الماء ، حتى تخرج من دار الغرق إلى دار الأمن .

وسأله رجل : أي الصبر أشد ؟ قال : الصبر في الله ، قال : لا . قال : الصبر مع الله ، قال : لا . قال : الصبر لله ، قال : لا . قال : فأي شيء ؟ قال : الصبر عن الله ، فصرخ الشبلي ، فكادت روحه أن تخرج ، ثم أنشد :

الصبر يحمل في المواطن كلها ... إلا عليك فإنه لا يجمل

سئل : ما الحكمة في أنه تعالىٰ ذمَّ الاستهزاء والمنكر ثم فعلهما ؟ فقال شعراً :

ويقبح من سواك الفعل عندي ... فتفعله فيحسن منك ذاكا

وحضر عنده جمع من المريدين ، فوجدهم غَفَلَةً لا يذكرون ، فقال :

كفى حزناً بالواله الصبّ أن يرى ... منازل من يهوى معطلةً قفرا

ووقع له أن زوجته ناولته لبناً ، فقال : أخاف أن يضرّني ، فأقام سنين يقول : يا رب اغفر لي ، فإنك وعدت بالمغفرة من لا يشرك بك ، وأنت تعلم أني لم أشرك ، فقيل : لا ، ولا يوم اللبن ، فخجل ، وذلك لإضافته الضرّ إليه .

٥٤ ـ **ومنهم : أبو محمد عبد الله بن محمد المرتعش** . صحب أبا حفص الحدَّاد ، وأبا عثمان الحيري ، ولقي الجنيد ، مات ببغداد سنة ثمان وعشرين وثلاثمئة .

قال المرتعش : الإرادة حبس النفس عن مراداتها ، والإقبال على أوامر الله تعالىٰ ، والرضا بموارد القضاء عليه .

قيل له : إن فلاناً يمشي على الماء ، فقال : عندي إن مكّنه الله تعالىٰ من مخالفة هواه ، فهو أعظم من المشي على الهواء .

وقال : أصول التوحيد معرفة الله بالربوبية ، والإقرار له بالوحدانية ، ونفي الأضداد عنه بالكلية .

وقال : أفضل الأعمال رؤية فضل الله في السرّاء والضرّاء . وقال : سكون القلب لغير الله عقوبة عجلت في الدنيا . وقال : من كمل إسلامه أحبَّه الحق ، ومن كمل إيمانه استغنى عن الخلق .

٥٥ ـ **ومنهم : أبو علي الروذباري** . أقام بمصر ، ومات بها سنة اثنتين وعشرين وثلاثمئة . صحب الجنيد ، والنوري ، وابن الجلاّء .

سئل أبو علي الروذباري عمن يسمع الملاهي ، ويقول : هي لي حلال ، لأني قد وصلت إلى درجة لا تؤثر فيّ اختلاف الأحوال ، فقال : نعم قد وصل ، ولكن إلى سقر .

وسئل عن التصوف فقال : هذا مذهب كله جد ، فلا تخلطوه بالهزل .

وقال : من علامة الاغترار أن تسيء فيحسن الله إليك ، فتترك الإنابة والتوبة ، توهماً أنك تسامح في الهفوات ، وترى أن ذلك من بسط الحق لك .

وقال : كان أستاذي في التصوف الجنيد ، وفي الفقه أبو العباس بن شريح ، وفي الأدب ثعلب ، وفي الحديث إبراهيم الحربي .

اعتلَّ فقير ، فأمر واحداً بخدمته ، فملَّ ، فخدمه بنفسه ، حتى مات ، فدفنه ، فلما فتح رأس كفنه ليضجعه مستوياً ، فتح عينيه ، فقال : يا أبا علي لأنصرنك بجاهي يوم القيامة ، كما نصرتني بمخالفة نفسك .

مرَّ أبو علي على الفرات وقد عرضت لنفسه شهوة السمك ، فقذف الماء سمكة نحوه ، وإذا برجل يعدو ويقول : أشويها لك ، فشواها له وأكلها .

وقال : المريد من لا يريد لنفسه إلا ما أراد الله لها ، والمراد لا يريد شيئاً من الكونين شيئاً غيره .

وقال : كيف تشهده الأشياء وبه فنيت ذواتها ، أم كيف غابت الأشياء عنه وبه ظهرت بصفاته ، فسبحان من لا يشهده شيء ، ولا يغيب عنه شيء .

٥٦ ـ **ومنهم** : أبو محمد عبد الله بن منازل . شيخ الملامتية ، وأوحد وقته ، صحب حمدون القصَّار ، مات بنيسابور سنة تسع وعشرين أو ثلاثين وثلاثمئة .

قال : لم يضيع أحد فريضة من الفرائض إلا ابتلاه الله بتضييع السنين ، ولم يبل أحد بتضييع السنن إلا يوشك أن يبلى بالبدع ، وقال : أفضل أوقاتك وقت تسلم فيه من هواجس نفسك ، ووقت يسلم الناس فيه من سوء ظنك .

وقال : من مقت نفسه عند نفسه عاش الناس في ظله .

وقال : عبّر بلسانك عن حالك ولا تكن بكلام غيرك حاكياً .

وقال : العبد يظهر دعوى العبودية ويضمر وصف الربوبية .

قال له بعضهم : رأيت في المنام أنك تموت إلى سنة ، فلو استعددت للخروج ، فقال : لقد أجّلتنا إلى أجلٍ بعيد .

ثم قال :

يا من شكا شوقه من طول فرقته   اصبر لعلك تلقى من تحب غدا

٥٧ ـ **ومنهم** : **أبو علي محمد بن عبد الوهاب الثقفي** . صحب أبا حفص وحمدون . مات سنة ثمان وعشرين وثلاثمئة بنيسابور .

ومن كلامه : لو أن رجلاً جمع العلوم كلها ، وصحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ عارف ، أو إمام ، أو مؤدب ناصح ، ومن لم يأخذ أدبه من أستاذ يريه أعماله ، ورعونات نفسه ، لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات .

وقال أبو علي رحمه الله : يأتي على الناس زمان لا تطيب المعيشة فيه لمؤمن إلا بعد استناده إلى منافق .

وقال : أف من أشغال الدنيا إذا أقبلت ، وأف من حسراتها إذا أدبرت ، والعاقل من لا يركن إلى شيء إذا أقبل كان شغلاً ، وإذا أدبر كان حسرة .

٥٨ ـ **ومنهم** : **أبو الخير الأقطع** . كان كبير الشأن ، مات سنة نيف وأربعين وثلاثمئة .

قال : ما بلغ أحد إلى حالة شريفة إلا بملازمة الموافقة ، ومعانقة الأدب مع الحق والخلق ، وأداء الفرائض وصحبة الصالحين ، قال : لا يجوز التصدر للمشيخة إلا لمن فرغ من تهذيب نفسه ، ومن بقي عليه بقية فهو مريد ، والمريد لا يكون له مريد .

وقال : لا تسألوا الله أن يصبركم ، وسلوه اللطف بكم ، لأن تجرع مرارة الصبر شديد لمثلنا ، فإن زكريا لما بلغ المنشار لرأسه أنّ لشدة الوجع ، فأوحى الله إليه : وعزتي وجلالي لئن صعدت منك أنة ثانية لأمحون اسمك من ديوان النبوة . وقال : حرام على قلب مشوبٍ بحبِّ الدنيا أن يسبح في روح الغيوب .

وقال : من أحب اطلاع الناس على عمله فهو مراء ، أو على حاله فهو كذَّاب .

٥٩ ـ **ومنهم : أبو بكر محمد بن علي الكتاني** . بغدادي الأصل ، صحب الجنيد ، والخرَّاز ، والنوري ، وجاور بمكة إلى أن مات سنة اثنين وعشرين وثلاثمئة .

نظر الكتاني إلى شيخ أبيض الرأس واللحية يسأل الناس ، فقال : هذا رجل أضاع حقَّ الله في صغره ، فضيَّعه الله في كبره .

وقال الكتاني : الشهوة زمام الشيطان ، من أخذ بزمامه كان عبده .

ومن كلامه : كن في الدنيا ببدنك وفي الآخرة بقلبك .

وقال : خوف القطيعة أفضل من عبادة الثقلين .

وقال : علامة الزهد في شيء من الدنيا سرور القلب بفقده ، وتحمل أذى الخلق . وقال : إذا صحَّ الافتقار إلى الله صحَّ الغنى به .

وقال : رأيت المصطفى ﷺ فقلت : ادع الله ألا يميت قلبي ، فقال : قل كل يوم ألف مرة : يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت ، وقال : الأنس بمخلوق عقوبة ، والقرب من الدنيا وأهلها معصية ، والركون إليهم مذلة .

وقال العارف : من يوافق معروفه في أوامره ولا يخالفه في شيء من أحواله . وقال : العبادة اثنان وسبعون باباً ، أحد وسبعون في الحياء من الله سبحانه ، وواحد في جميع أنواع البر .

وقال : من أصبح وعنده همّان : همّ المعاصي ، وهمّ جمع المال ، فالله منه بريء .

وقال : كان في رأسي وجع فرأيت المصطفى ﷺ فقال : اكتب هذا الدعاء : اللهم بثبوت الربوبية وبعظيم الصمدية ، وبسطوات الألوهية ، وبقدم الجبروتية ، وبقدرة الوحدانية . فكتبته وجعلته على رأسي فسكن حالاً .

٦٠ ـ **ومنهم : أبو يعقوب إسحاق بن محمد النهرجوري** . صحب أباعمرو المكي ، والسوسي ، والجنيد ، ومات بمكة سنة ثلاثين وثلاثمئة .

قال : الدنيا بحر ، والآخرة ساحل ، والمركب التقوى ، والناس سفر .

وقال : رأيت رجلاً في الطواف بعين واحدة ، يقول : أعوذ بك منك . فقلت ما هذا الدعاء ؟ فقال : نظرت يوماً إلى شخص فاستحسنته ، وإذا لطمة وقعت على بصري ، فسالت عيني ، فسمعت هاتفاً يقول : لطمة بنظرة ، ولو زدت لزدناك .

وقال : أفضل الأحوال ما قارن العلم .

وقال : من كان شبعه بالطعام لم يزل جائعاً ، ومن كان غناه بالمال لم يزل فقيراً ، ومن طمع في الخلق لم يزل محروماً ، ومن استعان على أمر بغير الله لم يزل مخذولًا .

وقال : إذا استكمل العبد حقائق اليقين صار البلاءُ عنده نعمة ، والرخاء مصيبة .

وقال في حديث : احترسوا من الناس بسوء الظن ، أي : بسوء الظن بأنفسكم لا بالناس .

وقال : مفاوز الدنيا تقطع بالأقدام ، ومفاوز الآخرة تقطع بالقلوب .

ودخل عليه وهو في النزع ، فقيل له : قل لا إله إلا الله ، فتبسم وقال : إياي تعني ، وعزة من لا يذوق الموت ما بيني وبينه إلا حجاب العزة ، ثم مات فوراً .

٦١ ـ **ومنهم : أبو الحسين علي بن محمد المزيّن** . من بغداد من أصحاب التستري والجنيد ، مات بمكة سنة ثمان وعشرين وثلاثمئة .

قال : الذنب بعد الذنب عقوبة الذنب الأول . والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة الأولى .

وقال في التوحيد : أن تعلم أن أوصافه تعالىٰ بائنة لأوصاف خلقه ، باينهم بصفاته قدماً كما باينوه بصفاتهم حدوثاً .

وقال : من لم يستغن بالله أحوجه الله إلى الخلق ، ومن استغنى بالله أحوج الله الخلق إليه ، وقال : إذا غلب ذكر الله فنيت فيه الدنيا والآخرة .

وقال : التوحيد أن ترجع إلى الله في أمورك كلها ، وتعلم أن ما حصل في قلبك فالله بخلافه .

وقال : الطرق إلى الله تعالىٰ بعدد النجوم ، فلم يبق منها إلا طريق واحد هو الفقر إلى الله تعالىٰ ، وقال : من طلب الطريق إلى الله تعالىٰ بنفسه تاه في أول قدم .

وقال : من لم يصلح لمشاهدته شغله بخدمته .

وقال : لو كان الرجل على عبادة الثقلين ، وهو يساكن الدنيا بقلبه ، لم يعبأ الله به ، وكل من أبقى عنده قوت غدٍ فهو مساكن للدنيا .

وقال : المودة من المحبة كالرأس من الجسد . وحضر ميتاً يُبكى عليه ، فأنشد :

ويَبكي على الموتى ويترك نفسه ويزعم أن قد قل منهم عزاؤه
ولو كان ذا عقل ورأي وفطنة لكان عليه لا عليهم بكاؤه

٦٢ ـ **ومنهم** : **أبو علي بن الكاتب** . صحب الروذباري ، والمصري ، وغيرهما ، مات سنة نيّف وأربعين وثلاثمئة .

قال : إذا سكن خوف القلب لم ينطق اللسان إلا بما يعنيه .

وقال : المعتزلة نزهوا الله تعالىٰ عن أن يخلق الشر والكفر وسائر المعاصي من حيث العقل ، فأخطأوا لغفلتهم عن الدليل السمعي : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٩٦] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٠] . والصوفية نزهوه من حيث العلم فأصابوا ، والعلم (اعتمادهم الدليل السمعي مع النظر العقلي) .

وقال : إذا انقطع العبد إلى الله بكلمته ، فأول ما يفيد ، الاستغناء به عن الناس .

وقال : روائح نسيم المحبة تفوح من المحبين وإن كتموها ، وتظهر عليهم دلائلها وإن أخفوها ، وتدل عليهم وإن ستروها .

وقال : من سمع الحكمة ولم يعمل بها فهو منافق ، وقال : صحبة الفساق داء ، دواؤها مفارقتهم .

وقال : يقول الله : من صبر علينا وصل إلينا .

وقال : إن الله سبحانه يرزق عبده حلاوة ذكره ، فإن فرح به وشكره آنسه بقربه ، وإن لم يشكره أجرى الذكر على لسانه وسلبه حلاوته .

٦٣ ـ **ومنهم : مظفر القرمسيني** . من مشايخ جبل قاسيون ، صحب الخرَّاز ، وغيره .

قال : أخسُّ الفقراء قيمة من قبل رفقة النسوان ، والظلمة .

وقال : من تأدَّب آداب الشريعة تأدَّب به أتباعه ومن تهاون بها هلك وأهلك ، ومن لم يأخذ الأدب عن حكيم لم يتأدب به مريد . مات في القرن الرابع .

وقال : الصوم على ثلاثة أوجه : صوم الروح بقصر الأمل ، وصوم العقل بخلاف الهوى ، وصوم النفس بالإمساك عن الطعام ، والمحارم .

وقال : الجوع إذا ساعدته القناعة ، فهو مزرعة الفكر ، وينبوع الحكمة ، وحياة الفطنة ، ومصباح القلب .

وقال : أفضل أعمال العبيد حفظ أوقاتهم الحاضرة ، وهو أن لا يقصروا في أمر ولا يتجاوزوا عن حد .

٦٤ ـ **ومنهم : أبو بكر عبد الله بن طاهر الأبهري** . من أقران الشبلي ، مات بقرب الثلاثين وثلاثمئة .

قال : من حكم الفقير ألا يكون له رغبة في الدنيا ، فإن كان ولا بد فلا تُجاوِزْ رغبته كفايته ، يعني المحتاج إليه .

وقال : إذا أحببت أخاً في الله تعالىٰ فأقلل مخالطته في الدنيا ، فإن دعتك حاجة إلى مخالطته فيها فاعتمد على إيثارك له على نفسك لا بإيثار نفسك عليه .

وقال : من كان من أهل الجمع فلا يشهد إلا الله .

وقال : في الوقوع في المحن ثلاثة أمور : التطهير والتكفير والتذكير ، فالتطهير من الكبائر ، والتكفير من الصغائر ، والتذكير لأهل الصفا . وقال : قوم سألوه بألسنة الأعمال ، وقوم سألوه بألسنة الرحمة ، فكم بين من سأل ربه بربه وبين من رجا ربه بعمله ؟ . وقال : همة الصالحين الطاعة بلا معصية ، وهمة العلماء المزيد في الصواب ، وهمة العارفين زيادة تعظيم الله في قلوبهم ، وهمة أهل الشوق سرعة الموت ، وهمة المقرّبين سكون القلب إلى الله .

٦٥ ـ **ومنهم : أبو الحسين بن بُنان** . ينتمي إلى الخراز قال : كل صوفي كان هم الرزق قائماً في قلبه ، فلزوم العمل أقرب له ، وعلامة سكون القلب إلى الله أن يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده .

وقال : اجتنبوا دناءة الأخلاق كما تجتنبوا الحرام .

وقال : آثار المحبة إذا بدت رياحها وهاجت تميت أقواماً وتحيي آخرين .

وقال : من علامة سكون القلب إلى الله انشراحه إذا زالت عنه الدنيا .

وقال : ذكر الله باللسان يورث الدرجات ، وذكره بالقلب يورث القربات .

وقال : تتشعب شعب المحبة من دوام ذكر إحسان الله ، فبه تتنسم ريح المحبة عن قريب ، وقال : الإكثار من الوجد من علامة الصديقين .

٦٦ ـ **ومنهم : أبو إسحاق إبراهيم بن شيبان القرمسيني** . صحب المغربي ، والخوّاص ، وغيرهما ، ومات سنة ثلاثين وثلاثمئة .

قال : من أراد أن يتعطَّل عن أعمال البر ، ويتبطَّل منها ، فليلزم الرخص ، بأن يترك المندوبات ، ويرتكب المكروهات والشبهات ، ويقتصر على فعل الواجبات وترك المحرمات . وقال : علم الفناء وعلم البقاء يدور على إخلاص الوحدانية ، وصحة العبودية ، وما كان غير هذا فهو المغاليط ، والزندقة .

وقال : السَّفِلَة[1] من يعصي الله عز وجل . ومن ترك حرمة المشايخ ابتلي بالدعاوى الكاذبة ، وافتضح بها ، ومن تكلم في الإخلاص ولم يطالب نفسه به ، ابتلاه الله بهتك ستره عند أقرانه ، وإخوانه .

ومن كلامه : قال لي أبي : يا بني تعلّم العلم لآداب الظاهر ، واستعمل الورع لآداب الباطن ، وإياك أن يشغلك عن الله شاغل ، فقلّ من أعرض عنه فأقبل عليه .

وقال : وعظني واعظ فقال : احذره فإنه غيور ، ولا يحب أن يرى في قلب عبده سواه .

وقال : إياك أن يشغلك عن الله شاغل ، فقلّ من أعرض عنه ، فأقبل عليه .

٦٧ ـ **ومنهم : أبو بكر الحسين بن علي بن يزدانيار** . من أرمينية ، له طريقة يختص بها .

من كلامه : من استغفر الله تعالىٰ ، وهو ملازم لشهوة الذنب ، حرّم الله عليه التوبة والإنابة ؛ وقال : الحياء ثلاثون قسماً :

منها حياء الخيانة : كحياء آدم لما أكل من الشجرة .

وحياء التقصير : كحياء الملائكة حين قالوا : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك .

وحياء الإجلال : كما روي أن إسرافيل تسربل بجناحيه حياء من ربه .

وقال : المريد طالب ، والعارف مطلوب ، والمطلوب مقبول ، والطالب مرغوب ، وقال : الروح مزرعة الآخرة لأنها معدن الرحمة ، والبدن مزرعة الشر لأنه معدن الشهوة ، والروح مطبوعة على إرادة الخير ، والنفس هي إرادة الشر .

---

(١) جمع سافل ، وهو السّاقط من الناس ، ومن أراذلهم .

وقال : إياك أن تطمع في الأنس بالله ، وأنت تحب الأنس بالناس ، وإياك أن تطمع في حب الله ، وأنت تحب الفضول في القول والعمل ، وإياك أن تطمع في المنزلة عند الله وأنت تحب المنزلة عند الناس .

٦٨ ـ **ومنهم** : أحمد بن محمد بن زياد البصري . الشهير بابن الأعرابي ، جاور الحرم ، ومات به سنة إحدى وأربعين وثلاثمئة ، عن ثلاث وتسعين سنة ، صحب الجنيد ، والنوري ، وعمرو بن عثمان المكي .

قال : أخسر الخاسرين من أبدى للناس صالح أعماله ، وبارز بالقبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد .

وقال : قلَّ من ادعى القوة في أمر إلا وخذل ووكل إلى نفسه .

وقال: مدارج العلوم بالوسائط ، ومدارج الحقائق لا تكون إلا بالمكاشفة.

وقال : أفضل أوقاتك وقت يكون الحق فيه عنك راضياً .

وقال : من أخلاق الفقراء السكون عند الفقر ، والاضطراب عند الوجد ، والأنس بالهموم ، والوحشة عند فرح الناس بالدنيا .

٦٩ ـ **ومنهم** : أبو عمرو الزُّجاجي النيسابوري . جاور بمكة ، ومات سنة ثمان وأربعين وثلاثمئة ، صحب الجنيد والثوري .

سئل : ما بالك تتغير عند التكبيرة الأولى في الفرائض ؟ فقال : لأني أخشى أفتتح فريضتي بخلاف الصدق ، فمن يقول : الله أكبر ، وفي قلبه شيء أكبر منه ، أوقد كبر شيئاً سواه على مرور الأوقات ، فقد كذب نفسه على لسانه .

وقال : من تكلَّم عن حالة لم يصل إليها كان كلامه فتنة لمن يسمعه ، ودعوى تتولد في قلبه ، حرمه الله الوصول إليها . وقد جاور بمكة سنين كثيرة ، لم يتطهر في الحرم ، بل كان يخرج إلى الحل ويتطهر فيه .

وقال : الحمية في القلب تصحح الإخلاص ، وملازمة النفس ترك الادعاء ومجانبته .

وقال : مما جرَّبناه لرد الضالة : اللهم يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، اجمع عليَّ ضالّتي ، ويقرأ قبله سورة الضحى ثلاثاً .

٧٠ ـ **ومنهم** : أبو محمد ، **جعفر بن محمد بن نصير** . صحب الجنيد ، والنوري ، ورويماً ، مات سنة ثمان وأربعين وثلاثمئة .

قال جعفر : لا يجد العبد لذة المعاملة مع لذة النفس ، لأن أهل الحقائق قطعوا العلائق التي تقطعهم عن الحق قبل أن تقطعهم العلائق .

وقال : إنما بين العبد وبين الوجود أن تسكن التقوى قلبه ، فإذا سكنت التقوى قلبه نزلت عليه بركات العلم ، وزالت عنه رغبة الدنيا .

وقال : لا يفرح في الإخلاص كون العبد المريد يعمل ليصل للمقامات العلية .

وقال : من أخلص لله في المعاملة أراحه الله من الدعاوي الكاذبة .

وقال : المحب يجتهد في كتمان حبه ، وتأبى المحبة إلا اشتهاراً .

وقال : العقل ما يبعدك عن مواطن الهلكات .

٧١ ـ **ومنهم** : **أبو العباس السَّيَّاري** . اسمه القاسم بن القاسم ، صحب الواسطي وكان عالماً ، مات سنة اثنين وأربعين وثلاثمئة .

سئل : بم يروض المريد نفسه ، فقال : بالصبر على الأوامر ، واجتناب النواهي ، وصحبة الصالحين ، وخدمة الفقراء .

وقال : ما التذّ عاقل بمشاهدة قط ، لأن مشاهدة الحق فناء ليس فيها لذة .

وقال : كيف السبيل إلى ترك ذنب كان عليك في اللوح المحفوظ محفوظاً ، وإلى صرف قضاء كان بك مربوطاً .

وقال : حقيقة المعرفة الخروج عن المعارف ، وقال : ظلمة الطبع تمنع أنواع المشاهدة .

وقال : لباس الهيبة للعارفين ، ولباس التقوى للمقربين ، ولباس التقوى ذلك خير .

٧٢ ـ **ومنهم : أبو بكر الدقي** . أقام بالشام ، صحب ابن الجلاّء ، والزقّاق ، مات بالشام سنة ستين وثلاثمئة .

من كلامه : علامة القرب إلى الله الانقطاع عما سواه .

وقال : من عرف الله لم ينقطع رجاؤه ، ومن عرف نفسه لم يعجب بعمله ، ومن عرف ربه لجأ إليه ، ومن نسي ربه لجأ إلى المخلوق .

وقال : أهل المعرفة أحياء بحياة معروفهم ، وغيرهم لا حياة لهم إلا مجازاً .

وقال : لا يكون المريد مريداً حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال عشرين سنة شيئاً .

وقال : كم من مسرور سروره بلاؤه ، وكم من مغموم غمه نجاته .

وقال : المعدة موضع يجمع الأطعمة ، فإذا طرحت فيها الحلال ، صدرت الأعضاء بالأعمال الصالحة ، وإذا طرحت فيها الشبهة ، اشتبه عليك الطريق إلى الله تعالىٰ ، وإذا طرحت فيها التبعات ، كان بينك وبين أمر الله حجاب .

٧٣ ـ **ومنهم : أبو محمد الرازي ، عبد الله** . صحب الحيري ، والجنيد ، ويوسف بن الحسين ، ورويماً ، مات سنة ثلاث وخمسين وثلاثمئة .

سئل الرازي : ما بال الناس يعرفون عيوبهم ولا يرجعون إلى الصواب ؟ فقال : لأنهم اشتغلوا بالمباهاة بالعلم ، ولم يشتغلوا باستعماله ، واشتغلوا بالظواهر ، ولم يشتغلوا بآداب البواطن ، فأعمى الله قلوبهم ، وقيّد جوارحهم عن العبادات .

وقال : العبارة تعرفها العلماء ، والإشارة تعرفها الحكماء ، واللطائف تقف عليها السادة النبلاء .

وقال : علامة الصبر ترك الشكوى ، وكتمان الضر والبلوى ، ومن علامة الإقبال على الله تعالىٰ صيانة الأسرار عن الالتفات إلى الأغيار ، وأحسن العبيد حالًا من رأى نعمة الله عليه بأن أهّله لمعرفته ، وأذن له في قربه ، وأباح له سبيل مناجاته ، وخاطبه على لسان أعز أنبيائه ، وعرف تقصيره عن القيام بواجب شكره .

٧٤ ـ **ومنهم: أبو عمرو ، إسماعيل بن نجيد**. صحب الجنيد ، والحيري، وهو آخر من مات من أصحابه سنة ستين وثلاثمئة .

قال : كل حال لا يكون عن علم فهو مذموم ، لأن فاعله مراء متشبع بما لم ينله .

وقال : من ضيع في وقت من أوقاتها فريضة افترضها الله عليه ، حرمه الله لذة تلك الفريضة ولو بعد حين .

وسئل عن التصوف ، فقال : هو الصبر تحت امتثال الأمر والنهي .

وقال : آفة العبد رضاه عن نفسه بما هو فيه ، وقال : من كرمت عليه نفسه هان عليه دينه .

وقال : كل من لم تهذبك رؤيته فهو غير مهذب .

وقال : لا يصفو لأحد قدم في العبودية حتى يشهد أفعاله كلها رياء وأحواله دعاوى .

وقال : إذا أراد الله بعبد خيراً رزقه صحبة الصالحين والعمل بما يُشيرون به عليه .

وقال : الدعاوى إنما تتولد من فساد الابتداء ، فمن صحت بدايته صحت نهايته ، ومن فسدت بدايته هلك في أحواله وقتاً ما .

وقال : من الجهل إظهار العبد محاسنه لمن لا يملك نفعه ولا ضرّه .

٧٥ ـ **ومنهم : أبو الحسن علي بن أحمد البوشنجي** . أحد فتيان خراسان ، لقي أبا عثمان ، وابن عطاء ، والحريري ، مات سنة ثمان وأربعين وثلاثمئة .

وكان أعلم أهل وقته بالتوحيد .

سئل عن المروءة ، فقال : هي ترك استعمال ما هو محرم عليك مع الملائكة ، كالكرام الكاتبين ، ككشف العورة في الخلوة ، والمروءة الكاملة أن يتحفظ العبد في جميع حركاته بقلبه وجوارحه ، حتى لا يكون منها ما يكرهه مولاه ، ولا غيره من خلقه .

ودعا لإنسان فقال : أعاذك الله من فتنتك .

وقال أيضاً : أول الإيمان منوط بآخره .

ومن كلامه : الناس على ثلاثة منازل : الأولياء ، وهم الذين باطنهم أفضل من ظاهرهم ، والعلماء ، وهم الذين سرهم وعلانيتهم سواء ، والجهال ، وهم الذين علانيتهم بخلاف أسرارهم ، لا ينصفون من أنفسهم ويطلبون الإنصاف من غيرهم .

٧٦ ـ **ومنهم** : عبد الله بن خفيف الشيرازي . صحب رويماً ، والجريري ، وابن عطاء ، مات سنة إحدى وسبعين وثلاثمئة .

قال : الإرادة استدامة الكدِّ وترك الراحة .

وقال : ليس شيء أضرّ بالمريد من مسامحة النفس في ركوب الرخص ، وقبول التأويلات .

وسئل عن القرب ، فقال : قربك منه بملازمة الموافقات ، وقربه منك بدوام التوفيق لك .

دخل يوماً عليه مريد ، فقال للشيخ : بي وسوسة . فقال : عهدي بالصوفية يسخرون من الشيطان ، والآن الشيطان يسخر منهم .

وقال : ضعفت عن القيام في النوافل ، فجعلت بدل كل ركعة من أورادي ركعتين قاعداً .

وقال : القرب طي المسافة بلطيف المداناة .

وقال لي المصطفى في النوم : من عرف طريقاً إلى الله ، فسلكه ثم رجع ،

عذَّبه الله بعذاب لم يعذب به أحداً من العالمين . وقال : عليك بمن يعظك بلسان فعله ، لا بلسان قوله .

٧٧ ـ **ومنهم** : **أبو الحسين بُندار بن الحسين الشيرازي** . صحب الشبلي ، وكان عالماً بالأصول ، مات ثلاث وخمسين وثلاثمئة .

قال بندار : لا تخاصم لنفسك فإنها ليست لك ، دعها لمالكها يفعل فيها ما يريد .

من فوائده : الصوفي من صافاه الحق ، واختاره من غير تكلف ولا اجتهاد ، والمتصوف المزاحم على المراتب مع تكلف ، وكمون رغبة في الدنيا .

وقال : صحبة أهل البدع تورث الإعراض عن الحق .

وقال : من لم يجعل قبلته ربه فسدت صلاته .

وقال : الدنيا ما دنا من القلب وشغل عن الحق .

وقال : من أقبل على الدنيا أحرقته بنيرانها ، وصار رماداً لا قيمة له ، ومن أقبل على الآخرة أحرقته بنورها ، يعني الخوف ، فصار سبيكة ذهب ، ومن أقبل على الله أحرقه بنور التوحيد ، فصار جوهراً لا يقابل بثمن .

وقال : من مشى في الظلم إلى ذي النعم أجلسه على بساط الكرم ، ومن قطع لسانه بشفرة السكوت بني له بيت في الملكوت ، ومن واصل أهل الجهالة ألبس ثوب البطالة ، ومن أكثر ذكر الله شغله عن ذكر الناس ، ومن هرب من الذنوب هربت منه ، ومن رجا شيئاً طلبه .

وقال : اترك ما تهوى لما تأمل .

٧٨ ـ **ومنهم** : **أبو بكر الطَّمِنسي** . صحب إبراهيم الدبَّاغ ، مات بنيسابور سنة ست وأربعين وثلاثمئة .

قال : خير الناس من رأى الخير في غيره .

وقال : أركان الطريق الأربعة ترجع إلى الجوع ، فإن من جاع قلَّ كلامه ،

ولومُه وأحبَّ العزلة .

وقال : من صدق في إقباله على الله تعالىٰ لم يشغله الخلق عن الله تعالىٰ .

وقال : النعمة العظمى الخروج عن النفس ، والنفس حجاب .

وقال : النفس كالنار فإذا أطفئت في موضع تأججت في آخر .

وقال : لا يمكن الخروج من النفس بالنفس إنما الخروج منها بالله .

وقال : من لم يكن الصدق وطنه ، ففي فضول الدنيا سكنه .

وقال : إذا هم القلب على ما لا يرضي الله عوقب في الوقت .

وقال : الطريق واضح ، والكتاب والسنة ، قائمان بين أظهرنا ، وفضل الصحابة معلوم ، لسبقهم إلى الهجرة ولصحبتهم ، فمن صحب منا الكتاب والسنة ، وبعد عن نفسه ، وعن الخلق ، وهاجر إلى الله تعالىٰ بقلبه ، فهو الصادق المصيب .

٧٩ ـ **ومنهم : أبو العباس ، أحمد بن محمد الدينوري** . مات بسمرقند بعد الأربعين وثلاثمئة ، صحب ابن عطاء ، والجريري ، ويوسف بن الحسين .

قال : أدنى الذكر أن تنسى ما دونه ، ونهاية الذكر أن يغيب الذاكر في الذكر عن الذكر .

وقال : لسان الظاهر لا يغير حكم الباطن .

وقال : نقضوا أركان التصوف ، وهدموا سبيلها ، وغيّروا معانيها بأسامي أحدثوها ، سمُّوا الطمع زيادة ، وسوء الأدب إخلاصاً ، والخروج عن الحق شطحاً ، والتلذذ بالمذموم طيباً ، سموا اتباع الهوى ابتلاءً ، والرجوع إلى الدنيا وصولاً ، وسوء الخلق صولة ، والبخل جلادة ، والسؤال عملاً ، وبذاءة اللسان ملامة ، وما هذا كان طريق القوم .

٨٠ ـ **ومنهم : أبو عثمان سعيد بن سلام المغربي** . واحد عصره ، ولم يوصف مثله قبله ، صحب ابن الكاتب وحبيباً المغربي والنهرجوري ،

وغيرهم . مات سنة ثلاث وسبعين وثلاثمئة ، وأوصى ابن فورك بالصلاة عليه ، ودفن بجانب أبي عثمان الحيري .

ومن كلامه : التقوى هو الوقوف مع الحدود لا يُقصِّر فيها العبد ولا يتعدَّاها .

وقال : من آثر صحبة الأغنياء على مجالسة الفقراء ابتلاه الله بموت القلب .

٨١ ـ **ومنهم : أبو القاسم إبراهيم النصرأباذي** . صحب الشبلي ، والروذباري ، والمرتعش ، جاور بمكة ومات بها سنة سبع وستين وثلاثمئة . كان عالماً بالحديث ، كثير الرواية .

من كلامه : إذا بدا لك شيء من بوادي الحق فلا تلتفت معها إلى جنة ولا إلى نار ، فإذا رجعت عن تلك الحال فعظّم ما عظمه الله .

وقيل له : إن بعض الناس يُجالس النسوان ، ويقول : أنا معصوم في رؤيتهن . فقال : ما دامت الأشباح باقية فإن الأمر والنهي باق ، والتحليل والتحريم مخاطب به ، ولن يجترىء على الشبهات إلا من تعرّض للمحرّمات .

وقال : أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة ، وترك الأهواء والبدع ، وتعظيم حرمات المشايخ ، ورؤية أعذار الخلق ، والمداومة على الأوراد ، وترك ارتكاب الرخص وترك ارتكاب التأويلات .

٨٢ ـ **ومنهم : أبو الحسن علي بن إبراهيم الحصري البصري** . شيخ وقته ، ينتمي إلى الشبلي ، مات ببغداد سنة إحدى وسبعين وثلاثمئة .

قال الحصري : يقولون : الحصري لا يعتني بالنوافل ، وعليّ أوراد من حال الشباب ، لو تركت ركعة لعوتبت .

وقال : من ادعى بشيء في شيء من الحقيقة كذبته شواهد كشف البراهين .

٨٣ ـ **ومنهم : أبو عبد الله أحمد بن عطاء الروذباري** . ابن أخت أبو علي

الروذباري ، مات بصور سنة تسع وستين وثلاثمئة .

كان أبو عبد الله إذا دعا أصحابه معه إلى دعوة لا يخبرهم ، ويقدم لهم الطعام ، فإذا فرغوا مضى بهم إلى الدعوة ، وكانوا قد أكلوا في الوقت ، ولا يمكنهم أن يمدوا أيديهم إلى الطعام إلا بالتقزز ، وإنما كان يفعل بهم ذلك ، لئلا يسوء ظن عوام الناس بهذه الطائفة ، فيأثمون بسببهم .

وكان أبو عبد الله يمشي على أثر الفقراء فلا يكون مقدّماً متبوعاً ، ولأنه إذا تأخرهم لاحظهم بنظره ، فيلزمون الأدب بين يديه .

وحضروا معه إلى دعوة ، فقال إنسان بقّال : هؤلاء هم المستحلّون لأموال الناس ، وبسط لسانه ، وقال في أثناء كلامه : إن واحداً منهم استقرض مئة درهم ، ولم يردها عليّ ، ولست أدري أين أطلبه ؟ فلما دخلوا دار الدعوة ، قال أبو عبد الله الروذباري لصاحب الدار : ائتني بمئة درهم إن أردت سكون قلبي ، فأتاه بها في الوقت ، فقال لبعض أصحابه : احمل هذه المئة إلى البقَّال الفلاني ، وقل هذه المئة التي استقرضها منك بعض أصحابه ، وقد وقع له في التأخير منها عذر ، وقد بعثها الآن ، فاقبل عذره ، فمضى الرجل ، وفعل ما أمره به ، فلما رجعوا من الدعوة ، واجتازوا بحانوت البقَّال ، فأخذ البقَّال في مدحهم ، وقال : هؤلاء هم الثقات ، الأحبَّاء الصلحاء . وقصد الشيخ بذلك الذي لم يحتمل سماع ذم البقَّال لهذه الطائفة .

وقال الروذباري : أقبح من كل قبيح صوفي شحيح .

قال الأستاذ القشيري : وكان الغرض من ذكرهم : التنبيه على أنهم مجمعون على تعظيم الشريعة ، متصفون بإقامتهم على متابعة السنة ، غير مخلّين بشيء من آداب الديانة ، متفقون على أن من خلا من المعاملات والمجاهدات ، ولم يبن أمره على أساس الورع والتقوى ، كان مفترياً على الله سبحانه فيما يدّعيه ، هلك في نفسه وأهلك من اغترَّ به ممن ركن إلى أباطيله .

* * *



الكِتَابُ الثَّالِثُ

شَرحُ أَلفاظٍ يَتَداوَلُهَا أَهلُ هَٰذِهِ الطَّائِفَة

شَرحُ أَلفاظٍ يَتَداوَلُهَا أَهلُ هَٰذِهِ ٱلطَّائِفَة

١ ـ الوقت

حقيقة الوقت عند أهل التحقيق : حادث متحقّق على حصوله على حادث متوهِّم ، فالحادث المتحقق وقت للحادث المتوهم ، تقول : آتيك رأس الشهر ، فالإتيان حادث متوهم وقوعه في المستقبل ، ورأس الشهر حادث متحقق وقوعه فيه ، فرأس الشهر وقت الإتيان .

وأطلقت هذه الطائفة الوقت على معان أخر .

فمن ذلك : الوقت ما أنت فيه .

والوقت : ما بين الزمانين الماضي والمستقبل ، والوقت : ما كان هو الغالب على الإنسان ، فسمي الوقت باسم ما يلازمه غالباً ، سواء كان حالة القبض ، أو البسط ، أو السرور ، أو الحزن ؟ .

ويقولون : الصوفي ابن وقته ، يريدون بذلك أنه لا التفات له إلى ماض أو مستقبل ، بل هو مشتغل بعمارة وقته الذي هو فيه ما هو أولى به من العبادات في الحال . قائم بما هو مطالب به ، وقد يريدون بالوقت ما يصرفهم الحق فيه مما سبقت فيه المقادير ، دون ما يختارون لأنفسهم .

فأي حال أقامهم فيه من قبض ، أو بسط ، أو خير ، أو شر ، سموه وقتاً . هذا فيما ليس لله تعالىٰ عليهم فيه أمر ، أما ما لله عليهم فيه ذلك فعليهم ألا يضيعوا في الوقت ما أمرهم الله تعالىٰ به ، وألا يقصروا ، فإن فعلوا خرجوا عن الدين ، لتقصيرهم في الواجب ، وارتكاب المكروهات والمحرمات .

ومن كلامهم : الوقت سيف ، فكما أن السيف قاطع ، فالوقت بما يمضيه الحق ويجريه على العبد غالب ، فما على العبد إلا أن يصبر تحت جريان المقدور .

والوقت : من استسلم لحكمه نجا ، أي : رضي من البلايا والعوافي والقبض والبسط ، ومن عارضه انتكس وتردَّى .

وكالسيف إن لايَنْتَهُ لَان مَتْنُهُ وَحَدّاه إن خاشنته خشنان

ومن ساعده الوقت في الخيرات الدينية فالوقت له وقت ، ومن ناكده الوقت فالوقت عليه مقت .

وقال أبو علي الدقاق : الوقت مِبْرد يسحقك ولا يمحقك ، بمعنى أنه لا يستغرق العبد حتى يغيب عن إحسانه .

والكيّس من كان يحكم وقته ، إن كان وقته الصحو ، فقيامه بالشريعة ، وإن كان وقته المحو ، فالغالب عليه أحكام الحقيقة .

٢ ـ المقام

المَقام : موضع القيام ، وبضم الميم : موضع الإقامة ؛ والمقام بلغتيه : ما يتصف به العبد بنزوله فيه وانتقاله إليه باكتساب له من الآداب ، مما يتوصل إليه بنوع تصرّف ، ومقاساة تكلّف ، فالمقام ما ينال بتكسّبٍ وتطلُّبٍ مع الموهبة إلى أن يكمل العبد فيه ، بخلاف الحال كما سيأتي .

فمقام كل أحد موضع إقامته ، وقيامه عند اكتسابه بما يوصله إليه ، وما هو مشتغل بالرياضة له . وشرط المشتغل بالمقام ألا يتشوَّف إلى مقام آخر أرفع منه ما لم يستوف أحكام ذلك المقام ، فإن من لا قناعة له لا يصح له التوكل ، ولكل مقام بدوٌّ ونهاية ، وبينهما أحوال متفاوتة .

مثاله : في مقام الخوف من الله تعالىٰ مثلاً : أن يبدأ بترك الكبائر خوفاً من الله ، فإذا ارتقى عن ذلك وترك الصغائر أيضاً ، ثم المكروهات ، ثم الشُّبَه ، ثم التوسع في الحلال ، إلى أن ينتهي عن ترك كل ما يشغله عن الله ، ومن

لا توكل له لا يصح له التسليم ، وكذلك من لا توبة له لا تصح له الإنابة ، ومن لا ورع له لا يصح له الزهد .

والمقام : هو الإقامة كالمدخل والمخرج ، بمعنى الإدخال والإخراج ، ولا يصح لأحدنا منازلة مقام ، إلا بشهود إقامة الله إياه بذلك المقام ، ليصح بناء أمره على قاعدة صحيحة ، وهي رؤية فضل الله عليه في إقامته في ذلك المقام .

لما دخل الواسطي نيسابور ، سأل أصحاب أبي عثمان المغربي ، ماذا كان يأمركم شيخكم ؟ فقالوا : كان يأمرنا بالتزام الطاعات ، ورؤية التقصير فيها ، فقال : أمركم بالمجوسية المحضة ، أي : أن تذكروا فاعلين مع الله . هلا أمركم بالغيبة عنها ، فتتبرؤوا من أفعالكم برؤية منشئها ومجريها ، فتروا الأعمال من الله فضلاً ورحمة ، فعلى العبد أن يرى في كل مقام يتطلّبه أن له معيناً عليه ، فيبرأ من المجوسية . فأراد الواسطي صيانتهم عن محل الإعجاب بأنفسهم فيما التزموه من الطاعات .

٣ ـ الحال

الحال عند القوم معنى يرد على القلب من غير تعمُّد منهم ولا اجتلاب ، ولا اكتساب لهم من طرب أو بسط أو قبض أو شوق أو انزعاج ، فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب ، لأنها تنال بالكسب مع الموهبة ، والأحوال تأتي من عين الجود ، والمقامات تحصل ببذل المجهود ، وصاحب المقام متمكن وصاحب الحال مترقٍّ عن حاله ، فالمقامات مستقرة والأحوال متغيرة .

قال القونوي : والتحقيق أن الجميع مواهب ، إلا أن المقامات يظهر فيها الكسب وتبطن فيها الموهبة ، والأحوال بالعكس ، وقد تصير الأحوال مقامات وذلك عند استقرارها .

قال بعض المشايخ : الأحوال كالبروق في سرعة زوالها ، فإن بقي شيء منها فحديث نفس . وقالوا أيضاً : الأحوال كاسمها يعني أنها كما تحلُّ بالقلب

تزول في الوقت ، وأنشدوا :

لو لم تَحُلْ ما سميت حالًا　　وكـل مـا حـال فقـد زالا
انظر إلى الفيء إذا ما انتهى　　يـأخـذ فـي النقـص إذا طـالا

وأشار قوم إلى بقاء الأحوال ودوامها ، وقالوا : إنها إذا لم تدم ولم تتوال فهي لوائح وبواده[1] ، ولم يصل صاحبها بعد إلى الأحوال ، فإذا دامت تلك الصفة فعند ذلك تسمى حالًا .

قال أبو عثمان الحيري : منذ أربعين سنة ما أقامني الله بحال فكرهته . أشار إلى دوام الرضا ، والرضا من الأحوال . فالواجب في هذا أن يُقال : إن من أشار إلى بقاء الأحوال فصحيح ما قال ، فقد يصير المعنى أي الحال بتواليه شرباً لأحد ، فيربي الأحد فيه ، ولكن لصاحب هذه الحال أحوال هي طوارق لا تدوم فوق أحواله التي صارت شرباً له ، فإذا دامت هذه الطوارق مد له كما دامت الأحوال المتقدمة ارتقى إلى أحوال أخر فوق هذه الأحوال ، وألطف من هذه ، فأبداً يكون في الترقي .

قال الدقاق في معنى قوله ﷺ : « إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله تعالىٰ في اليوم مئة مرة »[2] أنه كان عليه الصلاة والسلام أبداً في الترقي من أحواله إلى أحوال أخر ، فإذا ارتقى من حالة إلى حالة أعلى مما كان فيها فربما حصل له ملاحظة ، وهو في حالته التي ارتقى إليها إلى ما ارتقى من حالته التي كان عنها ، فكان يعدها غيناً ، أي : ستراً رقيقاً ، بالإضافة إلى ما حصل فيها ، فاستغفر الله مئة مرة ، وقيل : قال ذلك على وجه التعليم لأمته لغلبة الخطأ عليهم . فأبداً كانت أحواله ﷺ في التزايد والترقي ومقدورات الحق سبحانه من الألطاف لا نهاية لها . فأول المقام طوارق ، ونهايته جمع وكمال حال وكتمان سرّ .

---

(١) لوائح : من لاح له المعنى : إذا ظهر . وبواده : من بدهه : إذا فاجأه وبغته .
(٢) أخرجه مسلم في الذكر (٢٧٠٢) وأبو داود في الصلاة (١٥١٥) .

سئل الجنيد عن معنى : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، فقال :

طوارق أنوارٍ تلوحُ إذا بدت   فتظهرُ كُتْباناً ، وتُخبر عن جمع

فالمقامات أولها طوارق تلوح إذا ظهرت ، ونهايتها أظهرت الجمع وكمال الحال وكتمان السر .

٤ ـ القبض والبسط

حالتان تحصلان للعبد بعد ترقي العبد من حال الخوف والرجاء ، فالقبض للعارف بمنزلة الخوف للمبتدىء ، وهو المريد .

والبسط للعارف بمنزلة الرجاء للمستأنف ، ومن الفرق بين القبض والخوف الذي هو بمنزلته ، وبين البسط والرجاء الذي هو بمنزلته ، أن الخوف إنما يكون من شيء يحصل في المستقبل إما لكونه يخاف من فوت محبوب أو هجوم محذور ، وكذا الرجاء إنما يكون بتأميل محبوب في المستقبل ، أو بتطلع زوال محذور وكفاية مكروه في المستقبل .

وأما القبض : فلمعنى حاصل في الوقت وكذلك البسط ، فمتعلق الخوف والرجاء أمر يحصل في الآجل ومتعلق القبض . وللبسط أمر يحصل في الوقت العاجل ، فصاحب الخوف والرجاء تعلق قلبه في حالتيه بآجله ، وصاحب القبض والبسط أخيذ (أسير) وقته بوارد غلب عليه في عاجله . ثم تتفاوت نعوتهم في القبض والبسط على حسب تفاوتهم في أحوالهم ، فمن وارِد يوجب قبضاً ، ولكن يبقى في صاحبه ساع للأشياء المغايرة لأحواله ، المشتغل هو بها من الحادثات والمكالمات وقضاء الحاجات ، لأنه غير مستوفى ، ومن مقبوض لا ساع لغير وارده فيه ، لأنه مأخوذ عنه بالكلية بوارده .

كما قال بعضهم جواباً لمن طلب منه كلامه : أنا ردْم ، أي : لا مساغ فيّ .

فكذلك المبسوط قد يكون فيه بسط يسع الخلق ، فلا يستوحش من أكثر الأشياء ، ويكون مبسوطاً لا يكدره شيء بحال من الأحوال .

قال الدقاق رحمه الله : دخل بعضهم على أبي بكر القحطي ، وكان له ابن يتعاطىٰ ما يتعاطاه الشبان من اللهو ، وكان ممر هذا الداخل على الابن ، وإذا هو مع أقرانه في اشتغاله ببطالته ، فرقَّ قلبه وتألم للقحطي ، وقال : مسكين هذا الشيخ ، كيف ابتلي بمقاساة هذا الابن ، فلما دخل على القحطي وجده كأنه لا خبر له مما يجري من ابنه من الملاهي ، فتعجب منه وقال : فديت من لا تؤثر فيه الجبال الرواسي ، فقال القحطي مجيباً له : إنا قد حُرّرنا عن رق الأشياء في الأزل .

ومن أدنى موجبات القبض ، أن يرد على قلبه وارد من موجبه ، إشارة إلى عتاب ، أو رمز باستحقاق تأديب على تقصير ، فيحصل في القلب لا محالة قبض ، وقد يكون موجب بعض الواردات إشارة إلى تقريب ، أو إقبال بنوع لطف أو ترحيب ، فيحصل للقلب بسط .

وفي الجملة قبض كل أحد على حسب بسطه ، وبسطه على حسب قبضه ، وقد يكون قبض ينشئه الله بغتة ، فيشكل على صاحبه سببه ، كأن يجد في قلبه قبضاً لا يدري موجبه وسببه ، فسبيل صاحب هذا القبض التسليم ، حتى يمضي ذلك الوقت ، لأنه لو تكلَّف نفيه ، أو استقبل الوقت قبل هجومه عليه باختياره ، زاد في قبضه ، ولعله يعد ذلك منه سوء أدب ، وإذا استسلم لحكم الوقت ، فعن قريب يزول القبض ، فإن الحق سبحانه قال : ﴿ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ﴾ [البقرة : ٢٤٥] وقد يكون بسط يَرِد بغتة ، ويصادف صاحبه فلتة لا يعرف لها سبباً ، يهز صاحبه ويستفزه ، فسبيل صاحبه السكون ومراعاة الأدب ، فإن في هذا الوقت له خطراً عظيماً ، فليحذر صاحبه مكراً خفياً .

كذا قال بعضهم : فتح علي باب من البسط ، فزللت زلة ، فحجبت عن مقامي . ولهذا قالوا : قف على البساط وإياك والانبساط ، البساط : ما جعل للعبد ، والانبساط : ما فعله العبد بنفسه واختاره .

وقد عدَّ أهل التحقيق حالتي القبض والبسط من جملة ما استفادوا منه ، لأنهما في الحقيقة فقر وضر .

قال الجنيد : الخوف من الله تعالىٰ يقبضني ، والرجاء منه يبسطني ، والحقيقة تجمعني ، والحق يفرّقني ، إذا قبضني بالخوف أفناني عني ، وإذا بسطني بالرجاء ردني عليّ ، وإذا جمعني بالحقيقة أحضرني ، وإذا فرّقني بالحق أشهدني غيري ، فغطاني عنه ، فهو تعالىٰ في كل ذلك محرّكي غير ممسكي ، وموحشي غير مؤنسي ، فأنا بحضوري أذوق طعم وجودي ، فليته أفناني عني ، فمتعني ، أو غيبني عني فروّحني .

٥ ـ الهيبة والأنس

الهيبة والأنس فوق القبض والبسط ، فالهيبة أعلى من القبض ، والأنس أتم من البسط ، وحق الهيبة الغيبة ، فكل هائب غائب ، ثم الهائبون يتفاوتون في الهيبة ، فمنهم من تطول هيبته ، ومنهم من تقصر على حسب هيبة من اشتغل به ، وإجلالًا له . وحق الأنس صحو بحق ، فكل مستأنس صاح ، ثم يتباينون حسب تباينهم في الشرب (الحظ) . ولهذا قالوا : أدنى محل الأنس أنه لو طرح في لظى لم يتكدّر عليه أنسه ، قال الجنيد : كنت أسمع السريّ يقول : يبلغ العبد في الأنس بالله إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لم يشعر به ، وكان في قلبي منه شيء ، حتى بان لي أن الأمر كذلك .

وحكي عن أبي مقاتل العكي أنه قال : دخلت على الشبلي وهو ينتف الشعر من حاجبه بمنقاش ، فقلت له : يا سيدي ! أنت تفعل بنفسك هذا ، ويعود ألمه إلى قلبي ، فقال : ويلك الحقيقة ظاهرة لي ، ولست أطيقها ، فهو ذا ، فأنا أدخل الألم على نفسي لعلي أحس به ! فيستتر عني ، فلست أجد الألم ، وليس يستتر عني ، وليس لي به طاقة .

وقال : الهيبة والأنس وإن جلّتا ، فأهل الحقيقة يعدونهما نقصاً ، لتضمّنهما تغيّر العبد ؛ فإن أهل التمكين سمت أحوالهم عن التغيّر ، وهم محفوفي وجود العين ، فلا هيبة لهم ولا أنس ، ولا علم ولا حس ، بخلاف صاحبي الهيبة والأنس ، فإنهما لم يكمل استغراقهما ، والحكاية معروفة عند

أبي سعيد الخرّاز ، قال : تهت في البادية مرة وأنا سائح طيب العيش ، مستأنس بالله فَرَحاً بكمال أنسي ، فكنت أقول :

أتيه فلا أدري من التيه من أنا ... سوى ما يقول الناس فيّ وفي جنسي
أتيه على جن البلاد وإنسها ... فإن لم أجد شخصاً أتيه على نفسي

فسمعت هاتفاً يهتف بي ويقول :

أيا من يرى الأسباب أعلى وجوده ... ويفرحُ بالتيه الدنيء وبالأنس
فلو كُنتَ من أهل الوجود حقيقة ... لغبت عن الأكوان والعرش والكرسي
وكنتَ بلا حال مع الله واقفاً ... تصان عن التذكار للجنّ والإنس

ويرتقي العبد عن حالة الهيبة والأنس بالوجود .

٦ ـ التواجد ، والوجد ، والوجود

فالتواجد : استدعاء الوجد بضرب اختيار . وقال الغزالي : التواجد استدعاء الوجد والتشبه في تكلفه بالصادقين من أهل الوجد ، فالتواجد : تفاعل في اكتساب الوجد. والوجد: غلبة ما كان بعثه ويتواجد له على قلبه ، والوجود حصول ذلك في القلب، وتواليه عليه من غير تكلف. وفسّر الكلاباذي التواجد بظهور أثر الوجد الباطن على الظاهر للمبتدىء، فالتواجد شأن المبتدئين، فإنهم لضعفهم لا يقدرون على حمل ما يرد على بواطنهم من الأحوال ، فيظهر أثره على ظواهرهم نحو البكاء والشهيق ، بخلاف الأقوياء فإنهم كالجبال ، فلا انزعاج لهم في الظاهر ، ولا اضطراب لتمكنهم وإن اتفق لهم مبادىء تغير في بعض الأحوال ، سكنوا عقب ذلك لقوتهم على حمل الواردات .

والمختار صحة التواجد مطلقاً ، والأصل في صحته شيئان : خبر رسول الله ﷺ : « ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا »[1] ، وثانيهما : ما جاء عن الجريري قال : كنت عند الجنيد وهناك ابن مسروق وغيره ، وثمَّ قوَّال ينشد ،

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد (٤١١٩) .

فقام ابن مسروق وغيره ، والجنيد ساكن ، فقلت له : يا سيدي مالك في السماع شيء ؟ فقال : ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [النمل : ٨٨] ، ثم قال : وأنت يا محمد ما لك في السماع شيء ؟ فقلت : يا سيدي أنا إن حضرت موضعاً فيه سماع وهناك محتشم منه أمسكت على نفسي وجدي ، فإذا خلوت أرسلت وجدي فتواجدت به ، فأطلق في هذه الحكاية التواجد ، ولم ينكره على الجنيد .

عن الدقَّاق قال : لما راعى أبو محمد أدب الأكابر في حال السماع ، حفظ الله عليه وقته ، لبركات الأدب ، حتى يقول : أمسكت على نفسي وجدي ، فإذا خلوت بنفسي أرسلت وجدي ، فتواجدت ، لأنه لا يمكن إرسال الوجد إذا شئت بعد ذهاب الوقت وغلباته ، ولكنه لما كان صادقاً في حرمة الشيوخ ، حفظ الله تعالىٰ عليه وقته حتى أرسل وجده .

فالتواجد ابتداء الوجد ، وبعد هذا يحصل الوجد ، والوجد ما يصادف قلبك ويرد عليك بلا تعمّد وتكلف ، ولهذا قال المشايخ : الوجد المصادفة ؛ والمواجيد ثمرات الأوراد ، فكل من ازدادت وظائفه ازدادت من الله لطائفه .

قال الدقَّاق : الواردات من حيث الأوراد ، مَن لا ورد له في ظاهره لا وارد له في سرائره ، وكل وجد فيه من صاحبه شيء فليس بوجد ، وكما أن ما يتكلَّفه العبد من معاملات ظاهرة يوجب له حلاوة الطاعات ، فما ينازله العبد من أحكام باطنة يوجب له المواجيد ، فالحلاوات ثمرات المعاملات ، والمواجيد نتائج المنازلات .

وأما الوجود فهو بعد الارتقاء عن الوجد ، ولا يكون وجود الحق إلا بعد خمود البشرية ، لأنه لا يكون للبشرية بقاء عند ظهور سلطان الحقيقة ، وهذا معنى قول أبي الحسين النوري : أنا منذ عشرين سنة بين الفقد والوجد ، أي : إذا وجدت ربي فقدت قلبي ، وإذا وجدت قلبي فقدت ربي . وهذا معنى قول الجنيد : علم التوحيد مباين لوجوده ، ووجوده مباين لعلمه ، وفي هذا المعنى أنشدوا :

وجودي أن أغيب عن الوجود   بمـا يبـدو علـيّ مـن الشهـود

فالتواجد بداية ، والوجود نهاية ، والوجد واسطة بين البداية والنهاية .

قال الدقَّاق : التواجد يوجب استيعاب العبد ، والوجد يوجب استغراق العبد ، والوجود يوجب استهلاك العبد ، فهو كمن شهد البحر ، ثم ركب البحر ، ثم غرق في البحر .

وترتيب هذا الأمر تصوّر ، ثم ورود ، ثم شهود ، ثم وجود ، ثم خمود ، وبمقدار الوجود يحصل الخمود ، وصاحب الوجود له صحو ومحو ، فحال صحوه بقاؤه بالحق ، وحال محوه فناؤه بالحق ، قال عليه الصلاة والسلام فيما أخبر عن الحق : « فبي يسمع وبي يبصر »[1] .

سأل رجل الشبلي : هل تظهر آثار صحة الوجود على الواجدين ؟ فقال : نعم نور يزهر مقارناً لنيران الاشتياق ، فتلوح على الهياكل آثارها .

٧ ـ الجمع والفرق

الجمع مأخوذ من جمع الهمة على الحق تعالىٰ ، والتفرقة مأخوذة من تفرقته في الكائنات مع الحق ، والجامع والمفرق في الحقيقة هو الله تعالىٰ ، وقال الدقَّاق : الفرق ما نسب إليك ، والجمع ما سلب عنك ، ومعناه ما يكون كسباً للعبد من إقامة العبودية ، وما يليق بأحوال البشرية فهو فرق ، وما يكون من قبل الحق من إبداء معان وإسداء لطف وإحسان فهو جمع ، فمن أشهده الحق سبحانه وتعالىٰ من طاعاته ومخالفاته فهو عبد يوصف بالتفرقة ، ومن أشهده الحق سبحانه ما يوليه من أفعال نفسه سبحانه فهو عبد يشاهد الجمع ، فإثبات الخلق من باب التفرقة ، وإثبات الحق من نعت الجمع ، ولا بد للعبد من الجمع والفرق ، فإن من لا تفرقة له لا عبودية له ، ومن لا جمع له لا معرفة له ، فقوله : إياك نعبد : إشارة للفرق ، وقوله وإياك نستعين : إشارة

---

(١) في البخاري (٦٥٠٢) عن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ : « فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمع به . . . » .

إلى الجمع المقتضي للتبري من الحول والقوة إلا بالحق ، ويقال : فلان في عين الجمع ، أي : بعين استيلاء مراقبة الحق على باطنه ، فإذا عاد إلى شيء من أعماله عاد إلى التفرقة . وإذا خاطب العبد الحق بلسان نجواه إما سائلاً أو داعياً أو مثنياً أو شاكراً أو متنصلاً أو مبتهلاً قام في محل التفرقة ، وإذا أصغى بسرّه إلى ما يناجيه به مولاه واستمع بقلبه ما يخاطبه به فهو يشاهد الجمع ، قال الدقاق : أنشد قوال بين يدي الصعلوكي :

جعلتُ تنزهي نظري إليك

وكان النصرأباذي حاضراً فقال الصعلوكي : جعلتَ ، فقال النصرأباذي جعلتُ ، فقال الصعلوكي : أليست عين الجمع أتم ، فسكت النصرأباذي تسليماً للصعلوكي واعترافاً بفضيلة ما قاله ، فالأول على خطر الدعوى ، والثاني بوصف التبري من الحول ، وبوصف الإقرار بالفضل والطَوْل ، وفرق بين من يقول بجهدي أعبدك ، وبين من يقول بفضلك ولطفك أشهدك ، وجمع الجمع فوق هذا ، وهناك صور أخرى ، ومن أثبت نفسه ، وأثبت الخلق ، ولكن شاهد الكل قائماً بالحق ، فهذا هو جمع ؛ وإذا كان مختطفاً عن شهود الخلق معظماً مأخوذاً عن الإحساس بالكلية بكل غير بما ظهر واستولى من سلطان الحقيقة ، فذاك جمع الجمع .

فالتفرقة : شهود الأغيار لله عز وجل ، والجمع : شهود الأغيار بالله ، وجمع الجمع : الاستهلاك بالكلية وفناء الإحساس بما سوىٰ الله تعالىٰ عند غلبات الحقيقة ، فمن كانت أفعاله لله تعالىٰ وشاهدها طاعة له تعالىٰ ، فهو في التفرقة ، ومن شاهدها جارية عليه فضلاً من الله فقد شاهدها بالله ، فهو في الجمع ، ومن غفل عنها وعن نفسه شغلاً بالله فهو في جمع الجمع .

والفرق الثاني : أن يرد العبد إلى الصحو عند أوقات أداء الفرائض ، ليجري عليه القيام بالفرائض في أوقاتها ، فيكون رجوعاً لله بالله تعالىٰ ، لا للعبد بالعبد ، فيطالع نفسه في هذه الحالة في تصريف الحق سبحانه يشهد مبدىء ذاته وعينه بقدرته ، ويشهد مُجري أفعاله وأحواله عليه بعلمه ومشيئته .

فالحاصل أن التفرقة الأولى وقوف مع أحواله وأعماله وإيقاعه طاعة لربه ، والثانية : أن يُرَدّ إلى نفسه بعد استغراقه ، ليوقع فرض ربه عليه في وقته ، ثم يرجع إلى ما كان فيه من حاله .

وبالجملة فرق بين أن يدرك طاعته بنفسه وهو مدركٌ لها ، وأن يدرك نفسه في طاعته مصرَّفاً فيها ، فهو في التفرقة الثانية لم يخرج من جمع الجمع إليها بل يرده إلى الجمع .

وأشار بعضهم بلفظ الفرق والجمع ، إلى تصريف الحق جميع الخلق ، فجمع الكل في التقليب والتصريف من حيث إنه منشىء ذواتهم ، ومجري صفاتهم ، ثم فرّقهم في التنويع ففريقاً أسعدهم ، وفريقاً أبعدهم وأشقاهم ، وفريقاً هداهم ، وفريقاً أضلّهم وأعماهم ، وفريقاً حجبهم عنه ، وفريقاً جذبهم إليه ، وفريقاً أدناهم وأحضرهم ، ثم سقاهم فأسكرهم ، وفريقاً أشقاهم وأخّرهم ، ثم أقصاهم وهجرهم ، وأنواع أفعاله لا يحيط بها حصر ، ولا يأتي على تفصيلها شرح ولا ذكر ، وأنشدوا للجنيد في معنى الجمع والتفرقة :

وتحققتك في سرّي فناجاك لساني ... فاجتمعنا لمعاني وافترقنا لمعاني
إن يكن غيّبك التعظيم عن لحظ عياني ... فلقد صيرك الوجد من الأحشاء داني

وأنشدوا :

إذا ما بدا لي تعاظمته ... فأصدر في حال من لم يردْ
جمعت وفرقت عني به ... ففرد التواصل مثنى العدد

٨ ـ الفناء والبقاء

أشار القوم بالفناء إلى سقوط الأوصاف المذمومة ، وأشاروا بالبقاء إلى الأوصاف المحمودة به ، وإذا كان العبد لا يخلو عن أحد هذين القسمين ، فمن المعلوم أنه إذا لم يكن أحد القسمين موجوداً ، كان القسم الآخر موجوداً لا محالة ، فمن فني عن الأوصاف المذمومة ظهرت عليه الصفات المحمودة .

واعلم أن الذي يتصف به العبد أفعال وأخلاق وأحوال ، فالأفعال تصرفاته

باختياره ، والأخلاق جِبِلّة فيه ، لكن تتغير بمعالجته على مستمر العادة ؛ والأحوال ترد على العبد على وجه الابتداء ، لكن صفاؤها بعد زكاء الأعمال ، فهي كالأخلاق ومن هذا الوجه ، لأن العبد إذا نازل الأخلاق بقلبه ، فينفي بجهده سفاسفها ، منّ الله عليه بتحسين أخلاقه ، فكذلك إذا واظب على تزكية أعماله ، ببذل وسعه واجتهاده في تزكيتها وإخلاصها ، منّ الله عليه بتصفية أحواله ، بل بتوفية أحواله . فمن ترك مذمومها يقال فني عن رغبته ، فإذا فني عن رغبته بقي بصدق إنابته ، ومن عالج أخلاقه فنفى عن قلبه الحسد والحقد والبخل والشح والغضب والكبر ، وأمثال هذا من رعونات النفس ، يقال فني عن سوء الخلق ، فإذا فني عن سوء الخلق ، بقي بالفتوة والصدق ، ومن شاهد جريان القدرة في تصاريف الأحكام من السعادة والضلالة والطاعة والعصيان ، فني على حسبان الحدثان ، أي : الحدوث من الخلق ، فإذا فني عن توهم الآثار من الأغيار ، بقي بصفاء الحق ، ومن استولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد من الأغيار لا عيناً ولا أثراً ولا رسماً ولا خللاً ، يقال : إنه فني عن الخلق وبقي بالحق .

قال الهروي : الفناء اضمحلال ما دون الحق علماً ثم جحداً ثم حقاً ، فإذا ذهب عن قلب العبد العلم بالخلق شغلاً بالحق فقد فني عنه علماً ، فإذا زادت كراهيته له فني عنه جحداً ، أي : إنكاراً ، فإذا ذهب عن قلبه بالكلية فني عنه حقاً ، فمقدار شغله بالحق يكون فناؤه عن غيره ؛ وإذا قيل فني عن نفسه وعن الخلق ، فنفسه موجودة والخلق موجودون ، ولكنه لا علم له بهم ، ولا به ، ولا إحساس ، ولا خبر ، فتكون نفسه موجودة والخلق موجودين ، ولكنه غافل عن نفسه وعن الخلق أجمعين ، غير محسٍّ بنفسه وبالخلق ، لكمال اشتغاله بما هو أرفع من ذلك ، ومن قال : الفناء ذهاب البشرية ، لم يرد فيه ذهابها بالكلية ، فإنها موجودة في نفسها ، بل أراد أنها مغمورة بما يطرأ عليها من لذاته وآلام أخر أعظم من ذلك ، قال الله تعالىٰ في حق النسوة لما لقين يوسف عليه السلام : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ [يوسف : ٣١] ، حيث لم يجدن عند لقاء يوسف عليه السلام ألم قطع الأيدي ، وهو أضعف الناس ،

وقلن : ما هذا بشراً ، ولقد كان بشراً ، وقلن إن هذا إلا ملك كريم ، ولم يكن ملكاً ، فهذا تغافل مخلوق عن أحواله عند لقاء مخلوق ، فما ظنك بمن تكاشف شهود الحق سبحانه ! فلو تغافل عن إحساسه بنفسه وأبناء جنسه ، فأي أعجوبة في ذلك ؟ فمن فني عن جهله بقي بعلمه ، ومن فني عن شهوته بقي بإنابته ، ومن فني عن رغبته بقي بزهادته ، ومن فني عن مشيئته بقي بإرادته تعالىٰ ، وكذلك القول في جميع صفاته :

ومنذ عفا رسمي وهمت وَهِمْتُ في ... وجودي فلم تظفر بكوني فكرتي
وبعد فحالي فيك قامت بنفسها ... وبُنيتي في سبق روحي بِنِيّتي
ولم أحك في حبيك حالي تبرّما ... بها لاضطرار بل لتنفيس كربتي
ويحسن إظهار التجلد للعدا ... ويقبح غير العجز عند الأحبة

فإذا فني العبد عن صفته بما جرى ذكره ، يرتقي عن ذلك بفنائه من رؤية فنائه ، وإلى هذا أشار قائلهم :

وقوم تاه في أرض بقفر ... وقوم تاه في ميدان حبه
فأفنوا ثم أفنوا ثم أفنوا ... وأبقوا بالبقا من قرب ربه

فالأول فناؤه عن نفسه وصفاته ببقائه بصفات الحق ، ثم فناؤه من صفات الحق بشهود الحق ، ثم فناؤه عن شهود فنائه باستهلاكه في وجود الحق .

٩ ـ الغيبة والحضور

فالغيبة غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق ، لاشتغال الحس بما ورد عليه ، ثم قد يغيب القلب عن إحساسه بنفسه وغيره بواردٍ ، من تذكر ثواب أو تفكر عقاب ، كما روي أن الربيع بن خيثم كان يذهب إلى ابن مسعود رضي الله عنه ، فمر بحانوت حداد فرأى الحديدة المحماة في الكير فغشي عليه ولم يفق إلى الغد ، فلما أفاق سئل عن ذلك فقال : تذكرت كون أهل النار في النار ، فهذه غيبة زادت على حدّها حتى صارت غشية .

وروي عن علي بن الحسين أنه كان في سجوده ، فوقع حريق في داره فلم

ينصرف عن صلاته ، فسئل عن حاله فقال : ألهتني النار الكبرى عن هذه النار ، وربما تكون الغيبة عن إحساسه بمعنى مكاشف به من الحق سبحانه ، ثم إنهم مختلفون في ذلك على حسب أحوالهم .

ومن المشهور أن ابتداء حال أبي حفص النيسابوري الحداد في تركه الحرفة ، أنه كان على حانوته فقرأ قارىء آية من القرآن ، فورد على قلب أبي حفص وارد تغافل عن إحساسه ، فأدخل يده في النار ، وأخرج الحديدة المحماة بيده فرأى تلميذ له ذلك ، فقال : يا أستاذ ما هذا ؟ فنظر أبو حفص إلى ما ظهر عليه من الكرامة ، فترك الحرفة وقام من حانوته خشية الفتنة . وكان الجنيد قاعداً وعنده امرأته ، فدخل عليه الشبلي فأرادت امرأته أن تستتر من الشبلي ، فقال لها الجنيد : لا خير للشبلي منك فاقعدي ، فلم يزل يكلمه الجنيد حتى بكى الشبلي ، فلما أخذ الشبلي بالبكاء قال الجنيد لامرأته : استتري فقد أفاق الشبلي من غيبته . قال القشيري : سمعت أبا نصر المؤذن وكان رجلاً صالحاً قال : كنت بنسأ أقرأ القرآن في مجلس أبي علي الدقاق ، وكان يتكلم في الحج كثيراً فأثر في قلبي كلامه ، وخرجت إلى الحج تلك السنة وتركت الحانوت والحرفة ، وكان الأستاذ أبو علي خرج إلى الحج أيضاً تلك السنة وكنت في مدة كونه بنسأ أخدمه وأواظب على القراءة في مجلسه ، فرأيته يوماً في البادية قد مضى لقضاء حاجته فيها ، ثم نسي وتطهر في قمقمة فيها ماء كانت بيده ، فحملتها فلما عاد إلى رحله وضعتها عنده ، فقال : جزاك الله خيراً حيث حملت هذا ، ثم نظر إليّ طويلاً كأنه لم يرني قط ، وقال : رأيتك مرة فمن أنت ؟ فقلت : المستغاث بالله ، قد صحبتك مدة ، وخرجت من مالي ومسكني بسببك ، وتقطعت في المفازة والأسفار بك أنت ، تقول : رأيتك مرة من أنت ؟ .

أما الحضور ، فقد يكون حاضراً بالحق ، لأنه إذا غاب عن الخلق حضر بالحق على أنه يكون كأنه حاضر ، وذلك لاستيلاء ذكر الحق على قلبه ، فهو حاضر بقلبه بين يدي ربه ، فعلى حسب غيبته عن الخلق يكون حضوره

بالحق ، فإن غاب بالكلية كان الحضور بالحق على حسب الغيبة ، فإذا قيل فلان حاضر فمعناه أنه حاضر بقلبه لربه ، غير غافل عنه ولا ساه ، مستديم لذكره ، ثم يكون مكاشفاً في حضوره على حسب رتبته ، بمعان يخصه الحق سبحانه بها .

وقد تختلف أحوالهم في الغيبة ، فمنهم من لا تمتد غيبته ، ومنهم من تدوم غيبته .

وقد حكي أن ذا النون المصري بعث إنساناً من أصحابه إلى أبي يزيد ، لينقل إليه صفة أبي يزيد ، فلما جاء الرجل إلى بسطام ، سأل عن دار أبي يزيد فدخل عليه ، فقال له أبو يزيد : ما تريد ؟ فقال : أريد أبا يزيد فقال : من أبو يزيد ؟ وأين أبو يزيد ؟ فأنا في طلب أبي يزيد! فخرج الرجل وقال : هذا مجنون ، فرجع إلى ذي النون فأخبره ، فبكى ذو النون وقال : أخي أبو يزيد ذهب في الذاهبين إلى الله تعالىٰ .

١٠ ـ الصَّحْو والسُّكْر

فالصحو رجوع إلى الإحساس بعد الغيبة ، والسكر غيبة بوارد قويّ .

ولما انقضى صحوي تقاضيت وصلها ولم يغشني في بسطها قبض خشية

والسكر زيادة على الغيبة من وجه ، وذلك أن صاحب السكر قد يكون مبسوطاً إذا لم يكن مستوفى في حال سكره ، وقد يسقط إخطار الأشياء عن قلبه في حال سكره ، وتلك حال المتساكر الذي لم يستوفه الوارد ، فيكون للإحساس مساغ ، وقد يقوى سكره حتى يزيد على الغيبة ، فربما يكون صاحب السكر أشدّ غيبة من صاحب الغيبة ، إذا قوي سكره ، وربما يكون صاحب الغيبة أتم في الغيبة من صاحب السكر ، وذلك إذا كان متساكراً غير مستوفٍ . والغيبة قد تكون للعبّاد بما يغلب على قلوبهم من موجب الرغبة والرهبة ومقتضيات الخوف والرجاء ؛ والسكر لا يكون إلا لأصحاب المواجيد ، فإذا كوشف العبد بنعت الجمال حصل السكر وطرب الروح وهام القلب ، وفي

معناه أنشدوا :

فصحوك من لفظي هو الوصل كله وسكرك من لحظي يبيح لك الشربا
فما ملَّ ساقيها وما ملَّ شارب عقار لحاظ كأسه يسكر اللبا

وأنشدوا :

فأسكر القومَ دور كأسٍ وكان سكري من المدير

وأنشدوا :

لي سكرتان وللندمان واحدة شيء خصصت به من بينهم وحدي

وأنشدوا :

سكران سكر هوى وسكر مدامة فمتى يفيق فتى به سكران

واعلم أن الصحو على حسب السكر ، فمن كان سكره بحق كان صحوه بحق ، ومن كان سكره في حق كان صحوه في حق ، كل من كان سكره لحق كان صحوه لحق .

والفرق بين الثلاثة أن الأول بعون بلا سبب ، أي : حاصل بإعانة الحق تعالىٰ من غير سبب يظهر لأحد ، والثاني في طلب ، أي في استدعاء مطنوب ، فهو من عمل التكليف وأخذ بالأسباب ، والثالث استغراق في الأدب .

ومن كان سكره بحظ مشوباً كان صحوه بحظ مصحوباً ، ومن كان محقاً في حاله كان محفوظاً في حال سكره ، والسكر والصحو يشيران إلى طرف من التفرقة ، وإذا ظهر من سلطان الحقيقة علامة فصفة العبد القهر أو في معناه أنشدوا :

إذا طلع الصباح لنجم راح تساوى فيه سكران وصاح

قال تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾ [الأعراف : ١٤٣] هذا مع رسالته وجلالة قدره خرَّ صعقاً ، وهذا مع صلابته وقوته صار دكاً متكسراً ، والعبد في حال سكره يشاهد الحال وفي حال صحوه يشاهد

العلم ، إلا أنه محفوظ لا يتكلفه ، وفي حال صحوه متحفظ بتصرفه ، والصحو والسكر بعد الذوق والشرب .

١١ ـ الذوق والشرب

سببهما إخلاص العبادة ودوام المراقبة ، حتى يصل إلى ذوق لذة ذلك بواسطة واردات الأنوار ، ثم إذا تمكن في هذا المقام ، وتوالت عليه هذه الواردات ترقَّى إلى مقام الشرب بسبب قوة تلك اللذة ، ثم إذا تمكن فيما وصل إليه ترقى إلى درجة الرّيّ ، فصفاء معاملاتهم يوجب لهم ذوق المعاني ، ووفاء منازلاتهم يوجب لهم الشرب ، ودوام مواصلاته يقتضي لهم الري ، فصاحب الذوق متساكر وصاحب الشرب سكران وصاحب الري صاح . ومن قوي حبه تسرمد شربه ، فإذا دامت به تلك الصفة لم يورثه الشرب سكراً ، فكان صاحياً بالحق فانياً عن كل حظ ، لم يتأثر بما يرد عليه ولا يتصف عما هو به ، ومن صفا سرّه لم يتكدر عليه الشرب ، ومن صار الشراب له غذاء لم يصبر عنه ، ولم يبق دونه ، وأنشدوا :

إنما الكأس رضاع بيننا فإذا لم نذقها لم نعش

وأنشدوا :

عجبت لمن يقول ذكرت ربي فهل أنسى فأذكر ما نسيت
شربت الحب كأساً بعد كأس فما نفذ الشراب وما رويت

ويقال : كتب يحيى بن معاذ إلى أبي يزيد البسطامي : هاهنا من شرب كأساً من المحبة لم يظمأ بعده ، فكتب له أبو يزيد : عجبت من ضعف حالك ، هاهنا من يحتسي بحار الكون وهو فاغر فاه يستزيد .

واعلم أن كاسات القرب تبدو من الغيب ، ولا تدار إلا على أسرار معتقة ، وأرواح عن رق الأشياء محررة .

١٢ ـ المحو والإثبات

المحو رفع أوصاف العادة ، والإثبات إقامة أحكام العبادة ، فمن نفى عن أحواله الخصال الذميمة وأتى بدلها بالأفعال والأحوال الحميدة ، فهو صاحب محو وإثبات .

نقل القشيري عن الدقَّاق ، قال بعض المشايخ لواحد : إيش تمحو وإيش تثبت ؟ فسكت الرجل . فقال له : أما علمت أن الوقت محو وإثبات ، إذ من لا محو له ولا إثبات معطَّل مهمل .

وينقسم المحو إلى محو الزلة عن الظواهر ، ومحو الغفلة عن الضمائر ، ومحو العلة عن السرائر ، ففي محو الزلة إثبات المعاملات ، وفي محو الغفلة إثبات المنازلات ، وفي محو العلة إثبات المواصلات . هذا محو وإثبات بشرط العبودية .

وأما حقيقة المحو والإثبات فصادران من القدرة ، فالمحو ما ستره الحق ونفاه ، والإثبات ما أظهره الحق وأبداه ، والمحو والإثبات مقصوران على المشيئة ، قال تعالىٰ : ﴿ يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ [الرعد : ٣٩] ، قيل : يمحو عن قلوب العارفين ذكر غير الله تعالىٰ ، ويثبت على ألسنة المريدين ذكر الله ، ومحو الحق لكل أحد وإثباته على ما يليق بحاله ، ومن محاه الحق سبحانه عن مشاهدة نفسه وأفعاله ، أثبته بحق حقه ، ومن محاه الحق عن إثباته به رده إلى شهود الأغيار وأثبته في أودية التفرقة ، قال رجل للشبلي : ما لي أراك قلقاً ؟ أليس هو معك وأنت معه ؟ فقال الشبلي : لو كنت أنا معه كنت أنا ، ولكنني محو فيما هو مجريه عليّ ، والمحق فوق المحو ، لأن المحو يبقي أثراً ، والمحق لا يبقي أثراً .

وغاية همة القوم أن يمحقهم الحق من شاهدهم ، ثم لا يردهم إليه بعدما محقهم عنهم .

ومن يتحرش بالجمال إلى الردى   أرى نفسه من أنفس العيش ردت

ونفس ترى في الحب ألا ترى عنىً | متى ما تصدت للصبابة صدت
وما ظفرت بالحب روح مراحة | ولا بالولا نفس صفا العيش ودت
وأين الصفا هيهات من عيش عاشق | وجنة عدن بالمكاره حفت

١٣ ـ الستر والتجلّي

الستر من قبل العبد كون البشرية حائلة بين السر وشهود الغيب ، فإذا ظهر النور الغيبي أزال حجاب البشرية ، ومن قبل الحق ستره عن العبد حاله .

والتجلي من قبل العبد زوال حجاب البشرية ، وانصقال مرآة القلب عن حد أطباع البشرية ، ومن قبل الحق كشفه عن العبد حاله .

العوام في غطاء الستر ، والخواص في دوام التجلي ، وفي الخبر « إن الله إذا تجلى لشيء خشع له » فصاحب الستر بوصف شهوده ، وصاحب التجلي أبدا بنعت خشوعه ، والستر للعوام عقوبة لهم ، والستر للخواص رحمة لهم ، إذ لولا أنه يستر عليهم ما يكاشفهم به لتلاشوا عند سلطان الحقيقة ، ولكنه كما يظهر لهم يستر عليهم .

قال القشيري : سمعت منصوراً المغربي يقول : وافى بعض الفقراء حياً من أحياء العرب ، فأضافه شاب ، فبينا الشاب في خدمة ضيفه ، إذ غشي عليه ، فسأل الصوفي عن حاله ؟ فقالوا : له بنت عم وقد علقها ، فمشت في خيمتها ، فرأى الشاب غبار ذيلها فغشي عليه ، فمضى الفقير إلى باب الخيمة ، وقال : إن للغريب فيكم حرمة وذماماً ، وقد جئت متشفعاً إليك في أمر هذا الشاب ، فتعطفي عليه فيما هو به من هواك ، فقالت : سبحان الله أنت سليم القلب ، إنه لا يطيق شهود غبار ذيلي ، فكيف يطيق صحبتي .

وعوامّ هذه الطائفة عيشهم في التجلي ، وبلاؤهم في الستر ؛ وأما الخواص فهم بين طيش وعيش ، لأنهم إذا تجلى لهم طاشوا ، وإذا ستر عليهم زووا إلى الحظ فعاشوا .

وقيل : إنما قال الحق تعالىٰ لموسى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴾

[طه : ١٧] ليستر عليه ببعض ما يعلله به بعض ما أثر فيه من المكاشفة بفجأة السماع .

وقال ﷺ : « إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم مئة مرة »[١] ، والاستغفار طلب الستر ، لأن الغفر هو الستر ، فكأنه أخبر أنه يطلب الستر على قلبه عند سطوات الحقيقة ، إذ الخلق لا بقاء لهم مع وجود الحق ، وفي الخبر : « لو كشف عن وجهه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره »[٢] .

وليس المراد بقولهم المكاشفة والمشاهدة ونحوهما من الألفاظ معاينة الذات حقيقة ، فإن ذلك لا يقع في الدنيا ولا في الآخرة على الوجه المعهود ، بل على وجه آخر لا يحيط به التعريف عن غير تعطيل وتكييف .

١٤ ـ المحاضرة ، والمكاشفة ، والمشاهدة ، والمعاينة

المحاضرة أول المراتب ثم المكاشفة ثم المشاهدة ، فالمحاضرة حضور القلب ، وقد يكون بتواتر البرهان ، وهو بعد وراء الستر ، وإن كان حاضراً باستيلاء سلطان الذكر ، ثم بعده المكاشفة وهو حضور القلب بنعت البيان غير مفتقر في هذه الحالة إلى تأمل الدليل وتطلّب السبيل ، ولا مستجير من دواعي الريب ، ولا محجوب من نعت الغيب ، ثم المشاهدة وهي حضور الحق من غير بقاء تهمة ، فإذا أصحت سماء السر عن غيوب الستر ، فشمس الشهود مشرقة عن برج الشرف ، وحق المشاهدة ما قاله الجنيد رحمه الله : وجود الحق مع فقدانك ؛ فصاحب المحاضرة مربوط بآياته ، وصاحب المكاشفة مبسوط بصفاته ، وصاحب المشاهدة ملقى بذاته ، صاحب المحاضرة يهديه عقله ، وصاحب المكاشفة يدنيه علمه ، وصاحب المشاهدة تمحوه معرفته . وتحقيق المشاهدة أنه تتوالى أنوار التجلي على قلبه ، من غير أن يتخللها ستر وانقطاع ، كما لو قدّر اتصال البروق ، فكما أن الليلة الظلماء بتوالي البروق

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أخرجه مسلم (١٧٩) (٢٩٣) وابن ماجه (١٩٥) .

فيها واتصالها إذا قدرت تصير في ضوء النهار ، فكذلك القلب إذا دام به دوام التجلي يقع نهاره فلا ليل ، وأنشدوا :

ليلـي بـوجهـك مشـرق وظلامه في الناس ساري
والناس في سدف الظلام ونحـن فـي ضـوء النهـار

وقال النوري : لا تصح للعبد المشاهدة وقد بقي له عرق قائم ، وقال : إذا طلع الصباح استغنى عن المصباح .

وتوهم قوم أن المشاهدة تشير إلى طرف من التفرقة ، وهذا وهم من صاحبه ، فإن في ظهور الحق سبحانه يثور الخلق ، وأنشدوا :

فلما استبان الصبح أُدرج ضوؤه بـأنـواره أنـوار ضـوء الكـواكـب
يجرعهم كأساً لو ابتلى اللظى بتجريعه طارت كأسرع ذاهب

وكما قال القائل : ساروا فلم يبق رسم ولا أثر .

والمعاينة : قيل غايتها تحقيق إحاطة الذات التي لا يصح مع وجودها كون الغير .

١٥ ـ اللوائحُ ، والطوالعُ ، واللوامع

وهي متقاربة المعنى ، لا يكاد يحصل بينها كبير فرق ، وهي من صفات أصحاب البدايات الصاعدين في الترقي بالقلب ، فلم يدم لهم بعد ضياء شموس المعارف ، لكن الحق سبحانه وتعالىٰ يؤتي رزق قلوبهم في كل حين ، كما قال تعالىٰ : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم : ٦٢] فكلما أظلم عليهم سماء القلوب بسحاب الحظوظ ، سنح لهم فيها لوائح الكشف ، وتلألأ لوامح القرب في زمان سترهم ، يرقبون فجأة اللوائح ، فهم كما قال القائل :

يا أيها البرق الذي يلمع من أي أكناف السما تسطع

فتكون أولًا لوائح ، ثم لوامع ، ثم طوالع ، فاللوائح كالبروق ما ظهرت حتى استترت ، كما قال القائل :

افترقنا حولاً فلما التقينا　　كان تسليمه عليّ وداعاً

كذلك وأنشدوا :

يا ذا الذي زار وما زارا　　كأنه مقتبس نارا

مرّ بباب الدار مستعجلاً　　ما ضرّه لو دخل الدارا

واللوامع أظهر من اللوائح ، وليس زوالها بتلك السرعة ، فقد تبقى اللوامع وقتين أو ثلاثة ، ولكن كما قالوا :

والعين باكية لم تشبع النظرا

وكما قالوا :

لم ترد ماء وجهه العينُ إلا　　شرقت قبل ريها برقيب

فإذا لمع الطالع قطعك عنك وجمعك به ، لكن لم يسفر نور نهاره حتى كرّ عليه عساكر الليل لسرعة زواله ، فهؤلاء بين روح ونوح ، لأنهم بين كشف وستر ، كما قالوا :

فالليل يشملنا بفاضل برده　　والصبح يلحفنا رداء مذهبا

والطوالع أبقى وقتاً ، وأقوى سلطاناً ، وأدوم مكثاً ، وأذهب للظلمة .

وهذه المعاني التي هي اللوائح واللوامع والطوالع تختلف في القضايا ، فمنها ما إذا فات لم يبق عنها أثر ، كالشوارق إذا أفلت فكأن الليل كان دائماً ، ومنها ما يبقى عنه أثر ، فإن زال رقمه بقي أمله ، وإن غربت أنواره بقيت آثاره ، فصاحبه بعد سكون غلباته يعيش في ضياء بركاته ، فإلى أن يلوح ثانياً يزجي وقته على انتظار عوده ، ويعيش بما وجد في حين كونه .

١٦ ـ البواده ، والهجوم

البواده ما يفجأ قلبك من الغيب على سبيل الوهلة ، إما موجب فرح وإما موجب ترح ، والهجوم ما يرد على القلب بقوة الوقت من غير تصنع منك ، ويختلف في الأنواع على حسب قوة الوارد وضعفه ، فمنهم من تغيره البواده

وتصرفه الهواجم ، ومنهم من يكون فوق ما يفجأه حالًا وقوّة ، أولئك سادات الوقت كما قيل :

لا تهتـدي نـوب الـزمـان إليهـم ولهم على الخطب الجليل لجام

١٧ ـ التلوين ، والتمكين

التلوين صفة أرباب الأحوال ، والتمكين صفة أهل الحقائق ، فما دام العبد في الطريق فهو صاحب تلوين ، لأنه يرتقي من حال إلى حال ، وينتقل من وصف إلى وصف ، فإذا وصل إلى مقام التوحيد ، وغلب على قلبه الحق ، حتى لم يلتفت إلى غيره تمكن في مقامه . وأنشدوا :

ما زلت أنزل في ودادك منزلًا تتحيـر الألبـاب دون نـزولـه

وصاحب التلوين أبداً في الزيادة ، وصاحب التمكين وصل ثم اتصل ، وأمارته أنه اتصل ، أنه بالكلية عن كليته بطل ، قال بعض المشايخ : انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بنفوسهم ، فإذا ظفروا بنفوسهم فقد وصلوا ، قال الأستاذ رحمه الله : يريد به انخناس أحكام البشرية واستيلاء سلطان الحقيقة ، فإذا دام للعبد هذه الحالة فهو صاحب تمكين ، قال الدقّاق : كان موسى عليه السلام صاحب تلوين ، فرجع من سماع الكلام واحتاج إلى ستر وجهه ، لأنه أثر فيه الحال ، ونبينا ﷺ كان صاحب تمكين ، فرجع ليلة الإسراء كما ذهب ، لأنه لم يؤثر فيه ما شاهده تلك الليلة لتمكنه ، ومن ثم قال : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر »[١] وكان أبو علي يستشهد على هذا بقصة يوسف عليه السلام ، من أن النسوة اللاتي رأين يوسف عليه السلام قطّعن أيديهن ، لما ورد عليهن من شهود يوسف على وجه الفجأة ، وامرأة العزيز كانت أتمّ في بلاء يوسف منهن ، فلم تتغير عليها شعرة ذلك اليوم ، لأنها كانت صاحبة تمكين ، في حديث يوسف عليه السلام .

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل (٢٢٧٦) والترمذي في المناقب (٣٦٠٦) عن واثلة بن الأسقع .

قال الأستاذ : واعلم أن التغير بما يرد على العبد يكون لأحد أمرين إما لقوة الوارد ، وإما لضعف صاحبه ، والسكون من صاحبه لأحد أمرين إما لقوته وإما لضعف الوارد عليه .

قال الدقاق : أصول القوم في جواز دوام التمكين متخرج على وجهين : أحدهما ما لا سبيل إليه لأنه ﷺ قال لحنظلة : « لو بقيتم على ما كنتم عليه عندي لصافحتكم الملائكة »[1] فلأنه ﷺ قال : « لي وقت لا يسعني فيه غير ربي عز وجل » أخبر عن وقت مخصوص .

قال : والوجه الثاني أنه يصح دوام الأحوال ، لأن أهل الحقائق ارتقوا عن وصف التأثر بالطوارق ، والذي في الخبر السابق أنه ﷺ قال لحنظلة : « لو بقيتم على ما كنتم عليه عندي لصافحتكم الملائكة »[1] فلم يعلق الأمر فيه على أمر مستحيل ، ومصافحة الملائكة دون ما أثبت لأهل البداية من قوله ﷺ : « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع » ولما قال : « لي وقت » فإنما قال على حسب فهم السامع ، وإلا فهو في جميع أحواله كان قائماً بالحقيقة .

والأولى أن يقال : إن العبد ما دام في الترقي فهو صاحب تلوين ، يصح في نعته الزيادة في الأحوال والنقصان ، فإذا وصل إلى الحق سكنه بأن لا يرده إلى معلولات النفس فهو متمكن ، ثم ما يتحفه الحق سبحانه في كل نفس فلا حد لمقدوراته فهو في الزيادات متلون ، بل ملوّن وفي أصل حاله متمكن ، فأبداً يتمكن في حالة أعلى مما كان فيها قبله ، ثم يرتقي عنها إلى ما فوق ذلك ، إذ لا غاية لمقدورات الحق سبحانه في كل جنس .

فأما المصطلح الغائب عن مشاهدة المستوفى إحساسه بالكلية ، فللبشرية لا محالة حدّ ، وإذا بطل عن جملته ونفسه وحسه ، وكذلك عن المكوّنات بأسرها ، ثم دامت به هذه الغيبة فهو محو ، فلا تمكين له ولا تلوين ، ولا مقام

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة (٢٧٥٠) عن حنظلة بن الربيع .

ولا حال ، وما دام بهذا الوصف فلا تشريف ولا تكليف ، اللهم إلا أن يردّ إلى إحساسه بما يجري عليه من غير شيء منه ، فذلك متصرف في ظنون الخلق مصرّف في التحقيق ، قال تعالىٰ : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ [الكهف : ١٨] .

١٨ ـ القرب ، والبعد

أول رتبة في القرب القرب من طاعته، والاتصاف في دوام الأوقات بعبادته، وأما البعد فهو التدنس بمخالفته تعالىٰ والتجافي عن طاعته ، فأول البعد بعد عن التوفيق ، وهو البعد عن التحقيق ، وقد قال النبي ﷺ مخبراً عن الحق سبحانه: « ما تقرّب إليّ المتقربون بمثل أداء ما افترضته عليهم، ولا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى يحبني وأحبه ، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً فبي يبصر وبي يسمع »[1] فقرب العبد من ربه إنما هو بطاعاته ، وأوله القيام بالواجبات والبعد عن المحرمات، ثم القيام بالمندوبات والكف عن المكروهات والشبهات ، ثم القيام بملازمة أفضل المندوبات ، فإذا تعالت درجته ودامت مراقبته لأحكام ربه انتقلت همته إلى مقام الإحسان ، وهو نظام المقربين وهو رؤية ربه في سائر الحركات والسكنات ، فإذا أحبه تزايد أدبه معه في الحقيقة ، ويكون في أعلى مراتب القرب فيحبه مولاه ويسبغ عليه نعمه ، فقرب العبد أولاً قرب إيمانه وتصديقه ثم قرب إحسانه وتحقيقه ، وقرب الحق سبحانه من العبد ما يخصه اليوم به من العرفان ، وفي الآخرة ما يكرمه به من الشهود والعيان ، وفيما بين ذلك من وجود اللطف والامتنان . ولا يكون قرب العبد من الحق إلا ببعده عن الخلق ، وهذا من صفات القلوب ، وقرب الحق سبحانه من العبد بالعلم والقدرة عام للكافة ، وبالكشف والنصرة خاص بالمؤمنين ، ثم بخصائص التأنيس مختص بالأولياء، قال تعالىٰ : ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق : ١٦] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] . وقال

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦١٣٧) وأوله : « من عادى لي ولياً . . » .

تعالىٰ : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [المجادلة : ٧] . ومن تحقق بقرب الحق فأوله مراقبته إياه لأن عليه رقيب التقوى ، ثم عليه رقيب الحفاظ ورقيب الوفاء ، ثم رقيب الحياء وأنشدوا في ذلك :

كأن رقيباً منك يرعى خواطري ... وآخر يرعى ناظري ولساني
فما رمقت عيناي بعدك منظراً ... يسوءك إلا قلت قدر مقالي
ولا بدرت من فيّ دونك لفظة ... لغيرك إلا قلت قد سمعاني
ولا خطرت في السر بعدك خطرة ... لغيرك إلا عرّجا بعناني
وإخوان صدق قد سئمت حديثهم ... وأسكت عنهم ناظري ولساني
وما الزهد أغلى منهم غير أنني ... وجدتك مشهوداً بكل مكان

ورؤية القرب حجاب عن القرب ، ومن شاهد لنفسه محلاً أو نفساً فهو ممكور به ، ولهذا قالوا : أوحشك الله من قربه ، أي : من شهودك لقربه ، فإن الاستئناس من سمات الغرّة به ، إذ الحق سبحانه وراء كل أنس ، وإن مواضع الحقيقة توجب الدهش والمحق ، وفي قريب من هذا قالوا :

مِحْنَتي فيك إنني ... لا أبالي بمحنتي
قربكم مثل بعدكم ... فمتى وقت راحتي
ودادكم هجر وحبكم قلى ... وقربكم بعد وسلمكم حرب

فتلخص أن المراد بالقرب المعنوي ، فأما القرب المكاني فتعالىٰ الله الملك الحق عنه ، فهو تعالىٰ مقدس عن الحدود والأقطار والنهاية والمقدار ، ما اتصل به مخلوق ، ولا انفصل عنه حادث مسبوق ، جبلت الصمدية عن قبول الفصل والوصل ، فقرب هو في نعته محال ، وهو تداني الذوات ، وقرب هو واجب في نعته وهو قرب بالعلم والرؤية ، وقرب هو جائز في وصفه يحظى به من يشاء من عباده وهو قرب الفعل باللطف .

١٩ ـ الشريعة ، والحقيقة

الشريعة أمر بالتزام العبودية ، والحقيقة مشاهدة الربوبية ، فكل شريعة غير

مؤيدة بالحقيقة فغير مقبولة ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصولة . فالشريعة جاءت بتكليف الخلق ، والحقيقة إنباء عن تصريف الحق ، فالشريعة أن تعبده ، والحقيقة أن تشهده ، والشريعة قيام بما أمر ، والحقيقة شهود لما قضى وقرّر وأخفى وأظهر ، إياك نعبد حفظ للشريعة ، وإياك نستعين إقرار بالحقيقة ، والشريعة حقيقة من حيث إنها وجبت بأسره ، والحقيقة أيضاً شريعة من حيث إن المعارف أيضاً وجبت بأمره .

٢٠ ـ النَّفَس

النَّفَس ترويح القلوب بلطائف الغيوب ، وصاحب الأنفاس أرقُّ وأصفى من صاحب الأحوال ، فكأن صاحب الوقت مبتدىء ، وصاحب الأنفاس منته ، وصاحب الأحوال بينهما ، فالأحوال وسائط ، والأنفاس نهاية الترقي ، والأوقات بدايته ، فالأوقات لأصحاب القلوب ، والأحوال لأرباب الأرواح ، والأنفاس لأهل السرائر ، وقالوا : أفضل العبادات عَدّ الأنفاس مع الله تعالىٰ ، وقالوا : خلق الله القلوب وجعلها معادن للمعرفة ، وخلق الأسرار وراءها ، وجعلها محلاً للتوحيد ، فكل نفس حصل من غير دلالة المعرفة فهو ميت ، وصاحبه مسؤول عنه ، قال الدقاق : العارف لا يسلم له النفس ، لأنه لا مسامحة تجري معه ، والمحب لا بد له من نفس ، إذ لولا أن يكون له لتلاشى لعدم طاقته .

٢١ ـ الخواطر

الخواطر خطاب يرد على الضمائر ، وهو قد يكون بإلقاء ملك ، وقد يكون بإلقاء شيطان ، وقد يكون أحاديث النفس ، وقد يكون من قبل الحق سبحانه ، فإذا كان من الملك فهو الإلهام ، وإذا كان من قبل النفس قيل له الهواجس والتسويل ، وقد يعبرون بالهاجس عن الخاطر الأول ، وهو الخاطر الرباني وهو لا يخطىء أبداً ، وقد يسمى السبب وتفرد الخاطر ، فإذا تحقق في النفس سموّه إرادة ، فإذا تردد الثالثة سموّه همائم ، عزماً ، وعند التوجه إلى

الفعل قصداً ، ومع الشروع في الفعل نيّة ، وإذا كان من قبل الشيطان قيل له الوسواس ، وإذا كان من قبل الله سبحانه وإلقائه في القلب فهو خاطر حق ، وإذا كان من قبل الملك فإنما يعلم صدقه بموافقة العلم الشرعي ، ولهذا قالوا : كل خاطر لا يشهد له ظاهر من الشرع فهو باطل ، وإذا كان من قبل الشيطان فأكثره يدعو إلى المعاصي ، وإذا كان من قبل النفس فأكثره يدعو إلى اتباع الشهوة ، أو إلى استشعار طلب أكبر ، أو إلى ما هو من خصائص النفس ، وأما أقله فيدعو إلى خير . واتفق المشايخ على أن من كان أكله من الحرام لم يفرق بين الإلهام والوسواس ، قال الدقاق : من كان قوته معلوماً لم يفرّق بين الإلهام والوسوسة ، لأن سكونه إلى جهة معينة يمنعه من النظر إلى كمال حاله ، وعلى أن من سكنت عنه هواجس نفسه بصدق مجاهدته ، نطق بيان قلبه بحكم مكابدته ، وأجمع الشيوخ على أن النفس لا تصدق ، وعلى أن القلب لا يكذب ، ولهذا قال بعض المشايخ : إن نفسك لا تصدق ، وقلبك لا يكذب ، ولو اجتهدت كل الجهد أن تخاطبك روحك لم تخاطبك ، لتعلقها بالمقامات العالية المشتغلة بها عن مخاطبتك .

وفرّق الجنيد رحمه الله بين هواجس النفس ووساوس الشيطان ، بأن النفس إذا طالبتك بشيء ألحت عليك في طلبه ، لأنها مائلة إلى كل لذيذ ، فإذا التذت بشيء تعلقت به ، فلا تزال تعاودك ولو بعد حين حتى تصل إلى مرادها ، اللهم إلا أن يدوم صدق المجاهدة ، ثم إنها مع ذلك تعاودك وتعاودك ، وأما الشيطان إذا دعاك إلى زلة فخالفته يترك ذلك ، ويوسوس بزلة أخرى ، لأن جميع المخالفات له سواء ، وإنما يريد أن يكون داعياً أبداً إلى زلة ما ، ولا غرض له في تخصيص شر واحد دون أحد ، وقد قيل : كل خاطر يكون من الملك وربما يوافقه صاحبه ، وربما يخالفه ، فأما خاطر يكون من الحق سبحانه فلا يحصل خلاف من العبد له .

وتكلم الشيوخ في الخاطر الثاني الموافق للأول ، إذا كان الخاطران من الحق سبحانه ، هل هو أقوى من الأول ؟ فقال الجنيد رحمه الله : الخاطر

الأول أقوى ، لأنه إذا بقي رجع صاحبه إلى التأمل ، وهذا بشرط العلم . فترك الأول يضعف الثاني . وقال ابن عطاء رحمه الله : الثاني أقوى لأنه ازداد قوة بالأول . وقال أبو عبد الله بن خفيف من المتأخرين : هما سواء ، لأن كليهما من الحق سبحانه ، فلا مزية لأحدهما على الآخر لأن الأول لا يبقى في حال وجود الثاني ، لأن الآثار لا يجوز عليها البقاء .

٢٢ ـ علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين

فاليقين هو العلم الذي لا يتداخل صاحبه ريب على مطلق العرف ، ولا يطلق اليقين في وصف الحق سبحانه لعدم التوقيف عليه ، وإذا كانت الثلاثة علوماً جليّة ، فعلم اليقين هو اليقين ، وكذلك عين اليقين نفس اليقين ، وحق اليقين نفس اليقين . فعلم اليقين ما كان بشرط البرهان ، وعين اليقين ما كان بحكم البيان ، وحق اليقين ما كان بنعت العيان . فعلم اليقين لأرباب العقول ، وعين اليقين لأصحاب العلوم ، وحق اليقين لأصحاب المعارف ، والظاهر أن الأولَيْن من قبيل العلوم والمعارف ، والثالث من قبيل الأحوال والمقامات .

٢٣ ـ الوارد

الوارد : ما يرد على القلوب من الخواطر المحمودة ، مما لا يكون بتعمد العبد ، وكذلك لا يكون من قبل الخواطر ، فهو أيضاً وارد ، ثم قد يكون وارداً من الحق ووارداً من العلم ، فالواردات أعم من الخواطر ، لأن الخواطر تختص بنوع الخطاب أو ما يتضمن معناه ، ومن الوارد الذي لا يعرف صاحبه سببه حين وروده ، قال الجنيد : قمت ليلة إلى وردي فوجدت قبضاً ، ولم أقدر على الصلاة ، فأردت أن أقرأ القرآن فلم أستطع ، ففتحت باب الدار وخرجت ليزول ما أجده ، فإذا برجل ملفوف في عباءة ، فلما أحس بي قال لي : إلى الساعة يا أبا القاسم ؟ فقلت : يا سيدي من غير موعد ؟ فقال : بلى ، ولكن سألت محرك القلوب أن يحرك قلبك ، فقلت : قد فعل! فما

حاجتك ؟ فقال : متى يكون داء النفس دواءها ؟ فقال : إذا خالفت النفس هواها صار داؤها دواءها ، فقال لنفسه : قد سمعتك وقد أجبتك بهذا سبع مرات ، فأبيت أن تسمعيه إلا من الجنيد ! ثم ذهب ولم أعرفه .

والواردات تكون وارد مرور ، ووارد حزن ، ووارد قبض ، ووارد بسط ، إلى غير ذلك من المعاني .

٢٤ ـ الشاهد

كثيراً ما يجري في كلامهم فلان يشاهد العلم ، وفلان يشاهد الوجد ، وفلان يشاهد الحال ، ويريدون بالشاهد ما يكون حاضر قلب الإنسان ، وهو ما كان الغالب عليه ذكره ، حتى كأنه يراه ويبصره ، وإذا كان غائباً عنه فكل ما يستولي على قلب صاحبه ذكره فهو شاهده ، فإن كان الغالب عليه العلم فهو يشاهد العلم ، وإن كان الغالب عليه الوجد يقال : إنه يشاهد الوجد ، ومعنى الشاهد : الحاضر ، فكل ما هو حاضر قلبك فهو شاهدك ، وقد سئل الشبلي عن المشاهدة فقال : من أين لنا مشاهدة الحق ؟ لنا شاهد الحق ، أشار بشاهد الحق إلى المستولي على قلبه ، والغالب عليه من ذكر الحق ، والحاضر في قلبه دائماً من ذكر الحق ، ومن حصل له مع مخلوق تعلُّق بالقلب يقال إنه شاهده ، يعني أنه حاضر قلبه ، فإن المحبة توجب دوام ذكر المحبوب واستيلائه عليه . وبعضهم تكلف في مراعاة هذا الاشتقاق فقال : إنما سمى الشاهد من الشهادة ، فكأنه إذا طالع شخصاً بوصف الجمال فإن كانت بشريعة ساقطة عنه ولم يشغله شهود ذلك الشخص عما هو به من الحال ، ولا أثرت فيه صحبته بوجه ، فهو شاهد له على فناء نفسه ، ومن أثر فيه ذلك فهو شاهد عليه في بقاء نفسه وقيامه بأحكام الشريعة ، فهو إما شاهد له ، وإما شاهد عليه ، وعلى هذا حمل قوله ﷺ : « أريت ربي ليلة المعراج في أحسن صورة » أي : أحسن صورة رأيتها تلك الليلة من رؤية والملائكة والأنبياء ، لم تشغلني تلك الرؤى عن رؤيته تعالىٰ ، بل رأيت المصوّر في الصورة ، والمنشىء في الإنشاء ، يريد بذلك رؤية العلم ، لا إدراك البصر .

٢٥ ـ النَّفْس

نَفْس الشيء في اللغة وجوده ، وعند القوم ليس المراد من إطلاق لفظ النفس على شيء الوجود ولا القالب الموضوع ، وإنما أرادوا بالنفس ما كان معلولًا من أوصاف العبد ، ومذموماً من أفعاله ، وأخلاقه ، ثم إن المعلولات من أوصاف العبد على ضربين : أحدهما ما يكون كسباً له ، كمعاصيه ومخالفاته ، والثاني : أخلاقه الدنية ، فهي في أنفسها مذمومة ، فإذا عالجها العبد ونازلها تنتفي عنه بالمجاهدة تلك الأخلاق على مستمر العادة ، والقسم الأول من أحكام النفس ما نهي عنه نهي تحريم ، أو نهي تنزيه ، وأما القسم الثاني من قسمي النفس فسفساف الأخلاق والدنيء منها هذا حده على الجملة ، ثم تفصيلها . فالكبر والغضب والحقد والحسد وسوء الخلق وقلة الاحتمال ، وغير ذلك من الأخلاق المذمومة ، وأشد أحكام النفس وأصعبها توهمها أن شيئاً منها حسن ، أو أن لها استحقاق قعد ، ولهذا عد ذلك من الشرك الخفي ، ومعالجة الأخلاق وترك النفس وكبرها أتم من مقاساة الجوع والعطش والسفر والسهر ، وغير ذلك من المجاهدات التي تتضمن سقوط القوة ، وإن كان ذلك أيضاً من جملة ترك النفس . ويحتمل أن تكون النفس لطيفة مودعة في هذا القالب هي محل الأخلاق المعلولة ، كما أن الروح لطيفة مودعة في هذا القالب هي محل الأخلاق المحمودة ، ويعبر عنها بأن الروح جوهر نوراني علوي رباني والنفس ظلمانية سفلية شيطانية ، وأما القلب فتقلب بينهما ، فالروح طيبة شأنها الموافقة ، والنفس خبيثة شأنها المخالفة ، والقلب إن مال إلى الروح اتصف بصفتها وانقهرت النفس معهما ، أو إلى النفس فبالعكس ، وتكون جملة الإنسان مسخراً بعضها إلى بعض ، والجميع إنسان واحد . وكون النفس والروح من الأجسام اللطيفة في الصورة ، ككون الملائكة والشياطين بصفة اللطافة ، وكما يصح أن يكون البصر محل الرؤية ، والأذن محل السمع ، والأنف محل الشم ، والفم محل الذوق ، والسميع والبصير ، والشامّ والذائق إنما هي الجملة التي هي الإنسان ، فكذلك محل الأوصاف

الحميدة القلب والروح ، ومحل الأوصاف المذمومة النَّفَس ، والنَّفَس جزء من هذه الجملة والقلب جزء من هذه الجملة ، والحكم والاسم راجع إلى الجملة .

٢٦ ـ الروح

الأرواح مختلف فيها ، فمنهم من يقول : إنها الحياة ، ومنهم من يقول إنها أعيان مودعة في هذه القوالب لطيفة ، أجرى الله سبحانه العادة بخلق الحياة في القالب ، ما دامت الأرواح في الأبدان ، فالإنسان حي بالحياة ، ولكن الأرواح مودعة في القوالب ، ولها تَرَقٍّ في حال النوم ، ومفارقة للبدن ، ثم رجوع إليه ، والإنسان هو الروح والجسد ، لأن الله تعالىٰ سخَّر هذه الجملة بعضها لبعض ، والحشر يكون للجملة والمثاب والمعاقب الجملة ؛ والأرواح مخلوقة ، ومن قال بقدمها فهو مخطىء خطأً عظيماً ، والأخبار تدل على أنها أعيان لطيفة .

واعلم أن في كل جسد روحين : إحداهما روح اليقظة ، فما دامت في الجسد كان متيقظاً ، فإذا فارقته نام ، ورأت المرائي ؛ والثانية روح الحياة ، فما دامت في الجسد كان حياً فإذا فارقته مات . فالنوم انقطاع الروح عن ظاهر البدن فقط ، والموت انقطاعها عند ظاهره وباطنه ، والروحات في باطن الإنسان . ولا تمت أرواح الحياة بل ترفع إلى السماء حية ، لكن لا تفتح أبوابها لأرواح الكفار ، ثم إذا نزلت تكون في القبور مجردة عن الأجساد ، منعمة بالثواب أو معذبة بالعقاب .

نبَّه على ذلك العز بن عبد السلام .

٢٧ ـ السرّ

يحتمل أنه اللطيفة المودعة في القالب ، كالأرواح ، وأصولهم تقتضي أنها محل المشاهدة ، كما أن الأرواح محل للمحبة ، والقلوب محل للمعارف ، وقالوا : السر مالك عليه إشراف ، وسر السر ما لا اطلاع عليه لغير الحق سبحانه .

وعند القوم على موجب مواصفاتهم واصطلاحاتهم وأصولهم السرُّ ألطف من الروح ، والروح أشرف من القلب ، ويقولون : الأسرار معتقة عن رق الأغيار ، من الآثار والأطلال ! ويعلق لفظ السر على ما يكون مصوناً مكتوماً بين العبد والحق سبحانه في الأحوال .

وعليه يحمل قول من قال : إن أسرارنا بكر ، لم يفتضّها وهم واهم ، ويقولون : صدور الأحرار قبور الأسرار . وقالوا : لو عرف زرّي سرّي لطرحته .

* * * *

الكِتَابُ الرَّابِعُ

أَبوَابٌ في شَرحِ المقَامَاتِ

أبوابٌ في شرح المقامات

فهذا طرف من تفسير إطلاقاتهم ، وبيان عباراتهم فيما انفردوا به من ألفاظ ، ولنذكر الآن أبواباً في شرح المقامات التي هي مدارج أرباب السلوك ، ثم نذكر بعدها أبواباً في تفصيل الأحوال ، أسأل الله تعالىٰ أن ييسرها ، ويعين على إيجازها واختصارها ، إنه أكرم مسؤول .

(١) باب التوبة

هي أصل كل مقام ، ومفتاح كل حال ، فمن لا توبة له لا مقام له ولا حال .

التوبة : الرجوع عن الذنب بالإقلاع عنه ، والندم عليه ، وعزم القلب على ألا يعود إليه ، وردّ المظالم لأهلها إن تعلّقت بالغير ، والتوبة المندوبة : الرجوع من المباحات لنيل القربات ، وسواء كانت التوبة واجبة أو مندوبة ، فهي مطلوبة، قال تعالىٰ: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٣١] . ويقال للتوبة : أوبة . قال تعالىٰ : ﴿ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٣٠] أي : رجّاع .

قال تعالىٰ : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٣١] . وقال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [التحريم : ٨] . وروى القشيري بسنده إلى أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » . وإذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب . ثم تلا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] . وذلك لأنه إذا

أحبه ألهمه التوبة من الذنب ، أو غفر له ، لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ٤٨] . قيل : يا رسول الله : وما علامة التوبة ؟ قال : الندامة »[١] . وبسند القشيري إلى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « ما من شيء أحب إلى الله من شاب تائب »[٢] .

فالتوبة أول منازل السالكين ، وأول مقام من مقامات الطالبين ، فالتوبة الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود فيه ، وقال ﷺ : « الندم توبة »[٣] . فأرباب الأحوال من أهل السنة قالوا : شرط التوبة حتى تصحَّ ثلاثة أشياء : الندم على ما عمل من المخالفات ، وترك الزلة في الحال ، والعزم على ألا يعوّد إلى مثل ما عمل من المعاصي . فهذه الأركان مع إرضاء الآدمي في ظلامته إن كانت ، لا بد منها حتى تصح توبته ، وأما ما في الخبر : « الندم توبة » إنما نصّ على معظمه ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « الحج عرفة » أي : معظم أركانه ، والندم توبة معظم أركانها الندم ، فالندم يستتبع الركنين الآخرين ، فإنه يستحيل أن يكون تائباً نادماً ، وهو مصرٌّ على مثل ذلك الذنب ، أو عازم على الإتيان بمثله ، وهذا معنى التوبة على الإجمال .

فأما على جهة الشرح والإبانة ، فإن للتوبة أقساماً وترتيباً وأسباباً . فأول الأسباب انتباه القلب من رقدة الغفلة ، ورؤية العبد ما هو عليه من سوء الحالة التي هو متلبس بها ، ويصل إلى هذه الجملة ، بالتوفيق إلى الإصغاء إلى ما يخطر بباله من زواجر الحق سبحانه ، يسمع قلبه ، بأن يخطر الله في قلبه التفكر فيما هو فيه ، وموعظة لقلبه ، جاء في الخبر : واعظ الله في قلب كل امرىء مسلم ، وفي الخبر : « إن في البدن لمضغة إذا صلحت صلح جميع البدن ، وإذا فسدت فسد جميع البدن ألا وهي القلب »[٤] . فإذا فكر بقلبه في سوء ما

---

(١) قال السيوطي : رواه ابن النجار وحسَّنه ، وقد روى أوله ابن ماجه .

(٢) قال السيوطي : رواه أبو المظفر السمعاني في أماليه عن سلمان وضعَّفه ، وله شواهد من الأحاديث الصحيحة .

(٣) أخرجه أحمد (١/٣٧٦) وابن ماجه (٤٢٥٢) والحاكم (٤/٢٤٣) .

(٤) أخرجه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩) .

يصنعه ، وأبصر ما هو عليه من قبيح الأفعال سنح في قلبه إرادة التوبة والإقلاع عن قبيح المعاملات ، فيمده الحق سبحانه بتصحيح العزيمة والتأهب لأسباب التوبة .

فأول ذلك هجران أخدان السوء ، فعلى التائب الفرار منهم أشد من فراره من الأوبئة ، فإن ضررها خاص في الدنيا وضرر رفاق السوء ضارٌّ في الدنيا والآخرة ، فإنهم هم الذين يحملونه على رد توبته ، ويشوشون عليه صحة هذا العزم الجليل ، ولا يتم ذلك إلا بالمواظبة على مشاهد الغير التي تزيده رغبته في التوبة .

ومن ذلك خلطته بالصالحين ، أو سماع أقوالهم ، وأفعالهم ، أو قراءتها ، فبذلك يتوصل إلى معرفة أمور كثيرة ، يجهل وجوبها ، أو ندبها ، أو حكمها ، أو كراهتها ، أو حرمتها ، لا سيما الغيبة والنميمة والحسد والغش في المعاملات ، فعند ذلك تَنْحَلُّ من قلبه عقدة الإصرار على ما هو عليه من قبيح الفعل ، فيقف عن تعاطي المحظورات ، ويكبح لجام نفسه عن متابعة الشهوات ، فيفارق الزلة في الحال ، ويبرم العزيمة على ألا يعود إلى مثله في الاستقبال ، فإن مضى على توبته ونفذ بمقتضى عزمه ، فهو الموفق صدقاً ، وإن نقض التوبة مرة أو مرات تحمله إرادته على تجديدها ، فلا ينبغي قطع الرجاء عن توبة أمثال هؤلاء الذين ينقضون توبتهم ، فلا تمنعه زلته بعد التوبة من توبة أخرى ، ولا ييأس من روح الله ، فربما كان ذنبه إذا تاب منه ، ثم عاد إليه سبب سعادته ، كما جاء في الخبر الصحيح : « إن العبد ليذنب الذنب فيدخله ذنبه الجنة ، قيل كيف ذلك ؟ قال : لا يزال نصب عينيه تائباً منه » وذلك لعظم ما وقع فيه ، فيجد في الأعمال ولا يراها كافية فيما وقع فيه ، ولذلك قيل : زلة واحدة بعد التوبة أعظم من سبعين زلة قبلها ، فيحمله ذلك على الجد في الأعمال ، وكلما زل عاد ، فإن لكل أجل كتاب .

حكي عن أبي سليمان الداراني أنه قال : اختلفت إلى مجلس قاصٍ ، فاستحسنت كلامه ، فأثر كلامه في قلبي ، فلما قمت من مجلسه لم يبق في

قلبي منه شيء ، فعدت إليه ثانياً فسمعت كلامه ، فبقي كلامه في قلبي في الطريق ، ثم زال ، فعدت ، فبقي أثر كلامه في قلبي حتى رجعت إلى منزلي ، فكسرت آلات المخالفة لله .

وقيل : إن أبا عمرو بن نجيد في ابتداء أمره اختلف إلى مجلس أبي عثمان فأثر في قلبه كلامه فتاب ، ثم إنه وقعت له فترة ، فكان يهرب من أبي عثمان إذا رآه ، ويتأخر عن مجلسه ، فاستقبله أبو عثمان يوماً ، فجاز أبو عمرو عن الطريق ، وسلك طريقاً آخر ، فتبعه أبو عثمان ، فما زال به يقفو أثره حتى لحقه ثم قال : يا بني لا تصحب من لا يحبك إلا معصوماً ، فسكن بهذا الكلام قلبه . وقال : إنما ينفعك أبو عثمان في مثل هذه الحالة ، قال : فتاب أبو عمرو بن نجيد ، وعاد إلى الإرادة وتقدم فيها .

وقال الدقَّاق : تاب بعض المريدين ، ثم وقعت له فترة ، فكان يفكر وقتاً لو عاد إلى التوبة كيف حكمه ؟ فهتف به هاتف : يا فلان ! أطعتنا فشكرناك ، ثم تركتنا فأمهلناك ، فإن عدت إلينا قبلناك ، فعاد الفتى إلى الإرادة .

فباب التوبة مفتوح بعد الزلل ، فإذا ترك المعاصي ، وحلَّ عن قلبه عقدة الإصرار ، وعزم على ألا يعود إلى مثله ، فعند ذلك يخلص إلى قلبه صادق الندم ، فيتأسف على ما عمله ، ويأخذ في التحسر على ما ضيّعه من أحواله ، فتتم توبته ، وتصدق مجاهدته ، ويسستبدل بمخالطته العزلة ، وبصحبته مع أخدان السوء التوحش عنهم ، والخلوة دونهم ، ويصل ليله بنهاره في التحسر ، ويعتنق في عموم أحواله بصدق التأسف ، يمحو بصوب عبرته آثار عثرته ، ويأسو بحسن توبته كلوم حوبته ، ولن يتم له شيء من هذا إلا بعد فراغه من إرضاء خصومه ، والخروج مما لزمه عن مظالمه ، فإن أول منزلة في التوبة إرضاء الخصوم بما أمكنه ، فإن اتسع ذات يده لإيصال حقوقهم إليهم ، أو سمت نفوسهم بإجلاله والبراءة عنه ، وإلا فالعزم بقلبه على أن يخرج عن حقوقهم عند الإمكان ، والرجوع إلى الله بصدق الابتهال ، والدعاء لهم .

وللتائبين صفات وأحوال هي من خصالهم ، يعد ذلك من جملة التوبة

لكونها من صفاتهم ، ولأنها من شرط صحتها .

قال الدقَّاق : التوبة على ثلاثة أقسام : أولها : التوبة ، وأوسطها الإنابة ، وآخرها الأوبة . فجعلَ التوبة بداية ، والأوبة نهاية ، والإنابة واسطتهما . فكل من تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة ، ومن تاب طمعاً في الثواب فهو صاحب إنابة ، ومن تاب مراعاة للأمر لا لرغبة هي ثواب ، أو رهبة من العقاب فهو صاحب أوبة .

ويقال أيضاً : التوبة صفة المؤمنين ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٣١] . والإنابة صفة الأولياء والمقربين ، قال تعالىٰ : ﴿ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق : ٣٣] ، والأوبة صفة الأولياء والمقربين ، قال تعالىٰ : ﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٤٤] .

فمن آب خوفاً من العقاب ورجاء للثواب فهو طالب حظ نفسه غير مخلص لله تعالىٰ ، ومن تاب حياء من ربه لقدرته عليه وعلمه به لا خوفاً من ناره ولا رجاء لثوابه ، فهو المخلص في توبته ، ومن تاب عن كل ما سوى الله تعالىٰ فهو المقرّب ، قال الجنيد : التوبة على ثلاث معان : أولها : الندم . والثاني : العزم على ترك المعاودة إلى ما نهى الله تعالىٰ عنه ، والثالث : السعي في أداء المظالم .

وقال سهل بن عبد الله : التوبة ترك التسويف . وقال الحارث المحاسبي : ما قلت قط اللهم إني أسألك التوبة ، ولكني أقول : أسألك شهوة التوبة ، لأنها الأكمل ، فإذا رزقها حملته على سائر مقامات التوبة من المكروهات ، والمندوبات ، والقفلات ، وترك الأولى ، ومن رؤية الأعمال الصالحات .

دخل الجنيد على السري فرآه متغيراً ، فسأله عن سبب تغيره ، فقال : دخل عليّ شاب فسألني عن التوبة فقلت ألا تنسى ذنبك ، فعارضني وقال : بل التوبة أن تنسى ذنبك ، فقال الجنيد : الأمر عندي ما قاله الشاب ، فقال : لم ؟ قلت : لأني إذا كنت في حال الجفاء نقلني إلى حال الصفاء ، فذكر الجفاء في حال الصفاء جفاء ، فسكت السري .

سئل سهل بن عبد الله عن التوبة ، فقال : أن لا تنسى ذنبك ، وسئل الجنيد عن التوبة ، فقال : أن تنسى ذنبك ، فالمحققون لا يذكرون ذنوبهم مما غلب عليهم من عظمة الله ودوام ذكره ، وأشار سهل إلى حال المبتدئين ، لأنهم إذا ذكروا ذنوبهم ثار عليهم الخوف المانع لهم من النكث .

سئل رويم عن التوبة ، فقال : هي التوبة من التوبة ، وسئل ذو النون المصري عن التوبة ، فقال : توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة ، وقال النوري : التوبة أن تتوب إلى الله من كل شيء سوى الله تعالىٰ ، وقال الواسطي : التوبة النصوح لا تبقي على صاحبها أثراً من المعصية سراً ولا جهراً ، ومن كانت توبته نصوحاً لا يبالي كيف أمسى وأصبح ، قال يحيى بن معاذ : إلهي لا أقول تبت ولا أعود ، لما أعرف من خلقي ، ولا أضمن ترك ارتكاب الذنوب فأنا أعرف من ضعفي ، ثم إني أقول لا أعود لعلي أموت قبل أن أعود .

وقال ذو النون : الاستغفار من غير إقلاع توبة الكذابين . قال ابن يزدانيار وقد سئل عن العبد إذا خرج إلى الله تعالىٰ على أي أصل يخرج ، قال : على ألا يعود على ما منه خرج ، ولا يراعي إلَّا من إليه خرج ، ويحفظ سرّه عن ملاحظة ما تبرأ منه . فقيل له : هذا حكم من خرج عن وجود ، فكيف حكم من خرج عن عدم ؟ فقال : وجود الحلاوة في المستأنف عوضاً عن المرارة في الزمن السالف .

وسئل البوشنجي عن التوبة فقال : إذا ذكرت الذنب ثم لا تجد حلاوته عند ذكره فهو التوبة .

وقال يحيى بن معاذ : زلة واحدة للتائب أقبح من سبعين زلة قبلها .

وقال ذو النون : حقيقة التوبة أن تضيق الأرض عليك بما رحبت ، حتى لا يكون لك قرار ، ثم تضيق عليك نفسك ، كما أخبر الله تعالىٰ في كتابه بقوله : ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾ [التوبة : ١١٨] .

وقال ابن عطاء : التوبة توبتان : توبة الإنابة ، وتوبة الاستجابة ، فتوبة الإنابة أن يتوب العبد خوفاً من عقوبته ، وتوبة الاستجابة أن يتوب حياء من كرمه ، وقيل لأبي حفص : لم يبغض التائب الدنيا ؟ فقال : لأنها دار باشر فيها الذنوب ، فقيل له : فهي أيضاً دار أكرمه الله فيها بالتوبة ، فقال : إنه من الذنب على يقين ، ومن قبول التوبة على خطر .

وقال الواسطي : طربُ داود عليه السلام وما هو فيه من حلاوة الطاعة أوقعه في أنفاس متصاعدة ، وهو على حالته الثانية أتم منه في وقت ما ستر عليه أمره .

وقال بعضهم : توبة الكذابين على أطراف ألسنتهم ، يعني قول أستغفر الله . وسئل أبو حفص عن التوبة فقال : ليس للعبد في التوبة شيء ، لأن التوبة إليه لا منه . وقيل : أوحى الله إلى آدم عليه السلام : يا آدم ورّثت ذريتك التعب والنصب وورثتهم التوبة ، من دعاني منهم بدعوتك لبيته كتلبيتك ، يا آدم أحشرُ التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ، ودعاؤهم مستجاب . وقال رجل لرابعة : إني قد أكثرت من الذنوب والمعاصي ، فلو تبت إلى الله ، هل يتوب عليّ ؟ فقالت : لا بل لو تاب عليك لتبت .

قال القشيري : واعلم أن الله تعالىٰ قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] ومن قارف الزلة فهو من خطئه على يقين ، فإذا تاب فإنه من القبول على شك ، لا سيما إذا كان من شرطه وحقه أن يكون مستحقاً لمحبة الحق ، وإلى أن يبلغ العاصي محلاً يجد في أوصافه أمارة محبة الله إياه مسافة بعيدة ، فالواجب إذاً على العبد إذا علم أنه ارتكب ما تجب منه التوبة ، دوام الانكسار ، وملازمة التنفس ، والاستغفار ، كما قالوا : استشعار الوجل إلى الأجل ، وقال عز من قائل : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] . وكان من سننه عليه الصلاة والسلام دوام الاستغفار ، قال ﷺ : « إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة »[١] .

---

(١) تقدم تخريج الحديث .

وقال يحيى بن معاذ : زلة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها ، وقال أبو عثمان في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴾ [الغاشية : ٢٥] قال : رجوعهم ، وإِن تمادى بهم الجولان في المخالفات .

* * * *

(٢) باب المجاهدة

المجاهدة : هي الأعمال التي تزيل الأخلاق الذميمة ، وتحصل الأخلاق الحميدة ، سواء كانت من أعمال القلوب أم الجوارح وهي مطلوبة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] . سئل رسول الله ﷺ عن أفضل الجهاد فقال : « كلمة عدل عند سلطان جائر »[١] . وورد في أفضل الأعمال : « الإيمان ثم الجهاد »[٢] . وورد : « أفضل الأعمال الصلاة لوقتها »[٣] . فالأجوبة مختلفة في أوقات ، فأجاب ﷺ في كل منها بما هو الأفضل في حق السامع ، فمن ظهر منه قلة الكلام في العدل عند السلطان ، قال له : أفضلها : « كلمة عدل عند سلطان جائر » ومن ظهر منه قلة إيمان قال له : « أفضلها الإيمان » ومن ظهر منه قلة صلاة قال له أفضلها : « الصلاة » . ومجاهدة كل أحد تكون بقيامه بحقوق ما أقيم فيه من أمريّة ، وتحابب في الله ، وتعلق قلبه في المساجد ، فالأمير يقوم بما يتعلق به من حقوق الناس ، والمتحابون في الله لا يصح لهم الحب فيه ، حتى تزول عنهم محبة الدنيا بالكليّة ، ويؤثر كل منهم صاحبه بما أمكنه .

قال الدقاق : من زيّن ظاهره بالمجاهدة حسّن الله سرائره بالمشاهدة ، ومن لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من هذا الطريق نسمة ، فإذا اجتهد في شبيبته في الأعمال ، وجد بركة ذلك حين عجزه وكبر سنه .

قال المغربي : من ظنَّ أن يفتح له شيء من هذه الطريقة أو يكشف له عن شيء منها لا بلزوم المجاهدة فهو في غلط .

---

(١) أخرجه أحمد (١٩/٣) وابن ماجه (٤٠٠٠) .

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٨/٢) وابن حبان (١٧٢٢) عن أبي هريرة .

(٣) أخرجه أحمد (٤٠٩/١) والبخاري (٧٥٣٤) ومسلم (٨٥) (١٣٩) .

يغوص البحر من طلب اللآلي ومن رام العلا سهر الليالي

وردنا حيّ ليلى على كل ضامر ولم نخش من حد السيوف البواتر

وقال الدقاق : من لم يكن له في بدايته قومة ، لم يكن له في نهايته جلسة .

وقال الجنيد : ما أخذنا التصوف من القيل والقال ، ولكن من الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات . وقيل : حقيقة الإرادة استدامة الجد وترك الراحة .

وقال أبو عثمان المغربي : معنى طريق القوم في معاملاتهم على حسب المتابعة ، ومن ظن أن يبلغ غرضاً أو يظهر بمراد له من طريق المتابعة فهو مخذول مغرور .

وقال أبو سعيد الخرّاز : كل باطن يخالفه ظاهر فهو باطل . وقال بعضهم : من أمرّ السنة على نفسه قولًا وفعلاً ، نطق بالحكمة ، ومن أمرّ الهوى على نفسه قولًا وفعلاً ، نطق بالبدعة . وقولهم : الحركة بركة ، حركات الظواهر توجب بركات السرائر .

وقال أبو يزيد : نظرت إلى الخلق فرأيتهم موتى ، فكبّرت عليهم أربع تكبيرات .

وقال السريّ : يا معشر الشباب : جدّوا قبل أن تبلغوا مبلغي فتضعفوا وتقصّروا كما ضعفت وقصّرت ، وكان في ذلك السن لا يلحقه الشباب في العبادة .

وقال القزاز : بني علم التصوف على ثلاثة أشياء : ألا تأكل إلا عند الفاقة ، ولا تنام إلا عند الغلبة ، ولا تتكلم إلا عند الضرورة .

وقال إبراهيم بن أدهم : لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يجوز ست عقبات :

أولها : يغلق باب النعمة ويفتح باب الشدّة .

والثاني : يغلق باب العز ويفتح باب الذل .

والثالث : يغلق باب الراحة ويفتح باب الجهد .

والرابع : يغلق باب النوم ويفتح باب السهر .

والخامس : يغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر .

والسادس : يغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت .

وقال أبو عمرو بن نجيد : من كرمت عليه نفسه هان عليه ذنبه .

واعلم أن أصل المجاهدة وملاكها فطم النفس عن المألوفات ، وحملها على خلاف هواها في عموم الأوقات ؛ وللنفس صفتان مانعتان لها من الخير : انهماك في الشهوات ، وامتناع عن الطاعات ، فإذا جمحت فغلبت صاحبها عن ركوب الهوى ، يجب عليه كبحها بلجام التقوى ، وإذا حرنت عند القيام بالموافقات فوقفت ولم تنقد ، يجب عليه سوقها على خلاف الهوى ، وإذا ثارت عند غضبها ، فمن الواجب مراعاة حالها ، فما من منازلة أحسن عاقبة من غضب يكسر سلطانه بخلق حسن ، وتخمد نيرانه برفق .

وإذا استحلت شراب الرعونة ، أي : الحمق ، فضاقت إلا عن إظهار مناقبها ، والتزين لمن ينظر إليها ويلاحظها ، فمن الواجب على صاحبها كسر ذلك عليها ، وإحلالها بعقوبة الذي بما يذكر من حقارة قدرها ، وخساسة أصلها ، وقذارة فعلها ؛ وكسر النفس الجموح يحصل بثلاثة أشياء عند الغزالي : أحدها : منع الشهوات ، وثانيها : حملها أثقال العبادات ، وثالثها : الاستعانة بالله ، وإلا فلا مخلص ، أما تسمع قول يوسف عليه السلام : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾ [يوسف : ٥٣] .

وجهد العوام يكون في توفية الأعمال ، وقصد الخواص يكون إلى تصفية الأحوال ، فإن مقاساة الجوع والسهر سهل يسير ، ومعالجة الأخلاق والترقي عن سفاسفها صعب شديد .

ومن غوامض آفات النفس ركونها إلى استجلاء لمدح ، فإن من تحسّس منه

جرعة حَمَل السماوات والأرضين على أشفاره ، وأمارة ذلك له إذا انقطع عنه ذلك الشرب آل حاله إلى الكسل والفشل .

ويحكى عن أبي محمد المرتعش أنه قال : حججت كذا وكذا حجة على التجريد ، أقاسي فيها التعب والجوع ، فبان لي أن جميع ذلك كان مشوباً بحظي ، وذلك أن والدتي سألتني يوماً أن أستقي لها جرَّة ماء ، فثقل ذلك على نفسي ، فعلمت أن مطاوعة نفسي في أعمال الحجات كانت لحظ وثوابٍ لنفسي ، إذ لو كانت نفسي فانية لم يصعب عليها ما هو حق واجب في الشرع ، ويسهل عليها ما هو نفل فيه .

وقال ذو النون المصري : ما أعز الله عبداً بعزّ هو أعزّ له من أن يدله على ذل نفسه ، وما أذل الله عبداً بذل هو أذل له من أن يحجبه عن ذل نفسه ، وذلّها أن يعرفه الله قدرها في أصلها وتقلّبها في أطوار خلقها من دم إلى نطفة إلى علقة إلى مضغة ، وعجزها عن جلب ما ينفعها ودفع ما يضرها عنها ، وبأن يعرف أنها مربوبة مكلفة مسؤولة مؤاخذة بكل حركة وسكون من أفعالها ، فإن حسنت وقامت بما كلفها به ربها سعدت ونجت ، وإن أهملت وفرّطت عثرت وهلكت ؛ فما أعز الله بعبد عزاً أعزّ له من أن يدله على هذه الأمور ، فإذا عرف قدر نفسه سلم من عجبها وكبرها ، وسائر آفاتها ، وإن عرف تكليفها وما هي مؤاخذة به اجتهد في العمل للقيام بما عليها وأخذ مالها .

وقال إبراهيم الخوَّاص : ما هالني شيء إلا ركبته . وقال محمد بن الفضل : الراحة هو الخلاص من أمانيّ النفس .

وقال أبو علي الروذباري : دخلت الآفة على الخلق من ثلاثة ، سقم الطبيعة ، وملازمة العادة ، وفساد الصحبة ، فسئل ما سقم الطبيعة ؟ فقال : أكل الحرام ، فقيل له : ما ملازمة العادة ؟ فقال : النظر والاستماع بالحرام والغيبة ، قيل له : فما فساد الصحبة ؟ قال : كلما هاج في النفس شهوة تبعتها ، فالصحبة النافعة أن يخالف العبد هواها ، ويحملها على ما طلبه منه ربها . وقال : سجنك نفسك ، فإذا خرجت منها وقعت في راحة الأبد .

وقال الورَّاق : كان أجل أحكامنا في مبادىء أمرنا أن من استقبلنا بمكروه لا ننتقم لأنفسنا منه بل نعتذر إليه ، ونتواضع له ، وإذا وقع في قلوبنا حقارة لأحد قمنا بخدمته والإحسان إليه حتى يزول . وقال أبو حفص : النفس ظلمة كلها وسراجها سرّها ، ونور سراجها التوفيق ، فمن لم يصحبه في سرّه توفيق من ربه كان ظلمة كله ، قال القشيري : معنى قوله سراجها : سرها ، يريد سر العبد الذي بينه وبين الله تعالىٰ ، وهو محل إخلاصه ، ومن لم يدركه التوفيق لم ينفعه علمه بنفسه ولا بربه ، ولهذا قال الشيوخ : من لم يكن له سرّ فهو مصرّ . وقال أبو عثمان : لا يرى أحد عيب نفسه وهو يستحسن من نفسه شيئاً ، وإنما يرى عيوب نفسه من يتهمها في جميع الأحوال .

وقال أبو حفص : ما أسرع هلاك من لا يعرف عيبه ، فإن المعاصي الناشئة من عدم معرفة نصيب النفس واتهامها بريد الكفر .

وقال أبو سليمان الطائي : استحسنت من نفسي عملاً فاعتددت به .

وقال السري : إياكم وجيران الأغنياء ، وقراء الأسواق ، وعلماء الأمراء .

وقال ذو النون المصري : إنما دخل الفساد على الخلق من ستة أشياء : الأول : ضعف النية بعمل الآخرة ، والثاني : صارت أبدانهم رهينة لشهواتهم ، والثالث : غلبهم طول الأمل مع قرب الأجل ، والرابع : آثروا رضا المخلوقين على رضا الخالق ، والخامس : ابتغوا أهواءهم ونبذوا سنة نبيهم ﷺ وراء ظهورهم ، والسادس : جعلوا قليل زلات السلف حجة لأنفسهم ودفنوا كثير مناقبهم .

❊ ❊ ❊ ❊

(٣) باب الخلوة والعزلة

قال العروسي : الناس في ذلك على ثلاثة أقسام : منفرد بقلبه لا بشخصه ، وهو كائن بائن ، راحل قاطن ، فحاله حال الأقوياء ، وأهل الكمال . ومنفرد بشخصه دون قلبه ، وهذا سالم إن توفرت شروطه ، متعرض لنفحات الرحمة وإن كان لا مبرة به في الحال . ومنفرد بهما معاً ، وهو المستخلي وأنواعه ثلاثة : معتزل ليسلم ، ومعتزل ليغنم ، ومعتزل لينعم ؛ فشرط الأول القيام بواجبات وقته وسلامة الناس من سوء ظنه ، وشرط الثاني التحفظ في السنة مع الجد في العمل ، وشرط الثالث تحرير الأحوال والتبري من المقال .

أراد بعضهم أن ينزل عن عزلته ومجاهدته إلى قتال الكفار ، فاتهم نفسه خوفاً من أن يكون لها فيه حظ ، فلجأ إلى الله تعالىٰ فألهمه أن مرادها أن تقتل في الجهاد ، فيذاعُ خبر شهادته فاختارت ذلك القتل على قتلها بالمجاهدة المعنوية ، لأن ذلك قتلة واحدة ، وهو يقتلها كل يوم كذا مرة ، والموت الاضطراري شدته ساعة ، والموت الاختياري دائم لا ينقضي .

والخلوة والعزلة مطلوبتان ، روى القشيري بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من خير معايش الناس كلهم رجلاً ، آخذاً بعنان فرسه في سبيل الله ، إن سمع فزعة أو هيعة كان على متن فرسه يبتغي الموت أو القتل في مظانّه ، أو رجلاً في غنيمة له في رأس شعفة من هذه الشعاف ، وفي بطن واد من هذه الأودية ، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ، ليس من الناس إلا في خير »[1] .

---

(١) أخرجه مسلم بنحوه في الإمارة (١٨٨٩) .

الخلوة صفة أهل الصفوة ، والعزلة من أمارات الوصلة ، ولابد للمريد في ابتداء حاله من العزلة عن أبناء جنسه ، ثم في نهايته من الخلوة لتحققه بأنسه ، ومن حق العبد إذا آثر العزلة أن يعتقد باعتزاله عن الخلق سلامة الناس من شره ، ولا يقصد سلامته من شر الخلق ، فإن الأول من القسمين نتيجة استصغار نفسه ، والثاني شهود مزيته على الخلق ، ومن استصغر نفسه فهو متواضع ، من رأى لنفسه مزية على أحد فهو متكبر .

وقد رؤي بعض الرهبان فقيل له : إنك راهب ، فقال : لا بل حارس كلب ، إن نفسي كلب يعقر الخلق أخرجتها من بينهم ليسلموا منها .

ومر إنسان ببعض الصالحين فجمع ثيابه منه ، فقال له الرجل : لم تجمع عني ثيابك ليست ثيابي نجسة ، فقال له الشيخ : وهمت في ظنك ، ثيابي هي النجسة جمعتها عنك لئلا تتنجس ثيابك بها ، لا لكي لا تنجس ثيابي . وثياب الإنسان قد تطلق على حافته التي هو فيها ، من سوء خلقه ، وكثرة وقوعه في الغيبة ، والكذب ، والكلام فيما لا يعنيه .

ومن آداب العزلة : أن يحصل من العلوم ما يصحح به عقد توحيده ، لكيلا يستهويه الشيطان بوساوسه ، ثم يحصل من علوم الشرع ما يؤدي به فرضه ، ليكون بناءُ أمره على أساس محكم ، والعزلة في الحقيقة اعتزال الخصال المذمومة ، فتأثير العزلة إنما هو لتبديل الصفات لا للتنائي عن الأوطان ، ولهذا قيل : من العارف بالله ؟ قالوا : كائن بائن ، يعني كائن مع الخلق ، بائن عنهم بالسر ، سمعت الدقَّاق يقول : البس مع الناس ما يلبسون وتناول مما يأكلون ، وانفرد عنهم بالسر ، وقال : جاء لي إنسان وقال : جئتك من مسافة بعيدة ، فقلت : ليس هذا الحديث من حيث قطع المسافات ، ومقاساة الأسفار ، فارق نفسك ولو بخطوة فقد حصل مقصودك .

ويحكى عن أبي يزيد قال : رأيت ربي عز وجل في المنام ، فقلت كيف أجدك ؟ فقال : فارق نفسك وتعال .

وقال المغربي : من اختار الخلوة على الصحبة ينبغي أن يكون خالياً من

جميع الأذكار إلا ذكر ربه ، وخالياً من جميع الإرادات إلا رضا ربه ، وخالياً من مطالبة النفس من جميع الأسباب ، فإن لم يكن بهذه الصفة ، فإن خلوته توقعه في فتنة أو بلية ، فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وقد صحَّ في الخبر : « يأتي الشيطان أحدكم ويقول : من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول له : من خلق ربك ؟ فإذا وجد ذلك فليستعذ بالله ولينته » .

قال يحيى بن معاذ : انظر أنسك بالخلوة ، أو أنسك معه في الخلوة ، فإن كان أنسك بالخلوة ذهب أنسك إذا خرجت منها ، وإن كان أنسك به في الخلوة استوت بك الأماكن في الصحاري والبراري .

جاء رجل إلى زيارة أبي بكر الورَّاق ، فلما أراد أن يرجع قال له : أوصني ، فقال : وجدت خير الدنيا والآخرة في الخلوة ، وقلة الطعام ، وشرهما في الكثرة وفي الاختلاط . وسئل الجريري عن العزلة الحقيقية ، فقال : هي الدخول بين الزحام ، وتحفظ سرّك ألا يزاحموك ، وتعزل نفسك عن الآثام ، ويكون سرك مربوطاً بالحق . وقيل : من آثر العزلة حصل العزُّ لهُ . وقال سهل : لا تصح الخلوة إلا بأكل الحلال ، ولا يصح أكل الحلال إلا بأداء حق الله ، وقال ذو النون المصري : لم أر شيئاً أبعث على الإخلاص من الخلوة .

وقال أبو عبد الله الرملي : ليكن خِدْنُك الخلوة ، وطعامك الجوع ، وحديثك المناجاة ، فإما أن تموت ، وإما أن تصل إلى الله سبحانه .

وقال ذو النون المصري : ليس من احتجب عن الخلق بالخلوة ، كمن احتجب عنهم بالله تعالىٰ .

وقال الجنيد : مكابدة العزلة أيسر من مداراة الخلطة ، قال مكحول : إن كان في مخالطة الناس خير فإن في العزلة السلامة ، وقال يحيى بن معاذ : الوحدة جليس الصديقين ، وقال الشبلي : الإخلاص الإفلاس يا ناس ! فقيل له : يا أبا بكر ما علامة الإفلاس ؟ فقال : علامة الإفلاس الاستئناس بالناس . وقال يحيى بن كثير : من خالط الناس داراهم ، ومن داراهم راآهم .

وقال شعيب بن حرب : دخلت على مالك بن مسعود في الكوفة وهو في داره وحده ، فقلت له : أما تستوحش وحدك ؟ فقال : ما كنت أرى أن أحداً يستوحش مع الله ، وقال الجنيد : من أراد أن يسلم له دينه ويستريح بدنه وقلبه فليعتزل الناس ، فإن هذا زمان وحشة ، والعاقل من اختار فيه الوحدة ، وقال السوسي : الانفراد لا يقوى عليه إلا الأقوياء ، ولأمثالنا الاجتماع أنفع إنما يعمل بعضهم على رؤية بعض ، وقال الشبلي موصياً : الزم الوحده ، وامح اسمك عن القوم ، واستقبل الجدار حتى تموت .

وجاء رجل إلى شعيب بن حرب ، فقال له : ما جاء بك ؟ فقال : أكون معك . فقال : يا أخي إن العبارة لا تكون بالشركة ، ومن لم يستأنس بالله لم يستأنس بشيء . وقيل لبعضهم : هاهنا أحد تستأنس به ؟ فقال : نعم ومديده إلى مصحفه ، ووضعه في حجره ، فقال : هذا ، وفي هذا المعنى أنشدوا :

وكتبك حولي لا تفارق مضجعي … وفيها شفاء للذي أنا كاتم

وقال رجل لذي النون المصري : متى تصح لي العزلة ؟ قال : إذا قويت على عزلة النفس .

وقيل لابن المبارك : ما دواء القلب ؟ قال : قلة ملاقاة الناس .

وقيل : إذا أراد الله أن ينقل العبد من ذل المعصية إلى عز الطاعة آنسه بالوحدة ، وأغناه بالقناعة ، وبصّره بعيوب نفسه ، فمن أعطي ذلك فقد أعطي خير الدنيا والآخرة .

* * * *

(٤) باب التقوى

هي اسم جامع للحذر من جميع ما أمر الله أن يحذر منه ، فتارة يحذر العبد تضييع الواجبات ، أو المندوبات ، فيتقيه ، وتارة يحذر ارتكاب المحرمات ، أو المكروهات ، فيتقيه ، وتارة يحذر فوات أعالي الدرجات ، فيتقيه ، بألا يشتغل بأدونها ، واتفقت الأمة على فضيلتها وطلبها ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [النساء : ١٣١] . وقال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠] . وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا نبي الله أوصني . فقال : « عليك بتقوى الله فإنه جماع كل خير ، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية المسلم ، وعليك بذكر الله فإنه نور لك » . وعن أنس رضي الله عنه قال : قيل : يا نبي الله من آل محمد ؟ قال : « كل تقي » .

التقوى جماع الخيرات ، وحقيقة التقوى التحرز بطاعة الله تعالىٰ من عقوبته ، يقال : اتقى فلان بترسه : أي : تحرَّز به عما يضرُّه من عدوه ، وأصل التقوى اتقاء الشرك ، ثم بعده المعاصي والسيئات ، ثم بعده الشبهات ، ثم يدع بعده الفضلات ، كخلاف الأولى .

وجاء في تفسير قوله عز وجل : ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] أن معناه أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر ، وهذا أعلى درجات التقوى ، إذ حق التقوى أن يتقي العبد الغفلات عن ذكر ربه ، ويتقي مكره ، وهذا عزيز ربما يعجز عنه .

ولهذا لما سمع الصحابة رضي الله عنهم ذلك خافوا العجز عن القيام به ، فأنزل الله تخفيفاً عليهم : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] .

وقال سهل : لا معين إلا الله تعالىٰ ، ولا دليل إلا رسول الله ﷺ ، ولا زاد إلا التقوى ، ولا عمل إلا الصبر عليه .

وقال الكتاني : قسمت الدنيا على البلوى ، وقسمت الآخرة على التقوى .

وقال الجريري : من لم يحكم بينه وبين الله عز وجل التقوى والمراقبة لم يصل إلى الكشف والمشاهدة .

وقال النصرأباذي : التقوى أن يتقي العبد من سوى الله ، وقال سهل : من أراد أن يفتح له باب التقوى فليترك الذنوب كلها ؛ وقال النصرأباذي : من لزم التقوى اشتاق إلى مفارقة الدنيا ، لأن الله تعالىٰ يقول ﴿وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ ﴾ [الأنعام : ٣٢] . وقال بعضهم : من تحقق في التقوى هوّن الله على قلبه الإعراض عن الدنيا ، وقال : أبو عبد الله الروذباري : التقوى مجانبة ما يبعدك عن الله تعالىٰ .

وقال ذو النون المصري : التقي من لا يدنّس ظاهره بالمعارضات ، ولا باطنه بالعلالات ، جمع علالة : وهي ما تعلّلتَ به ، ويكون واقفاً مع الله موقف الاتفاق .

وقال ابن عطاء : التقوى ظاهر وباطن ، فظاهره محافظة الحدود ، وباطنه النية والإخلاص ، وقال ذو النون المصري منشداً :

ولا عيش إلا مع رجال قلوبهم تحن إلى التقوى وترتاح للذكر

وقيل : يُستدل على تقوى الرجل بثلاث خصال ، بحسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر على ما قد فات .

وقال طلق بن حبيب : التقوى الواجبة عمل بطاعة الله على نور من الله .

ويُحكى عن أبي جعفر أنه قال : التقوى في الحلال المحض لا غير ، أي كمالها .

وقال الزنجاني: من كان رأس ماله التقوى كلّت الألسن عن وصف ربحه .

وقال الواسطي : التقوى أن يتقي العبد من رؤية تقواه ؛ والمتقي مثل ابن

سيرين : اشترى أربعين حُبّاً سمناً ، فأخرج غلامه فأرة ميتة من حبٍّ ، فسأله من أي حب أخرجتها ؟ فقال لا أدري . فصبَّها كلها على الأرض .

ويُحكى عن أبي حنيفة رحمه الله أنه كان لا يجلس في ظل شجرة غريمه ، ويقول : قد جاء في الخبر : « كل قرض جرَّ نفعاً فهو ربا » .

ورؤي عتبة الغلام بمكان يتصبَّب عرقاً في الشتاء ، فقيل له في ذلك : فقال : إنه مكان عصيت فيه ربي ، فسئل عنه ، فقال : كشطت من هذا الجدار قطعة طين غسل بها ضيف لي يده ، ولم أستحل من صاحبه .

وقال إبراهيم بن أدهم : بت ليلة تحت الصخرة ببيت المقدس ، فلما كان بعض الليل نزل ملكان فقال أحدهما لصاحبه : من هاهنا ؟ قال الآخر : إبراهيم بن أدهم ، فقال : ذاك الذي حطَّ الله سبحانه درجة من درجاته . فقال لم ؟ قال : لأنه اشترى بالبصرة تمراً ، فوقعت تمرة على تمره من تمر البقال فلم يردها على صاحبها ، قال إبراهيم : فمضيت إلى البصرة ، واشتريت التمر من ذلك البقال وأوقعت تمرة على تمره ، ورجعت إلى بيت المقدس ، وبت في الصخرة ، فلما كان بعض الليل إذا أنا بالملكين نزلا من السماء ، فقال أحدهما لصاحبه : من هاهنا ؟ فقال الآخر : إبراهيم بن أدهم ، فقال : ذاك الذي رُدَّ مكانه ورُفعت درجته .

وقيل : التقوى على وجوه : للعامة تقوى الشرك ، وللخواص تقوى المعاصي ، وللأولياء تقوى التوسل ، وللأنبياء تقوى نسبة الأفعال ، إذ تقواهم منه وإليه .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : « من نظر إلى محاسن امرأة فغضَّ بصره في أول مرة ، أحدث الله له عبادة يجد حلاوتها في قلبه »[1] .

كان الجنيد جالساً مع رويم ، والجريري ، وابن عطاء ، فقال الجنيد :

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٤) والبيهقي في الشعب (٥٤٣١) وإسناده ضعيف جداً .

ما نجا من نجا إلا بصدق اللجاء[1] ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ [التوبة : ١١٨] وقال رويم : ما نجا من نجا إلا بمراعاة الوفاء ، قال الله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾ [الرعد : ٢٠] وقال ابن عطاء : ما نجا من نجا إلا بتحقيق الحياء من الله تعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق : ١٤] . وقال القشيري : ما نجا من نجا إلا بالحكم والقضاء ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ ﴾ [الأنبياء : ١٠١] وقال أيضاً : ما نجا من نجا إلا بما سبق له من الاجتباء ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام : ٨٧] .

أُكرم المتقون بكرامات :

الأولى : العلم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ ﴾ [البقرة : ٢٨٢] .

الثانية : العاقبة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] .

الثالثة : الفرقان ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال : ٢٩] قال سهل يعني نهراً .

الرابعة : محبة الله لهم ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٤] .

الخامسة : نصره تعالىٰ لهم ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾ [النحل : ١٢٨] .

السادسة : الحسنة ، قال تعالىٰ : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ ﴾ [النحل : ٣٠] .

السابعة : النجاة ، قال تعالىٰ : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ ﴾ [مريم : ٧٢] .

الثامنة : ركوب النوق من القبور إلى القصور ، قال تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ [مريم : ٨٥] أي : ركباناً على الإبل .

---

(١) اللجاء : الالتجاء إلى الله تعالى .

التاسعة : الكرامة ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

العاشرة : القبول ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧] .

الحادية عشرة : الوقاية من العذاب ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الطور : ١٧ ـ ١٨] .

الثانية عشرة : جوار الله تعالىٰ ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر : ٥٤ ـ ٥٥] .

الثالثة عشرة : المخرج ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢ ـ ٣] .

الرابعة عشرة : اليسر ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٤] .

الخامسة عشرة والسادسة عشرة : التكفير وعظم الأجر ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ [الطلاق : ٥] .

السابعة عشرة : الجنة ، قال تعالىٰ : ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم : ٦٣] .

الثامنة عشرة : الفوز ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴾ [النبأ : ٦٣] أي فوزاً ونجاة من النار .

التاسعة عشرة : الرحمة ، قال تعالىٰ : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] .

العشرون : صلاح الأعمال ، قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠ ـ ٧١] .

(٥) باب الورع

هو ترك الشبهات ، وهو الورع المندوب الشائع ، وقد يطلق على ترك المحرمات ، وهو الورع الواجب ، وكل منهما مطلوب ، عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »[1] ، وورد خبر أنه ﷺ وجد تمرة في منزله ـ أو على الطريق ـ فقال : « لولا أن أخشى أن تكون من تمر الصدقة لأكلتها »[2] .

أما الورع فإنه ترك الشبهات كذلك ، قال إبراهيم بن أدهم : الورع ترك كل شبهة . قال القشيري : وترك ما لا يعنيك هو ترك الفضلات . وقال أبو بكر الصديق : كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام . وقال ﷺ لأبي هريرة : « كن ورعاً تكن أعبد الناس »[3] .

قال السريُّ : كان أهل الورع في أوقاتهم أربعة : حذيفة بن المرتعش ، ويوسف بن أسباط ، وإبراهيم بن أدهم ، وسليمان الخوَّاص ، فنظروا في الورع فلما ضاقت عليهم الأمور فزعوا إلى التقلل .

وقال الشبلي : الورع أن تتورَّع عن كل ما سوى الله تعالىٰ ، قال إسحاق بن خلف : الورع في المنطق آكد منه في الذهب والفضة ، والزهد في الرياسة أشدُّ منه في الذهب والفضة ، لأنك تبذلهما في طلب الرياسة . وقال الداراني : الورع أول الزهد ، كما أن القناعة طرف من الرضى ، وقال أبو عثمان : ثواب الورع خفة الحساب ، وقال يحيى بن معاذ : الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل .

وقال التاهرتي : وقع من عبد الله بن مروان فلس في بئر قذرة ، فاكترى

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣١٨) وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٦) .

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٩٢) عن أنس .

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب بسند ضعيف .

عليه بثلاثة عشر ديناراً حتى أخرجه ، فقيل له في ذلك ، فقال : كان عليه اسم الله تعالىٰ .

وقال يحيى بن معاذ : الورع على وجهين : ورع في الظاهر ، وهو ألا يتحرك إلا لله تعالىٰ ، وورع في الباطن وهو ألا يدخل قلبك سوى الله تعالىٰ ، وقال أيضاً : من لم ينظر في الدقيق من الورع لم يصل إلى الجليل من العطاء ، وقيل : من دق في الدين نظره جلّ في القيامة خطره . وقال ابن الجلاّء : من لم يصحبه التقى في فقره أكل الحرام النصّ[1] .

وقال يونس بن عبيد : الورع الخروج عن كل شبهة ، ومحاسبة النفس في كل طرفة ، وقال سفيان الثوري : ما رأيت أسهل من الورع ، ما حاك في نفسك تركته ، وقال معروف الكرخي : احفظ لسانك في المدح كما تحفظه من الذمّ ، وقال بشر بن الحارث : أشد الأعمال ثلاثة : الجود في القلة ، والورع في الخلوة ، وكلمة حق عند من يخاف منه ويرجى .

وقيل : جاءت أخت بشر الحافي إلى أحمد بن حنبل ، وقالت : إنا نغزل على سطوحنا فتمر بنا مشاعل الظاهرية ، ويقع الشعاع علينا ، أفيجوز لنا الغزل في شعاعها ؟ فقال أحمد : من أنت عافاك الله ؟ قالت : أخت بشر الحافي . فبكى أحمد بن حنبل وقال : من بيتكم يخرج الورع الصادق ، لا تغزلي في شعاعها .

وقال علي العطار : مررت بالبصرة في بعض الشوارع ، فإذا مشايخ قعود وصبيان يلعبون ، فقلت لهم : أما تستحيون من هؤلاء المشايخ ؟ فقال صبي من بينهم : هؤلاء المشايخ قلّ ورعهم فقلّت هيبتهم .

وقيل لإبراهيم بن أدهم : إن الشرب من ماء زمزم . فقال : لو كان لي دلو لشربت منه ، لأن دلو زمزم ورشأه من أموال السلاطين .

وكان الحارث المحاسبي إذا مدَّ يده إلى طعام فيه شبهة ضرب على رأس

---

(١) النصّ : الصرف ، الخالص .

إصبعه عرق ، فيعلم أنه غير حلال .

وقيل : إن بشراً الحافي دعي إلى دعوة ، فوضع بين يديه طعام ، فجهد أن يمد يده إليه فلم تمتد ، ففعل ذلك ثلاث مرات ، فقال رجل يعرف ذلك منه : إن يده لا تمتد إلى طعام فيه شبهة ، ما كان أغنى صاحب هذه الدعوة أن يدعو هذا الشيخ .

سئل سهل بن عبد الله عن الحلال الصافي فقال : هو الذي لا ينسى الله تعالىٰ فيه .

ودخل الحسن البصري مكة ، فرأى غلاماً من أولاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، قد أسند ظهره إلى الكعبة يعظ الناس ، فوقف عليه الحسن وقال له : ما حلال الدين ؟ فقال : الورع . فقال له : فما آفة الدين ؟ قال : الطمع ، فتعجب الحسن منه . وقال الحسن أيضاً : مثقال ذرة من الورع السالم ، خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة .

وأوحى الله سبحانه إلى موسى عليه السلام : لم يتقرّب إليّ المتقربون بمثل الورع والزهد ، وقال أبو هريرة رضي الله عنه : جلساء الله غداً أهل الورع والزهد ، وقال سهل بن عبد الله : من لم يصحبه الورع أكل رأس الفيل ولم يشبع .

وقيل : حمل إلى عمر بن عبد العزيز مسك من الغنائم ، فقبض على مشامه ، وقال : إنما ينتفع من هذا بريحه ، وأنا أكره أن أجد ريحه دون المسلمين .

وسئل أبو عثمان الحيري عن الورع فقال : كان أبو صالح حمدون عند صديق له وهو في النزع ، فمات الرجل ، فنفث أبو صالح في السراج ، فقيل له في ذلك ، فقال : إلى الآن كان الدهن له في المسرجة ، ومن الآن صار للورثة ، اطلبوا دهناً غيره .

وقال كهمس : أذنبت ذنباً وها أنا أبكي عليه منذ أربعين سنة ، وذلك أنه زارني أخ لي ، فاشتريت لأجله بدانق سمكة مشوية ، فلما فرغ أخذت قطعة

طين من دار جار لي حتى غسل بها يده ولم أستحله .

وكان رجل يكتب رقعة وهو في بيت بكراء ، فأراد أن يُترب : يذر عليه تراباً ليجف الكتاب من جدار البيت ، فخطر بباله أن البيت بالكراء ، ثم إنه خطر بباله أنه لا خطر لهذا فترّب الكتاب ، فسمع هاتفاً يقول : سيعلم المستخف بالتراب ما يلقاه غداً من طول الحساب .

ورهن أحمد بن حنبل سطلاً له عند بقال بمكة حرسها الله ، فلما أراد فكاكه ، أخرج له البقال سطلين ، وقال خذ أيهما هو لك . فقال : أحمد أشكل عليّ سطلي فهو لك ، والدراهم لك ، فقال البقال : سطلك هذا ، وأنا أردت أن أجرّبك ! فقال : لا آخذه ، ومضى وترك السطل عنده .

وقيل : سيّب ابن المبارك دابة قيمتها كبيرة ، وصلّى صلاة الظهر ، فرتعت الدابة في زرع قرية سلطانية ، فترك ابن المبارك الدابة ولم يركبها ، وقيل : رجع ابن المبارك من مرو إلى الشام في قلم استعاره فلم يرده على صاحبه .

واستأجر النخعي دابة فسقط سوطه من يده ، فنزل وربط الدابة ورجع فأخذ السوط ، فقيل له : لو حوّلت الدابة إلى الموضع الذي سقط فيه السوط فأخذته كان أسهل لك ، فقال : إنما استأجرتها لأمضي هكذا لا هكذا .

وقيل : خاطت رابعة العدوية شقاً في قميصها في ضوء مشعلة سلطان ، ففقدت قلبها زمناً حتى تذكرت ، فشقت قميصها فوجدت قلبها .

ورؤي سفيان الثوري في المنام وله جناحان يطير بهما في الجنة من شجرة إلى شجرة ، فقيل له : بم نلت هذا المقام ؟ فقال : بالورع بالورع .

ووقف حسان بن أبي سنان على أصحاب الحسن ، فقال لهم : أي شيء أشد عليكم ؟ فقالوا : الورع . فقال : ولا شيء أخف عليّ منه ، فقالوا : فكيف ؟ فقال : لم أروَ من نهركم منذ أربعين سنة . وكان حسّان لا ينام مضطجعاً ، ولا يأكل سميناً ، ولا يشرب ماء بارداً ستين سنة ، فرؤي في المنام بعد موته ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : خيراً ، إلا أني محبوس عن الجنة بإبرة استعرتها فلم أردها إلى صاحبها .

وكان لعبد الواحد بن زيد غلام خدمه سنين ، وتعبَّد أربعين سنة ، وكان في ابتداء أمره كيَّالًا ، فلما مات رؤي في المنام . فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : خيراً غير أني محبوس عن الجنة ، وقد أخرج الله عليّ من غبار القفيز الذي اكتلته أربعين قفيزاً .

ومر عيسى بن مريم عليه السلام بمقبرة ، فنادى رجلاً منهم ، فأحياه الله تعالىٰ ، فقال : من أنت ؟ فقال : كنت حمَّالًا أنقل للناس أمتعتهم ، فنقلت لإنسان يوماً حطباً ، فكسرت منه خلالًا تخللت به ، فأنا مطالب به مذ متّ .

وتكلم أبو سعيد الخرَّاز في الورع ، فمر به عباس بن المهتدي فقال له : يا أبا سعيد أما تستحي تجلس تحت سقف أبي الدوانيق ، وتشرب من بركة زبيدة ، وتتعامل بالدراهم المزيفة ، وتتكلم في الورع .

* * * *

(٦) باب الزهد

الزهد : هو الإعراض بالقلب عن الدنيا ، وهو رأس كل طاعة ، لأنه ضد حب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة .

عن أبي خلاد وكانت له صحبة قال : قال النبي ﷺ : « إذا رأيتم الرجل قد أوتي زهداً في الدنيا ومنطقاً ، فاقتربوا منه فإنه يلقّن الحكمة »(١) . وقد اختلف الناس في الزهد فمنهم من قال : الزهد في الحرام ، لأن الحلال مباح من قبل الله سبحانه ، فإذا أنعم الله على عبده بمال من حلال وتعبّده بالشكر عليه ، فتركه له باختياره لا يقدم على إمساكه له بحق إذنه ، فهما سواء . ومنهم من قال : الزهد في الحرام واجب ، وفي الحلال فضيلة ، فإن إقلال المال والعبد صابر في حاله ، راض بما قسم الله تعالىٰ له ، قانع بما يعطيه ، أتم من توسعه وتبسطه ، فإن الله سبحانه زهّد الخلق في الدنيا بقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ [النساء : ٧٧] . وغير ذلك من الآيات الواردة في ذم الدنيا والتزهيد فيها ، كقوله تعالىٰ : ﴿ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٣٥] ، وكخبر : « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة لما سقى كافراً منها شربة ماء »(٢) ، وكخبر البخاري : « تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط لم يرض » . وخبر الترمذي : « ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بماذا يرجع » . إلى قول من قال : الفقير الصابر أفضل من الغني الشاكر ، ومنهم من قال : إذا أنفق العبد ماله في الطاعة وعلم من حاله الصبر ، وترك التعرض لما نهاه الشرع عنه في حال العسر ، فحينئذ يكون زهده

---

(١) أخرجه ابن ماجه بنحوه ، وفيه ضعف .

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٨٦ و٢٨٨٧) .

في المال بحلالها أتم .

ومنهم من قال : ينبغي للعبد ألا يختار ترك الحلال بتكلفه ، ولا طلب الفضول مما لا يحتاج إليه ، ويراعي قسمة الله ، فإن رزقه الله مالاً من حلال شكره ، وإن وقّفه على حد الكفاف ، لم يتكلف فيها طلب ما هو فضول المال ، فالصبر أحسن بصاحب الفقر ، والشكر أليق بصاحب المال الحلال .

قال سفيان الثوري : الزهد في الدنيا قصر الأمل ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباء . وقال السريّ : إن الله سبحانه سلب الدنيا عن أوليائه ، وحماها عن أصفيائه ، وأخرجها من قلوب أهل وداده ، لأنه لم يرضها لهم . وقيل : الزهد من قوله تعالىٰ : ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ﴾ [الحديد : ٢٣] فرح بطر ، بل فرح شكر ، فالزاهد لا يفرح بموجود من الدنيا ولا يتأسف على مفقود منها . وقال أبو عثمان : الزاهد الذي يترك الدنيا ، ثم لا يبالي من أخذها .

وقال يحيى بن معاذ : الزهد يورث السخاء في الملك ، والحب يورث السخاء بالروح .

وقال ابن الجلاء : الزهد في الدنيا هو النظر إليها بعين الزوال ، لتصغر في عينك فيَسْهل عليك الإعراض عنها ، وقيل : الزهد عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف .

قال النصرأباذي : الزاهد غريب في الدنيا ، والعارف بالله تعالىٰ غريب في الآخرة . وقيل : من صدق في زهده أتته الدنيا راغمة . ولهذا قيل : إذا سقطت قلنسوة من السماء لما وقعت إلا على رأس من لا يريدها .

وقال الجنيد : الزهد خلو القلب عما خلت منه اليد ، وقد اختلف السلف في الزهد ، فقال سفيان الثوري وأحمد بن حنبل وعيسى بن يونس وغيرهم : الزهد في الدنيا إنما هو قصر الأمل ، وقال عبد الله بن المبارك : الزهد هو الثقة بالله تعالىٰ مع حب الفقر ، وبه قال شقيق البلخي ويوسف بن أسباط ، وهذا أيضاً من أمارات الزهد ، فإنه لا يقوى العبد على الزهد إلا بالثقة بالله تعالىٰ .

وقال عبد الواحد بن زيد : الزهد ترك الدنيا والدرهم ونحوهما بقلبه .

وقال أبو سليمان الداراني : الزهد ترك ما يشغل عن الله تعالىٰ .

سأل رويم الجنيد ما الزهد ؟ فقال : هو استصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب .

وقال السري : لا يطيب عيش الزاهد إن اشتغل عن نفسه ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه . فالأول عليه أن يشتغل بنفسه بإعراضها عن محبوباتها الدنيوية ، والثاني : لأن شغله إنما هو بمولاه .

وسئل الجنيد عن الزهد فقال : خلو اليد من الملك ، والقلب من التتبع ، وسئل الشبلي عن الزهد فقال : أن تزهد فيما سوى الله .

وقال يحيى بن معاذ : لا يبلغ أحد حقيقة الزهد حتى يكون فيه ثلاث خصال : عمل بلا علاقة ، أي : خالصاً لله تعالىٰ لا لعلة من علل الدنيا ، وقول بلا طمع ، وعز بلا رياسة ، فلا يذل نفسه في طلب الدنيا .

وقال أبو حفص : الزهد لا يكون إلا في الحلال ، ولا حلال في الدنيا إلا نادراً ، فلا زهد إلا نادراً .

وقال أبو عثمان : إن الله تعالىٰ يعطي الزاهد فوق ما يريد ، ويعطي الراغب فيها دون ما يريد ، ويعطي المستقيم موافقة ما يريد . وقال يحيى بن معاذ : الزاهد يسعطك الخل والخردل ، والعارف يشمك المسك والعنبر . قيل لبعضهم : ما الزهد في الدنيا ؟ فقال : ترك ما فيها ؟ وقال رجل لذي النون : متى أزهد في الدنيا ؟ فقال : إذا زهدت في نفسك ، وقال محمد بن الفضل: إيثار الزهاد عند الاستغناء ، وإيثار الفتيان عند الحاجة ، قال الله تعالىٰ في الأنصار : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] . وقال الكتاني : الزهد ، وسخاوة النفس ، والنصيحة للخلق ، أشياء محمودة.

قال رجل ليحيى بن معاذ : متى أدخل حانوت التوكل ؟ وألبس رداء الزهد ؟ وأقعد مع الزاهدين ؟ فقال : إذا صرت من رياضتك لنفسك في السر

إلى حد لو قطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضعف في نفسك ، فأما ما لم تبلغ هذه الدرجة ، فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ، ثم لا آمن عليك أن تفتضح بينهم .

وقال بشر الحافي : الزهد ملك لا يسكن إلا في قلب مخلى .

وقال البيكندي : من تكلم في الزهد ، ووعظ الناس ، ثم رغب في أموالهم رفع الله تعالىٰ حب الآخرة من قلبه ، وقيل : إذا زهد العبد في الدنيا وكّل الله إليه ملكاً يغرس الحكمة في قلبه ، وقيل لبعضهم : لم زهدت في الدنيا ؟ فقال : لزهدها فيّ .

وقال أحمد بن حنبل : الزهد على ثلاثة أوجه : الأول ترك الحرام ، وهو زهد العوام ، والثاني ترك الفضول من الحلال ، وهو زهد الخواص ، والثالث ترك ما يشغل العبد عن الله تعالىٰ ، وهو زهد العارفين .

وقال يحيى بن معاذ : الدنيا كالعروس المجلوّة ، ومن يطلبها ماشطتها ، والزاهد فيها يسخّم وجهها ، وينتف شعرها ، ويحرق ثوبها ، والعارف مشتغل بالله تعالىٰ لا يلتفت إليها .

وقال السريّ : مارست كل شيء من أمر الزهد ، فنلت منه ما أريد إلا الزهد في الناس ، فإني لم أبلغه ولم أطقه .

وقيل : ما خرج الزاهدون إلا إلى أنفسهم ، لأنهم تركوا النعيم الفاني للنعيم الباقي ، وقال النصرأباذي : الزهد حقن دماء الزاهدين وسفك دماء العارفين ، وقال حاتم الأصم : الزاهد يذيب كيسه قبل نفسه ، والمتزهد يذيب نفسه قبل كيسه .

وقال الفضيل بن عياض : جعل الله الشر كله في بيت ، وجعل مفتاحه حب الدنيا ، وجعل الخير كله في بيت ، وجعل مفتاحه الزهد .

* * * *

(٧) باب الصمت

اعلم أن الكمال كله في صمت اللسان والقلب ، فغير ذلك لا خير فيه ، فالصمت والسكوت عن الأسرار مع غير الأهل من شأن الكاملين وخلق المحبوبين ، أما مع الأهل والأقران فهو من دأب المحبين ، فبالصمت تكون السكينة والوقار ، وبالقيل والقال قد تتهتك الأستار ، والصمت هو السكوت عن المحرم والمكروه وخلاف الأولى ، وهو السكوت عما لا يعني ، والدليل على مشروعية الصمت قوله ﷺ في حديث الطواف : « فمن نطق فلا ينطق إلا بخير »[١] .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت »[٢] دل على أن المقصود من الكلام قول الخير ، فإن لم يعلم العبد أن في كلامه خيراً فالصمت خير له ، وقد قال تعالىٰ : ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [النساء : ١١٤] . وسئل ﷺ فيم النجاة ؟ قال : « في حفظ اللسان » .

وروى الترمذي خبر « من صمت نجا » وعن عقبة بن عامر قال : قلت يا رسول الله ما النجاة ؟ قال : « احفظ عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك » . رواه الترمذي وحسّنه بلفظ : « أمسك عليك . . » .

وآفات اللسان كثيرة منها : الغيبة ، والنميمة ، والهمز ، واللمز ، والاستهزاء ، والكذب في الأحكام ، وغيرها ، فلابد من تثبت العبد خوفاً من

---

(١) أخرجه الدارمي في المناسك (١٨٨٩) وابن ماجه (٣٨٣٦) .

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٦٩) عن عائشة ، والبخاري (٦١٣٦) ومسلم (٤٨) عن أبي هريرة .

دخوله في قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٦٩] . وقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٥] . ومما أنشد في ذلك :

احفظ لسانك أيها الإنسان   لا يلدغنك إنَّه ثعبان
كم في المقابر من قتيل لسانه   كانت تهاب لقاءه الشجعان

وبالجملة : الصمت سلامة وهي الأصل ، وعليه ندامة إذا ورد عنه الزجر ، فالواجب أن يعتبر الشرع .

فكل من الصمت والكلام يعتبر فيهما حكم الشرع أمراً ونهياً ، فيدور العبد مع حكم الشرع فيهما ، ومن ثم قالوا : السكوت في وقته صفة الرجال ، كما أن النطق في موضعه من أشرف الخصال ، قال الدقّاق : من سكت عن الحق فهو شيطان أخرس ، والصمت من آداب الحضرة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٤] . وقال تعالىٰ خبراً عن الجن بحضرة الرسول عليه الصلاة والسلام : ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ﴾ [الأحقاف : ٢٩] . وقال تعالىٰ : ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه : ١٠٨] . وكم بين عبد يسكت تصاوناً عن الكذب والغيبة ، وبين عبد يسكت لاستيلاء سلطان الهيبة عليه ، وفي معناه أنشدوا :

أفكر ما أقول إذا افترقنا   وأحكم دائماً حجج المقال
فأنساها إذا نحن التقينا   فأنطق حين أنطق بالمحال

وأنشدوا أيضاً :

فيا ليل (مرخم ليلى) كم من حاجة لي مهمة
إذا جئتكم يا ليل لم أدر ماهيا

وأنشدوا فيه :

وكم حديث لك حتى إذا   سكنت من لقياك أنسيته

وأنشدوا :

رأيـت الكـلام يـزيـن الفتـى ... وللصمت خير لمن قد صمت
فكم من حروف بحر الحتوف ... ومن ناطق ود أن لو سكت

والسكوت على ضربين : سكوت بالظاهر ، وسكوت بالقلب والضمائر ، فالمتوكل يسكت قلبه عن تقاضي الأرزاق ، والعارف يسكت قلبه مقابلة للحكم بنَعْتِ الوفاق ، فهذا الجميل صنعه واثق ، وهذا بجميع حكمه قانع ، وفي معناه قالوا :

تجري عليك صروفه ... وهموم سرك مطرقة

وربمـا يكون سبب السكوت حيرة البديهة ، فإنه إذا ورد كشف على وصف البغتة ، خرست العبارة عند ذلك فلا بيان ولا نطق ، وطمست الشواهد هنالك فلا علم ولا حس ، قال تعالىٰ : ﴿ ۞يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ﴾ [المائدة : ١٠٩] . فأما إيثار أرباب المجاهدة السكوت فلِمَا علموا ما في الكلام من الآفات ، ثم ما فيه من حظ النفس ، وإظهار صفات المدح ، والميل إلى أن يتميز بين أشكاله بحسن النطق ، وغير هذا من آفات اللسان في الخلق ، وذلك السكوت نعت أرباب الرياضة ، وهو أحد أركانهم في حكم المنازلة وتهذيب الخلق ، فحفظ اللسان من أهم الأمور ، فإنه ترجمان ما في القلب ، وسلامتهُ عن الزلل يستلزم تثبته بقلبه ، وينبغي التحفظ أيضاً مما يقوم مقام اللسان ، من إشارة وكتابة ، ونحوهما ، فكم من ساكت هو متكلم .

وقيل : إن داود الطائي رحمه الله لما أراد أن يقعد في بيته ليسلم من آفات اللسان في الجدال والخصام ، عزم على أن يحضر مجالس أبي حنيفة رحمه الله إذ كان تلميذاً له ، ويقعد بين أقرانه ، ولا يتكلم في مسألة ، فلما قوّى نفسه على ممارسة هذه الخصلة سنة كاملة ، قعد في بيته عند ذلك ، وآثر العزلة .

وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله إذا كتب كتاباً واستحسن لفظه مزّق الكتاب وغيّره .

قال بشر بن الحارث : إذا أعجبك الكلام فاصمت ، وإذا أعجبك الصمت فتكلَّم .

وقال سهل بن عبد الله : لا يصح لأحد الصمت حتى يلزم نفسه الخلوة ، ولا تصح له التوبة حتى يلزم نفسه الصمت .

وقال الفارسي : من لم يكن الصمت وطنه فهو في الفضول وإن كان صامتاً لكثرة وساوسه ، وتشعب أفكاره . والصمت ليس بمخصوص على اللسان لكنه على القلب والجوارح كلها . وقال بعضهم : من لم يستغنم السكوت فإذا نطق نطق بلغو ، ومعنى يستغنم : لم يعد غنيمة . وقال ممشاد الدينوري : الحكماء ورّثوا الحكمة بالصمت والتفكر . وسئل أبو بكر الفارسي عن صمت السر فقال : ترك الاشتغال بالماضي والمستقبل . وروي عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال : كلم الناس قليلاً وكلم ربك كثيراً ، لعل قلبك يرى الله تعالىٰ . وقيل لذي النون المصري من أصون الناس لنفسه ؟ فقال : أملكهم للسانه .

وقال ابن مسعود : ما من شيء بطول السجن أحق من اللسان .

وقال علي بن بكار : جعل الله لكل شيء بابين ، وجعل للسان أربعة أبواب ، فالشفتان مصراعان ، والأسنان مصراعان .

وقيل : إن أبا حمزة البغدادي رحمه الله كان حسن الكلام ، فهتف به هاتف فقال له : تكلمت وأحسنت ! بقي أن تسكت فتحسن! فما تكلم بعد ذلك حتى مات ، ومات قريباً من حالة السكوت على رأس أسبوع أو أقل أو أكثر ؛ وربما يكون السكوت يقع على المتكلم تأديباً له ، لأنه أساء أدبه في شيء .

كان الشبلي إذا قعد في حلقته ، ولا يسألونه ، يقول : ﴿ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ [النمل : ٨٥] .

قال القشيري : سمعت ابن السماك رحمه الله يقول : كان بين شاه الكرماني ويحيى بن معاذ صداقة ، فجمعهما بلد ، فكان شاه لا يحضر

مجلسه ، فقيل له في ذلك ، فقال : الصواب هذا ، فما زالوا به حتى حضر يوماً مجلسه ، وقعد ناحية لا يشعر به يحيى بن معاذ ، فلما أخذ يحيى في الكلام سكت ، ثم قال : هاهنا من هو أولى بالكلام مني ! وأرتج عليه ، فقال شاه : قلت لكم : الصواب ألا أحضر مجلسه .

وربما يقع السكوت على المتكلم لمعنى في الحاضرين ، وهو أنه يكون هناك من ليس بأهل لسماع ذلك الكلام ، فيصون الله تعالىٰ لسان المتكلم غيرة وصيانة لذلك الكلام عن غير أهله ، كما حكي عن عيسى عليه السلام أنه قال : لا تعطوا الحكمة غير أهلها ، فتظلموها بوضعها في غير محلها ، فيفوت الانتفاع بها .

وربما كان السكوت الذي يقع على المتكلم . أن بعض الحاقدين كان معلوم الله سبحانه من حاله أنه يسمع ذلك الكلام فيكون فتنة له ، إما لتوهمه أنه وقته ، ولا يكون وقته ، أو لأنه يحمل نفسه ما لا يطيق ، فيرحمه الله عز وجل بأن يحفظ سمعه عن ذلك الكلام ، إما صيانة له أو عصمة عن غلطه . وقال مشايخ هذه الطريقة : ربما يكون السبب فيه حضور من ليس بأهل لسماعه من الجن ، إذ لا تخلو مجالس القوم من حضور جماعة من الجن ؛ قال الدقَّاق : اعتللت مرة بمرو فاشتقت أن أرجع إلى نيسابور ، فرأيت في المنام كأن قائلاً يقول لي : لا يمكنك أن تخرج من هذه البلد ، فإن جماعة من الجن استحلوا كلامك ، ويحضرون مجلسك فلأجلهم تجلس هاهنا .

وقال بعض الحكماء : إنما خلق للإنسان لسان واحد ، وعينان ، وأذنان ، ليسمع ويبصر أكثر مما يقول ؛ ودعي إبراهيم بن أدهم إلى دعوة فلما جلس أخذوا في الغيبة فقال : عندنا يؤكل الخبز قبل اللحم ، وأنتم ابتدأتم بأكل اللحم ، أشار إلى قوله تعالىٰ : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [الحجرات : ١٢] . وقال بعضهم : الصمت لسان الحلم ، وقال بعضهم : تعلم الصمت كما تتعلم الكلام ، فإن كان الكلام يهديك فإن الصمت يقيك ، وقيل : عفة اللسان صمته . وقيل : مثل اللسان مثل السبع ، إن لم

توثقه عدا عليك . وسئل أبو حفص أي الحالين للوليّ أفضل الصمت أو النطق ؟ فقال : لو علم الناطق ما آفة النطق لصمت إن استطاع عمر نوح ، ولو علم الصامت ما آفة الصمت لسأل الله عز وجل ضعفي عمر نوح حتى ينطق ، وقيل : صمت العوام ألسنتهم ، وصمت العارفين بقلوبهم ، وصمت المحبين بالتحفظ من خواطر أسرارهم . وقيل لبعضهم : تكلم فقال : ليس لي لسان فأتكلم ، فقيل له : اسمع ، فقال : ليس فيّ مكان فأسمع ، وقال بعضهم : مكثت ثلاثين سنة لا يسمع قلبي إلا من لساني ، وقال بعضهم : لو أسكت لسانك لم تنج من كلام قلبك ، ولو صرت رميماً لم تتخلص من حديث نفسك ، ولو جهدت كل الجهد لم تكلمك روحك ، لأنها كاتمة للسر . وقيل : لسان الجاهل مفتاح حتفه ، وقيل : المحب إذا سكت هلك .

قال ابن الفارض :

ولو خطرت لي في سواك إرادة على خاطري سهواً قضيت بردتي
أغالط عذّالي إذا ذكروا له حديثاً كأني لا أحب له ذكرا

والعارف إذا سكت ملك .

قال الفضيل بن عياض : من عدَّ كلامه من عمله قلَّ كلامه إلا فيما يعنيه .

* * * *

(٨) باب الخوف

قال الله تعالىٰ : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة : ١٦] .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله ﷺ : « لا يدخل النار من بكى من خشية الله تعالىٰ حتى يلج اللبن في الضرع ، ولا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في منخري عبد أبداً » رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

وعن أنس قال : قال رسولُ الله ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً »(١) . الخوف معنىً متعلّقه في المستقبل ، لأنه إنما يخاف أن يحل به مكروه ، أو يفوته محبوب ، ولا يكون هذا إلا لشيء يحصل في المستقبل ، فأما أن يكون في الحال موجوداً ، فالخوف لا يتعلق به .

والخوف من الله سبحانه هو أن يخاف أن يعاقبه الله ، إما في الدنيا وإما في الآخرة ، وقد فرض الله سبحانه على العباد أن يخافوه فقال تعالىٰ : ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧٥] . وقال : ﴿ فَإِيَّىٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [النحل : ٥١] . ومدح المؤمنين بالخوف فقال تعالىٰ : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل : ٥٠] . فوقيته تعالىٰ ليست بمكان بل بالإجلال والتعظيم .

وقال الدقَّاق رحمه الله : الخوف على مراتب : الخوف ، والخشية ، والهيبة ، فالخوف من شرط الإيمان وقضيته ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧٥] ، والخشية من شرط العلم وقضيته ، فعلم العبد تقييده الخشية ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر : ٢٨] ، والهيبة من شرط المعرفة وقضيتها ، فمعرفة العبد تفيده الهيبة ، قال الله

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٨٠) ومسلم (٤٢٦) (١١٣) .

تعالىٰ : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران : ٢٨] .

قال أبو حفص : الخوف سوط الله يقوّم به الشاردين عن بابه ، وقال أبو القاسم الحكيم: الخوف على ضربين: رهبة، وخشية. فصاحب الرهبة يلتجيء إلى الهرب إذا خاف ، وصاحب الخشية يلتجيء إلى الرب ؛ ورهب وهرب ، بمعنى واحد . فإذا كبحهم لجام العلم ، وقاموا بحق الشرع ، فهو الخشية .

وقال أبو حفص : الخوف سراج القلب به يبصر ما فيه من الخير والشر ؛ قال الدقاق في تعريف الخوف : ألا تعلل نفسك بعسى وسوف ، بل اهرب في الحال من كل مخوف، وقال أبو عمر الدمشقي: الخائف من يخاف من نفسه ، أكثر مما يخاف من الشيطان ، وقال ابن الجلاّء : الخائف من تؤمّنه المخوفات أي تجعله في أمان ، بأن يأمن منها في حال طروقها عليه، وقيل: ليس الخائف الذي يبكي ويمسح عينيه إنما الخائف من يترك ما يخاف أن يعذب عليه .

وقيل للفضيل : ما لنا لا نرى خائفاً ؟ فقال : لو كنت خائفاً لرأيت الخائفين ، لأن الخائف لا يراه إلا الخائفون ، وإن الثكلى هي التي تحب أن ترى الثكلى .

وقال يحيى بن معاذ : مسكين ابن آدم ! لو خاف النار كما يخاف من الفقر لدخل الجنة ؛ وقال شاه الكرماني : علامة الخوف الحزن الدائم ، وقال أبو القاسم الحكيم : من خاف من شيء هرب منه ، ومن خاف من الله عز وجل هرب إليه ، وسئل ذو النون المصري رحمه الله : متى يتيسر على العبد سبيل الخوف ؟ فقال : إذا نزّل نفسه منزلة السقيم ، يحتمي من كل شيء مخافة طول السقام .وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه : إن المؤمن لا يطمئن قلبه ، ولا تسكن روعته حتى يخلّف جسر جهنم وراءه . وقال بشر الحافي : الخوف من الله ملك لا يسكن إلا في قلب متق . وقال أبو عثمان الحيري : عيب الخائف في خوفه السكون إلى خوفه لأنه أمر خفي ؛ وقال الواسطي : الخوف حجاب بين الله تعالىٰ وبين العباد وهذا اللفظ فيه إشكال ، ومعناه أن الخائف متطلع لوقت ثان ، وأبناء الوقت لا تطّلع لهم إلى المستقبل ، وحسنات الأبرار

سيئات المقربين .

وقال النوري : الخائف يهرب من ربه إلى ربه ، وقال بعضهم : علامة الخوف التحير والقلق في أسباب النجاة ، والوقوف على باب الغيب . وقال الجنيد : وقد سئل عن الخوف فقال : هو توقع العقوبة مع مجاري الأنفاس . وقال الداراني : ما فارق الخوف قلباً إلا خرب . وقال أبو عثمان : صدق الخوف هو الورع عن الآثام ظاهراً وباطناً ، وقال ذو النون : الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف ، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا عن الطريق . وقال حاتم الأصم : لكل شيء زينة ، وزينة العبادة الخوف ، وعلامة الخوف قصر الأمل .

وقال رجل لبشر الحافي : أراك تخاف الموت ؟ فقال : القدوم على الله عز وجل شديد ؛ قال الدقاق : دخلت على ابن فورك عائداً ، فلما رآني دمعت عيناه ، فقلت له : إن الله سبحانه وتعالىٰ يعافيك ويشفيك ، فقال لي : تراني أخاف الموت ! إنما أخاف مما وراء الموت .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت يا رسول الله ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون : ٦٠] أهو الرجل يسرق ويزني ويشرب الخمر ؟ قال : « لا ، ولكن الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف ألا يقبل منه »[(١)] .

وقال ابن المبارك رحمه الله : الذي يهيج الخوف حتى يسكن في القلب ، دوام المراقبة بالسر والعلانية .

وقال إبراهيم بن شيبان : إذا سكن الخوف القلب أحرق مواضع الشبهات عنه ، وطرد رغبة الدنيا عنه ، وقيل الخوف قوة العلم بمجاري الأحكام ، وقيل : الخوف حركة القلب وقلقه من جلال الرب ، وقال أبو سليمان الداراني : ينبغي للقلب ألا يكون الغالب عليه إلّا الخوف ، فإنه إذا غلب الرجاء عليه فسد القلب ، ثم قال لتلميذه : يا أحمد بالخوف ارتفعوا فإذا

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي .

ضيعوه نزلوا .

وقال الواسطي : الخوف والرجاء زمامان على النفوس ، لئلا تخرج إلى رعوناتها ؛ وقال الواسطي : إذا ظهر الحق على السرائر ، لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا لخوف ، قال القشيري : وهذا فيه إشكال ، ومعناه : إذا اصطلحت شواهد الحق الأسرار ملكتها ، فلا يبقى فيها مساغ لذكر حدثان الحدث والحادثة ؛ والخوف والرجاء من آثار بقاء الإحساس بأحكام البشرية .

وقال الحسين بن منصور : من خاف من شيء سوى الله تعالىٰ ، أو رجا سواه ، أغلق عليه أبواب كل شيء ، وسلط عليه المخافة ، وحجب قلبه بسبعين حجاباً أيسرها الشك ، وإن مما أوجب خوفهم فكرتهم في العواقب ، وخشية تغير أحوالهم ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر : ٤٧] . وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف : ١٠٣ ـ ١٠٤] فكم من مغبوط في أحواله انعكست عليه الحال ومني بمقارفة قبيح الأعمال ، فبدّل الأنس وحشة ، وبالحضور غيبة ، قال القشيري : سمعت الدقاق يقول كثيراً :

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف سوء ما يأتي به القدر

وسالمتك الليالي فاغتررت بها ... وعند صفو الليالي يحدث الكدر

سمع القشيري منصور بن خلف المغربي يقول : كان رجلان اصطحبا في الإرادة برهة من الزمان ، ثم إن أحدهما سافر وفارق صاحبه ، وأتى عليه مدة من الزمان ، ولم يسمع منه خبراً ، فبينا الآخر في غزاة يقاتل عسكر الروم ، إذ خرج على المسلمين رجل مقنَّع في السلاح يطلب المبارزة ، فخرج إليه من أبطال المسلمين واحد فقتله الرومي ، ثم خرج إليه آخر فقتله ، ثم ثالث فقتله ، فخرج إليه هذا الصوفي وتطاردا ، فحسر الرومي عن وجهه ، فإذا هو صاحبه الذي صحبه في الإرادة والعبادة سنين ، فقال هذا له : إيش الخبر ؟ فقال له : إنه ارتد وخالط القوم ، وولد له أولاد ، واجتمع له مال ، فقال : وكنت تقرأ القرآن بقراءات كثيرة ، فقال : لا أذكر منه حرفاً ، فقال له

الصوفي : لا تفعل وارجع ، فقال : لا أفعل ، فلي فيهم مال وجاه ، فانصرف أنت عني ، وإلا فعلت بك ما فعلت بأولئك ، فقال له الصوفي : اعلم أنك قتلت ثلاثة من المسلمين ، وليس عليك أنفة في الانصراف ، فانصرف أنت وأنا أمهلك ، فرجع الرجل مولياً ، فتبعه هذا الصوفي وطعنه فقتله ، فبعد تلك المجاهدات ومقاساة تلك الرياضات ، قتل على النصرانية .

وقيل: لما ظهر على إبليس ما ظهر ، طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام يبكيان زماناً طويلاً ، فأوحى الله تعالىٰ إليهما : ما لكما تبكيان كل هذا البكاء ؟ فقالا : لا نأمن مكرك ! فقال الله تعالىٰ : هكذا كونا ، لا تأمنا مكري .

ويُحكى عن السري السقطي رحمه الله أنه قال : إني لأنظر إلى أنفي في اليوم كذا وكذا مرة ، مخافة أن يكون قد اسودَّ ، لما أخافه من العقوبة .

وقال أبو حفص : منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسي أن الله تعالىٰ ينظر إليّ نظر السخط ، وأعمالي تدل على ذلك .

وقال حاتم الأصم : لا تغتر بموضع صالح ، فلا مكان أصلح من الجنة ، فلقي آدم عليه السلام فيها ما لقي ، ولا تغتر بكثرة العبادة فإن إبليس بعد طول تعبده لقي ما لقي ، ولا تغتر بكثرة العلم فإن بلعم[1] كان يحسن اسم الله الأعظم ، فانظر ماذا لقي ، ولا تغتر برؤية الصالحين ، فلا شخص أكبر قدراً من المصطفى ﷺ ، ولم ينتفع بلقائه أقاربه وأعداؤه .

وخرج ابن المبارك يوماً على أصحابه فقال : إني قد اجترأت البارحة على الله تعالىٰ سألته الجنة . وقيل : خرج عيسى عليه السلام ومعه صالح من صالحي بني إسرائيل ، فتبعهما رجل خاطىء مشهور بالفسق ، فقعد منتبذاً عنهما منكسراً ذليلاً ، فدعا الله سبحانه وقال : اللهم اغفر لي ، ودعا ذلك الصالح وقال : اللهم لا تجمع غداً بيني وبين ذلك العاصي ، فأوحى الله تعالىٰ إلى عيسى عليه السلام : إني قد استجبت دعاءهما جميعاً ، ورددت ذلك

---

(١) هو بلعم بن باعوراء ، من علماء بني إسرائيل .

الصالح ، وغفرت لذلك المجرم .

وقال ذو النون المصري : قلت لعليم المجنون لم سميت مجنوناً ؟ قال : لما طال حبسي عنه صرت مجنوناً ، لخوف فراقه في الآخرة . وفي معناه أنشدوا :

ولو أن ما بي على صخر لأنحله فكيف يحمله خلق من الطين

وقال بعضهم : ما رأيت رجلاً أعظم رجاءً لهذه الأمة ، ولا أشد خوفاً على نفسه من ابن سيرين . وقيل : مرض سفيان الثوري فعرض دليله على الطبيب (أي ما يستدل به على مرضه) فقال : هذا رجل قطع الخوف كبده ، وحبس عرقه ، ثم قال : ما علمت أن في الحنيفية مثله . وسئل الشبلي لم تصفر الشمس عند الغروب ؟ فقال : لأنها عزلت عن مكان التمام فاصفرت لخوف المقام ؛ وكذا المؤمن إذا قارب خروجه من الدنيا ، اصفر لونه لأنه يخاف المقام ، فإذا طلعت الشمس طلعت مضيئة ، كذلك المؤمن إذا بعث من قبره وخرج ووجهه يشرق .

ويحكى عن أحمد بن حنبل رضي الله عنه أنه قال : سألت ربي عز وجل أن يفتح علي باباً من الخوف ، ففتح ، فخفت على عقلي ، فقلت : يا رب على قدر ما أطيق ، فسكن ذلك . فعلم أن الخوف يتنوع بتنوع المخوف منه ، وإن تواليه على العبد يرقيه إلى أعلى الدرجات ، ويحفظ عليه ما يخاف منه الفوات ، والله أعلم .

* * * *

(٩) باب الرجاء

اعلم أن حقيقة الرجاء تعلق القلب بمرغوب فيه ، مع الأخذ في الأسباب ، وهو مندوب إليه بهذا المعنى بخلاف الطمع فإنه محرم ، لأنه أصل الخير مع ترك أسبابه . ولفائدة واحدة نطق به التنزيل ، ووردت به السنة ، وهي تبريد حرارة الخوف لئلا يفضي بالعبد إلى اليأس . والعارفون المحققون لم يبق لهم أمل يتعلقون به ولا فرض يستوقفهم فيقفون معه ، ولهذا أشار سيد الكمّل ﷺ في إخباره عن نعيم أهل الجنة حيث قال : « لهم ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » فإذا كان ذلك لهم من حظ النفس في الجنة فما ظنك بما لهؤلاء من حظ قلوبهم من الله عز وجل .

قال أبو حبيب البدوي رحمه الله تعالىٰ : لم نر خيراً قط إلا من ربنا ، فما لنا نكره لقاء من لم نر خيراً قط إلا منه . وقال الشاذلي ـ نفعنا الله تعالىٰ به ـ أما نحن فلا نحب غير الله تعالىٰ . فقال له رجل : قد أبى ذلك جدك بقوله : جبلت القلوب على حب من أحسن إليها . فقال : إنا لم نر محسناً إلا الله تعالىٰ فلا نحب سواه ، وقال ﷺ : « أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه ، وأحبوني بحب الله . . » الحديث .

الرجاء الأمل ، وسببه الدوام على الأعمال الصالحة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَاتٍۚ ﴾ [العنكبوت : ٥] . وقال تعالىٰ : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف : ١١٠] أي شركاً خفياً أو جلياً . أخرج القشيري عن العلاء بن يزيد قال : دخلت على مالك بن دينار فرأيت عنده شهر بن حوشب ، فلما خرجنا من عنده قلت لشهر : يرحمك الله زودني زودك الله ، فقال :

حدثتني عمتي أم الدرداء ، عن أبي الدرداء ، عن نبي الله ﷺ ، عن جبريل

عليه السلام قال : « قال ربكم عز وجل : عبدي ما عبدتني ورجوتني ولم تشرك بي شيئاً ، غفرت لك ما كان منك ، ولو استقبلتني بملء الأرض خطايا وذنوباً استقبلتك بمثلهن مغفرة ، فأغفر لك ولا أبالي »[١] .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله ﷺ : « يقول الله تعالىٰ : أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة شعير من إيمان ، ثم يقول : أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، ثم يقول : وعزتي وجلالي لا أجعل من آمن بي ساعة من ليل أو نهار كمن لم يؤمن بي »[٢] بل أجعله كمن آمن بي أبداً ، لأن الإيمان يجب ما قبله ؛ وثمرات الرجاء لمن داوم على الأعمال الصالحة عظيمة .

وحقيقة الرجاء تعلق القلب بمحبوب سيحصل في المستقبل ، وكما أن الخوف يقع في مستقبل الزمان ، فلذلك الرجاء يحصل لما يؤمّل وقوعه في زمن الاستقبال ، وبالرجاء عيش القلوب واستقلالها .

والفرق بين الرجاء والتمني : أن التمني يصاحبه الكسل ، ولا يسلك طريق الجهد والجد ؛ وبعكسه صاحب الرجاء ، فالرجاء محمود ، والتمني معلول ؛ وقد تكلموا في الرجاء ، فقال شاه الكرماني : علامة الرجاء حسن الطاعة . وقال ابن خبيق : الرجاء ثلاثة : رجل عمل حسنة فهو يرجو قبولها ، ورجل عمل سيئة ثم تاب منها فهو يرجو المغفرة ، والثالث الرجل الكاذب يتمادى في الذنوب ويقول : أرجو المغفرة ، ومن عرف نفسه بالإساءة ، ينبغي أن يكون خوفه غالباً على رجائه .

وقيل : الرجاء ثقة الجود من الكريم الودود ، وقيل : الرجاء رؤية الجلال بعين الجمال ؛ وقيل : هو قرب القلب من ملاطفة الرب ، وقيل : هو سرور الفؤاد بحسن المعاد ، وقيل : هو النظر إلى سعة رحمة الله تعالىٰ .

---

(١) أخرجه الطبراني ، والترمذي بنحوه ، وقال : حديث حسن .

(٢) أخرجه بنحوه مسلم (٢٥٧٧) والترمذي (٢٤٩٧) .

قال الروذباري : الخوف والرجاء هما كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه ، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص ، وإذا ذهبا صار الطائر في حدّ الموت .

سئل أبو عاصم الأنطاكي : ما علامة الرجاء في العبد ؟ فقال : أن يكون إذا أحاط به الإحسان ، ألهم الشكر راجياً لتمام النعمة من الله عليه في الدنيا ، وتمام عفوه في الآخرة .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : الرجاء استبشار بوجود فضله ؛ وقال : ارتياح القلوب لرؤية كرم المرجو المحبوب .

وقال أبو عثمان المغربي : من حمل نفسه على الرجاء تعطّل ، ومن حمل نفسه على الخوف قنط ، ولكن من هذه مرة ، ومن هذه مرة ، بحيث يداوي الرجاء بالخوف وبالعكس .

عن بكر بن سليم الصوَّاف قال : دخلنا على مالك بن أنس رحمه الله في العشية التي قبض فيها ، فقلنا : يا أبا عبد الله ، كيف تجدك ؟ فقال : ما أدري ما أقول لكم ! غير أنكم ستعاينون من عفو الله تعالىٰ ما لم يكن لكم في حساب . ثم ما برحنا من مكاننا حتى أغمضناه .

وقال يحيى بن معاذ : يكاد رجائي لك مع الذنوب ، يغلب رجائي لك مع الأعمال ، لأني أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص ، وكيف أحرزها من الآفة ؟ وأنا بالآفة معروف ، وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك ، وكيف لا تغفرها ؟ وأنت بالجود موصوف .

وكلموا ذا النون المصري وهو في النزع فقال : لا تشغلوني فقد تعجبت من كثرة لطف الله تعالىٰ معي .

وقال يحيى بن معاذ : إلهي أحلى العطايا في قلبي رجاؤك ، وأعذب الكلام على لساني ثناؤك ، وأحب الساعات إليّ ساعة يكون فيها لقاؤك .

وفي بعض التفاسير : أن رسول الله ﷺ دخل على أصحابه من باب بني

شيبة ، فرآهم يضحكون فقال : « أتضحكون ؟ لو تعلمون ما أعلم ! لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً ، ثم مر إلى جهته ثم رجع القهقرى ، وقال : نزل عليّ جبريل عليه السلام ، وأتى بقوله تعالىٰ : ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الحجر : ٤٩] »[١] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله ليضحك من يأس العباد وقنوطهم ، وقرب الرحمة منهم » فقلت : بأبي وأمي يا رسول الله أو يضحك ربنا عز وجل ؟ فقال : « والذي نفسي بيده إنه ليضحك ! » فقالت : لا يعدمنا خيراً إذا ضحك .

واعلم أن الضحك في وصفه من صفات فعله ، وهو إظهار فضله ، كما يقال : ضحكت الأرض بالنبات ، وضحكه من قنوطهم ، إظهار تحقيق فضله الذي هو ضعف انتظارهم له .

وقيل : إن مجوسياً استضاف الخليل إبراهيم عليه السلام فقال : إن أسلمت أضيفك ، فقال المجوسي : إذا أسلمت فأي سنة تكون لك عليّ ؟ فمر المجوسي ، فأوحى الله عز وجل إلى إبراهيم عليه السلام : يا إبراهيم لم تطعمه إلا بتغييره دينه ؟ نحن منذ سبعين سنة نطعمه على كفره ، فلو أضفته ليلة ماذا عليك ؟ فمر إبراهيم عليه السلام خلف المجوسي وأضافه ، فقال له المجوسي : أي الشيء كان السبب في الذي بدا لك ؟ فذكر له ذلك ! فقال له المجوسي : أهكذا يعاملني ؟ وفي رواية : نعم الرب رب يعاتب نبيه في عدوه ، ثم قال : اعرض عليّ الإسلام ، فأسلم .

رأى أبو سهل الصعلوكي أبا سهل الزّجّاج في المنام ، وكان يقول : بوعيد الأبد ، أي : بأن الله تعالىٰ إذا توعّد على معصية بعقاب فلابد من وقوعه ، وهو غفلة منه على شرطه ، فإن ذلك يغفره إذا شاء ، كما قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ٤٨] . فقال له : كيف حالك ؟ فقال : وجدنا الأمر أسهل مما توهمنا .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير الطبري بنحوه .

رؤي أبو سهل الصعلوكي في المنام ، على هيئة حسنة لا توصف ، فقيل له : يا أستاذ بم نلت هذا ؟ فقال : بحسن ظني بربي ، بحسن ظني بربي .

ورؤي مالك بن دينار في المنام ، فقيل له : ماذا فعل الله بك ؟ فقال : قدمت على ربي بذنوب كثيرة ، محاها عني حسن ظني به تعالىٰ .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « يقول الله عز وجل : أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني ، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ، وإن اقترب إلي شبراً اقتربت إليه ذراعاً ، وإن اقترب إليّ ذراعاً اقتربت منه باعاً ، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة »[1] .

وقيل : كان عبد الله بن المبارك يقاتل علجاً مرة ، فدخل وقت صلاة العلج فاستمهله فأمهله ، فلما سجد للشمس أراد ابن المبارك أن يضربه بسيفه ، فسمع من الهواء قائلاً يقول : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٤] فأمسك ، فلما سلم المجوسي قال له : لم أمسكت عما هممت به ؟ فذكر له ما سمع ، فقال له المجوسي : نعم الرب رب يعاتب وليه في عدوه ، فأسلم وحسن إسلامه .

وقيل : إنما أوقعهم في الذنب حين سمى نفسه عفوّاً .

وقيل : لو قال تعالىٰ : لا أغفر الذنوب ، لم يذنب مسلم قط ، كما أنه لو قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ ﴾ [النساء : ٤٨] لم يشرك به مسلم قط ، ولكن لما قال : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ٤٨] طمعوا في مغفرته .

ويحكى عن إبراهيم بن أدهم رحمه الله قال : كنت أنتظر مدة من الزمان أن يخلو المطاف لي ، فكانت ليلة ظلماء ، فيها مطر شديد ، فخلا المكان ، فدخلت الطواف ، وكنت أقول : اللهم اعصمني ، اللهم اعصمني ، فسمعت هاتفاً يقول لي : يا ابن أدهم أنت تسألني العصمة ، وكل الناس يسألوني العصمة ، فإذا عصمتكم فمن أرحم ؟

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم ، وقد تقدم .

وقيل : رأى أبو العباس بن سريج في منامه في مرضه الذي مات فيه ، كأن القيامة قد قامت ، وإذا الجبار سبحانه يقول : أين العلماء ؟ قال : فجاؤوا ، ثم قال : ماذا عملتم فيما علمتم ؟ قال فقلنا : يا رب أسأنا وقصّرنا ، فأعاد السؤال ، كأن لم يرض به ، وأراد جواباً آخر ، فقال : أما أنا فليس في صحيفتي الشرك ، وقد وعدت أن تغفر ما دونه ، فقال : اذهبوا فقد غفرت لكم ، ومات بعد ذلك بثلاث ليال .

وقيل : كان رجل شرّيب ، جمع قوماً من ندمائه ، ودفع إلى غلام له أربعة دراهم ، وأمره أن يشتري شيئاً من الفواكه للمجلس ، فمرَّ الغلام بباب مجلس منصور بن عمار ، وهو يسأل لفقير شيئاً يقول : من دفع له أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات ، قال : فدفع له الغلام الدراهم ، فقال منصور : ما الذي تريد أن أدعو لك به ؟ فقال : لي سيد أريد أن أتخلَّص منه ، فدعا لي بذلك ، وقال : الأخرى أن يخلف الله علي دراهمي ، فدعا لي بذلك ، ثم قال : وما الأخرى ؟ فقال : أن يتوب الله على سيدي ، فدعا ، قال : وما الأخرى ؟ فقال : أن يغفر الله لي ولسيدي ولك وللقوم ، فدعا منصور بذلك ، فرجع الغلام إلى سيده ، فقال له : لم أبطأت ؟ فقصَّ عليه القصة ، فقال له : وبم دعا ؟ فقال : سألت لنفسي العتق ، فقال : اذهب فأنت حرّ ، وإيش الثاني ؟ فقال : أن يخلف الله عليّ الدراهم ، فقال : لك أربعة آلاف درهم ، فقال : وإيش الثالث ؟ فقال : أن يتوب الله عليك . فقال : تبت إلى الله تعالىٰ . فقال : وإيش الرابع ؟ فقال : أن يغفر الله تعالىٰ لي ولك وللقوم وللمذكِّر . فقال : هذا الواحد ليس إليّ ، فلما بات رأى في المنام كأن قائلاً يقول له : أنت فعلت ما كان إليك ! تراني لا أفعل ما إليّ ! قد غفرت لك ، وللغلام ، ولمنصور بن عمار ، وللقوم الحاضرين .

وقيل : حج رباح القيسي حجات كثيرة ، فقال يوماً وقد وقف تحت الميزاب : إلهي وهبت من حجاتي كذا كذا للرسول ﷺ ، وعشرة منها لأصحابه العشرة رضي الله عنهم ، واثنين منها لوالديّ ، والباقي للمسلمين ،

ولم يحبس منها شيئاً لنفسه ، فسمع هاتفاً يقول : هو ذا يتسخَّى علينا ، لأغفرنّ لك ، ولأبويك ، ولمن شهد شهادة الحق .

وعن عبد الوهاب الثقفي أنه قال : رأيت جنازة يحملها ثلاثة من الرجال وامرأة ، قال : فأخذت مكان المرأة ، وذهبنا إلى المقبرة ، فصلينا عليها ، ودفناها ، فقلت للمرأة : من كان هذا منك ؟ قالت : ابني ؟ قلت : أو لم يكن لكم جيران ؟ قالت : نعم ولكنهم صغّروا أمره ، وحقّروه ، فقلت : متى كان هذا ؟ فقالت : هو مخنث ، قال : فرحمتها ، وذهبت بها إلى منزلي ، وأعطيتها دراهم ، وحنطة ، وثياباً ، ونمت تلك الليلة ، فرأيت كأنه أتاني آت ، كأنه القمر ليلة البدر ، وعليه ثياب بيض ، فجعل يتشكر لي ، فقلت : من أنت ؟ فقال : المخنث الذي دفنتموني اليوم ، رحمني ربي باحتقار الناس إياي ، وكلامهم فيّ ، مع بركة دعاء الرجل وأمي لي ، وشفقتها عليّ .

مرّ أبو عمرو البيكندي يوماً بسكة ، فرأى قوماً أرادوا إخراج شابّ من المحلة ، لفساده ، وامرأة تبكي ، قيل : إنها أمه ، فرحمها أبو عمر ، فتشفع له إليهم ، وقال : هبوه مني هذه المرة ، فإن عاد إلى فساده فشأنكم ، فوهبوه منه ، فمضى أبو عمرو ، فلما كان بعد أيام ، اجتاز بتلك السكة ، فسمع بكاء العجوز من وراء ذلك الباب ، فقال لنفسه : لعل الشاب عاد إلى فساده ، فنفي من المحلة ، فدقَّ الباب عليها ، وسألها عن حال الشابّ ، فخرجت العجوز وقالت له : مات . فسألها عن حاله ، فقالت : لما قرب أجله ، قال : لا تخبري الجيران بموتي ، فلقد آذيتهم ، وإنهم يشمتون بي ، ولا يحضرون جنازتي ، فإذا دفنتيني ، فهذا خاتم لي ، مكتوب عليه باسم الله ، ادفنيه معي ، فإذا فرغت من دفني ، فتشفعي لي إلى ربي عز وجل ، قالت : ففعلت وصيته ، فلما انصرفت عن رأس قبره ، سمعت صوته وهو يقول : انصرفي يا أماه ، فقد قدمت على رب كريم .

وقد أوحى الله تعالىٰ إلى داود عليه السلام ، قل لهم : إني لم أخلقهم لأربح عليهم ، وإنما خلقتهم ليربحوا عليّ .

وقال إبراهيم الأطروش : كنا قعوداً مع معروف الكرخي ببغداد على الدجلة ، إذ مر بنا قوم أحداث في زورق ، يضربون بالدف ، ويشربون الخمر ، ويلعبون ، فقلنا لمعروف : أما تراهم يعصون الله مجاهرين ! ادع الله عليهم ! فرفع يديه وقال : إلهي كما فرّحتهم في الدنيا ففرّحهم في الآخرة ، فقالوا له : إنما سألناك أن تدعو عليهم! فقال : إذا فرّحهم في الآخرة فقد تاب عليهم .

قال الحسين بن عبد الله بن سعيد : كان يحيى بن أكثم صديقاً لي ، وكان يودّني وأودّه ، فمات يحيى ، فكنت أشتهي أن أراه في المنام ، فأقول له : ما فعل الله بك ؟ فرأيته ليلة في المنام ، فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي إلا أنه وبخني ، ثم قال لي : يا يحيى خلّطت عليّ في دار الدنيا ، فقلت : أي رب ! اتكلت على حديث حدثني به أبو معاوية الضرير عن الأعمش ، عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله ﷺ : أنك قلت : « إني لأستحي أن أعذب ذا شيبة في النار »[1] فقال : قد عفوت عنك يا يحيى وصدق نبيي ، إلا أنك خلّطت عليّ في دار الدنيا .

❊ ❊ ❊ ❊

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٢٨٧) .

(١٠) باب الحزن

الحزن لا يكون إلا من قلب حيّ ، تألم من المعاصي ، وحزن على فوات الطاعات ، فيطلب هذه ، ويفر من تلك ، لما أحس به من ألم وملاءمة ، ولما وجده من مرارة وحلاوة ، فحزن على ما فاته من الموافقات ، على حسب همته ، وندم على ما فعله من الزلات ؛ والقلب الميت لا يحس بشيء من ذلك ، قال رسول الله ﷺ : « من سرّته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن »(١) وقال ابن مسعود : المؤمن يرى نفسه من ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه ، والمنافق يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا ، فأطاره .

فحقيقة الحزن : انقباض السرّ لما سلف من مخالفة الأمر ، والتلهف على ما وقع ، فيتمنى أن لم يكن وقع .

الحزن قبض يرد على القلب لفوات محبوب أو توقع مؤلم ، وقد ينسى سببه ، ثم هو قد يكون محبوباً وقد يكون مذموماً ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ [فاطر : ٣٤] جاء عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من شيء يصيب العبد المؤمن ، من وصب (مرض) أو نصب ، أو حزن ، أو ألم يهمه ، إلا كفّر الله عنه من سيئاته »(٢) . ومتى تراكم القبض وتوالى سمي كمداً ، وبين القبض والكمد تسمى شجاً . وسأل المحاسبي شيخه فقال : ما علامة الشجا ؟ فقال : دوام البكاء ممزوجاً بفرح ، لعلمه معرفة النعمة عليه في الحزن والبكاء ، إذا عرفت ذلك فالحزن حال يقبض القلب عن التفرق في أودية الغفلة ، وهذا في الحزن القوي ، والحزن من أوصاف أهل السلوك ، قال القشيري : سمعت الدقّاق

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٦٥) والحاكم في المستدرك (١ / ١٤) .

(٢) أخرجه الترمذي (٩٦٦) وابن أبي الدنيا في المرض والكفّارات (١٢٧) .

يقول : صاحب الحزن يقطع من طريق الله في شهر ما لا يقطعه من فقد حزنه سنين .

وفي الخبر : « إن الله يحبُّ كل قلب حزين »(١) . لأن الحزن على الخيرات وفوات الأوقات في البطالات من نعم الله على العبد .

وفي التوراة : إذا أحبَّ الله عبداً جعل في قلبه نائحة ، وإذا أبغض عبداً جعل في قلبه مزماراً .

وروي أن رسول الله ﷺ كان متواصل الأحزان ، دائم الفكر فيما يحصل به الثواب ، وقال بشر بن الحارث : الحزن مَلك ، فإذا سكن في موضع لم يرض أن يساكنه فيه أحد .

وقيل : القلب إذا لم يكن فيه حزن خرب ، كما أن الدار إذا لم يكن فيها ساكن تخرب .

وقال أبو سعيد القرشي : بكاء الحزن يعمي ، وبكاء الشوق يغشي البصر ولا يعميه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف : ٨٤] .

وقال ابن خفيف : الحزن حصر النفس عن النهوض في الطرب .

سمعت رابعة العدوية رجلاً يقول : واحزناه . فقالت له : قل : وا قلّة حزناه ! لو كنت محزوناً لم يتهيأ لك أن تتنفس .

وقال سفيان بن عيينة : لو أنّ محزوناً بكى في أمة ، لرحم الله تلك الأمة ببكائه .

وكان داود الطائي الغالب عليه الحزن ، وكان يقول بالليل : إلهي همّك عطل عليّ الهموم ، وحال بيني وبين الرقاد ، وكان يقول : كيف يتسلى من الحزن من تتجدد عليه المصائب في كل وقت ؟ وقيل : الحزن يمنع من

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣١٥) وذكره الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٠٩) .

الطعام ، والخوف يمنع من الذنوب .

وسئل بعضهم : بم يستدل على حزن الرجل ؟ فقال : بكثرة أنينه .

وقال سري السقطي : وددت أن حزن كل الناس ألقي عليّ .

وتكلَّم الناس في الحزن ، فكلهم قالوا : إنما يحمد حزن الآخرة ، وأما حزن الدنيا فغير محمود .

إلا أبا عثمان الحيري فإنه قال : الحزن بكل وجهٍ فضيلة ، وزيادة للمؤمنين ، ما لم يكن بسبب معصية ، لأنه إن لم يوجب تخصيصاً فإنه يوجب تمحيصاً .

وعن بعض المشايخ أنه كان إذا سافر واحد من أصحابه ، يقول : إن رأيت محزوناً فأقرئه مني السلام .

قال الدقَّاق أبو علي : كان بعضهم يقول للشمس عند غروبها : هل طلعت اليوم على محزون ؟ وكان الحسن البصري لا يراه أحد إلا ظن أنه حديث عهد بمصيبة ، وقال وكيع لما مات الفضيل : ذهب الحزن اليوم من الأرض .

وقال بعض السلف : أكثر ما يجد المؤمن في صحيفته من الحسنات الهم والحزن .

نقل عن الفضيل بن عياض قوله : كان السلف يقولون : إن على كل شيء زكاة ، وزكاة العقل طول الحزن .

قال الورّاق : سألت أبا عثمان الحيري يوماً عن الحزن ، فقال : الحزين لا يتفرغ إلى سؤال الحزن .

فاجتهد في طلب الحزن ثم سل عنه .

* * * *

(١١) باب الجوع ، وترك الشهوة

الجوع مندوب إليه بآيات القرآن الشريفة ، وأخباره ﷺ الصريحة ، وحقيقته حبس النفس عن دار الامتلاء والبطنة ، وهو من منازل العوام في ابتداء سيرهم ، لحاجتهم إلى النشاط في الإرادة ، ورقة القلب بترك العادة .

أما الجوع عند الخواص فهو بقاء للإحساس ، ووقوف مع البشرية ، فهم رضي الله عنهم ، غذاء نفوسهم بالذكر ، وراحة أرواحهم بالفكر ، فهم دائماً على فوائد المعارف ، ولله در الرازي حيث قال : من استفتح باب المعاش بغير مفاتيح الأقدار ، وكل إلى المخلوقين . قال تعالىٰ : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ٥٥] فبشرهم بجميل الثواب على الصبر على مقاساة الجوع ، والصبر ثلاثة مقامات بعضها فوق بعض : تحمل مشقة ، وتجرع غصة في الثبات على ما يجري به القضاء ، وهو صبر لله ، وذلك من أخلاق العوام ، وحبس النفس على شهود تصاريف الحق ، وهو يسهل طرق التحمل ، وهو من أخلاق المريدين ، ويقال له : صبر بالله ، وحس النفس على شهود المبلي في البلاء ، والمعذب في العذاب ، وهو يفيد التلذذ بالبلوى ، ويقال له : الصبر على الله ، وهو من أخلاق العارفين . قال قائلهم شعراً :

أَلِفْـتُ الضنـى حتـى تطـاول مكثـه   فلو زال عن جسمي بكته الجوارح

وقال تعالىٰ : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] . أي : حاجة إلى ما يؤثرون به ، وفي ذلك مدح على الجوع ، وترك الشهوة ، فهما مطلوبان ضمناً ، وقد طلبا صريحاً في الصوم ، أي لحكمة قمع النفس ، ورياضتها لتطهر من رجس حظوظها ومألوفاتها ، ثم إذا علمت ذلك تعلم قبح تبديل هذه الحكمة ، سيء البدعة المذمومة التي هي تكثير المأكولات

والمشروبات لغرض المباهاة والعجب والفخر في الدنيا ، حتى صار الإنسان لا يدعو إلا مثله ، أو أعلى منه ، يفتخر عليه بما أعدَّه من ذلك التوسع ، روى الترمذي خبر : « ما ملأ ابن آدم وعاءً شراً من بطنه حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه »[1] .

فقد جمع عليه الصلاة والسلام في هذا الخبر ، طب الأجسام ، وطب الأرواح .

ومن ثم كان التقلل من الدنيا ممدوحاً ، لفوائد كثيرة ، أقلها : زوال الشواغل والغفلة عن الطاعات والتلذذ بالمناجاة وسائر العبادات ، وقد تضمنت الآية أن الله يبتلي عباده بالجوع ، ليعلم صبرهم وقيامهم بحقه حال الشدة والرخاء ، وقد قال تعالىٰ : ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴾ [العنكبوت : ١ ـ ٢] فهي سنة قديمة جارية في الأمم كلها ، فلا ينبغي توقع خلافها .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : جاءت فاطمة رضي الله عنها بكسرة خبز لرسول الله ﷺ ، فقال : ما هذه الكسرة يا فاطمة ؟ فقالت : قرص خبزته ، ولم تطب نفسي حتى أتيتك بهذه الكسرة ، فقال لها : أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام . وليس المراد منه تعذيب النفس بل تعويدها الكف عن الشهوات ، وخفة الجوارح للطاعات ، ولهذا كان الجوع من صفات القوم ، وهو أحد أركان المجاهدة في الطاعة ؛ فإن أرباب السلوك تدرجوا إلى اعتياد الجوع ، والإمساك عن الأكل الزائد على ما تقوم به البنية ، ووجدوا ينابيع الحكمة في الجوع ، فأشرقت أنوار قلوبهم به ، وانصقلت مرائي بصائرهم ، فكانوا ممن يرزق بهم أهل الأرض ، ويباهى بهم أهل السماء .

قال ابن سالم : أدب الجوع ألا ينقص من عادته إلا مثل أذن السنّور ، وقيل : كان سهل بن عبد الله لا يأكل الطعام إلا في كل خمسة عشر يوماً ، فإذا

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٢) والترمذي (٢٣٨٠) وابن حبان (٥٢٣٦) .

دخل شهر رمضان كان لا يأكل حتى يرى هلال شوال ، وكان يفطر كل ليلة على الماء القراح .

وقال يحيى بن معاذ : لو أن الجوع يباع في السوق ، لما كان ينبغي لطلاب الآخرة إذا دخلوا السوق أن يشتروا غيره .

قال سهل بن عبد الله : لما خلق الله الدنيا ، جعل في الشبع المعصية والجهل ، وجعل في الجوع العلم والحكمة .

وقال يحيى بن معاذ : الجوع للمريدين رياضة ، وللتائبين تجربة ، وللزهاد سياسة ، وللعارفين مكرمة .

دخل بعضهم على بعض الشيوخ فرآه يبكي ، فقال له : ما لك تبكي ؟ فقال : إني جائع . فقال : ومثلك يبكي من الجوع ! فقال : اسكت أما علمت أن مراده من جوعي أن أبكي . قال مجالس : كان الحجاج بن فرافصة معنا بالشام ، فمكث خمسين ليلة لا يشرب الماء ، ولا يشبع من شيء يأكله .

دخل أبو تراب النخشبي من بادية البصرة مكة حرسها الله تعالىٰ ، فسألناه عن أكله فقال : خرجت من البصرة وأكلت بنِباج[1] ، ثم أكلت بذات عرق ، ومن ذات عرق إليكم ، فقطع البادية بأكلتين .

وكان سهل بن عبد الله إذا جاع قوي ، لتعوده الجوع ، وإذا أكل شيئاً زائداً على ما تقوم به البنية ضعف .

قال الداراني : مفتاح الدنيا الشبع ، ومفتاح الآخرة الجوع .

قال سهل بن عبد الله ، وقد قيل له الرجل يأكل في اليوم أكلة ؟ فقال : أكل الصّدّيقين ، قال فأكلتين ؟ قال : أكل المؤمنين ، قال : فثلاثة ؟ قال : قل لأهلك : يبنون لك معلفاً .

وقال يحيى بن معاذ : الجوع نور ، والشبع نار ، والشهوة مثل الحطب ،

---

(١) نباج : قرية قريبة من البصرة .

يتولد منه الإحراق ، ولا تطفأ ناره حتى يحرق صاحبه .

دخل يوماً رجل من الصوفية على شيخ ، فقدّم إليه طعاماً ، ثم قال له : مذ كم يوماً لم تأكل ؟ فقال : من خمسة أيام ، لما علم شرهه في الأكل ، فأدّبه بملازمة العفة ، وطرق الأدب في تناول المأكولات ، في حالة الانفراد والاجتماع .

وقال الداراني : لأن أترك من عشائي لقمة أحب إليّ من أن أقوم الليل إلى آخره .

وقال ابن فورك : شغل العيال نتيجة متابعة الشهوة بالحلال ، فما ظنك بقضية شهوة الحرام ؟ كان أبو عبد الله بن خفيف في دعوة ، فمد واحد من أصحابه يده إلى طعام قبل الشيخ لما كان به من الفاقة ، فأراد بعض أصحاب الشيخ أن ينكر عليه لسوء أدبه ، حيث مد يده إلى الطعام قبل الشيخ ، فوضع بعض أصحابه شيئاً بين يدي هذا الفقير ، فعلم الفقير أنه أُنكر عليه لسوء أدبه فعزم ألا يأكل خمسة عشر يوماً عقوبة لنفسه ، وتأديباً لها ، وإظهاراً لتوبته من سوء أدبه . وكان قد أصابتهُ فاقة قبل ذلك .

قال مالك بن دينار : من غلب شهوات الدنيا فذاك الذي يَفرَقُ الشيطان من ظلّه .

وقال الروذباري : إذا قال الصوفي بعد خمسة أيام : أنا جائع ، فألزموه السوق وأمروه بالكسب .

قال أبو علي الدقّاق حاكياً عن بعض المشايخ أنه قال : إن أهل النار غلبت شهوتهم حميتهم ، فلذلك افتضحوا .

وقال أيضاً : قيل لبعضهم ألا تشتهي ؟ فقال : أشتهي ولكن أحتمي . وقيل لبعضهم ألا تشتهي ؟ فقال : أشتهي ألّا أشتهى ، وهذا أتمُّ .

وقال أبو نصر التمّار : أتاني بشر ليلة ، فقلت : الحمد لله الذي جاء بك ، جاءنا قطن من خراسان ، فغزلته البنت ، وباعته ، واشترت لنا لحماً ، فتفطر

عندنا ، فقال : لو أكلت عند أحد أكلت عندكم ، ثم قال : إني لأشتهي الباذنجان منذ سنين ، ولم يتفق لي أكله ، فقلت إن فيها الباذنجان من الحلال ، فقال : حتى يصفو لي حب الباذنجان ، بحيث يكون أكلي له طاعة فآكله .

قال أبو أحمد الصغير : أمرني أبو عبد الله بن خفيف أن أقدم إليه كل ليلة عشر حبات زبيباً عشاءه ، فليلة من الليالي أشفقت عليه ، فحملت إليه خمس عشرة حبة ، فنظر إليّ وقال : من أمرك بهذا ؟ وأكل عشر حبات وترك الباقي .

وقال النخشبي : ما تمنت عليّ نفسي من الشهوات إلا مرة واحدة ، تمنت خبزاً وبيضاً وأنا في سفر ، فعدلت إلى قرية فقام واحد وتعلَّق بي ، وقال هذا كان مع اللصوص فضربوني سبعين درة ، ثم عرفني رجل منهم ، فقال : هذا أبو تراب النخشبي ، فاعتذروا إليّ ، فحملني رجل إلى منزله ، وقدّم إلي خبزاً وبيضاً ، فقلت لنفسي كلي بعد سبعين دُرّة .

❊ ❊ ❊ ❊

(١٢) باب الخشوع ، والتواضع

الخشوع إنما يكون بجمع القلب على مراقبة الرب ، فيثمر تصاغر النفس في حال انقيادها ومناجاتها لربها ، وقد تتوالى على العبد فتصير من منازلاته ، فيدوم على استصغار النفس مع كل طارق للحق تعالىٰ وللخلق .

وقيل : الخشوع إطراق السريرة بشرط الأدب بمشهد الحق ، والتواضع الانقياد إلى الحق وعدم الاعتراض ، والأول خاص بالحق ، والثاني عام له وللخلق ، ومن أسباب الخشوع والتواضع : شهود إحاطة العلم القديم بسائر الكائنات ، وشهود جلال عظمة الذات والصفات .

قال الله عز وجل : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون : ١ ـ ٢] والمراد بالمؤمنين : إما المصدقون بما علم ضرورة أنه من دين سيدنا محمد ﷺ ، من التوحيد ، والنبوة ، والبعث ، والجزاء ، ونظائرها ، فقوله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٢] وما عطف عليه ، صفات مخصصة لهم .

وإما الآتون بفروعه أيضاً كما ينبىء عليه إضافة الصلاة إليهم ، فهي صفات موضحة .

والخشوع الخوف والتذلل ، أي : خائفون من الله تعالىٰ ، متذللون له ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩٠] في الصلاة ، وغيرها .

عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر »[1] أي : لا يدخلها أبداً ، إن كان الكبر كفراً ، كأن

---

(١) أخرجه مسلم (٩١) والترمذي (١٩٩٩) .

تكبر على النبي ، وإلا فلا يدخلها مع الفائزين ، « ولا يدخل النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان » أي : لا يدخلها دخول خلود ، لما صح أن طائفة من المؤمنين يدخلون النار ، ثم يخرجون منها بالشفاعة ، فقال رجل يا رسول الله : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة أهو من الكبر ؟ فقال : « إن الله تعالىٰ جميل يحب الجمال الكبر من بطر الحق » أي : رده وإبطاله « وغمص الناس » أي : احتقارهم ، وفي رواية « الكبر بطر الحق وغمط الناس »[1] . والكبر ضد التواضع ، ومن تواضع لله رفعه ومن تكبر وضعه الله .

عن أنس بن مالك قال : كان رسول الله ﷺ : يعود المريض ، ويشيع الجنائز ، ويركب الحمار ، ويجيب دعوة العبد ، وكان يومَ قريظة والنضير على حمار مخطوم بحبل من ليف ، وعليه إكاف من ليف . الخشوع : الانقياد للحق وقبوله ، إذا سمعه من أي قائل كان ، والتواضع هو الاستسلام للحق ، وترك الاعتراض على الحكم ، وقال حذيفة : أول ما تفقدون من دينكم الخشوع ، وقد سئل بعضهم عن الخشوع فقال : الخشوع قيام القلب بين يدي الحق بهمٍّ مجموع .

وقال سهل بن عبد الله : من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان .

وقال بعضهم : خشوع القلب قيّد العيون عن النظر .

وقال محمد بن علي الترمذي : الخاشع من خمدت نيران شهواته ، وسكن دخان صدره ، وأشرق نور التعظيم في قلبه ، فماتت شهواته وحيي قلبه فخشعت جوارحه ، وهذا معنى قوله ﷺ لمن رآه يعبث في الصلاة بلحيته : « لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه »[2] .

وقال الحسن البصري : الخشوع الخوف الدائم اللازم للقلب .

---

(١) أخرجه مسلم (٩١) والترمذي (١٩٩٩) والحاكم (١/ ٢٦) .

(٢) رواه الحكيم الترمذي بسند ضعيف .

وسئل الجنيد عن الخشوع فقال : تذلل القلوب لعلام الغيوب ، قال الله عز وجل : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] . قال الدقاق : معناه متواضعين متخاشعين . واتفقوا على أن الخشوع محله القلب ، ورأى بعضهم رجلاً منقبض الظهر منكسر الشاهد قد زوى منكبيه ، فقال له : يا فلان : الخشوع هاهنا ، وأشار إلى صدره ، لا هاهنا وأشار إلى منكبيه . وروي أن النبي ﷺ رأى رجلاً يعبث في صلاته بلحيته فقال : « لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه » . وقيل : شرط الخشوع في الصلاة ألا يعرف من عن يمينه ، ومن عن شماله ، ويحتمل أن يقال : الخشوع إطراق السريرة بشرط الأدب بمشهد الحق تعالىٰ ، أو يقال : الخشوع ذبول يرد على القلب عند اطلاع الرب ، أو يقال : الخشوع ذوبان القلب وانخناسه عند سلطان الحقيقة أو يقال : الخشوع مقدمات غلبة الهيبة ، أو يقال : الخشوع قشعريرة ترد على القلب بغتة ، عند مفاجأة كشف الحقيقة ، وكلها ترجع إلى تغير القلب ، وتذلله وسكونه ، بأن يستشعر نظر الحق إليه حتى لم يبق فيه وسع لغير ما هو فيه .

وقال الفضيل بن عياض : كان يكره أن يُريَ الرجل غيره من الخشوع أكثر مما في قلبه .

وقال أبو سليمان الداراني : لو اجتمع الناس على أن يضعوني كاتضاعي عند نفسي لما قدروا عليه ، وقيل : من لم يتضع عند نفسه ، لم يرتفع عند غيره ، وكان عمر بن عبد العزيز لا يسجد إلا على التراب .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسولُ الله ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » . وقال مجاهد رحمه الله : لما أغرق الله سبحانه قوم نوح ، شمخت الجبال ، وتواضع الجودي ، فجعله الله سبحانه قراراً لسفينة نوح عليه السلام .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسرع في المشي ويقول : إنه أسرع للحاجة ، وأبعد عن الزهو .

وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يكتب ليلة شيئاً ، وعنده ضيف ، فكاد السراج ينطفىء ، فقال الضيف : أقوم إلى المصباح فأصلحه ؟ فقال : لا ليس من الكرم استعمال الضيف ، قال : فأنّبه الغلام ؟ قال لا هي أول نومة نامها ، فقام إلى البطّة فجعل الدهن في المصباح . فقال له الضيف : قمت بنفسك يا أمير المؤمنين ؟ فقال له : ذهبت وأنا عمر ، ورجعت وأنا عمر .

وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ كان يعلف البعير ، ويقمُّ البيت ، ويخصف النعل ، ويرقع الثوب ، ويحلب الشاة ، ويأكل مع الخادم ، ويطحن معه إذا أعيا ، وكان لا يمنعه الحياء أن يحمل بضاعته من السوق إلى أهله ، وكان يصافح الغني والفقير ، ويسلم مبتدئاً ، ولا يحقر ما دعي إليه ، ولو إلى حشف التمر ، وكان هين المؤونة ، لين الخلق ، كريم الطبيعة ، جميل المعاشرة ، طلق الوجه بسَّاماً ، من غير ضحك ، محزوناً من غير عبوسة ، متواضعاً من غير مذلة ، جواداً من غير سرف ، رقيق القلب ، رحيماً بكل مسلم ، لم يتجشأ قط من شبع ، ولم يمد يده إلى الطمع .

قال الفضيل بن عياض : قراء الرحمن عز وجل أصحاب خشوع وتواضع ، وقراء القضاة أصحاب عجب وتكبر .

وقال الفضيل : من رأى لنفسه قيمة فليس له في التواضع نصيب .

وسئل الفضيل عن التواضع فقال : تخضع للحق وتنقاد له ، وتقبله ممن قاله .

وقال الفضيل : أوحى الله سبحانه إلى الجبال : إني مكلِّم على واحد منكم نبياً ، فتطاولت الجبال ، وتواضع طور سيناء ، فكلَّم الله سبحانه عليه موسى لتواضعه .

سئل الجنيد عن التواضع ، فقال : خفض الجناح ، ولين الجانب ، وقال وهب : مكتوب في بعض ما أنزل الله تعالىٰ من الكتب (إني أخرجت الذرّ من صلب آدم) فلم أجد قلباً أشد تواضعاً من قلب موسى عليه السلام ، فلذلك

اصطفيته وكلمته ، وقال ابن المبارك : التكبر على الأغنياء ، والتواضع للفقراء ، من التواضع والغرض منه التنفير من التواضع للأغنياء لدنياهم ، وإلا فالتكبر مذموم لكل أحد فقيراً كان أو غنياً ، والتواضع محمود لكل أحد ، فالمذموم من التواضع للأغنياء لدنياهم ، وللفقراء لفقرهم ، والمحمود التواضع لله ، سواء كان مع الأغنياء ، أم الفقراء .

وقيل لأبي يزيد البسطامي : متى يكون الرجل متواضعاً ؟ فقال : إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالًا ، ولا يرى أنّ في الخلق من هو شر منه .

وقيل : التواضع نعمة لا يحسد عليها ، والكبر محنة لا يرحم عليها ، والعز في التواضع فمن طلبه في الكبر لم يجده .

قال إبراهيم بن شيبان : الشرف في التواضع ، والعزّ في التقوى ، والحرية في الطاعة ، وأنشدوا :

أطعت مطامعي فاستعبدتني ولو أني قنعت لكنت حرّاً

نقل عن سفيان الثوري قوله : أعز الخلق خمسة أنفس : عالم زاهد وفقيه صوفي ، وغني متواضع ، وحقير شاكر ، وشريف سني . وقال يحيى بن معاذ : التواضع حسن في كل أحد لكنه في الأغنياء أحسن ، والتكبر سمج (قبيح) مع كل أحد لكنه مع الفقر أسمج . وقال ابن عطاء : التواضع قبول الحق ممن كان . وقيل : ركب زيد بن ثابت فدنا ابن عباس ليأخذ بركابه فقال له : مه يا ابن عم رسول الله ﷺ . فقال : هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا ، فأخذ زيد بن ثابت يد ابن عباس فقبلها وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت رسول الله ﷺ . وقال عروة بن الزبير رضي الله عنه : رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعلى عاتقه قِربة ماء ، فقلت : يا أمير المؤمنين لا ينبغي لك هذا . فقال : لما أتاني الوفود سامعين مطيعين دخلت في نفسي نخوة ، فأحببت أن أكسرها . ورؤي أبو هريرة وهو أمير المدينة وعلى ظهره حزمة حطب وهو يقول : طرّقوا للأمير . وقال عبد الله الرازي : التواضع ترك التمييز في الخدمة . قال الداراني : من رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الخدمة . وقال

ميمون بن معاذ : التكبر على من صبر عليك بماله تواضع لأنك صغّرت ما صغره الله تعالىٰ ، حيث لم يلتفت إلى المتكبرين . وقال الشبلي رحمه الله : ذلّي عطّل ذل اليهود . وجاءه رجل فقال له الشبلي : ما أنت ؟ فقال : يا سيدي النقطة التي تحت الباء . فقال له : أنت شاهدي ما لم تجعل لنفسك مقاماً .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : من التواضع أن يشرب الرجل من سؤر أخيه . وقال بشر : سلّموا على أبناء الدنيا بترك السلام عليهم . يعني ترككم السلام عليهم أسلم لكم من السلام عليهم على الوجه المذكور ، إنه حينئذ ليس بطاعة بل فيه خطر ، وقال شعيب بن حرب : بينا أنا في الطواف إذ لكزني إنسان بمرفقه ، فالتفت إليه فإذا هو الفضيل بن عياض فقال : يا أبا صالح إن كنت تظن أنه شهد الموسم شر مني ومنك فبئس ما ظننت .

قال بعضهم : رأيت في الطواف إنساناً بين يديه شاكريّة ، يمنعون الناس لأجله من الطواف ، ثم رأيته بعد ذلك بمدة على جسر ببغداد يسأل الناس شيئاً ، فتعجبت منه فقال لي : أنا تكبرت في موضع يتواضع الناس هناك فابتلاني الله سبحانه بالتذلل في موضع يترفع فيه الناس .

وعن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : أن ابناً له اشترى فصّاً بألف درهم ، فكتب إليه عمر : بلغني أنك اشتريت فصاً بألف درهم ، فإذا أتاك كتابي هذا فبع الخاتم وأشبع ألف بطن ، واتخذ خاتماً بدرهمين ، واجعل فصه حديداً صينياً ، واكتب عليه : رحم الله امرأً عرف قدر نفسه .

وقيل عرض على بعض الأمراء مملوك بألوف دراهم فلما أحضر الثمن استكثره فبدا له أي : عدم شرائه . فرد الثمن إلى الخزانة فقال له العبد : يا مولاي اشترني فإن فيّ بكل ألف درهم من هذه الدراهم خصلة تساوي أكثر من ألف درهم فقال : وما هي ؟ فقال : أقلّها وأدناها ما لوا اشتريتني وقدّمتني على جميع مماليكك ، لا أغلظ في نفسي ، وأعلم أني عبدك فاشتراه .

وحكي عن رجاء بن حيوة أنه قال : قومت ثياب عمر بن عبد العزيز وهو

يخطب باثنين وعشرين درهماً ، وكان قباء وعمامة وقميصاً وسراويل ، ورداء ، وخفّين ، وقلنسوة .

وقيل : مشى عبد الله بن محمد بن واسع مشياً لا يحمد ، فقال له : أبوه وتدري بكم اشتريت أمك ؟ بثلاثمئة درهم ، وأبوك لا أكثر الله مثله في المسلمين أباً ، وأنت تمشي هذه المشية .

قال حمدون القصَّار : التواضع ألا ترى لأحد إلى نفسك حاجة لا في الدين ولا في الدنيا . وقيل : تشاجر أبو ذر وبلال رضي الله عنهما ، فعيّر أبو ذر بلالًا بالسواد ، فشكاه إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا أبا ذر ! إنه بقي في قلبك من كبر الجاهلية شيء ، فألقى أبو ذر نفسه ، وحلف ألا يرفع رأسه حتى يطأ بلال خده بقدمه ، فلم يرفع حتى فعل بلال .

ومرّ الحسن بن علي رضي الله عنهما بصبيان معهم كسر خبز ، فاستضافوه ، فنزل ، وأكل معهم ، ثم حملهم إلى منزله ، وأطعمهم ، وكساهم ، وقال : اليد لهم لأنهم لم يجدوا غير ما أطعموني ، ونحن نجد أكثر منه .

وقيل : قسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الحلل بين الصحابة ، من غنيمة ، فبعث إلى معاذ حلة يمنية ، فباعها ، واشترى ستة أعبد وأعتقهم ، فبلغ ذلك عمر ، فكان يقسم الحلل بعده ، فبعث إليه حلة دون تلك ، فعاتبه معاذ ، فقال له عمر : لأنك بعت الأولى ، فقال معاذ : وما عليك ! ادفع إليّ نصيبي ، وقد حلفت لأضربن بها رأسك ، فقال عمر : هذا رأسي بين يديك ، وقد يرفق الشيخ بالشيخ .

* * * *

(١٣) باب مخالفة النفس وذكر عيوبها

النفس ثلاثة : أمارة ، ولوامة ، ومطمئنة ، والقوم إذا أطلقوا النفس ، فإنما يريدون الروح الوضيعة الحيوانية المباينة للروح الرفيعة النورانية ، ورضا القدوس كامن في مخالفة النفوس .

إذا طالبتك النفس يوماً بحاجة وكـان لهـا نحـو الهـواء طـريـق
فخالف هواها ما استطعت فإنها هـواهـا عـدو والخـلاف صـديـق

وقال بعضهم : النفس تطلق على حقيقة الشيء وذاته ووجوده ، وعلى ما يفارق الإنسان بالموت ، وعلى الدم ، وعلى الأخلاق المذمومة ، وهذا هو المراد عند أهل هذا الشأن ، غير أن الأصل في إطلاقها ، أن يراد منها العين والذات والوجود ، قال تعالىٰ : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ [المائدة : ١١٦] . والباري تعالىٰ منزه عن الذمّ وعن الأخلاق المذمومة ، وعن الانفصال والاتصال ، فالمراد بنفسه وجوده ، وذاته ، بما لها من الصفات .

مخالفة النفس مطلوبة ، قال الله عز وجل : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات : ٤٠ ـ ٤١] . وعن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « أخوف ما أخاف على أمتي اتباع الهوى ، وطول الأمل »[1] .

فأما اتباع الهوى فيصد عن الحق، قال تعالىٰ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الجاثية : ٢٣] . وقال : ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ [الكهف : ٢٨] . وقال : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص : ٢٦] . وأما طول الأمل فينسي صاحبه الآخرة .

---

(١) ذكرهُ ابن عدي في الكامل (٥/ ١٨٣١) .

ثم اعلم أن مخالفة النفس رأس العبادة .

سئل المشايخ عن الإسلام ، فقالوا : ذبح النفس بسيوف المخالفة .

ومن نجمت طوارق نفسه أفلت شوارق أنسه .

قال ذو النون المصري : مفتاح العبادة الفكرة ، وعلامة الإصابة مخالفة النفس والهوى ، ومخالفاتهما ترك شهواتهما .

وقال ابن عطاء : النفس مجبولة على سوء الأدب ، والعبد مأمور بملازمة الأدب ، والنفس تجري بطبعها في ميدان المخالفة ، والعبد يردها بجهده عن سوء المطالبة ، فمن أطلق عنانها فهو شريكها معها في فسادها .

قال الجنيد رحمه الله تعالىٰ : النفس الأمارة بالسوء هي الداعية للمهالك المعينة للأعداء المتهمة بأصناف الأسواء .

وقال أبو حفص الحدَّاد : من لم يتهم نفسه على دوام الأوقات ، ولم يخالفها في جميع الأحوال ، ولم يجرها إلى مكروهها في سائر أيامه ، كان مغروراً ، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها ، وكيف يصح لعاقل الرضا عن نفسه ، والكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام يقول : ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف : ٥٣] .

عيوب النفس :

عيوب النفس جليّة وخفيّة ، والنظر في الجليّة سهل قريب ، وإزالة الخفية ، والنظر فيها ، مشكل صعب ، فمنها الاعتماد على العمل ـ وإرادة غير ما أقيم فيه العبد ـ وحب التدبير مع الله تعالىٰ ـ والاستعجال في الدعاء ـ والتشكُّك في الوعد والوعيد ـ والاعتراض عند فوات المراد ـ وفقد الإخلاص ـ وحب الشهرة ـ وإيثار الخلطة ـ وانطباع الأكوان في مرآة القلب ـ واسترسال القلب في أودية الغفلة ـ وقلة المبالاة بالهفوة ـ والاحتجاب عن الحق برؤية الأكوان ـ وإرادة حكم الوقت ـ وإحالة العمل على الفراغ ـ وطلب حالة غير

التي هو فيها ـ والوقوف عندما يبدو من كشف ونحوه ـ والطلب منه ومن غيره ولغيره ـ ورؤية صفو الدنيا ـ وطلب الأشياء بالنفس ـ والرجوع لغير الله في البداية ـ والرجوع عنه في النهاية إلى غير ذلك .

واعلم أن مخالفة النفس وإرجاعها عن عيوبها دليله ثابت بالنقل ، وبدليل العقل ، إذ الخير كله في خلافها ، والشر كله في وفاقها ، فعلى المريد الجد وتشمير الساعد في رياضتها وقمع شهواتها .

قيل : أوحى الله إلى داود عليه السلام : يا داود حذّر أصحابك أكل الشهوات ، فإن النفس المتعلقة بشهوات الدنيا عقلها محجوب عني ، فمخالفة النفس والتجرُّد عن حظوظها رأس العبادة ، لأنها من أعظم حجاب بين العبد وربه ، إذ من طلعت طوارق نفسه غربت شوارق أنسه ، ومن رضي عن نفسه أهلكها ، وكيف يصح الرضا عنها ، وقد قال يوسف الصديق عليه السلام : ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ ﴾ [يوسف : ٥٣] .

والخلاصة : أن عيوب النفس لما كانت كثيرة ظاهرة وباطنة لزم عدّها تفصيلاً ، ليتحرز المكلف عن الوقوع فيها .

قال الجنيد : أرقت ليلة فقمت إلى وردي ، فلم أجد ما كنت أجده من الحلاوة والتلذُّذ بمناجاتي لربي ، فتحيَّرت ، فأردت أن أنام فلم أقدر ، فقعدت فلم أطق القعود ، ففتحت الباب وخرجت ، فإذا رجل ملتف في عباءة مطروح على الطريق ، فلما أحسَّ بي رفع رأسه ، وقال : يا أبا القاسم إلى الساعة ، فقلت : يا سيدي من غير موعد ؟ فقال : بلى ، قد سألت محرك القلوب أن يحرك لي قلبك ، فقلت : قد فعل ذلك ، فما هي حاجتك ؟ فقال : متى يصير داء النفس دواءها ؟ فقلت : إذا خالفت النفس هواها ، صار داؤها دواءها ، فأقبل على نفسه وقال : اسمعي فقد أجبتك بهذا الجواب سبع مرات ، فأبيت إلا أن تسمعيه من الجنيد ، وقد سمعتِ ، وانصرف عني ، ولم أعرفه ، ولم أقف عليه بعد .

وقال أبو بكر الطمستاني : النعمة العظمى : الخروج من النفس ، أي :

من مشتهياتها ، بالاشتغال بالطاعات ، لأن النفس أعظم حجاب بينك وبين الله تعالىٰ ، ولذا قال إبراهيم بن أدهم : على القلب ثلاثة أغطية : الفرح والحزن والسرور ، فإذا فرحت بالموجود ، فأنت حريص ، والحريص محروم ، وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط ، والساخط معذب ، وإذا سررت بالمدح فأنت معجب ، والمعجب محبط عمله .

وقال سهل بن عبد الله : ما عبد الله بشيء مثل مخالفة النفس والهوى .

سئل ابن عطاء عن أقرب شيء إلى مقت الله ، فقال : رؤية النفس ، ورؤية أحوالها ، وأشد من ذلك مطالعة الأعواض على أفعالها . قال إبراهيم الخواص : كنت في جبل اللكام بالشام ، فرأيت رماناً فاشتهيته ، فدنوت فأخذت منه واحدة ، فشققتها ، فوجدتها حامضة ، فمضيت ، وتركت الرمان ، فرأيت رجلاً مطروحاً قد اجتمع عليه الزنابير ، فقلت : السلام عليك . فقال : وعليك السلام يا إبراهيم ! فقلت له : وكيف عرفتني ؟ فقال : من عرف الله لا يخفى عليه شيء ، فقلت له : أرى لك حالاً مع الله تعالىٰ ، فلو سألته أن يحميك ، ويقيك الأذى من هذه الزنابير ، فقال : وأنا أرى لك حالاً مع الله تعالىٰ فلو سألته أن يقيك شهوة الرمان . فإن لدغ الرمان ، يجد ألمه في الآخرة ، ولدغ الزنابير يجد ألمه في الدنيا ، وألم الدنيا أهون من ألم الآخرة ، فتركته ، ومضيت .

قال السري : آفة العبد رضاه عن نفسه بما هو فيه ، لأن من رضي عنها فقد استحسن جميع ما يرد منها وكفى بذلك آفة ومصيبة .

وجّه عصام بن يوسف البلخي شيئاً إلى حاتم الأصم ، فقبله منه ، فقيل له : لم قبلته ؟ فقال : وجدت في أخذه ذلي وعزه ، وفي ردّه عزّي وذله ، فاخترت عزه على عزّي ، وذلي على ذله . وقيل لبعضهم : إني أريد أن أحج على التجريد ! فقيل له : جرّد أولاً قلبك عن السهو ! ونفسك عن اللهو ! ولسانك عن اللغو ، ثم اسلك حيث شئت ، فالتجريد ليس هو ما يعرفه أكثر الناس من مفارقة الأهل والكسب والمال فقط ، بل هو التخلِّي عما يخشى العبد

ضرره مطلقاً ، في دنياه وآخرته .

حكي أن بشراً الحافي جاءه جماعة من الشام وطلبوا منه أن يحج معهم ، فقال لهم : نعم ، ولكن بشروط ثلاثة : ألا نحمل معنا شيئاً ، ولا نسأل أحداً شيئاً ، ولا نقبل من أحد شيئاً . فقالوا : أما الأول والثاني فنقدر عليه ، وأما الثالث فلا نقدر عليه ، فقال لهم : أنتم الذين تحجّون متوكلين على زاد الحاج ؟.

وقال أبو سليمان الداراني : من أحسن في ليله كوفىء في نهاره ، ومن أحسن في نهاره كوفىء في ليله ، ومن صُدِّق في ترك شهوة كفي مؤنتها ، والله أكرم من أن يعذب قلباً ترك شهوة لأجله .

وأوحى الله سبحانه وتعالىٰ إلى داود عليه السلام : يا داود : حذّر وأنذر أصحابك أكل الشهوات ، فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة .

وقيل : لا تضع زمانك في يد الهوى فإنه يقودك إلى الظلمة .

وقال يوسف بن أسباط : لا يمحو الشهوات من القلب إلا خوف مزعج ، أو شوق مقلق .

وقال الخوّاص : من ترك شهوة فلم يجد عوضها في قلبه فهو كاذب في تركها .

وقال جعفر بن نصير : دفع إليّ الجنيد درهماً ، وقال : اشتر لي التين الوزيري ، فاشتريته له ، فلما أفطر أخذ واحدة ووضعها في فمه ، ثم ألقاها وبكى وقال : احمله فقلت له في ذلك ، فقال : هتف في قلبي ، أما تستحي شهوة تركتها من أجله ، ثم تعود إليها ، وأنشدوا :

نون الهوان من الهوى مسروقة   وأسير كل هوى صريع هوان

واعلم أن للنفس أخلاقاً ذميمة : فمن ذلك الحسد ، ولها أربعة أنواع ، الأمارة بالسوء ، واللوامة ، والملهمة ، والمطمئنة ، والراضية المرضية ،

والكاملة ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [يوسف : ٥٣] . ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة : ٢] . وقال : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ [الشمس : ٧ ـ ٨] . وقال : ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر : ٢٧ ـ ٢٨] . فالأمارة بالسوء نفس الكافر ، واللوامة نفس العصاة من المؤمنين ، والملهمة نفس عامة المؤمنين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، والمطمئنة نفس الأولياء والصديقين ، والنفس الكاملة نفوس الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

فمن الأخلاق المذمومة الحسد .

باب الحسد :

الحسد هو تمني زوال النعمة عن غيره ، سواء أراد رجوعها إليه ، أم لا ، وهو حرام : لأن فيه نسبة الظلم إلى الله تعالىٰ ، وهو من الكبائر ، وحكمه : التحريم . أما الحسد على معنى المنافسة ، فهو ينقسم إلى : مندوب ، ومكروه ، ومباح ، فإن تمنى مثل ما لغيره مما يقربه إلى ربه فهو مندوب ، وإن تمنى مثل ما لغيره مما كرهه الشارع أو أباحه ، كان حكمه كذلك ، من الكراهة ، أو الإباحة .

والحسد بمعنى تمني زوال النعمة عظيم إثمه عند الله ، قد هلك به كثير قديماً وحديثاً ، وبه هلك إبليس ، وجنوده من الكفار ، وحكمه : التحريم ، وسببه الاعتراض على فعل الحكيم ، وثمرته دوام الهمّ . وقال بعضهم : سببه كثرة الجهالات ، وقلة اليقين ، ودناءة الطبع وسوء الأدب ، وعدم القناعة بالمقسوم ، وعدم الرضا بقضاء الحكيم ، والبعد عن مقامات العبودية ، حتى كأنه ينازع أحكام الربوبية ، وينسب الظلم إلى الله في أحكامه في العبيد ، تعالىٰ الله عن ذلك علواً كبيراً ، فهو من الكبائر ، وعلى من قام بقلبه داء الحسد ، المبادرة إلى معالجته بالرجوع إلى معرفة النفس ، ووقوفه تحت قهر العبودية وتسليم الكائنات إلى حكمة المدبّر الحكيم ، فجميع المقدرات كائنة على

موجب إرادته تعالىٰ . ولا يعود شؤم الحسد إلا على من قام به ، أما في الدنيا فبالهم والغم ، وأما في الآخرة فبالعذاب الأليم ، ومرجع الحسد إلى رؤية تقديم النفس بشهود فضيلتها على الغير ، وربما جر ذلك إلى داء الكبر .

قال تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ [الفلق : ١] ، والفلق : الصبح . وقيل : كل ما يفلقه الله تعالىٰ كالأرض عن النبات ، والجبال عن العيون ، والسحاب عن الأمطار ، والحب والنوى عما يخرج منها ، وفي تعليق العياذ باسم الرب المضاف إلى الفلق ، عدة كريمة ، بإعاذة العائذ مما يعوذ منه ، وإنجائه منه ، فيزداد جده لقرع باب الالتجاء إليه سبحانه من شر ما خلق ، أي : من شر ما خلقه من الثقلين ، وغيرهم ، كائناً من كان ، ومن شر غاسق إذا وقب ، والغاسق الممتلىء . وإضافة الشر إلى الليل لملابسته له بحدوثه فيه ، فحدوث الشر في الليل أكثر منه في النهار ، ومن شر النفاثات في العقد ، أي : النساء السواحر اللاتي يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها ، ومن شر حاسد إذا حسد ، أي : أظهر ما في نفسه من الحسد ، وعمل بمقتضاه ، بترتيب مقدمات الشر ومبادىء الإضرار بالمحسود قولاً وفعلاً ، روي عنه ﷺ أنه قال : من قرأ المعوذتين فكأنما قرأ الكتب التي أنزلها الله تعالىٰ ، وشر الحسد يكون بتقدير الله تعالىٰ .

وقد ذكروا أن الشخص العائن ، إذا نظر إلى المعيون ، من غير طريق المتابعة مع الشره ، تنفصل من عينه أجزاء سمّيّة ، تتصل بالمعيون ، يحصل عندها الضرر بتقدير الله تعالىٰ ، عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ثلاث هن أصل كل خطيئة ، فاتقوهن واحذروهن : إياكم والكبر ، فإن إبليس حمله الكبر على ألا يسجد لآدم ، وإياكم والحرص ، فإن آدم حمله الحرص على أن أكل من الشجرة ، وإياكم والحسد ، فإن ابني آدم إنما قتل أحدهما صاحبه حسداً »[1] ، ولا يكاد ينجو منه أحد ، لخبر : ثلاث لا ينجو منهن أحد : الطيرة ، والظن أي : السيء ، والحسد ، وسأنبئكم بالمخرج :

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ، عن عبد الله بن مسعود .

إذا تطيَّرت فامض ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا حسدت فلا تبغ ، ومعنى ذلك : إذا تطيَّرت فامض ، أي : افعل الأمر الذي ظننت شؤمه بواسطة الطيرة ، وإذا ظننت فلا تحقق ، أي : فلا تعمل بمقتضى ما ظننته ، وإذا حسدت فلا تبغ ، أي : وإذا مالت نفسك للحسد بحسب طبعها الدنيء ، فقم عليها بشاهد العلم ، ولا تتجاوز ما أمرت به ونهيت عنه .

وقال بعضهم : الحاسد جاحد لأنه لا يرضى بقضاء الواحد ، لأنه تعالىٰ يريد إسباغ النعم على عبيده ، والحاسد يريد زوالها عنهم ، فهو لا يرضى بقضاء الواحد ، وقيل : الحسود لا يسود ، لا دنيا ولا أخرى ، ولا يثبت له سؤدد .

وقيل في قوله سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] هي معاصي القلب ، من حسد وغيره ، كالعجب ، والحقد ، وسوء الظن ، وقيل : أثر الحسد يتبين في الحاسد قبل أن يتبين في المحسود ، لأن الحاسد متألم في نفسه ، متنكد يظهر أثره فيه قبل ظهوره في المحسود ، بل قد لا يظهر أثره في المحسود أصلاً ، فتدوم النعم عليه ، وقال الأصمعي : رأيت أعرابياً عليه مئة وعشرون سنة ، فقلت له : ما أطول عمرك ؟ فقال : تركت الحسد فبقيت ، فترك الحسد من أسباب طول العمر ، لأنه لما خلا العمر عن أسباب الضعف ، فكأنه طال بوساطة دوام الصحة ولذة العافية .

وقال ابن المبارك : الحمد لله الذي لم يجعل قلب أميري ، ما جعله في قلب حاسدي .

وقال معاوية رضي الله عنه : كل إنسان أقدر على أن أرضيه ، إلا الحاسد ، فإنه لا يرضيه إلا زوال النعمة .

وقال عمر بن عبد العزيز : ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد ، غمٌّ دائم ، ونَفَس متتابع .

وقيل : من علامات الحاسد ، يتملَّق إذا شهد ويغتاب إذا حضر ، ويشمت بالمصيبة إذا نزلت .

فائدة للشفاء من الحسد : أن يلهم الإنسان التفكر فيما يعتقده ، بعلم الشريعة والعادة والعقل ، من أنه لا فاعل غيره تعالىٰ ، ولا مقدم ولا مؤخر سواه ، ولا تأثير لغيره في شيء أصلاً ، والالتفات إلى أنه معارض حكم ربه بجهله ، والتفكر فيما مضى له من الوقت على هذه الحالة من زيادة الآثام ، وعدم وصوله إلى شيء من المراد ، فبكل ذلك ربما يرجى له الشفاء من هذا الداء العضال .

وقيل : أوحى الله إلى سليمان بن داود عليهما السلام : أوصيك بسبعة أشياء : لا تغتابن صالح عبادي ، ولا تحسدن أحداً من عبادي . فقال سليمان عليه السلام : يا رب حسبي .

وقيل : رأى موسى عليه السلام رجلاً عند العرش ، فغبطه فقال : ما صفته ؟ فقيل : كان لا يحسد الناس على ما آتاهم من فضله .

تنبيه : من داء النفس حقدها على من آذاها ، وإرادة وقوع الضرر به ، والشماتة به عند ذلك ، وهكذا . وسببه جهلها بربها ، برؤية صدور الأفعال من غيره ، ومحبة استعجال الراحة للنفس ، والانتقام ممن وقع منه الأذى ، فإن القلب مصر على محبة الانتصار على الفور ، فيمنعه ذلك من شهود سوابق الأقدار ، فيبقى قلبه وهو مصر على تحصيل غرضه ، ودفع المدعى لنفسه ، وهذا معنى الحقد ، وعنه تكون الشماتة ، مع أن الفرح بوقوع البلاء بالمسلمين حرام ، بخلاف ما إذا تمنى الإنسان أن يأخذ الله له حقه ممّن ظلمه ، على وجه القصاص ، فإنه جائز .

واعلم أن دواء الحقد : هو بالالتفات إلى أن إضمار الحقد والسوء للغير معصية ناجزة ، وهو لا يدري أيحصل ما أضمره للغير أو لا ، وأيضاً فالخلق قد أمروا بالتحابب والمودة ، والحقدُ والعداوة ضدّ ذلك ، مع أنه عذاب للنفس ناجز ، ودوام غم وهم ، مع عدم الفائدة في ذلك عاجلاً وآجلاً .

(**فائدة**) اعلم أن الدنيا منها محمود ، ومنها مذموم ، فما أخذ من الدنيا حلالاً مكاثراً مفاخراً ، لقي الله وهو عليه غضبان ، ومن طلبها استعفافاً عن

المسألة وصيانة لنفسه ، جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر .

ومعصية الحسد تجمع معاص : كالممالقة ، وهي من المداهنة والغيبة ، والشماتة ، والكبر .

وشؤم الحسد يقع بالحاسد ، فالحاسد إذا رأى على محسوده نعمة بهت ، وإذا رأى عثرة شمت .

وقيل : إن أردت أن تسلم من الحاسد فلبّس عليه أمرك .

وقيل : إياك أن تتغنى في مودة من يحسدك ، فإنه لا يقبل إحسانك قبولاً يزول به حسده لك ، فيضيع تعبك .

وقيل : إذا أراد الله أن يسلط على عبده عدواً ، سلّط عليه حاسده ، وأنشدوا :

حسبك من حادث بامرىء ترى حاسديه له راحمينا

وأنشدوا أيضاً :

كل العداوة قد ترجى إماتتها إلا عداوة من عاداك من حسد

وقال ابن المعتز :

قل للحسود إذا تنفس طعنةً[1] يا ظالماً وكأنه مظلوم

وأنشدوا أيضاً :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

ومن الأخلاق المذمومة اعتياد الغيبة .

باب الغيبة :

من كبائر الذنوب ، ومن أقبح الكبائر ، لما ورد فيها من الوعيد الشديد ، وسبب في إتلاف ثمرة العمل بالطاعة ، وتكون غالباً من حسد المغتاب .

---

(١) أي رزقك الله طعنة في قلبك .

وسببها : الجهل ، والغفلة ، والظلم ، وعمى البصيرة ، وعدم الالتفات إلى عظمة الله تعالىٰ ، وعظمة أسمائه وصفاته ، وإلا فلو عرف نفسه وربه ، لاستحيا من الله تعالىٰ أن يكون غافلاً عنه في وقت من الأوقات ، ولحظة من اللحظات ، فإن جميع الكائنات ، قيامها ، وتدبيرها ، وإيجادها ، وإمدادها بالله تعالىٰ .

والغيبة : ذكر الإنسان ، بما فيه مما يكره ، سواء كان في بدنه ، أم دينه ، أم دنياه ، وسواء ذكرته بلفظك ، أم بكتابك ، أم رمزت به ، أم أشرت إليه بعينك أم بغيرها ، وهذا خلق أهل زماننا في وقت مسامراتهم ، وكأن ذلك عندهم من المباحات ، وقد تطرّق إلى ذلك الخاصّة .

والغيبة محرمة إلا لأمور ، مثل التجاهر بالمعاصي ، بشرط أن يكون بعين ما تجاهر به ، زجراً له عن ذلك ، وبقصد وجه الله تعالىٰ بالإنكار عليه ، لا لحظ النفس ، وبشرط أمن الفتنة في الإنكار ، وعلم أنها تثمر ترك المعصية من ذلك المتجاهر ، وألا يكون ذلك على رؤوس الأشهاد ، إن أفاد الإنكار في السر ، مع من تجاهر بالمعصية ، دون حضور أحد .

قال الله سبحانه : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [الحجرات : ١٢] أي : لا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيبته .

وسئل ﷺ عن الغيبة فقال : « أن تذكر أخاك بما يكره ، فإن كان فيه فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته »(١) . وعن ابن عباس رضي الله عنهما : الغيبة إدام كلاب الناس . عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قام ، وهو مع رسول الله ﷺ قبل ذلك جالس ، فقال بعض القوم : ما أعجز فلاناً ! فقال ﷺ : « أكلتم أخاكم ـ أي : لحمه ـ واغتبتموه »(٢) . وأوحى الله إلى موسى عليه السلام : من مات تائباً من الغيبة ، فهو آخر من يدخل الجنة ، ومن مات مصراً عليها فهو أول من يدخل النار .

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٧٧) والبزار ، وابن أبي الدنيا في الصمت (١٧٣) .

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده ، والطبراني .

وقال عوف : دخلت على ابن سيرين فتناولت الحَجَّاج ، أي : اغتبته . فقال ابن سيرين : إن الله سبحانه وتعالىٰ حكم عدل ، فكما يأخذ الحق من الحَجَّاج لمن ظلمه ، يأخذه للحَجَّاج ممن اغتابه ، وإنك إذا لقيت الله غداً ، كان أصغر ذنب أذنبته ، أشد عليك من أعظم ذنب أصابه الحَجَّاج ، فالأولى لكل أحد أن يشتغل بنفسه ، وإن عظمت ذنوب غيره ، فإنه إنما يطالب بجرمه وإن قلّ ، لا بجرم غيره وإن كثر .

وقيل : دعي إبراهيم بن أدهم إلى دعوة ، فحضر ، فذكروا رجلاً لم يأتهم ، فقالوا : إنه ثقيل . فقال إبراهيم : إنما فعل بي هذا نفسي ، حيث حضرت موضعاً يغتاب فيه الناس ، فخرج ولم يأكل ثلاثة أيام ، ففيه دلالة على أن من حضر الغيبة ، ورضي بها ، كان شريكاً فيها . ولما فرّط إبراهيم في الحضور مع من لا يحترز عنها ، أدّب نفسه بالجوع ثلاثة أيام ، وقام ولم يأكل .

وقيل : مثل الذي يغتاب الناس ، كمثل من نصب منجنيقاً ، يرمي به حسناته ، شرقاً وغرباً ، فيقوم ولا شيء .

وقيل : يؤتى العبد يوم القيامة كتابه ، فلا يرى فيه حسنة ، فيقول : أين صلاتي ؟ وصيامي ؟ وطاعتي ؟ فيقال : ذهب عملك باغتيابك الناس ، وقيل : من اغتيب بغيبة ، غفر الله له نصف ذنوبه .

وقال سفيان بن الحسن : كنت جالساً عند إياس بن معاوية ، فنلت من إنسان (اغتبته) فقال لي : هل غزوت في هذا العام الترك والروم ؟ فقلت : لا . فقال : سلم منك الترك والروم ، وما سلم منك أخوك المسلم ، إرشاد إلى تغيير المنكر على الفور .

وقيل : يعطى الرجل كتابه فيرى فيه حسنات لم يعملها ، فيقال له : هذا بما اغتابك الناس ، وأنت لم تشعر ، ففيه إشارة إلى أن حسنات المغتاب تنقل إلى صحيفة من اغتيب .

وسئل سفيان الثوري عن قوله ﷺ : إن الله يبغض أهل البيت اللّحميين ،

أي : كثيري اللحم ، فقيل : من هم ؟ فقال : هم الذين يغتابون الناس ، فكأنهم يأكلون لحومهم .

وذكرت الغيبة عند ابن المبارك فقال : لو كنت مغتاباً أحداً لاغتبت والديّ ، لأنهما أحق بحسناتي .

وقال يحيى بن معاذ : ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال : إن لم تنفعه فلا تضره ، وإن لم تسرّه فلا تغمّه ، وإن لم تمدحه فلا تذمه .

وقيل للحسن البصري : إن فلاناً اغتابك فبعث إليه طبق حلو ، وقال : بلغني أنك أهديت إليّ حسناتك ! فكافأتك . وبعضهم فعل أتمّ من ذلك فلم يرض أن يكافئه بالعفو عنه ، بل سأل الله له المغفرة ، ليتخلّص من ذنبه ، ويغيظ عدوه الشيطان .

عن أنس بن مالك قال : قال رسولُ الله ﷺ : « من ألقىٰ جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له »[1] لأنه كشف ستر نفسه .

قال الجنيد : كنت جالساً في مسجد الشونيزية أنتظر جنازة أصلي عليها ، وأهل بغداد على طبقاتهم جلوس ينتظرون الجنازة ، فرأيت فقيراً عليه أثر النسك يسأل الناس ، فقلت في نفسي لو عمل هذا عملاً يصون به نفسه كان أجمل به ، فلما انصرفت إلى منزلي ، وكان لي شيء من الورد بالليل ، حتى البكاء والصلاة وغير ذلك ، فثقل عليّ جميع أورادي ، فسهرت وأنا قاعد ، فغلبتني عيناي فرأيت ذلك الفقير جاؤوا به على خِوان ممدود ، وقالوا لي : كل لحمه ! فقد اغتبته ، وكشف لي عن الحال ، فقلت : ما اغتبته إنما قلت في نفسي شيئاً ، فقيل لي : ما أنت ممن يرضى منك بمثله ، اذهب فاستحلّه ، فلم أزل حتى أتردد حتى رأيته في موضع ، فسلمت عليه ، فقال لي : يا أبا القاسم تعود . فقلت له : لا أعود ، فقال : غفر الله لنا ولك .

نقل عن أبي جعفر البلخي أنه قال : كان عندنا شاب من أهل بلخ ، وكان

---

(١) رواه البيهقي في الشعب ، بسند ضعيف .

يجتهد ويتعبد ، إلا أنه أبداً كان يغتاب الناس ، ويقول : فلان كذا ، وفلان كذا ، فرأيته يوماً عند المخنثين الغسَّالين للثياب ، خرج من عندهم ، فقلت له : يا فلان ما حالك ؟ أي : ما سبب ما أنت فيه من هذا الحال ؟ فقال : تلك الوقيعة في الناس أوقعتني في بلية ، فقد ابتليت بمخنث ، وأنا هو ذا أخدمهم من أجله ، وتلك الأحوال والمقامات ذهبت ، فادع الله لعله يرحمني .

* * * *

(١٤) باب القناعة

القناعة : هي الاكتفاء بما تندفع به الحاجة من مأكل وملبس وغيرهما ، وهي ممدوحة ومطلوبة ، قال تعالىٰ : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧] قال كثير من أهل التفسير : الحياة الطيبة في الدنيا : القناعة . وعن جابر بن عبد الله قال : قال رسولُ الله ﷺ : « القناعة كنز لا يفنى »[١] لأنها تثمر سكون القلب لمرادات الرب ، وتقطع عن الشواغل الدنيوية ، وتحمل على علو الهمة ، وقال ﷺ : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »[٢] أي : ما لا حاجة له به ، وقال ﷺ : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً »[٣] .

وثمرة القناعة في الدنيا السلامة من المطالبة بالحقوق ، وما يتبعها من التعب ، وفي الآخرة السلامة من طول الحساب ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله ﷺ : « كن ورعاً تكن أعبد الناس ، وكن قنعاً تكن أشد الناس ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً ، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً ، وأقل الضحك ، فإن كثرة الضحك تميت القلب »[٤] . جمع رسول الله ﷺ في هذا الخبر الشريف سبل الرشاد ديناً ودنيا ، بأوجز عبارة ، وألطف إشارة ، فسبحان من خصَّه بجوامع الكلم ، والشكر ضامن لثلاثة أشياء : ضبط النعم عن الزوال ، وتغيّر الحال بالانتقال ، وزيادتها في الحال ، وبركتها في المآل ، واتصاف العبد بمولاه على وجه العافية بلا

---

(١) أخرجه البيهقي في الزهد (١٠٤) وذكره المنذري في الترغيب (١٢٢٣) وقال : رفعه غريب .

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٢/٩٠٣) والترمذي (٢٣١٧) .

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٦٠) ومسلم (١٠٥٥) والترمذي (٢٣٦١) .

(٤) أخرجه البيهقي في الشعب ، بسند ضعيف .

إخلال ، قالت الحكماء : الشكر قيد الموجود وصيد المفقود ، وقالوا أيضاً : من لم يشكر النعم سلبها من حيث لا يعلم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] . وفي ذلك أنشدوا :

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم
وداوم عليها بشكر الإله ... فإن الإله سريع النقم
إذا تم شيء بدا نقصه ... توقع زوالًا إذا قيل تم

الفقراء أموات إلا من أحياه الله بعز القناعة .

وقال بشر الحافي : القناعة : ملك لا يسكن إلا في قلب مؤمن .

وقال الداراني : القناعة من الرضا بمنزلة الورع من الزهد ، هذا أول الرضا ، وهذا الورع أول الزهد .

وقيل : القناعة : السكون عند عدم المألوفات .

وقال أبو بكر المراغي : العاقل من دبر أمر الدنيا بالقناعة والتسويف ، وأمر الآخرة بالحرص والتعجيل ، وأمر الدين بالعلم والاجتهاد . وقال أبو عبد الله بن خفيف : القناعة ترك التشوُّف إلى المفقود ، والاستغناء بالموجود . وقيل في معنى قوله تعالىٰ : ﴿ لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ [الحج : ٥٨] يعني القناعة .

وقال محمد بن علي الترمذي : القناعة رضا النفس بما قسم لهم من الرزق ، ويقال : القناعة الاكتفاء بالموجود وزوال الطمع فيما ليس بجاهل ، وقال وهب : إن العز والغنى خرجا يجولان ، أي : يطلبان رفيقاً ، فلقيا القناعة فاستقرا ؛ وقيل : من كانت قناعته سمينة طابت له كل مرقة .

وقيل : مر أبو حازم بقصَّاب معه لحم سمين ، فقال : خذ يا أبا حازم فإنه سمين ، فقال : ليس معي درهم ، فقال : أنا أنظرك . فقال : نفسي أحسن نَظِرة لي منك . وقيل لبعضهم : من أقنع الناس ؟ فقيل : أكثرهم للناس

معونة ، وأقلهم عليهم مؤنة ، وفي الزبور : القانع غني وإن كان جائعاً .

وقيل : وضع الله خمسة أشياء في خمسة مواضع : العز في الطاعة ، والذل في المعصية ، والهيبة في قيام الليل ، والحكمة في البطن الخالي ، والغنى في القناعة .

وقال إبراهيم المارستاني : انتقم من حرصك بالقناعة ، كما تنتقم من عدوك بالقصاص .

وقال ذو النون المصري : من قنع استراح من أهل زمانه ، واستطال على أقرانه .

وقيل : من قنع استراح من الشغل ، واستطال على الكل .

وقال الكتاني : من باع الحرص بالقناعة ظفر بالعز والمروءة ، وأنشدوا :

وأحسن بالفتى من يوم عار ينال به الغنى كرم وجوع

والمعنى يكون العبد جائعاً كريم النفس عن الحرص والشره ، أحسن من يوم يكون فيه ذا عار وذل لينال بذلك الغنى ، وقيل : العقاب عزيز في مطاره لا يسمو إليه طرف صياد ولا طمعه ، فإذا طمع العقاب في جيفة علقت على حبالة (شبكة يصاد بها) ، نزل من مطاره فتعلق في حباله .

وقيل : لما نطق موسى عليه السلام بذكر الطمع فقال : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ [الكهف : ٧٧] قال له الخضر : ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ [الكهف : ٧٨] .

وقيل : لما قال موسى عليه السلام ذلك ، وقف بين يدي موسى والخضر عليهما السلام ظبي وكانا جائعين ، الجانب الذي يلي موسى عليه السلام غير مشويّ ، والجانب الذي يلي الخضر مشوي .

وقيل : في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ [الانفطار : ١٣] : هو القناعة في الدنيا ، ﴿ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار : ١٤] : هو الحرص في الدنيا ، وقيل في قوله : ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ [البلد : ١٣] أي : فكها من ذل الطمع ، ويطهّركم تطهيراً : بالسخاء والإيثار .

وقيل : في قوله تعالىٰ : ﴿ وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِيٓ ﴾ [ص : ٣٥] أي : مقاماً في القناعة ، أنفرد فيه من بين أشكالي ، وأكون راضياً فيه بقضائك وقدرك ، وقيل في قوله تعالىٰ : ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ [النمل : ٢١] يعني لأسلبنه القناعة ، ولأبتلينه بالطمع ، يعني أسأل الله تعالىٰ أن يفعل به ذلك . وقيل لأبي يزيد : بم وصلت إلى ما وصلت ؟ فقال : جمعت أسباب الدنيا فربطتها بحبل القناعة ، ووضعتها في منجنيق الصدق ، ورميت بها في بحر اليأس ، فاسترحت من تعبها ، ووصلت إلى ربي . أي : دام به شغلي دون غيره .

قال محمد بن فرحان بسامراء : كنت جالساً عند الجنيد أيام الموسم ، وحوله جماعة كثيرون من العجم ، فجاء إنسان بخمسمئة دينار ووضعها بين يديه ، وقال : تفرقها على هؤلاء الفقراء ، فقال : ألك غيرها ؟ قال : نعم لي دنانير كثيرة ، فقال : أتريد غير ما تملك ؟ فقال : نعم . فقال له الجنيد : خذها فإنك أحوج إليها منا ، ولم يقبلها .

❊ ❊ ❊ ❊

(١٥) باب التوكل

التوكل هو الاعتماد على الله تعالىٰ ، وقطع النظر عن الأسباب مع تهيئتها ، ولهذا قال ﷺ : « اعقل وتوكل »[1] ويقال : التوكل : كِلَةُ الأمر كله إلى مالكه ، والتعويل على وكالته ، عملاً بقوله تعالىٰ : ﴿ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل : ٩] والتوكل ممدوح ومطلوب ، قال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق : ٣] أي : كافية ، وقال تعالىٰ : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [إبراهيم : ١١] ، فالتوكل من لوازم الإيمان ، فينتفي بانتفائه ، إذ الإيمان هو التوحيد ، ومن اعتمد على غير الله لم يوحّده بالحقيقة ، وإن وحّده باللسان . وثمرة التوكل : كفاية الله عبده كل مهم ديني ودنيوي .

حكي أن سيدنا موسى على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام ، انتهى ذات يوم بأغنامه إلى دار كثيرة الذئاب ، وكان قد بلغ به التعب ، فبقي متحيِّراً إلا اشتغل بحفظ الأغنام عجز عن ذلك لغلبة النوم عليه وشدة التعب ، وإن طلب الراحة والسكون ربما تعدَّى الذئب على غنمه ، فرمق بطرفه إلى السماء وقال : أحاط علمك ، ونفذت إرادتك ، وسبق تقديرك ، ثم وضع رأسه ونام ، فلما استيقظ وجد ذئباً واضعاً عصاه على عاتقه ، وهو يرعى الأغنام ، فتعجب موسى من ذلك فأوحى الله إليه : يا موسى كن كما أريد أكن لك كما تريد .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أريت الأمم بالموسم فرأيت أمتي قد ملئوا السهل والجبل ، فأعجبني كثرتهم ، وهيئتهم ، فقيل لي أرضيت ؟ قلت : نعم قال : ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ، لا يكتوون ، ولا يتطيَّرون ، ولا يسترقون ، وعلى ربهم

---

(١) أخرجه الترمذي في القيامة (٢٥١٧) وابن حبان (٢٥٤٩) موارد .

يتوكلون ، فقام عكاشة بن محصن الأسدي فقال : يا رسول الله ! ادع الله أن يجعلني منهم . فقال رسول الله ﷺ : « اللهم اجعله منهم » ، فقام آخر فقال : ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال رسول الله ﷺ : « سبقك بها عكاشة »[١] .

فقوله لا يكتوون ، أي : لغير حاجة ، ولا يفعلونه معتمدين عليه ، بل يرجعون فيه ، وفي غيره إلى خالق الأسباب ، وإذا دعا له داع لا يضر ولا يخرج عن التوكل ، فليس المراد : بلا يكتوون النهي عن التداوي بالكيِّ أو بغيره ، بل عن الاعتماد على شيء سواه تعالىٰ ، فالتوكل هو الاعتماد على الخالق، دون رؤية الخلائق ، فلا يمنع الأخذ بالأسباب شهود الملك الوهاب.

وقال سهل : علامة المتوكل ثلاثة : لا يسأل حاجته أحداً من خلق الله إلا عند الضرورة ، لأن السؤال ذلّ ، ولا يرد شيئاً أعطيه بلا سؤال ، ولا يحبس ما حصل في يده خوفاً من تغير المقسوم له ، لمنافاته التوكل . وقال سهل : أول مقام في التوكل ، أن يكون العبد بين يدي الله تعالىٰ كالميت بين يدي الغاسل ، يقلبه كيف أراد ، لا يكون له حركة ولا تدبير ، لأن من وثق بكريم واعتمد عليه سكنت له نفسه ، وكان معه كالميت لا حياة به ولا حركة ، واستراح قلبه من هم التقدير والاختيار ، إلا ما أمره به ربه ونهاه عنه .

سئل حاتم الأصم من أين تأكل ؟ فقال : ولله خزائن السماوات والأرض ، ولكن المنافقين لا يفقهون .

والتوكل محله القلب ، والحركة بالظاهر لا تنافي توكل القلب ، بعد ما تحقق العبد أن التقدير للأشياء من قبل الله تعالىٰ ، فإن تعسر شيء على عبده فبتقديره تعالىٰ ، وإن اتفق شيء فبتيسيره .

عن أنس بن مالك قال : جاء رجل على ناقة له ، فقال : يا رسول الله ! أدعها وأتوكل ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « اعقلها وتوكل »[٢] . فيه دلالة

---

(١) أخرجه البخاري (٧/ ١٧٤) ومسلم في الإيمان (٩٤) .

(٢) سبق تخريجه ص٢٤٣ .

على أن التسبب لكونه مثل الجارحة لا ينافي التوكل لكونه فعل القلب ، بل قد يجد التسبب .

وقال إبراهيم الخواص : من صحَّ توكله على الله في نفسه صحَّ توكله عليه في غيره ، لأن العبد إذا عرف عجزه ، وأن أفعاله كلها مخلوقة لله اطرّد له ذلك في سائر الخلق ، لأنهم مثله في العجز والخلقة .

وقال بشر الحافي : يقول أحدهم : توكلت على الله تعالىٰ وهو يكذب على الله تعالىٰ ، إذ لو توكل على الله لرضي بما يفعل الله به ، لأن الرضا بذلك من ثمرات التوكل .

وسئل يحيى بن معاذ متى يكون الرجل متوكلاً ؟ فقال : إذا رضي بالله تعالىٰ وكيلاً .

سئل ابن عطاء عن حقيقة التوكل فقال : أن لا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب مع شدة فاقتك إليها ، ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها .

وقال النهرجوري : التوكل على كمال الحقيقة ما وقع لإبراهيم عليه السلام في الوقت الذي قال لجبريل عليه السلام : أما إليك فلا ، لأنه غابت نفسه بالله تعالىٰ فلم ير مع الله غير الله .

وقال ذو النون المصري وقد سأله رجل عن التوكل فقال : خلع الأرباب وقطع الأسباب ، فقال له السائل : زدني فقال : إلقاء النفس في العبودية وإخراجها من الربوبية .

وقال حمدون ، وقد سئل عن التوكل فقال : إنه كان لك عشرة آلاف درهم وعليك دانق دين ، لم تأمن أن تموت ويبقى ذلك في عنقك ، ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين ، مع غير أن تترك لها وفاء لا تيأس من الله تعالىٰ أن يقضيه عنك .

وسئل أبو عبد الله القرشي عن التوكل ، فقال : التعلُّق بالله في كل حال ،

فقال السائل : زدني فقال : ترك الاعتماد على كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو المتولي لذلك .

وقال سهل بن عبد الله : التوكل حال النبي ﷺ ، والكسب سنته ، فما بقي على حاله فلا يتركن سنته . وقيل : التوكل أن يستوي عندك الإكثار والتقلل .

وقال ابن مسروق : التوكل الاستسلام لجريان القضاء والأحكام .

وقيل : التوكل الاكتفاء بالله مع الاعتماد عليه ، وقال إبراهيم الخواص : لقيني الخضر عليه السلام فسألني الصحبة ، فخشيت أن يفسد علي توكلي لسكوني إليه ففارقته .

وسئل سهل بن عبد الله عن التوكل فقال : هو قلب عاش مع الله تعالىٰ بلا علاقة .

وقال الدقاق : للمتوكل ثلاث درجات : التوكل ، ثم التسليم ، ثم التفويض ، فالمتوكل يسكن إلى وعده ، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه ، وصاحب التفويض يرضى بحكمه .

وقال يحيى بن معاذ : لبس الصوف حانوت ، والكلام في الزهد حرفة ، وصحبة القوافل تعرّض ، وهذه كلها علاقات .

وجاء رجل إلى الشبلي يشكو كثرة العيال ، فقال : ارجع إلى بيتك ، فمن ليس رزقه على الله تعالىٰ فاطرده عنك .

وقال سهل : من طعن في الحركة ، أي : الكسب ، فقد طعن في السنة ، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان .

وكان إبراهيم الخوّاص مجرّداً في التوكل يدقق فيه ، ومع ذلك كان لا يفارقه إبرة ، وخيوط ، وركوة ، ومقراض ، فقيل له : يا أبا إسحاق لم تحمل هذا وأنت تمتنع من كل شيء من الأسباب ؟ فقال : مثل هذا لا ينقض التوكل ، لأن لله سبحانه وتعالىٰ علينا فرائض ، والفقير لا يكون عليه إلا ثوب واحد ، فربما يتخرّق ثوبه ، فإذا لم يكن معه إبرة وخيوط تبدو عورته ، فتفسد

عليه صلاته ، وإذا لم يكن معه ركوة تفسد عليه طهارته ، فإذا رأيت الفقير بلا ركوة ولا إبرة ولا خيوط فاتهمه في كمال صلاته .

وقال الدقاق : التوكل صفة المؤمنين ، والتسليم صفة الأولياء ، والتفويض صفة الموحدين ، فالتوكل صفة العوام ، والتسليم صفة الخواص ، والتفويض صفة خواص الخواص . فالمتوكل يرى السبب ويعتمد على الله في أموره ، والولي مسلم إلى الله في سائر أموره ، والموحد صارت نفسه محلاً لجريان قدرة الله تعالىٰ فيه لكمال تفويضه ، وقال : التوكل صفة الأنبياء جميعهم ، والتسليم صفة إبراهيم عليه السلام ، والتفويض صفة نبينا محمد ﷺ .

ورأى أبو سليمان الداراني بمكة رجلاً ، لا يتناول شيئاً إلا شربة من ماء زمزم ، فمضى عليه أيام ، فقال له أبو سليمان يوماً : أرأيت لو غارت زمزم أي : شيء كنت تشرب ؟ فقام وقبّل رأسه وقال : جزاك الله خيراً حيث أرشدتني ، فإني كنت أعبد زمزم منذ أيام ، ومضى .

وقال إبراهيم الخوّاص : رأيت في طريق الشام شاباً حدثاً حسن المراعاة ، فقال لي : هل لك في الصحبة ؟ فقلت : إني أجوع ، فقال الشاب : إن جعت جعت معك ، فبقينا أربعة أيام ، ففتح علينا بشيء . فقلت : هلم فقال : اعتقدت ألا آخذ بواسطة فقلت : يا غلام ! وفقت . فقال لإبراهيم : لا تتبهرج فإن الناقد بصير ، مالك والتوكل ؟ ثم قال : أقل التوكل أن ترد عليك موارد الفاقات ، فلا تسمو نفسك إلا إلى من إليه الكفايات .

وقيل : التوكل نفي الشكوك ، والتفويض إلى مالك الملوك . دخل جماعة على الجنيد رحمه الله فقالوا : أين نطلب الرزق ؟ فقال : إن علمتم في أي : موضع هو فاطلبوه منه ، قالوا : فنسأل الله تعالىٰ ذلك ! فقال : إن علمتم أنه ينساكم فذكّروه ! فقالوا : ندخل البيت فنتوكل ؟ فقال : التجربة شك ! قالوا : فيما الحيلة ؟ قال : ترك الحيلة .

وقال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الحواري : يا أحمد ! إن طرق

الآخرة كثيرة ، وشيخك عارف بكثير منها ، إلا هذا التوكل المبارك ، فإني ما شممت منه رائحة .

وقيل : التوكل الثقة بما في يدي الله تعالىٰ واليأس عما في أيدي الناس .

وقيل : التوكل فراغ السر عن التفكر في التقاضي في طلب الرزق .

وسئل المحاسبي عن المتوكل هل يلحقه طمع ؟ فقال : يلحقه من طريق الطباع خطرات ، ولا تضره شيئاً ، ويقويه على إسقاط الطمع اليأس مما في أيدي الناس .

وقيل : جاع النوري في البادية عشرة أيام ، فهتف به هاتف : أي أحب إليك سبب أو كفاية ؟ فقال : الكفاية التي ليس فوقها نهاية ، فبقي سبعة عشر يوماً لم يأكل .

وأعظم فوائد التوكل سلامة المتوكل من نزغات الشيطان ، لقوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦٥] .

قال الحسن الخياط : كنت عند بشر الحافي ، فجاء نفر فسلموا عليه ، فقال : من أين أنتم ؟ فقالوا : من الشام ، جئنا لنسلم عليك ، ونريد الحج ، فقال : شكر الله لكم فقالوا : تخرج معنا ؟ فقال : بثلاث شرائط : لا نحمل معنا شيئاً ، ولا نسأل أحداً شيئاً وإن أعطانا أحد شيئاً لا نقبله ، فقالوا : أما أن لا نحمل فنعم ، وأما لا نسأل فنعم ، وأما ألا نقبل إذا أعطينا فهذا لا نستطيعه ، فقال : خرجتم متوكلين على زاد الحجيج . ثم قال لي بشر : يا حسن : الفقراء ثلاثة : فقير لا يسأل ، وإن أعطي لا يأخذ ، فذاك من جملة الروحانيين . وفقير لا يسأل وإن أعطي قبل ، فذاك مما يوضع لهم موائد في حظائر القدس ، وفقير يسأل وإن أعطي قبل قدر الكفاية فكفارته صدقة .

وقيل لحبيب العجمي لم تركت التجارة ؟ فقال : وجدت الكفيل ثقة .

وقال عبد الله بن المبارك : من أخذ فلساً من حرام فليس بمتوكل .

قال أبو حمزة الخراساني : حججت سنة من السنين ، فبينا أنا أمشي في

الطريق إذ وقعت في بئر ، فنازعتني نفسي أن أستغيث ، فقلت : لا والله لا أستغيث فما استتمت هذا الخاطر ، حتى مر برأس البئر رجلان ، فقال أحدهما للآخر : تعال نسد رأس هذا البئر لئلا يقع فيها أحد ، فأتيا بقصب ، وما ينسج من قصب ، وطمّا رأس البئر ، فهممت أن أصيح ، ثم قلت في نفسي ، أصيح إلى من هو أقرب إليّ منهما ، وسكت ، فبينا أنا بعد ساعة ، إذا أنا بشيء جاء وكشف عن رأس البئر ، وأدلى رجله وكأنه يقول تعلّق بي في همهمة له ، كنت أعرف ذلك منه ، فتعلّقت به ، فأخرجني ، فإذا هو سبع ، فمر ، وهتف بي هاتف ، يا أبا حمزة ! أليس هذا أحسن ، نجيناك بالتلف من التلف ، فمشيت وأنا أقول :

نهاني حيائي منك أن أكتم الهوى ... وأغنيتني بالفهم منك عن الكشف
تلطفت في أمري فأبديت شاهدي ... إلى غائبي واللطف يدرك باللطف
تراءيتَ لي بالغيب حتى كأنما ... تبشرني في الغيب أنك في الكف
أراك وفي هيبتي لك وحشة ... فتؤنسني باللطف منك وبالعطف
وتحيي صحباً أنت في الحب حتفه ... وذا عجب كون الحياة مع الحتف

وخلاصة الأبيات أن الله يري العبد من عجائب قدرته ، ولطفه ما يغنيه عن فكره وكشفه .

وقال حذيفة المرعشي : وكان خدم إبراهيم بن أدهم ، وصحبه ، فقيل له : ما أعجب ما رأيت منه ؟ فقال : بقينا في طريق مكة أياماً ، لم نجد طعاماً نأكله ، ثم دخلنا الكوفة فدخلنا مسجداً فنظر إليّ إبراهيم بن أدهم وقال : يا حذيفة أرى بك أثر الجوع ، قلت : هو ما رأى الشيخ ، فقال : علي بدواة وقرطاس ، فجئت به ، فكتب بسم الله الرحمن الرحيم أنت المقصود إليك بكل حال والمشار إليه بكل معنى .

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر ... أنا جائع أنا قانع أنا عاري
هي ستة وأنا الضمين لنصفها ... فكن الضمين لنصفها يا باري
مدحي لغيرك لهبَ نار خضتها ... فأجر عُبيدَك من دخول النار

ثم دفع الرقعة وقال : اخرج ولا تعلّق قلبك بغير الله ، وادفع الرقعة إلى أوّل من يلقاك . قال : فخرجت ، فأول شخص لقيته كان على بغلة ، فأخذ مني الرقعة وبكى ، وقال : ما فعل صاحب هذه الرقعة ؟ فقلت : في المسجد الفلاني ، فدفع إليّ صرة فيها ستمئة دينار ، ثم لقيت رجلاً آخر فقلت له : من صاحب هذه البغلة ؟ فقال لي : هو نصراني . فجئت إلى إبراهيم بن أدهم فأخبرته بالقصة فقال : لا تمسها فإنه يجيء الساعة ، فلما كان بعد ساعة وافى النصراني وأكبّ على رأس إبراهيم بن أدهم وأسلم .

* * * *

(١٦) باب الشكر

قال الله تعالىٰ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] . وقال : ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ [سبأ : ١٣] . وقال : ﴿ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ [لقمان : ١٤] . وقال : ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ﴾ [سبأ : ١٥] .

وعن عطاء قال : دخلت على عائشة رضي الله عنها مع عبيد بن عمير فقلت : أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ ؟ فبكت وقالت : وأي شأنه لم يكن عجباً ؟ إنه أتاني في ليلة فدخل معي في فراشي ، أو قالت في لحافي ، حتى مسّ جلدي جلده ، ثم قال : « يا بنت أبي بكر ذريني أتعبد لربي » ، قالت : قلت : إني أحب قربك ، فأذنت له ، فقام إلى قربة من ماء فتوضأ ، فأتم الوضوء ، ثم قام يصلي فبكى ، حتى سالت دموعه على صدره ، ثم ركع فبكى ، ثم سجد فبكى ، ثم رفع رأسه فبكى ، فلم يزل كذلك حتى جاء بلال ، فآذنه بالصلاة ، فقلت له : يا رسول الله ! ما يبكيك ؟ وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : « أفلا أكون عبداً شكوراً ! ولم لا أفعل وقد أنزل الله عليّ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ [آل عمران : ١٩٠] الآية »[١] .

وحقيقة الشكر عند أهل التحقيق ، الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع ، وعلى هذا القول يوصف الحق بأنه شكور ، توسعاً لا حقيقة ، ومعناه أنه يجازي العباد على الشكر فسمَّى جزاء الشكر شكراً كما قال تعالىٰ : ﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : ٤٠] فالله تعالىٰ شكور ، فيثني على عباده الصالحين ويبتدىء بالإحسان ويثني على فاعله ، وشكره تعالىٰ إعطاؤه الكثير من الثواب على العمل اليسير ، وحقيقة الشكر : الثناء على المحسن بذكر

---

(١) أخرجه البخاري (١١٣٠) ومسلم (١٨١٩) عن عائشة مختصراً .

إحسانه إليه فشكر العبد لله ثناؤه عليه ، بذكر إحسانه إليه ، وشكر الحق سبحانه للعبد ثناؤه عليه بذكر إحسانه له ، ثم إن إحسان العبد لله : طاعته لله سبحانه ، وإحسان الحق للعبد : إنعامه على العبد بالتوفيق له بشكره ، وشكر العبد على الحقيقة إنما هو نطق اللسان ، وإقرار القلب بإنعام الرب تعالىٰ ، والشكر ينقسم إلى شكر باللسان وهو اعترافه بالنعمة بنعت الاستكانة ، وشكر بالبدن والأركان ، وهو اتصاف بالوفاء والخدمة ، وشكر بالقلب وهو اعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة ؛ وحقيقة الشكر تحصل بالثلاثة عند الإمكان ، ويقال الشكر بالنسبة إلى مقامات الصالحين ثلاثة : شكر العالمين يكون من جملة أقوالهم ، وشكر هو نعت العابدين يكون نوعاً من أفعالهم ، وشكر هو شكر العارفين يكون باستقامتهم له في عموم أحوالهم .

وقال أبو بكر الورَّاق : شكر النعمة : مشاهدة المنة وحفظ الحرمة .

وقال حمدون القصَّار : شكر النعمة أن ترى نفسك فيه طفيلياً .

وقال الجنيد رحمه الله : الشكر من غالب الناس فيه علّة ، لأنه طالب لنفسه المزيد ، فهو واقف مع الله سبحانه على حظ نفسه .

وقال أبو عثمان : معرفة الشكر معرفة العجز عن الشكر ، ويقال : الشكر على الشكر أتم من الشكر ، وذلك بأن ترى شكرك بتوفيق الله تعالىٰ ، ويكون ذلك التوفيق من أجلّ النعم عليك ، فتشكره على الشكر ، ثم تشكره على شكر الشكر ، إلى ما لا يتناهى .

وقيل : الشكر إضافة النعم إلى موليها بنعت الاستكانة ؛ وقال الجنيد : الشكر ألَّا ترى نفسك أهلاً للنعمة .

وقال رويم : الشكر استفراغ الطاقة .

وقيل : الشاكر الذي يشكر على الموجود ، والشكور : هو الذي يشكر على المفقود .

ويقال : الشاكر الذي يشكر على الرفد (العطاء) ، والشكور الذي يشكر

على الردّ ، فالشاكر لا يعرف نعمة سوى العطاء ، والشكور الذي يرى الزيادة على ذلك ، فيرى البلاء ، والمنع ، والمطل ، نعماً .

قال الجنيد : كنت بين يدي السري ألعب ، وأنا ابن سبع سنين ، وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر ، فقال لي : يا غلام ما الشكر ؟ فقلت : ألا تعصي الله بنعمه ، فقال : يوشك أن يكون حظك من الله لسانك ، قال الجنيد رحمه الله : فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها السري ؛ وقال الشبلي : الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة ؛ وقيل : الشكر قيد الموجود وصيد المفقود ، وقال أبو عثمان : شكر العامة على المطعم والملبس ، وشكر الخواص على ما يرد على قلوبهم من المعاني ، وقيل : قال داود عليه السلام : إلهي كيف أشكرك ، وشكري لك نعمة من عندك توجب شكراً ، فأنا عاجز عن شكرك ، فإن الله أوحى إليه الآن قد شكرتني .

وقيل : قال موسى عليه السلام في مناجاته لربه : إلهي خلقت آدم بيدك ، وفعلت ، وفعلت ، فكيف شكرك ؟ فقال : علم أن ذلك مني ، فكانت معرفته بذلك شكره لي .

وقيل : كان لبعضهم صديق ، فحبسه السلطان ، فأرسل إليه (صاحبه) بذلك ، فقال له صاحبه : اشكر الله تعالىٰ فإنّ هذه نعمة ساقها الله إليك ، فيها أجر ، فضرب الرجل ، فكتب إليه ، فقال : اشكر الله تعالىٰ ، فجيء مجوسي مبطون ، قيّد وجعلت حلقة من قيده على رجل هذا ، وحلقة من رجل هذا على رجل المجوسي ، فكان يقوم المجوسي بالليل مرات ، وهنا يحتاج أن يقوم معه على رأسه حتى يفرغ ، فكتب إلى صاحبه ، فقال : اشكر الله ، فقال : إلى متى تقول ؟ وأي بلاء فوق هذا ؟ فقال له : لو وضع الزنار الذي في وسطه في وسطك ، كما وضع القيد الذي في رجله في رجلك ، ماذا كنت تصنع ؟ .

وقيل : دخل رجل على سهل بن عبد الله ، فقال له : إن اللص دخل داري وأخذ متاعي ، فقال له : اشكر الله تعالىٰ ، لو دخل اللص قلبك ، وهو الشيطان ، وأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع ؟ .

وقيل : شكر العينين أن تستر عيباً تراه بصاحبك ، وشكر الأذنين أن تستر عيباً تسمعه فيه ، وقيل : الشكر التلذذ بثنائه على ما لم يستوجبه من عطائه . وقال الجنيد : كان السري إذا أراد أن ينفعني ، يسألني ، فقال لي يوماً : يا أبا القاسم إيش الشكر ؟ فقلت له : ألا يستعان بشيء من نعم الله تعالىٰ على معاصيه ، فقال لي : من أين لك هذا ؟ قلت من مجالستك .

وقيل : التزم الحسن بن علي الركن ، فقال : إلهي أنعمت عليَّ فلم تجدني شاكراً ، وابتليتني فلم تجدني صابراً ، فلا أنت سلبت النعمة بترك الشكر ، ولا أدمت الشدة بتركي الصبر ، إلهي ما يكون من الكريم إلا الكرم . وقيل : إذا قصرت يدك عن المكافأة فليطل لسانك بالشكر . وقيل : أربعة لا ثمرة لأعمالهم ، مسارّة الأصم ، وواضع النعمة عند من لا يشكر ، والباذر في السبخة ، والمسرج في الشمس .

وقيل : لما بشر إدريس عليه السلام بالمغفرة ، سأل الحياة فقيل له : فبه ؟ فقال : لأشكره ، فإني كنت أعمل قبله للمغفرة ، فبسط له الملك جناحه ، وحمله عليه إلى السماء .

وقيل : مر بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بجحر صغير يخرج منه الماء الكثير ، فتعجب منه ، فأنطقه الله معه ، فقال : مذ سمعت الله تعالىٰ يقول : ﴿ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم : ٦] وأنا أبكي من خوفه ، قال : فدعا ذلك النبيُّ ، أن يجير الله ذلك الحجر ، فأوحى الله إليه : إني قد أجرته من النار ، فمر ذلك النبي ، فلما عاد : وجد الماء يتفجر منه مثل ذلك ، فعجب منه ، فأنطق الله ذلك الحجر معه ، فقال له : لم تبكي وقد غفر الله لك ؟ فقال : ذلك كان بكاء الحزن والخوف ، وهذا بكاء الشكر والسرور .

وقيل : الشاكر مع المزيد لأنه في شهود النعمة ، قال تعالىٰ : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] والصابر مع الله تعالىٰ ، لأنه بشهود المبلي له ، قال الله سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٦] ، وقيل : قدم وفد على عمر بن عبد العزيز ، وكان فيهم شاب ، فأخذ يخطب فقال عمر :

الكبر ، الكبر ، فقال له الشاب : يا أمير المؤمنين لو كان الأمر بالسن ، لكان في المسلمين من هو أسن منك ؟ فقال تكلم : فقال : لسنا وفد الرغبة ، ولا وفد الرهبة ، أما الرغبة : فقد أوصلنا إليها فضلك ، وأما الرهبة : فقد آمننا منها عدلك ، فقال له : فمن أنتم ؟ فقال : وفد الشكر ، جئناك نشكرك ، وننصرف ، ولذلك أنشدوا :

ومن الرزية أن شكري صامت   عما فعلت وإن برّك ناطق
وأرى الصنيعة منك ثم أسرّها   إني إذاً ليد[1] الكريم لسارق

وقيل : أوحى الله تعالىٰ إلى موسى عليه السلام : ارحم عبادي المبتلى والمعافى ! فقال : ما بال المعافى ؟ فقال :لقلة شكرهم على عافيتي إياهم ، فالتارك للشكر محروم ، فيرحم على ما فاته من الشكر لنعمة العافية .

وقيل : الحمد على الأنفاس والشكر على نعم الحواس ، وقيل : الحمدء ابتداء منه ، والشكر اقتداء منك ، وفي الخبر الصحيح : أول ما يدعى الحمّادون لله على كل حال إلى الجنة . وقيل : الحمد على ما دفع من البلاء ، والشكر على ما صنع من نعم العطاء .

حكاية غريبة : حكي عن بعضهم أنه قال : رأيت في بعض الأسفار شيخاً كبيراً قد طعن في السن ، فسألته عن حاله فقال : إني كنت في ابتداء عمري أهوى ابنة عم لي ، وهي كذلك كانت تهواني ، فاتفق أنها تزوجت مني ، فليلة زفافها ، قلت : تعالي حتى نحيي هذه الليلة شكراً لله تعالىٰ على ما جمعنا ، فصلينا تلك الليلة ، ولم يتفرغ أحدنا لصاحبه ، فلما كانت الليلة الثانية ، قلنا مثل ذلك ، فمنذ سبعين ، أو ثمانين سنة ، نحن على تلك الصفة كل ليلة ، ثم قال لها : أليس كذلك يا فلانة ؟ فقالت العجوز : كما يقول الشيخ .

* * *

---

(١) لنعمته تعالى .

(١٧) باب اليقين

اليقين نور يُقذف في القلب ، به يدرك العبد الموفق أن ما سوى الحق سبحانه من قبيل الظل ، والظل لا هو موجود باعتبار مراتب الوجود ، ولا هو معدوم باعتبار مراتب العدم ، وإذا ثبتت ظلِّيَّة الآثار لم تنسخ أحدية المؤثر ، فمن شهد ظلِّيَّة الآثار ، لم تعقه ذلك عن الله تعالىٰ ، فإن ظل الأشجار في الأنهار ، لا يعوق السفن عن التسيار ، ومن هنا يتبين لك أن الحجاب ليس أمراً وجودياً ، بينك وبين الله ، وإلا لكان أقرب إليك منه ، فرجعت حقيقة الحجاب إلى توهم الحجاب .

وقال أبو عاصم الأنطاكي رحمه الله تعالىٰ : اليقين نور يجعله الله تعالىٰ في قلب العبد ، حتى يشاهد به أمور الآخرة ، ويخرق به كل حجاب بينه وبينها ، حتى يطالع الآخرة كالمشاهد لها .

وقال ﷺ : « إن النور إذا دخل القلب انفسح وانشرح » قيل يا رسول الله هل لذلك من علامة يعرف بها ؟ قال : « التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله »[1] .

علم اليقين يحصل عن قاطع البرهان ، وعين اليقين يحصل عن شهود العيان ، وحق اليقين تحقيق ضرورة العيان بالوجدان .

اليقين جزم القلب بالمعلومات الغيبية ، التي جاءت على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام .

الإيقان : العلم بالشيء ينفي الشك والشبهة عنه ، قال تعالىٰ : ﴿ وَٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٣١١) وذكره الحافظ العراقي في المغني عن حمل الأسفار (١/ ٧٦) والدر المنثور للسيوطي (٣/ ٤٤) وإتحاف السادة المتقين للزبيدي (٩/ ٣٢٧) بألفاظ متقاربة .

يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة : ٤] .

وروي في الخبر : تعلّموا اليقين فإني أتعلّمه ، أي : جاهدوا أنفسكم على تحصيل اليقين ، بتكرار النظر في المعلومات ، حتى يغلب علمها على قلوبكم ، فيكون ذلك من أقوى أسباب وصولكم إلى خالقكم ، بالإيقان والعرفان .

عن النبي ﷺ أنه قال : « لا ترضينّ أحداً بسخط الله تعالىٰ ، ولا تحمدن أحداً على فضل الله عز وجل ، ولا تذمنّ أحداً على ما لم يؤتك الله ؛ فإن رزق الله لا يسوقه حرص حريص ، ولا يرده عنك كراهة كاره ، وإن الله تعالىٰ بعدله وقسطه جعل الروح والفرح في الرضا واليقين ، وجعل الهمّ والحزن في الشك والسخط »[1] .

قال أبو عبد الله الأنطاكي : إن أقل اليقين إذا وصل إلى القلب يملأ القلب نوراً ، وينفي عنه كل ريب ، ويمتلىء القلب به شكراً ، ومن الله خوفاً .

وقال أبو عثمان الحيري : اليقين قلة الاهتمام لغد .

وقال سهل بن عبد الله : اليقين من زيادة الإيمان ومن تحقيقه .

وقال سهل أيضاً : اليقين شعبة من الإيمان ، وهو دون التصديق . وقال بعضهم : اليقين هو العلم المستودع في القلوب يشير هذا القائل إلى أنه غير مكتسب .

وقال سهل رحمه الله تعالىٰ : ابتداء اليقين مكاشفة ، ولذلك قال بعض السلف : لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً ، ثم المعاينة ، والمشاهدة .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : اليقين تحقق الأسرار بأحكام المغيبات ، التي أخبر عنها الأنبياء .

وقال أبو بكر بن طاهر : العلم بمعارضة الشكوك ، واليقين لا شك فيه .

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/ ٢٦٦) وأبو نعيم الأصفهاني في الحلية (٤/ ١٢١) .

أشار إلى العلم الكسبي وما يجري مجرى البديهي ، وكذلك علوم القوم في الابتداء كسبي ، وفي الانتهاء بديهي .

وقال محمد بن الحسين : أول المقامات : المعرفة ، ثم اليقين ، ثم التصديق ، ثم الإخلاص ، ثم الشهادة ، ثم الطاعة ؛ أشار هذا القائل إلى أن أول الواجبات هو المعرفة بالله سبحانه ، والمعرفة لا تحصل إلا بتقديم شرائطها ، وهو النظر الصائب ، ثم إذا توالت الأدلة وحصل البيان صار بتوالي الأنوار ، وحصول الاستبصار كالمستغني عن تأمل البرهان ، وهو حال اليقين ، ثم تصديق الحق فيما أخبر به ، عند إصغائه إلى إجابة الداعي ، فيما يخبر عنه من أفعاله سبحانه في المستقبل ، لأن التصديق إنما يكون في الأخبار ، ثم الإخلاص فيما يتعقبه من أداء الأوامر ، ثم بعد ذلك إظهار الإجابة بجميل الشهادة ، ثم أداء الطاعات بالتوحيد فيما أمر به ، والتجرد عما زجر عنه ، وإلى هذا المعنى أشار الإمام أبو بكر بن فورك رحمه الله فيما سمعته يقول : ذكر اللسان فضيلة ، يفيض عليها القلب .

وقال سهل بن عبد الله : حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين ، وفيه سكون إلى غير الله تعالىٰ .

وقال ذو النون المصري : اليقين داع إلى قصر الأمل ، وقصر الأمل يدعو إلى الزهد ، والزهد يورث الحكمة ، والحكمة تورث النظر في العواقب ، وسمعت محمد بن الحسين رحمه الله يقول بسنده إلى ذي النون المصري قال : ثلاثة من أعلام اليقين : قلة مخالطة الناس في العشرة ، وترك المدح لهم في العطية ، والتنزه عن ذمهم عند المنع .

وثلاثة من أعلام يقين اليقين :

١ ـ النظر إلى الله سبحانه في كل شيء .

٢ ـ والرجوع إليه في كل أمر .

٣ ـ والاستعانة به في كل حال .

وقال الجنيد رحمه الله : اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ،

ولا يحول ، ولا يتغير ، في القلب .

وقال ابن عطاء : على قدر قربهم من التقوى ، أدركوا ما أدركوا من اليقين .

وأصل التقوى مباينة النهي ، ومباينة النهي مباينة النفس ، فعلى قدر مفارقتهم للنفس وصلوا إلى اليقين .

وقال بعضهم : اليقين هو المكاشفة ، والمكاشفة على ثلاثة أوجه ، مكاشفة بالإخبار ، ومكاشفة بإظهار القدرة ، ومكاشفة القلوب ، بحقائق الإيمان .

واعلم أن المكاشفة في كلامهم عبارة عن ظهور الشيء للقلب ، باستيلاء ذكره من غير بقاء للريب .

وربما أرادوا المكاشفة ما يقرب مما يراه الرائي بين اليقظة والنوم ، وكثيراً ما يعبّر هؤلاء عن هذه الحالة بالثُبات ، سأل ابن فورك أبا عثمان المغربي : ما هذا الذي تقول ؟ قال لي الأشخاص كذا وكذا ، ورأيت أشخاصاً قالوا لي كذا وكذا تراهم معاينة ، أو مكاشفة ، فقال مكاشفة ، وقال عامر بن عبد قيس : لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً .

وقيل : اليقين رؤية العيان بقوة الإيمان .

وقيل : اليقين زوال المعارضات .

وقال الجنيد رحمه الله : اليقين ارتفاع الريب في مشهد الغيب .

قال الدقَّاق في قوله ﷺ في عيسى ابن مريم عليه السلام : لو ازداد يقيناً لمشى في الهواء كما مشيت فيه . قال رحمه الله أشار بهذا إلى حال نفسه ﷺ ليلة المعراج ، إنه ﷺ قال : رأيت البراق ، قد بقي مع جبريل ، ومشيت في الهواء ، مرتفعاً إلى رفرف إلى حيث أراد الله أن يناجيه فيه ، وقال له جبريل : وما منّا إلا له مقام معلوم ؛ فأشار الدقَّاق بذلك إلى ما ذكر من أن النبي ﷺ نال مقاماً أعلى مما نال عيسى عليه السلام ، وهو المشي في الهواء ، ومراده ﷺ

أن مشي الموقنين في الهواء ، لا يستعظم بفضل الله عليهم .

سئل السري عن اليقين ؟ فقال : اليقين سكونك عند جولان الموارد في صدرك ، لتيقنك أن حركتك فيها لا تنفعك ، ولا تردّ عنك مقضياً .

وقال علي بن سهل : الحضور أفضل من اليقين ، لأن الحضور وطنات[1] واليقين خطرات ، كأنه جعل اليقين ابتداء الحضور ، والحضور دوام ذلك ، وكأنه جوّز حصول اليقين خالياً من الحضور ، وأحال جواز الحضور بلا يقين ، ولهذا قال النوري : اليقين المشاهدة يعني أن في المشاهدة يقيناً لا شك فيه ، لأنه لا يشاهده تعالىٰ من لا يثق بما فيه .

اليقين خالياً من الحضور ، وأحال جواز الحضور بلا يقين ، ولهذا قال النوري : اليقين المشاهدة . يعني أن في المشاهدة يقيناً لا شك فيه ، لأنه لا يشاهده تعالىٰ من لا يثق بما منه .

وقال أبو بكر الوراق : اليقين ملاك القلب ، وبه كمال الإيمان ، وباليقين عُرف الله تعالىٰ ، وبالعقل عقل عن الله تعالىٰ .

وقال الجنيد رحمه الله تعالىٰ : قد مشى رجال باليقين على الماء ، ومات بالعطش أفضل منهم يقيناً .

قال إبراهيم الخوّاص : لقيت غلاماً في التيه ، كأنه سبيكة فضة فقلت : إلى أين يا غلام ؟ فقال : إلى مكة . فقلت : بلا زاد ولا راحلة ولا نفقة ؟ فقال لي : يا ضعيف اليقين ! الذي يقدر على حفظ السماوات والأرض ، لا يقدر أن يوصلني مكة بلا علاقة ؟ قال إبراهيم : فلما دخلت مكة فإذا أنا به بالطواف وهو يقول :

يا عين سحّي أبداً ... يا نفس موتي كمدا
ولا تحبي أحداً ... إلا الجليل الصمدا

فلما رآني قال لي : يا شيخ أنت بعد على ذلك الضعف من اليقين .

---

(١) من توطّن : أي : أقام واستوطن .

وقال النهرجوري : إذا استكمل العبد حقائق اليقين ، صار البلاء عنده نعمة ، والرخاء مصيبة .

وقال أبو بكر الورَّاق : اليقين على ثلاثة أوجه : يقين خبر ، ويقين دلالة ، ويقين مشاهدة .

وقال النخشبي : رأيت غلاماً في البادية يمشي بلا زاد ، فقلت : إن لم يكن معه يقين فقد هلك ، فقلت : يا غلام في مثل هذا الموضع بلا زاد ؟ فقال لي : يا شيخ ارفع رأسك ، هل ترى غير الله تعالىٰ ؟ فقلت : الآن اذهب حيث شئت .

وقال الخرَّاز : العلم بما استعملك في الصحة ، وهو العلم بالأحكام الشرعية ، واليقين ما حملك ، وهو العلم بأنه لا فاعل إلا الله ، ولا معين سواه ، ولا يجري عليك إلا ما سبق لك عنده .

وقال إبراهيم الخوّاص : طلبت المعاش لأكل الحلال ، فاصطدت السمك ؛ فيوماً وقعت في الشبكة سمكة ، فأخرجتها ، وطرحت الشبكة في الماء ، فوقعت أخرى فيها ، فرميت بها ، وأخرجت منها السمكة ، ثم عدت إلى طرح الشبكة في الماء ، فهتف بي هاتف ، لم تجد معاشاً إلا أن تأتي من يذكرنا فتقتلهم ، قال : فكسرت القبضة الملتصقة بالشبكة وتركت الاصطياد .

* * * *

(١٨) باب الصبر

حبس النفس على كربٍ يتحمله ، أو لذيذ يفارقه ، وهو ممدوح ومطلوب ، قال الله عز وجل : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل : ١٢٧] .

عن عائشة رضي الله عنها : رَفَعَتْهُ إلى النبي ﷺ قال : « إن الصبر عند الصدمة الأولى »[١] .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الصبر عند الصدمة الأولى »[٢] .

ثم الصبر على أقسام : صبر ما هو كسب للعبد ، وصبر على ما ليس بكسب له ، فالصبر على المكتسب على قسمين : صبر على ما أمر الله به وصبر على ما نهى عنه ، وأما الصبر على ما ليس بمكتسب للعبد ، فصبره على مقاساة ما يتصل به من حكم الله فيما فيه مشقة .

قال الجنيد : المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هيّن على المؤمن ، وإن كانت فيه صعوبة ما ، من حيث فراق محبوبه من ولده ، ونحو ذلك ، وهجران الخلق في جنب الله تعالىٰ شديد ، والمسير من النفس إلى الله تعالىٰ صعب شديد ، والصبر مع الله أشد . وسئل الجنيد عن الصبر فقال : هو تجرع المرارة من غير تعبيس .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد .

وقال أبو القاسم الحكيم : قوله تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ ﴾ : أمر منه بالعبادة ، وقوله : ﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل : ١٢٧] عبودية . فمن ترقّى من درجة لك إلى درجة بك ، فقد انتقل من درجة العبادة إلى درجة العبودية ، قال ﷺ :

---

(١) و (٢) أخرجهما البخاري ومسلم .

« بك أحيا وبك أموت » .

سئل الداراني عن الصبر ، فقال : والله ما نصبر على ما نحب ! فكيف على ما نكره ؟ وقال ذو النون المصري : الصبر : التباعد عن المخالفات ، والسكون عند تجرع غصص البليّات ، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة .

وقال ابن عطاء الله : الصبر : الوقوف مع الله بحسن الأدب ، وقيل : هو الفناء في البلوى بلا ظهور شكوى ، وقال أبو عثمان : الصبّار الذي عوّد نفسه الهجوم على المكاره .

وقيل : الصبر : المقام مع البلاء بحسن الصحبة ، كالمقام مع العافية .

وقال أبو عثمان : أحسن الجزاء على عبادة من العبادات : الجزاء على الصبر ، ولا جزاء فوقه ، قال الله سبحانه : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٦] .

وقال عمرو بن عثمان : الصبر هو الثبات مع الله تعالىٰ ، وتلقّي بلائه بالرحب والدعة (السكون) .

وقال الخوّاص : الصبر هو الثبات على أحكام الكتاب والسنة .

وقال يحيى بن معاذ : صبر المحبين أشد من صبر الزاهدين ، واعجباً كيف يصبرون ؟ وأنشد :

الصبر يحمد في المواطن كلها إلا عليـك فـإنـه لا يحمـد

وقال رويم : الصبر ترك الشكوى .

وقال ذو النون المصري : الصبر : هو الاستعانة بالله تعالىٰ .

قال ابن عطاء :

سأصبر كي ترضى وأتلف حسرة وحسبي أن ترضى ويتلفني صبري

وقال أبو عبد الله بن خفيف : الصبر على ثلاثة أقسام : متصبر ، وصابر ، وصبّار .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : الصبر مطية لا تكبو .

وقف رجل على الشبلي ، فقال : أيّ صبر أشد على الصابرين ؟ فقال : الصبر في الله تعالىٰ ؟ فقال : لا ، قال : الصبر لله ؟ قال : لا . قال : فأي شيء ؟ فقال : الصبر عن الله ، فصرخ الشبلي صرخة ، كادت روحه أن تتلف .

وقال الجريري : الصبر ألا يفرّق بين حال النعمة ، والمحنة ، مع سكون الخاطر فيهما .

والصبر : هو السكون مع البلاء مع وجدان أثقال المحنة ، وأنشد بعضهم :

صبرت ولم أطلع هواك على صبري وأخفيت ما بي منك عن موضع الصبر
مخافة أن يشكو ضميري صبابتي إلى دمعتي سراً فتجري ولا أدري

قال الدقّاق : فاز الصابرون بعزّ الدارين ، لأنهم نالوا من الله معيّته ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٣] . بالعلم ، والإحاطة مع الكل ، وبالحفظ مع الأولياء ، وبالنصر والمعونة مع الأنبياء .

وقيل في معنى قوله تعالىٰ : ﴿ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] الصبر دون المصابرة ، والمصابرة دون المرابطة ، وقيل : اصبروا بنفوسكم على طاعة الله تعالىٰ ، وصابروا بقلوبكم على البلوى في الله ، ورابطوا بأسراركم على الشوق إلى الله .

وقيل : أوحى الله إلى داود عليه السلام : تخلّق بأخلاقي ، وإن من أخلاقي أنني أنا الصبور ، وقيل تجرّع الصبر فإن قتلك قتلك شهيداً ، وإن أحياك أحياك عزيزاً .

وقيل : الصبر لله عناء ، والصبر بالله بقاء ، والصبر في الله بلاء ، والصبر مع الله وفاء ، والصبر عن الله جفاء ، وأنشدوا :

والصبر عنك فمذموم عواقبه والصبر في سائر الأشياء محمود

وأنشدوا :

وكيف الصبر عمَّن حل مني بمنزلة اليمين من الشمال
إذا لعب الرجال بكل شيء رأيت الحبَّ يلعبُ بالرجال

وقيل : الصبر على الطلب عنوان الظفر ، والصبر في المحن علامة الفرج.

قال منصور بن خلف المغربي : جُرّد واحد للسياط ، فلما ضُرِبَ رُدّ إلى السجن ، فدعا بعض أصحابه فتفل على يده ، وألقى من فمه دقاق الفضة ، فسئل ، فقال : كان في فمي درهمان ، وكان على حاشية الحلقة التي نحن فيها لي ، عين تراني كيف أضرب فيها ، فلم أرد أن أصيح لرؤيته إياي ، فكنت أعض على الدرهمين ، فتكسَّرا في فمي .

وقيل : حالك التي أنت فيها رباطك، وما دون الله أعداؤك، فأحسن المرابطة في رباط حالك.

وقيل : المصابرة : هي الصبر على الصبر ، حتى يستغرق الصبر في الصبر ، فيعجز الصبر عن الصبر ، كما قيل : صابَر الصبر فاستغاث به الصبر .

صابرَ الصبرَ، فاستغاث به الصبرُ فنادى الصبور يا صبر صبرا

وهو أن صوت المحب من ألم الشوق وخوف الفراق يورث ضرّا .

وقيل: حبس الشبلي وقتاً في المارستان ، فدخل عليه جماعة فقال من أنتم ؟ فقالوا : أحباؤك جاؤوا زائرين فأخذ يرميهم بالحجارة ، وأخذوا يهربون فقال لهم : يا كذابون ! لو كنتم أحبائي لصبرتم على بلائي .

وفي بعض الأخبار : بعيني ما يتحمل المتحملون من أجلي . وقال الله تعالىٰ : ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ ﴾ [الطور : ٤٨] .

وقيل : في قوله تعالىٰ : ﴿ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ﴾ [المعارج : ٥] الصبر الجميل : أن يكون صاحب المصيبة في القوم لا يدري من هو .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لو كان الصبر والشكر بعيرين لم أبال أيهما ركبت ! .

وكان ابن شبرمة رحمه الله إذا نزل به بلاء، قال : سحابة ثم تنقشع .

وفي الخبر : إن النبي ﷺ سئل عن الإيمان، فقال: « الصبر والسماحة »(١) .

وسئل السريّ عن الصبر ، فجعل يتكلم فيه ، فدبَّت على رجله عقرب ، وهي تضربه بإبرتها ضربات كثيرة ، وهو ساكن ، فقيل له : لم لم تنحّها فقال : استحييت من ربي أن أتكلم في الصبر ، ولم أصبر .

وفي بعض الأخبار : الفقراء الصبّر هم جلساء الله تعالىٰ يوم القيامة ، وأوحى الله إلى بعض أنبيائه ، أنزلت بعبدي بلائي ، فدعاني ، فماطلته الإجابة ، فشكاني ، فقلت : يا عبدي كيف أرحمك من شيء به أرحمك ؟ .

وقال ابن عيينة رحمه الله تعالىٰ في قوله عز شأنه : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ [السجدة : ٢٤] قال : لما أخذوا برأس الأمر جعلناهم رؤساء .

قال الدقَّاق : إن الصبر حدُّه ألا تعترض على التقدير ! فأما إظهار البلاء على غير الشكوى ، فلا ينافي الصبر ، قال الله تعالىٰ في قصة أيوب : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٤٤] مع ما أخبر عنه تعالىٰ أنه قال : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ [الأنبياء : ٨٣] وسمعته يقول : استخرج منه هذه المقالة يعني قوله : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ ﴾ [الأنبياء : ٨٣] لتكون متنفساً لضعفاء هذه الأمة .

وقال بعضهم في قوله : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ﴾ [ص : ٤٤] ولم يقل : صبوراً ، لأنه لم يكن جميع أحواله الصبر ، بل كان في بعض أحواله يستلذ البلاء ، ويستعذبه ، فلم يكن في حال الالتذاذ به صابراً ، فلذلك لم يقل صبوراً .

قال أبو علي : حقيقة الصبر الخروج عن البلاء على حسب الدخول فيه ، مثل أيوب عليه السلام ، فإنه قال في آخر بلائه : ﴿ مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٣] ، فحفظ أدب الخطاب ، حيث عرض بقوله :

---

(١) رواه أبو يعلى والطبراني .

﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ ولم يصرح بقوله : ارحمني .

واعلم أن الصبر على ضربين : صبر العابدين ، وصبر المحبين ، فصبر العابدين أحسنه أن يكون محفوظاً ، وصبر المحبين أحسنه أن يكون مرفوضاً ، وفي معناه أنشدوا :

تبيّـــن يـــوم البيـــن أن اعتـــزامـــه   على الصبر من إحدى الظنون الكواذب

وفي هذا المعنى سمعت الأستاذ أبا علي يقول : أصبح يعقوب عليه السلام وقد وعد الصبر من نفسه ، فقال : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف : ١٨] أي : فشأني صبر جميل ، ثم لم يمس حتى قال : ﴿ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ [يوسف : ٨٤] .

* * * *

(١٩) باب المراقبة

المراقبة لغةً : الخوف منه تعالىٰ ، وتنقسم إلى مراقبة العلم ، ومراقبة الحال ، وهي المقصودة هنا . أمّا مراقبته للعلم : فهي الإشراف على أنه تعالىٰ المنفرد بالأحكام ، فيراقبه فيما أوقعه به ، أو زواه عنه ، وذلك يكون عند خواطر القلوب ، وأول دعاتها ، وعند ابتداء الأفعال في الجوارح وفي أثنائها .

وأما مراقبة الحال : فهي أن يغلب على قلب العبد انفراد الحق بالأفعال ، ورؤية من سواه بعين الافتقار إلى النوال ، من غير تخلل غفلة ، إلا اليسير الجاري فعله على الصديقين والمقربين ، وقال بعضهم : المراقبة على ثلاث درجات : مراقبة الحق في السير إليه ، ومراقبة نظر الحق إلى العبد ، ومطالعة الأزل بمراقبة السبق ، فالأولىٰ : مراقبة الأحكام ، والثانية : مراقبة الاطلاع ، والثالثة : مراقبة الانخلاع ، أي : التبرّي من الأفعال .

والمراقبة من أعظم أسباب الاستقامة ، وأداء العبادة على أكمل وجوه الطلب ، واعلم أنه من مراقبة الحال أن يراقب العبد حاله أن يشوبه حظ نفس ، كما يراقب عمله أن يقع على غير وجهه .

فالمراقبة : دوام ملاحظة المقصود ، واصطلاحاً : دوام النظر بالقلب إلى الله تعالىٰ ، وترقب ما يبدو من أفعاله ، وأحكامه ، ويعبّر عنه باستشعارك نظر الله إليك في حركاتك وسكناتك ؛ والمراقبة ممدوحة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٥٢] .

عن جرير قال : جاء جبريل إلى النبي ﷺ في صورة رجل ، فقال : يا محمد ما الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، والقدر خيره وشره ، قال صدقت ! قال : فعجبنا من تصديقه النبي ﷺ ، وهو

يسأله ويصدقه ، قال : فأخبرني ما الإسلام ؟ قال : الإسلام أن تقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، قال : صدقت ! قال : فأخبرني ما الإحسان ؟ فقال : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، قال : صدقت ! . . الحديث[1] .

هذا الذي قاله ﷺ من قوله : فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك ، إشارة إلى حال المراقبة ، لأن ابتداء المراقبة علم العبد باطلاع الرب سبحانه عليه ، فاستدامته لهذا العلم مراقبة لربه ، وهذا أصل كل خير له ، ولا يكاد العبد يصل إلى هذه المرتبة ، إلا بعد فراغه من المحاسبة ، فإذا حاسب نفسه على ما سلف له ، وأصلح حاله في الوقت ، ولازم طريق الحق ، وأحسن بينه وبين الله تعالىٰ مراعاة القلب ، وحفظ مع الله تعالىٰ الأنفاس راقب الله سبحانه ، فيعلم أنه سبحانه عليه رقيب ومن قلبه قريب ، يعلم أحواله ويرى أفعاله ، ويسمع أقواله ، ومن تغافل عن هذه الجملة ، فهو بمعزل عن بداية الوصلة .

قال الجريري : من لم يحكم بينه وبين الله بالتقوى والمراقبة ، لم يصل إلى الكشف والمشاهدة .

قال أبو علي الدقّاق : كان لبعض الأمراء وزير فكان بين يديه يوماً ، فالتفت إلى بعض الغلمان الذين كانوا وقوفاً ، لا لريبة ، ولكن لحركة أو صوت أحسّ به منهم ، فاتفق أن ذلك الأمير نظر إلى هذا الوزير في تلك الحالة ، فخاف الوزير أن يتوهم الأمير أنه نظر إليهم لريبة ، فجعل ينظر إليه كذلك ، فبعد ذلك اليوم كان هذا الوزير يدخل على هذا الأمير أبداً ، وهو ينظر إلى جانب ، حتى توهم الأمير أن ذلك خلقة ، وحَوَلٌ فيه .

فهذه مراقبة مخلوق لمخلوق ، فكيف مراقبة العبد لسيده .

وكان أمير له غلام ، يقبل عليه أكثر من إقباله على غيره من غلمانه ، ولم يكن أكثرهم قيمة ، ولا أحسنهم صورة ، فقالوا له في ذلك ، فأراد الأمير أن

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

يبين لهم فضل الغلام في الخدمة على غيره ، فيوماً من الأيام كان راكباً ومعه الحشم ، وبالبعد منهم جبل عليه ثلج ، فنظر الأمير إلى ذلك الثلج وأطرق ، فركض الغلام فرسه ، ولم يعلم القوم لماذا ركض ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى جاء ومعه شيء من الثلج ، فقال له الأمير : ما أدراك أني أردت الثلج ؟ فقال الغلام : لأنك نظرت إليه ، ونظر السلطان إلى شيء لا يكون عن غير قصد صحيح ، فقال الأمير : إنما أخصُّه بإكرامي وإقبالي لأن لكل أحد شغلاً ، وشغله : مراعاة لحظاتي ومراقبة أحوالي .

فالمراقبة أصل كل خير ، وهي تنقسم إلى : مراقبة الأفعال ، ومراقبة النوازل ، ومراقبة الله تعالىٰ ، وإن المراقب هو المبادر لرضا مولاه ، وإن من دامت مراقبته لمولاه قرّبه واصطفاه ، وميّزه على غيره ، ووالاه .

وقال بعضهم : من راقب الله تعالىٰ في خواطره الواردة على قلبه ، عصمه الله في جوارحه .

وسئل أبو الحسين بن هند : متى يهشُّ الراعي غنمه بعصا الرعاية عن مراتع الهلكة ؟ فقال : إذا علم أن عليه رقيباً .

وقيل : كان ابن عمر في سفر ، فرأى غلاماً يرعى غنماً ، فقال له : تبيع من هذه الغنم واحدة ؟ فقال : إنها ليست لي ، قال : فقل لصاحبها : إن الذئب أخذ منها واحدة ! فقال العبد : فأين الله ؟ فكان ابن عمر بعد ذلك يقول : إلى مدة ، قال ذلك العبد : فأين الله ؟

وقال الجنيد : من تحقَّق في المراقبة خاف على فوت حظه من ربه لا غير .

وقال ذو النون المصري رحمه الله : علامة المراقبة إيثار ما آثر الله تعالىٰ ، وتعظيم ما عظَّم الله تعالىٰ ، وتصغير ما صغّر الله تعالىٰ .

وقال النصرأباذي : الرجاء يحركك إلى كل الطاعات ، والخوف يبعدك عن المعاصي ، والمراقبة تؤديك إلى طرق الحقائق .

وسئل جعفر بن نصير عن المراقبة ؟ فقال : مراعاة السرّ لملاحظة نظر الحق تعالىٰ مع كل خطرة .

وقال الجريري : أمرنا هذا مبني على فصلين : وهو أن تلزم نفسك المراقبة لله تعالىٰ ، وأن يكون العلم على ظاهرك قائماً .

وقال المرتعش : المراقبة مراعاة السرّ بملاحظة الغيب ، مع كل لحظة ولفظة .

وسئل ابن عطاء : ما أفضل الطاعات ؟ فقال : مراقبة الحق على دوام الأوقات .

وقال إبراهيم الخوَّاص : المراعاة تورث المراقبة ، والمراقبة تورث خلوص السر والعلانية لله تعالىٰ .

وقال أبو عثمان المغربي : أفضل ما يلزم به الإنسان نفسه في هذه الطريقة الصوفية : المحاسبة ، والمراقبة ، وسياسة عمله بالعلم .

وقال أيضاً : قال لي أبو حفص : إذا جلست للناس ، فكن واعظاً لقلبك ولنفسك ، ولا يغرّنك اجتماعهم عليك ، فإنهم يراقبون ظاهرك والله يراقب باطنك .

وقال الخرَّاز : قال لي بعض مشايخي : عليك بمراعاة سرّك ، والمراقبة ، فبينا أنا يوماً أسير في البادية ، إذا أنا بخشخشة خلفي ، فهالني ذلك ، فأردت أن ألتفت ، فلم ألتفت حفظاً لسرّي مع الله ، فرأيت شيئاً واقفاً على كتفي ، فانصرف ، وأنا مراع لسرّي ، ثم التفت فإذا أنا بسبع عظيم .

وقال الواسطي : أفضل الطاعات حفظ الأوقات ، وهو ألا يطالع العبد غير حدّه ، ولا يراقب غير ربه ، ولا يقارن غير وقته ، أي : غير حاله الذي هو فيه .

* * * *

(٢٠) باب الرّضا

الرضا عدم الاعتراض على ما يجريه الحق تعالىٰ من الأحكام ، وقيل : الرضا هو سرور القلب بأقضية الحق ، والرضا لغةً : المراقبة ، وقبول الأمر بسهولة ، واصطلاحاً : ترك الاختيار ، وسببه تفكُّر العبد في تفاصيل منن الله تعالىٰ عليه ، وما خصّه به من غير عمل منه ، وثمرته : عدم الاعتراض على شيء من المقدور ، والسلامة من كراهته فلا يتمنى أنه لم يقع ، ولا زواله بعد وقوعه ، وهذا لا يمنع الدعاء بما لم يقع من الخيرات ، إذ الدعاء بالممكن لا يمنع الرضا بالحاصل ، وإن زال ضمناً فإنه غير مقصود ، والرضا ممدوح ومطلوب . قال الله سبحانه : ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] .

عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا أهل الجنة في مجلس لهم ، إذ سطع لهم نور على باب الجنة ، فرفعوا رؤوسهم ، فإذا الرب تعالىٰ قد أشرف عليهم ، فقال : يا أهل الجنة سلوني . قالوا : نسألك الرضا عنا ، قال تعالىٰ : رضاي قد أحلّكم داري ، وأنالكم كرامتي ، هذا أوانها ، فسلوني : قالوا : نسألك الزيادة قال : فيؤتون بنجائب من ياقوت أحمر ، أزمّتها زمرد أخضر وياقوت أحمر ، فجاؤوا عليها تضع حوافرها عند منتهى طرفها ، فيأمر الله سبحانه وتعالىٰ بأشجار عليها الثمار ، وتجيء جوار من الحور العين ، وهن يقلن : نحن الناعمات فلا نبؤس ، ونحن الخالدات فلا نموت ، أزواج قوم مؤمنين كرام ، ويأمر الله سبحانه بكثبان من مسك أبيض ، أذفر ، فتثير عليهم ريحاً ، يقال لها : المثيرة ، حتى تنتهي بهم إلى جنة عدن ، وهي قصبة الجنة ، فتقول الملائكة يا ربنا : قد جاء القوم . فيقول تعالىٰ : مرحباً بالصادقين ، مرحباً بالطائعين ، قال : فيكشف لهم الحجاب فينظرون إلى الله تعالىٰ ، فيتمتعون بنور الرحمن حتى لا يبصر بعضهم بعضاً . ثم يقول :

أرجعوهم إلى القصور بالتحف ، قال : فيرجعون ، وقد أبصر بعضهم بعضاً ، فقال رسول الله ﷺ : فذلك قوله تعالىٰ : ﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٢] » .

وقد اختلف في الرضا : هل هو من الأحوال ؟ أو من المقامات ؟ فأهل خراسان قالوا : الرضا من جملة المقامات ، وهو نهاية التوكل ، فهو مما يتوصل العبد إليه باكتسابه ، وأما العراقيون : فقالوا : الرضا من جملة الأحوال ، فهو نازلة تحل بالقلب ، ويمكن الجمع فيقال : بداية الرضا مكتسبة للعبد ، وهي من المقامات ، ونهايته من جملة الأحوال ، وليست بمكتسبة .

وتكلَّم الناس في الرضا ، فكل عبّر عن حاله وشربه ، فهم في العبارة عنه مختلفون ، كما أنهم في الشرب والنصيب متفاوتون ، فأما شرط العلم ، والذي هو لا بد منه ، فالراضي بالله هو الذي لا يعترض على تقديره . قال الدقَّاق : ليس الرضا ألا تحس بالبلاء إنما الرضا أن لا تعترض على الحكم والقضاء .

واعلم أن الواجب على العبد أن يرضى بالقضاء ، الذي أمر بالرضا به ، إذ ليس كل ما هو بقضائه يجوز للعبد أو يجب عليه الرضا به ، كالمعاصي وفنون محن المسلمين .

وقال المشايخ : الرضا : باب الله الأعظم . يعنون أن من أكرم بالرضا ، فقد لقي بالترحيب الأوفى ، وأكرم بالتقريب الأعلى .

وقال عبد الواحد بن زيد : الرضا : باب الله الأعظم ، وجنة الدنيا .

واعلم أن العبد لا يكاد يرضى عن الحق تعالىٰ إلا بعد أن يرضى عنه الحق تعالىٰ ، لأن الله عز وجل قال : ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] .

قال الدقَّاق : قال تلميذ لأستاذه ، هل يعرف العبد أن الله تعالىٰ راض عنه ؟ فقال : لا ، كيف يعلم ذلك ؟ ورضاه غيب ، فقال التلميذ : بل يعلم ذلك ، فقال : كيف ؟ فقال إذا وجدت قلبي راضياً عن الله تعالىٰ ، علمت أنه راض عني ، فقال الأستاذ : أحسنت يا غلام .

وقيل : قال موسى عليه السلام : إلهي دلني على عمل إذا عملته رضيت عني به ، فقال : إنك لا تطيق ذلك ، فخرَّ موسى ساجداً له متضرِّعاً ، فأوحى الله تعالىٰ إليه : يا ابن عمران ! إن رضاي في رضاك بقضائي .

قال الداراني : إذا سلا العبد عن الشهوات فهو راض .

وقال النصر أباذي : من أراد أن يبلغ محل الرضا فليلزم ما جعل الله تعالىٰ رضاه فيه .

وقال محمد بن خفيف : الرضا على قسمين : رضا به ، ورضا عنه ، فالرضا به أن يرضاه مدبّراً له ، والرضا عنه فيما يقضي به .

قال الدقَّاق : طريق السالكين أطول ، وهو طريق الرياضة ، وطريق الخواصّ أقرب ، لكنه أشق ، وهو أن يكون عملك بالرضا ، ورضاك بالقضاء .

وقال رويم : الرضا أن لو جعل الله جهنم على يمينه ، ما سأل أن يحوّلها إلى يساره .

وقال أبو بكر بن طاهر : الرضا إخراج الكراهية من القلب ، حتى لا يكون فيه إلا فرح وسرور .

وقال الواسطي رحمه الله تعالىٰ : استعمل الرضا جهدك ، ولا تدع الرضا يستعملك ، فتكون محجوباً بلذته ورؤيته عن حقيقة ما تطالع .

واعلم أن هذا الكلام الذي قاله الواسطي شيء عظيم وفيه تنبيه على مَقْطعةٍ للقوم خفية ، فإن السكون عندهم إلى الأحوال حجاب عن محوّل الأحوال ، فإذا استلذَّ رضاه ووجد بقلبه راحة الرضا حجب بحاله عن شهود حقه ، ولقد قال الواسطي : إياكم واستحلاء الطاعات فإنها سموم قاتلة .

وقال ابن خفيف : الرضا سكون القلب إلى أحكامه ، وموافقة القلب بما رضي الله به واختاره له . وسئلت رابعة العدوية : متى يكون العبد راضياً ؟ فقالت : إذا سرّته المصيبة كما سرّته النعمة .

وقيل : قال الشبلي بين يدي الجنيد : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فقال له الجنيد : قولك ذا ضيق صدر ، وضيق الصدر لترك الرضا بالقضاء ، فسكت الشبلي .

وقال الداراني : الرضا ألا تسأل الله تعالىٰ الجنة ، ولا تستعيذ به من النار ، فلا ينافي أن يسأل الله ذلك عبادةً لأمر مولاه به .

وقال ذو النون المصري : ثلاثة من أعلام الرضا : ترك الاختيار قبل القضاء ، وفقدان المرارة بعد القضاء ، وهيجان الحب في حشو البلاء .

قيل للحسين بن علي بن أبي طالب : إن أبا ذر يقول : الفقر أحب إليّ من الغنى ، والسقم أحب إليّ من الصحة ، فقال : رحم الله أبا ذر ! أما أنا فأقول : من اتكل على حسن اختيار الله تعالىٰ له ، لم يتمن غير ما اختاره الله له .

وقال الفضيل بن عياض لبشر الحافي : الرضا أفضل من الزهد في الدنيا ، لأن الراضي لا يتمنى فوق منزلته .

وسئل أبو عثمان عن قول النبي ﷺ : « أسألك الرضا بعد القضاء » ، فقال : لأن الرضا قبل القضاء عزم على الرضا ، والرضا بعد القضاء هو الرضا .

وقال الداراني : أرجو أن أكون عرفت طرفاً من الرضا ، لأنه لو أدخلني النار لكنت بذلك راضياً .

وقال أبو عمر الدمشقي : الرضا : ارتفاع الجزع في أي : حكم كان .

وقال الجنيد رحمه الله : الرضا : رفع الاختيار .

وقال ابن عطاء : الرضا : نظر القلب إلى قديم اختيار الله تعالىٰ للعبد ، وهو ترك التسخُّط .

وقال رويم : الرضا : استقبال الأحكام بالفرح .

وقال المحاسبي : الرضا : سكون القلب تحت مجاري الأحكام .

وقال النوري : الرضا : سرور القلب بمر القضاء .

وقال الجريري : من رضي بدون قدره ، رفعه الله فوق غايته .

وقال النخشبي : ليس ينال الرضا من للدنيا في قلبه مقدار .

وقال رسول الله ﷺ : « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً »[1] .

وقيل : كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما : أما بعد فإن الخير كله في الرضا ، فإن استطعت أن ترضى فارض وإلا فاصبر .

وبات عتبة بن الغلام ليلة ، يقول إلى الصباح : إن تعذبني فأنا لك محب ، وإن ترحمني فأنا لك محب .

وقال الدقَّاق : الإنسان خزف ، وليس للخزف من الخطر ما يعارض فيه حكم الله تعالىٰ .

وقال أبو عثمان الحيري : منذ أربعين سنة ما أقامني الله تعالىٰ في حال فكرهته ، وما نقلني إلى غيره فسخطته .

وقال الدقَّاق : غضب رجل على عبد له ، فاستشفع العبد إلى سيده إنساناً ، فعفا عنه ، فأخذ العبد يبكي ، فقال له الشفيع : لم تبكي ؟ وقد عفا عنك سيدك . فقال له السيد : إنما يطلب الرضا ، ولا سبيل له إليه ، فإنما يبكي لأجله . ولا يلزم من عفوه عنه ، رضاه عنه ، وهو إسباغه النعم عليه وما تعوّده من اللطف والإكرام .

قال بعضهم : فتح علي باب من البسط ، فزللت زلة ، فحجبت عن مقامي كذا وكذا سنة ، فلم يؤاخذ ولم يعاقب ، وإنما سلب ما كان من الإكرام والإنعام .

* * * *

---

(١) أخرجه البخاري في أبواب صلاة الجمعة (٦٦٠) ومسلم في الزكاة (١٠٣١) .

(٢١) باب العبودية

هي تذلل وتبرؤ من الحول والقوة في عبادته ، وأصلها العبادة ، وهي القيام بالفعل المطلوب شرعاً ، وهي ممدوحة ومطلوبة ، قال الله عز وجل : ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر : ٩٩] .

عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلَّا ظله ، إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله تعالىٰ ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا على ذلك وتفرّقا عليه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال ، فقال : إني أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه »[١] .

قال الدقَّاق : العبودية أتم من العبادة فأولًا عبادة ثم عبودية ثم عبودة ، فالعبادة للعوام من المؤمنين ، والعبودية للخواص ، والعبودة لخاص الخاص ، فالأول شاهد لنفسه كسباً واختياراً ، واقف مع الأعمال ، والثالث مستغرق في الجلال والجمال ، والثاني متبرىء لما هو نظر العون الكبير المتعال .

العبادة : لمن له علم اليقين ، والعبودية لمن له عين اليقين ، والعبودة لمن له حق اليقين .

والعبادة : لأصحاب المجاهدات ، والعبودية لأرباب المكابدات ، والعبودة صفة أهل المشاهدات .

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٦٢٩) ومسلم في الزكاة (١٠٣١) .

فمن لم يدّخر عنه تعالىٰ نفسه فهو صاحب عبادة ، ومن لم يضعه عليه بقلبه فهو صاحب عبودية ، ومن لم يبخل عليه بروحه فهو صاحب عبودة ، والعبودية القيام بحق الطاعات بشرط التوفير ، والنظر إلى ما منك بعين التقصير ، وشهود ما يحصل من مناقبك من التقدير .

ويقال العبودية : ترك الاختيار فيما يبدو من الأقدار ، ويقال العبودية التبرؤ من الحول والقوة والإقرار بما يعطيك ويوليك من الطول والمنة .

ويقال : العبودية معانقة ما أمرت به ، ومفارقة ما زجرت عنه .

وسئل محمد بن خفيف ، متى تصح العبودية ؟ فقال : إذا طرح العبد كله على مولاه ، وصبر معه على بلواه .

وقال سهل بن عبد الله : لا يصلح التعبُّد لأحد حتى لا يجزع من أربعة أشياء : من الجوع ، والعري ، والفقر ، والذل .

وقيل العبودية : أن تسلم إليه كلَّك ، وتحمل عليه كلَّك .

وقيل من علامات العبودية : ترك التدبير وشهود التقدير .

وقال ذو النون المصري : العبودية أن تكون عبده في كل حال ، كما أنه ربك في كل حال .

وقال الجريري : عبيد النعم كثير عديدهم ، وعبيد المنعم عزيز وجودهم .

وقال الدقَّاق : أنت عبد من أنت في رقه وأسره ، فإن كنت في أسر نفسك فأنت عبد نفسك ، وإن كنت في أسر دنياك فأنت عبد دنياك ، قال رسول الله ﷺ : « تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس عبد الخميصة »[1] .

ورأى أبو يزيد رجلاً فقال له : ما حرفتك ؟ فقال : خربنده (خادم حماري) فقال : أمات الله حمارك لتكون عبداً لله ، لا عبداً للحمار .

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٨٦) .

وقال أبو عمرو بن نجيد : لا تصفو لأحد قدم في العبودية حتى يشاهد أعماله عنده رياء ، وأحواله دعاوى .

وقال عبد الله بن منازل : العبد عبد ما لم يطلب لنفسه خادماً ، فإذا طلب لنفسه خادماً ، فقد سقط عن حد العبودية ، وترك آدابها ، إلا إذا طلب الخادم لعجزه ، فلا يسقط عن حد العبودية ، ويرى الفضل لمولاه عليه في لطفه به في حال عجزه ، حتى سخر له من يخدمه ويعينه على طاعته .

وقال سهل بن عبد الله : لا يصلح للعبد التعبد حتى يكون بحيث لا يرى عليه أثر المسكنة في العدم ، ولا أثر الغنى في الوجود ، وقيل : العبودية شهود الربوبية .

وقال النصرأباذي : قيمة العابد بمعبوده ، كما أن شرف العارف بمعروفه ، وقال أبو حفص الحداد : العبودية زينة العبد ، فمن تركها تعطَّل من الزينة ، وقال النباجي : أصل العبادة في ثلاثة أشياء لا تردّ من أحكامه شيئاً ، ولا تدّخر عنه شيئاً ، ولا يسمعك تسأل غيره حاجة .

وقال ابن عطاء : العبودية في أربعة خصال : الوفاء بالعهود ، والحفظ للحدود ، والرضا بالموجود ، والصبر عن المفقود .

وقال عمرو بن عثمان المكي : ما رأيت أحداً من المتعبدين ، في كثرة من لقيت بمكة ، ولا غيرها ، ولا أحداً ممن قدم علينا في المواسم ، أشد اجتهاداً ، ولا أدوم على العبادة ، من المزني رحمه الله تعالىٰ ، ولا رأيت أحداً أشد تعظيماً لأوامر الله تعالىٰ منه ، وما رأيت أحداً أشد تضييقاً على نفسه وتوسعة على الناس منه ! .

سمعت الدقَّاق يقول : ليس شيء أشرف من العبودية ، ولا اسم أتم للمؤمن من الوصف له بالعبودية ، ولذلك قال سبحانه في وصف النبي ﷺ ليلة المعراج ، وكان أشرف أوقاته في الدنيا : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [الإسراء : ١] . وقال : ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم : ١٠] . فلو كان اسم أجل من العبودية لسماه به ، وفي معناه أنشدوا :

يا عمرو ثأري عند زهرائي   يعـرفـه السـامـع والـرائـي
لا تـدعنـي إلا بيـا عبـدهـا   فـإنهـا أشـرف أسمـائـي

وقال بعضهم : إنما هو شيئان سكونك إلى اللذة ، واعتمادك على الحركة ، فإذا أسقطت عنك هذين : فقد أديت العبودية حقها ، كما قال الواسطي : احذروا لذة العطاء ، فإنها غطاء لأهل الصفاء عن وصولهم إلى مقاصدهم ، فالاستحسان للذّة ، والوقوف معها ، والاعتماد على الحركة غفلة عن المحرّك .

وقال الجوزجاني : الرضا دار العبودية ، والصبر بابه ، والتفويض بيته ، فالصوت على الباب والفراغة في الدار ، والراحة في البيت .

قال الدقّاق : كما أن الربوبية نعت للحق لا تزول عنه ، فالعبودية صفة للعبد لا تفارقه ، ما دام . وأنشد بعضهم :

فإن تسألوني قلت ها أنا عبده   وإن سألوه قال هذاك مولائي

وقال النصر أباذي : العبادات إلى طلب الصفح ، والعفو عن تقصيرها ، أقرب منها إلى طلب الأعواض والجزاء عليها .

وقال : العبودية إسقاط رؤية التعبد ، في مشاهدة المعبود .

وقال الجنيد : العبودية ترك الأشغال والاشتغال بالشغل الذي هو أصل الفراغة .

* * * *

(٢٢) باب الإرادة

الإرادة ملازمة الطاعات والتجرد عن المألوفات ، والإرادة سلوك طريق العبادة ، ولا يكون إلا بمتابعة سيد الكائنات ﷺ ، ولا تحسن إلا بالتلقي عن شيخ محقِّق ، قال الله عز وجل : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام : ٥٢] . وقال تعالىٰ : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾ [الشورى : ٢٠] . وقال : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات : ٥٠] .

وعن أنس رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله ، فقيل له : كيف يستعمله يا رسول الله ؟ قال : يوفقه لعمل صالح قبل الموت »(١) .

والإرادة : بدء طريق السالكين ، وهي اسم لأول منزلة القاصدين إلى الله تعالىٰ ، وإنما سميت هذه الصفة إرادة ، لأن الإرادة مقدمة كل أمر فما لم يرد العبد شيئاً لم يفعله ، فلما كان هذا أول الأمر لمن سلك طريق التوصل إلى الله تعالىٰ ، سمي إرادة ، تشبيهاً بالقصد في الأمور الذي هو مقدمتها .

والمريد من له إرادة ، كما أن العالم من له علم ، ولكن المريد في عرف هذه الطائفة من لا إرادة له ، فمن لم يتجرد عن إرادته لا يكون مريداً ، كما أن من لا إرادة له على موجب الاشتقاق لا يكون مريداً .

وتكلم الناس في الإرادة ، فأكثر المشايخ قالوا : الإرادة ترك ما عليه العادة ، وعادة الناس في الغالب التعريج في أوطان الغفلة ، والركون إلى اتباع

---

(١) أخرجه أحمد (٣/١٠٦) والترمذي (٢١٤٣) وابن حبان (٣٤١) والحاكم (١/٣٣٩) وإسناده صحيح .

الشهوة ، والإخلاد إلى ما دعت إليه المُنْية ، والمريد منسلخ عن هذه الجملة ، فصار خروجه أمارة ودلالة على صحة الإرادة ، فسميت تلك الحالة إرادة ، وهي خروج عن العادة ، فإن ترك العادة أمارة الإرادة .

فأما حقيقتها : فهي نهوض القلب في طلب الحق سبحانه ، ولهذا يقال : إنها لوعة تهوّن كل روعة .

قال ممشاد الدينوري : مذ علمت أن أحوال الفقراء جد كلها لم أمازح فقيراً ، وذلك أن فقيراً قدم عليّ فقال : أيها الشيخ : أريد أن تتخذ لي عصيدة ، فجرى على لساني إرادة وعصيدة ، فتأخر الفقير ولم أشعر به ، فأمرت باتخاذ عصيدة ، وطلبت الفقير فلم أجده ، فتعرفت خبره ، فقيل لي : انصرف من فوره ، وكان يقول في نفسه : إرادة وعصيدة ، إرادة وعصيدة ، وهام على وجهه حتى دخل البادية ، ولم يزل يقول هذه الكلمة حتى مات .

وعن بعض المشايخ قال : كنت بالبادية وحدي ، فضاق صدري ، فقلت : يا إنس كلموني ! يا جن كلموني ! فهتف بي هاتف : إيش تريد ؟ فقلت : أريد الله تعالىٰ ، فقال : متى تريد الله تعالىٰ ؟ يعني أن من قال للإنس والجن كلموني ! متى يكون مريداً لله تعالىٰ ؟ .

والمريد لا يفتر آناء الليل والنهار .

فهو في الظاهر بنعت المجاهدات ، وفي الباطن بوصف المكابدات ، فارق الفراش ، ولازم الانكماش ، وتحمل المصاعب ، وركب المتاعب ، وعالج الأخلاق ، ومارس المشاق ، وعانق الأهوال ، وفارق الأشكال ، كما قيل :

ثم قطعت الليل في مهمه[1] لا أسداً أخشى ولا ذيبا
يغلبني شوقي فأطوي السرى ولم يزل ذو الشوق مغلوبا

قال الدقّاق : الإرادة لوعة في الفؤاد ، لدغة في القلب ، غرام في

---

(١) مهمه : صحراء .

الضمير ، انزعاج في الباطن ، نيران تتأجج في القلوب .

كان بين الداراني وبين تلميذه أحمد بن أبي الحواري عهد ، لا يخالفه أحمد في شيء يأمره به ، فجاءه يوماً وهو يتكلم في مجلسه ، فقال : إن التنور قد سُجِرَ ، فما تأمر ؟ فلم يجبه ، فقال أحمد مرتين أو ثلاثة ، فقال له أبو سليمان : اذهب فاقعد فيه ، كأنه ضاق به قلبه ، وتغافل عنه أبو سليمان ساعة ، ثم ذكر فقال : أدركوا أحمد فإنه في التنور ، لأنه آلى على نفسه ألا يخالفني ، فنظروا فإذا هو في التنور لم تحترق منه شعرة .

وقال الدقَّاق : كنت في صباي محترقاً في الإرادة ، وكنت أقول في نفسي : ليت شعري ما معنى الإرادة ؟ حتى نالني منها طرف ؟ فاشتد طلبي لها .

وقيل : صفات المريدين عشرة أشياء : التحبب إليه بالنوافل ، والخلوص في نصيحة الأمة ، والأنس بالخلوة ، والصبر على مقاساة الأحكام ، والإيثار لأمره ، والحياء من نظره ، وبذل المجهود في محبوبه ، والتعرُّض لكل سبب يوصل إليه ، والقناعة بالخمول ، وعدم القرار بالقلب إلى أن يصل إلى الرب .

وقال أبو بكر الورَّاق : آفة المريد ثلاثة أشياء : التزويج ، وكتبة الحديث ، والأسفار ، وقيل له : لم تركت كتابة الحديث ؟ فقال : منعتني منها الإرادة .

وقال حاتم الأصم : إذا رأيت المريد يريد غير مراده فاعلم أنه قد أظهر نذالته .

وقال الكتَّاني : من حكم المريد أن يكون فيه ثلاثة أشياء : نومه غلبة ، وأكله فاقة ، وكلامه ضرورة .

وقال الجنيد : إذا أراد الله بالمريد خيراً أوقعه إلى الصوفية ، ومنعه صحبة القراء .

وقال الدقَّاق : نهاية الإرادة أن تشير إلى الله تعالىٰ ، فتجده مع الإشارة ،

فقلت : فأي شيء يستوعب الإرادة ؟ فقال : أن تجد الله بلا إشارة .

وقال : لا يكون المريد مريداً حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال عشرين سنة .

وقال الحيري : من لم تصح إرادته بداراً (يعني باكراً) ، لا يزيده مرور الأيام عليه إلا إدباراً .

وقال أبو عثمان : المريد إذا سمع شيئاً من علوم القوم ، فعمل به صار حكمة في قلبه إلى آخر عمره ، ينتفع به ، ولو تكلم به انتفع به من سمعه ، ومن سمع شيئاً من علومهم ، ولم يعمل به ، كان حكاية يحفظها أياماً ثم ينساها .

وقال الواسطي : أول مقام المريد إرادة الحق سبحانه بإسقاط إرادته .

وقال يحيى بن معاذ : أشد شيء على المريدين معاشرة الأضداد .

وقال يوسف بن الحسين : إذا رأيت المريد يشتغل بالرخص والكسب فليس يجيء منه شيء .

وسئل الجنيد ما للمريدين في مجاراة الحكايات ؟ فقال : الحكايات جند من جنود الله تعالىٰ ، يقوّى بها قلوب المريدين ، فقيل له : فهل لك في ذلك شاهد ، فقال : نعم قوله عز وجل : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود : ١٢٠] . وقد قصّ الله في كتابه على نبيه ﷺ ما جرى لآدم ، وإبراهيم ، ونوح ، وغيرهم . وإن العاقبة لهم .

وقال الجنيد : المريد الصادق غنيّ عن علم العلماء الذي لم تدعه إليه حاجة في إصلاح دينه ، أما ما دعته إليه حاجته في ذلك ، فهو واجب عليه .

فأما الفرق بين المريد والمراد ، فكل مريد على الحقيقة مراداً ، إذ لو لم يكن مراد الله تعالىٰ بأن يريده لم يكن مريداً ، إذ لا يكون إلا ما أراده الله عز وجل ، وكل مراد مريد لأنه إذا أراده الحق سبحانه بالخصوصية وفقه للإرادة ؛ ولكن القوم فرقوا بين المريد والمراد ، فالمريد عندهم : هو

المبتدىء ، والمراد هو المنتهي ، والمريد الذي نصب بعين التعب ، وألقي في مقاساة المشاقّ ، والمراد الذي كفي بالأمر من غير مشقة ، فالمريد مُتعنٍ ، والمراد مرفوق به مُرَفَّهٌ ، وسنة الله مع القاصدين مختلفة ، فأكثرهم يوفقون للمجاهدات ، ثم يصلون بعد مقاساة اللتيا والتي إلى سني المعالي ، وكثير منهم يكاشفون في الابتداء بجليل المعاني ، ويصلون إلى ما لم يصل إليه كثير من أصحاب الرياضات ، إلا أن أكثرهم يُرَدّون إلى المجاهدات بعد هذه الأرفاق ليستوفى منهم ما فاتهم من أحكام أهل الرياضة .

وقال الدقّاق : المريد متحمل والمراد محمول وقال : كان موسى مريداً ، فقال : رب اشرح لي صدري ، وكان نبينا ﷺ مراداً فقال الله تعالىٰ : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ [الشرح : ١ ـ ٤] ، وكذلك قال موسى عليه السلام : ﴿ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، وقال لنبينا ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ [الفرقان : ٤٥] وكان أبو علي يقول : إن المقصود بالاستدلال قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ وقوله : ﴿ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ ستر للقصة ، وتحصين للحالة ، أي : لحالة الرؤية ، وظاهر أن الآية ليست صريحة في أنه رآه ، لاحتمال أن المراد ألم تر إلى فعل ربك ، وقد اختلفوا في رؤيته ليلة المعراج ، والصحيح أنه رآه ، وبالجملة فهو ﷺ أفضل الخلق وإن لم تدل الآية على رؤيته .

وسئل الجنيد رحمه الله تعالىٰ عن المريد والمراد فقال : المريد تتولاه سياسة العلم ، والمراد تتولاه رعاية الحق ، لأن المريد يسير ، والمراد يطير ، فمتى يلحق السائر الطائر .

وقيل : أرسل ذو النون المصري إلى أبي يزيد رجلاً ، وقال له : قل له : إلى متى النوم والراحة ؟ وقد جازت القافلة ، فقال أبو يزيد : قل لأخي ذي النون : الرجل من ينام الليل كله ، ثم يصبح في المنزل قبل القافلة ، فقال ذو النون : هنيئاً له ، هذا كلام لا تبلغه أحوالنا .

* * * *

(٢٣) باب الاستقامة

الاستقامة لغة : ضد الاعوجاج ، واصطلاحاً : الاعتدال في السلوك عن الميل إلى جهة من الجهات ، ويقال : هي ألا يختار العبد على الله شيئاً ، وسببها : كمال العلم بالأحكام ، ومجاهدة النفس في كسر الهوى ، وثمرتها السلامة من الحساب ، والتخلق بشريف الآداب ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ ﴾ [فصلت : ٣٠] . وقال تعالىٰ : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ [هود : ١١٢] . وعن ثوبان عن النبي ﷺ قال : « استقيموا ولن تحصوا »[١] فالنبي ﷺ يشير إلى أن حق الاستقامة غير مقدور للبشر ، فالمطلوب من الاستقامة ما هو مقدور ومستطاع على حسب الطاقة ، « واعلموا أن خير دينكم الصلاة ، ولن يحافظ على الوضوء إلا مؤمن »[١] .

الاستقامة : درجة بها كمال الأمور وتمامها ، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها ، ومن لم يكن مستقيماً في حياته ضاع سعيه ، وخاب جهده ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا ﴾ [النحل : ٩٢] ، ومن لم يكن مستقيماً في صفته لم يرتق من مقام إلى غيره ، ولم يبن سلوكه على صحة .

فمن شرط المستأنف الاستقامة في أحكام البداية ، كما أن من حق العارف الاستقامة في آداب النهاية ، فمن أمارات استقامة أهل البداية : ألا تشوب معاملتهم فترة .

ومن أمارات استقامة أهل الوسائط : ألا يصحب منازلهم وقفة ، ومن أمارات استقامة أهل النهاية ألا يتداخل مواصلتهم حجبة .

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٧) والدارمي (١/ ١٦٨) وابن حبان (١٠٣٧) ومالك في الموطأ بلاغاً (١/ ٣٤) .

قال الدقَّاق : الاستقامة لها ثلاثة مدارج : أولها : التقويم ، ثم الإقامة ، ثم الاستقامة ، فالتقويم من حيث تأديب النفوس ، والإقامة من حيث تهذيب القلوب ، والاستقامة من حيث تقريب الأسرار ، فالأول تمحيص ، والثاني تحقيق ، والثالث توفيق .

والاستقامة : بالنظر إلى محالها خمسة أنواع : استقامة اللسان ، واستقامة القلب ، واستقامة النفس ، واستقامة الروح ، واستقامة السر ، فالأولى بالنطق بالحكمة ، والثانية بصدق الهمة ، والثالثة بحسن الخدمة ، والرابعة بتعظيم الحرمة ، والخامسة بالاشتغال بالمنعم دون النعمة .

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في معنى قوله ﴿ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ ﴾ لم يشركوا ، وقال عمر : لم يروغوا روغان الثعالب ، فقول الصديق محمول على مراعاة الأصول في التوحيد ، وقول عمر رضي الله عنه محمول على طلب التأويل ، والقيام بشروط العهود .

وقال ابن عطاء : استقاموا على انفراد القلب بالله تعالىٰ .

وقال أبو علي الجوزجاني : كن صاحب الاستقامة ، لا طالب الكرامة ، فإن نفسك متحركة في طلب الكرامة ، وربك يطالبك بالاستقامة .

قال أبو علي الشبُوي : رأيت النبي ﷺ في المنام ، فقلت له : روي عنك يا رسول الله أنك قلت : شيبتني هود فما الذي شيَّبك منها ؟ قصص الأنبياء ؟ وهلاك الأمم ؟ فقال : لا ، ولكن قوله تعالىٰ : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ [هود : ١١٢] . يدل على أن الاستقامة تكون بحسب المعرفة ، فمن كملت معرفته بربه عظم عنده أمره ونهيه ، فإذا سمع كما أمرت علم أنه طولب باستقامة تليق بمعرفته بكمال الأمر له .

وحقيق لمن فهم ذلك أن يشيب ، إذ لا يطيق أحد أن يأتي بعبادة على حسب ما يعرف من عظمة ربه ، بل لا بد أن يستصغر جميع ما يأتي به وإن كان كاملاً ، بالإضافة إلى عظمة ربه ، ولذلك لما نزل قوله تعالىٰ : ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] قلقت الصحابة خوفاً من كونهم لا يقدرون على القيام

بمعنى ذلك ، فأنزل الله رحمة لهم : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] .

وقيل : إن الاستقامة لا يطيقها إلا الأكابر ، لأنها الخروج عن المعهودات ، ومفارقة الرسوم والعادات ، والقيام بين يدي الله تعالىٰ على حقيقة الصدق ، ولذلك قال ﷺ : « استقيموا ولن تحصوا »[١] .

وقال الواسطي : الخصلة التي بها كملت المحاسن ، وبفقدها قبحت المحاسن ، الاستقامة .

وقال الشبلي : الاستقامة : أن تشهد الوقت قيامة .

ويقال : الاستقامة في الأقوال بترك الغيبة ، وفي الأفعال بنفي البدعة ، وفي الأعمال بنفي الفترة ، وفي الأحوال بنفي الحجبة .

وقال ابن فورك : السين في الاستقامة سين الطلب ، أي : طلبوا من الحق أن يقيمهم على توحيدهم ، ثم على استدامة عهودهم ، وحفظ حدودهم .

والاستقامة توجب دوام الكرامات ، قال تعالىٰ : ﴿ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴾ [الجن : ١٦] ولم يقل : سقيناهم بل قال : لأسقيناهم ، يقال : أسقيت إذا جعلت له سقيا ، وسقيته إذا ناولته ليشرب ، فهو يشير إلى الدوام .

قال الجنيد : لقيت شاباً من المريدين في البادية ، تحت شجرة من شجر أم غيلان ، فقلت : ما أجلسك هاهنا ؟ فقال : مال افتقدته ، فمضيت وتركته ، فلما انصرفت من الحج ، إذا أنا بالشاب قد انتقل إلى موضع قريب من الشجرة ، فقلت : ما جلوسك هاهنا ؟ فقال : وجدت ما كنت أطلبه في هذا الموضع فلزمته ، قال الجنيد : فلا أدري أيّ حاليه كان أشرف ، لزومه لافتقاد حاله ، أو لزومه للموضع الذي نال فيه مراده .

* * *

---

(١) تقدم تخريجه ص (٢٨٦) .

(٢٤) باب الإخلاص

الإخلاص : هو روح سر القبول ، ومن أعظم أسباب بلوغ المأمول ، ومن أمارات السعادة الأبدية ، وسببه : علم العبد باحتياجه إليه في العمل النافع له ، في دنياه وآخرته ؛ وثمرته السلامة من العقاب والعتاب ، ونيل علو الدرجات في الجنات ، وهو ممدوح ومطلوب ، قال الله عز وجل : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر : ٣] . وقال : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة : ٥] .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله ﷺ : « ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم (لا يحقد) إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين »[١] ، فمن تعمّر قلبه بالثلاثة ، سلم من الخيانة والحقد .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري : الإخلاص إفراد الحق في الطاعة بالقصد ، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله دون شيء آخر ، من تصنع لمخلوق ، أو اكتساب محمدة عند الناس ، أو محبة مدحٍ من الخلق ، أو معنى من المعاني سوى التقرب به إلى الله تعالىٰ .

فدرجات الإخلاص ثلاث ، عليا ، ووسطى ، ودنيا ، فالعليا أن يعمل العبد لله وحده ، امتثالاً لأمره ، وقياماً بحق عبوديته . والوسطى أن يعمل لثواب الآخرة . والدنيا أن يعمل للإكرام في الدنيا والسلامة من آفاتها ، وما عدا الثلاث من الرياء ، وإن تفاوتت أفراده . فالإخلاص تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين ، والإخلاص التوقي عن ملاحظة الأشخاص ، وقد ورد خبر مسند : أن النبي ﷺ أخبر عن جبريل عن الله سبحانه أنه قال : « الإخلاص

---

(١) أخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان (٢/ ٩٠ و٣٠٠) بلفظ « ثلاثة لا يغل عليهن قلب مسلم .. إلخ » .

سر من سري ، استودعته قلب من أحببته من عبادي »[1] .

قال الدقَّاق : الإخلاص التوقي عن ملاحظة الخلق ، والصدق التنقي من مطالعة النفس .

فالمخلص لا رياء له ، والصادق لا إعجاب له .

وقال ذو النون المصري : الإخلاص لا يتم إلا بالصدق فيه ، والمداومة عليه .

وقال السوسي : متى شهدوا في إخلاصهم الإخلاص ، احتاج إخلاصهم إلى إخلاص .

وقال ذو النون : ثلاث من علامات الإخلاص : استواء المدح والذم من العامة ، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال ، ونسيان اقتضاء ثواب العمل في الآخرة .

وقال المغربي : الإخلاص ما لا يكون للنفس فيه حظ بحال ، وهذا إخلاص العوام . وأما إخلاص الخواص : فهو ما يجري عليهم من ربهم لا بهم ، فتبدو منهم الطاعات وهم عنها بمعزل ، ولا يقع لهم عليها رؤية ولا بها اعتداد ، فذلك إخلاص الخواص .

وقال أبو بكر الدقَّاق : نقصان كل مخلص في إخلاصه رؤية إخلاصه ، فإذا أراد الله تعالىٰ لعبد أن يخلص إخلاصه أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه ، فيكون مخلَصاً من أخلصه الله من كل شوب لا مخلِصاً .

وقال سهل : لا يعرف الرياء إلا مخلص .

وقال الخرَّاز : رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين .

وقال ذو النون : الإخلاص ما حفظ من العدو أن يفسده .

وقال أبو عثمان : الإخلاص نسيان رؤية الخلق، بدوام النظر إلى فضل الخالق.

وقال المرعشي : الإخلاص أن تستوي أفعال العبد في الظاهر والباطن .

---

(١) أخرجه الحافظ العراقي مرسلاً في تخريج أحاديث الإحياء (٥/ ١٣٠) .

وقيل : الإخلاص ما أريد به الحق وقصد به الصدق ، وقيل : الإخلاص الإغماض عن رؤية الأعمال .

وقال السري : من تزيَّن للناس بما ليس فيه سقط من عين الله تعالىٰ .

وقال الفضيل : ترك العمل من أجل الناس رياء ، والعمل من أجل الناس شرك ، والإخلاص أن يعافيك الله منهما .

وقال الجنيد : الإخلاص سرّ بين الله تعالىٰ وبين العبد ، لا يعلمه ملك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده ، ولا هوى فيمليه .

وقال رويم : الإخلاص في العمل هو الذي لا يريد عليه صاحبه عوضاً من الدارين ، ولا حظاً من الملكين .

وقيل لسهل بن عبد الله : أي شيء أشد على النفس ؟ فقال : الإخلاص ، لأنه ليس لها فيه نصيب .

وسئل بعضهم عن الإخلاص فقال : ألا تشهد على عملك غير الله تعالىٰ .

وقال بعضهم : دخلت على سهل بن عبد الله يوم الجمعة قبل الصلاة بيتاً ، فرأيت في البيت حيَّة ، فجعلت أقدم رجلاً وأؤخر أخرى ، فقال : ادخل لا يبلغ أحد حقيقة الإيمان وعلى وجه الأرض شيء يخافه ، ثم قال : هل لك في صلاة الجمعة ؟ فقلت : بيننا وبين المسجد مسيرة يوم وليلة ، فأخذ بيدي فما كان إلا قليل ، حتى رأيت المسجد ، فدخلناه وصلينا الجمعة ، ثم خرجنا فوقف ينظر إلى الناس وهم يخرجون ، فقال : أهل لا إله إلا الله كثير ، والمخلصون منهم قليل .

عن مكحول قال : ما أخلص عبد قط أربعين يوماً إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه .

وقال يوسف بن الحسين : أعز شيء في الدنيا الإخلاص ، وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي ، فكأنه ينبت فيه على لون آخر .

وقال الداراني : إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس ، والرياء .

(٢٥)باب الصدق

الصدق : هو الحكم المطابق للواقع ، ومحله اللسان والقلب والأفعال ، وكل منها يحتاج إلى لفظ يخصه، فهو في اللسان الإخبار عن الشيء على ما هو عليه، وفي القلب العزم الأكيد، وفي الأفعال إيقاعها على وجه النشاط والجد.

وسببه الوثوق بخبر المتصف به ، وثمرته مدح الله والخلق للمتصف به ، قال الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] .

وعن عبد الله بن مسعود ، عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يزال العبد يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، ولا يزال يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »(١) .

قال القشيري : الصدق عماد الأمر ، وبه تمامه ، وفيه نظامه ، وهو ثاني درجة النبوة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ ﴾ [النساء : ٦٩] .

والصادق الاسم اللازم من الصدق ، والصِّدِّيق المبالغة منه ، وهو الكثير الصدق الذي الصدق غالبه ، كالسِّكِّير والخمّير .

وأقل الصدق استواء السرّ والعلانية ، والصادق من صدق في أقواله وأفعاله وأحواله ، وقال أحمد بن خضرويه : من أراد أن يكون الله معه فيلزم الصدق ، فإن الله تعالىٰ قال : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ ﴾ [النساء : ٦٩] .

وقال الجنيد : الصادق يتقلب في اليوم أربعين مرة ، والمرائي يثبت على

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٤) ومسلم (٢٦٠٧) .

حال واحدة أربعين سنة .

وقال الداراني : لو أراد الصادق أن يصف ما في قلبه ما نطق به لسانه . وقيل : الصدق القول بالحق في مواطن الهلكة . وقيل : الصدق موافقة السرّ النطق ، وقال القنّان : الصدق منع الحرام من الشدق .

وقال عبد الواحد بن زيد : الصدق الوفاء لله سبحانه بالعمل .

قال سهل بن عبد الله : لا يشم رائحة الصدق عبد داهن نفسه أو غيره .

وقال أبو سعيد القرشي : الصادق الذي يتهيأ له أن يموت ولا يستحيي من سرّه لو كشف ، قال الله تعالىٰ : ﴿ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة : ٩٤] .

كان أبو علي السقفي يتكلم يوماً ، فقال له عبد الله بن منازل : يا أبا علي : استعد للموت فلا بد منه . فقال أبو علي : وأنت يا عبد الله استعد للموت ، فلا بد منه ، فتوسد عبد الله ذراعه ووضع رأسه ، وقال : قد متّ ، فانقطع أبو علي لأنه لا يمكنه أن يقابله بما فعل ، لأنه كان لأبي علي علاقات ، وكان عبد الله مجرّداً لا شغل له .

وكان الدينوري يتكلم ، فصاحت عجوز في المجلس صيحة ، فقال لها أبو العباس : موتي ، فقامت وخطت خطوات ، ثم التفتت إليه وقالت : قد متّ ، ووقعت ميتة .

قال الواسطي : الصدق صحة التوحيد مع القصد .

وقيل : نظر عبد الواحد بن زيد إلى غلام من أصحابه قد نَحِلَ بدنه ، فقال له : يا غلام : أتديم الصوم ؟ فقال : لا ولا أديم الإفطار ! فقال : أتديم القيام بالليل ؟ فقال : لا ولا أديم النوم ، فقال : فما الذي أنحلك ؟ فقال : هوى دائم ، وكتمان دائم عليه ، فقال عبد الواحد : اسكت فما أجرأك ، فقام الغلام فخطا خطوتين وقال : إلهي إن كنت صادقاً فخذني ، فخرّ ميتاً .

وحكي عن الزجاجي أنه قال : ماتت أمي ، فورثت منها داراً ، فبعتها

بخمسين ديناراً ، فخرجت إلى الحج ، فلما بلغت بابل ، استقبلني واحد من القناقنة ، جمع قنقن وهو البصير بالماء ، وقال إيش معك ؟ فقلت في نفسي الصدق خير ، ثم قلت : خمسون ديناراً . فقال : ناولنيها ، فناولته الصرة ، فعدّها ، فإذا هي خمسون ديناراً ، فقال خذها فلقد أخذني صدقك ، ثم نزل عن الدابة ، وقال : اركبها فقلت : لا أريد الركوب فقال : لابد وألحّ علي فركبتها ، فقال : وأنا على أثرك ، فلما كان العام المقبل لحق بي ولازمني حتى مات .

وقال إبراهيم الخواص : الصادق لا تراه إلا في فرض يؤديه ، أو فضل يعمل فيه .

وقال الجنيد : حقيقة الصدق أن تصدق في موطن لا ينجيك فيه إلا الكذب . وقيل : ثلاثة لا تخطىء الصادق ، الحلاوة ، والهيبة ، والملاحة .

وقيل : أوحى الله إلى داود عليه السلام ، يا داود من صدقني في سريرته ، صدقته عند المخلوقين في علانيته .

وقال ذو النون المصري رحمه الله تعالىٰ : الصدق سيف الله ما وضع على شيء إلا قطعه .

وقال سهل بن عبد الله : أول خيانة الصديقين حديثهم مع أنفسهم .

وسئل فتح الموصلي عن الصدق ، فأدخل يده في كير الحداد ، وأخرج الحديدة المحماة ووضعها على كفه ، وقال : هذا هو الصدق ؛ وهو من باب صدق الالتجاء إلى الله ، فإذا أراد الولي أن يطلع أحداً على خوارق العادات للحاجة إليه ، صدق في الالتجاء إلى الله ، وفعل فعلاً خارقاً للعادة ، بإقدار الله عليه ، ومن ذلك ما حكي أن رجلاً كان شديداً في بطشه ، لا يطيقه من الناس إلا قليل ، أمسك امرأة وهي تصيح وتستغيث ، وبيده سكين لا يجسر أحد أن يقرب منه إلا عقره ، قال : فبينا الناس كذلك ، إذ جاءه بشر بن الحارث ، فحكه بكتفه ، وكلّمه بقوله : « الله يراك وما تصنع » فسقط إلى الأرض مغشياً عليه ، وذهبت المرأة ، فلما أفاق سأل عن الذي كلمه ، فقيل :

هو بشر بن الحارث . فقال : وافضيحتاه كيف يراني بعد اليوم ؟ فحمّ الرجل من يومه ، ومات بعد أيام قلائل .

وقال يوسف بن أسباط : لأن أبيت ليلة أعامل الله تعالىٰ بالصدق ، أحب إلي من أن أضرب بسيفي في سبيل الله تعالىٰ .

وقال الدقّاق : الصدق أن تكون مع الناس كما ترى من نفسك ، أو أن ترى من نفسك كما تكون .

وسئل الحارث المحاسبي رحمه الله عن علامة الصدق ، فقال : الصادق هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه ، ولا يحب اطلاع الناس على مثاقيل الذر من عمله ، ولا يكره أن يطلع الناس على السيء من عمله ، فإن كراهته لذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم ، وليس هذا من أخلاق الصديقين .

وقال بعضهم : من لم يؤد الفرض الدائم لا يقبل منه الفرض المؤقت ، قيل له : ما الفرض الدائم ؟ قال : الصدق ، والمؤقت كالصلوات الخمس .

وقيل : إذا طلبت الله بالصدق أعطاك مرآة تبصر كل شيء فيها من عجائب الدنيا والآخرة .

وقيل : عليك بالصدق حيث تخاف أنه يضرك ، فإنه ينفعك ، ودع الكذب حيث ترى أنه ينفعك ، فإنه يضرك .

وقيل : كل شيءٍ شيءٌ ، ومصادقة الكذاب لا شيء .

وقيل : علامة الكذاب جوده باليمين لغير مستحلف .

وقال ابن سيرين : الكلام أوسع من أن يكذب ظريف ، وقيل : ما أملق تاجر صدوق أي : ما افتقر .

* * * *

(٢٦) باب الحياء

الحياء صفة ، وحالة توجب الانقباض ، والتغير عند بدوّ ما يستحيا منه ، وهو نوعان : حياء من الحق ، وحياء من الخلق فمن جمعهما جمع خير الدنيا والآخرة ، قال عليه الصلاة والسلام : « الحياء خير كله »[١] . وقال : « الحياء لا يأتي إلا بخير »[٢] . وقال : « الحياء من الإيمان »[٣] . وقال : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت »[٤] . والحياء : جبليٌّ ومكتسب . وسببه ملازمة من يستحيا منه ، وثمرته أمن المقت والعذاب ، وخفة الحساب ، وعدم الدعوى ، وكثرة الثواب ، ويكفي في ذلك خبر « الحياء لا يأتي إلا بخير » . قال الله عز وجل : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق : ١٤] .

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسولُ الله ﷺ : « الحياء من الإيمان » . وقال ﷺ ذات يوم لأصحابه : « استحيوا من الله حق الحياء ، قالوا : إنا نستحيي يا رسول الله والحمد لله ، قال : ليس ذلك ، ولكن من استحيا من الله حق الحياء ، فليحفظ الرأس وما وعى ، وليحفظ البطن وما حوى ، وليذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء »[٥] .

وقال بعض الحكماء : أحيوا الحياء بمجالسة من يستحيا منه .

وقال ابن عطاء : العلم الأكبر الهيبة والحياء ، فإذا ذهبت الهيبة والحياء

---

(١) أخرجه مسلم (٣٧) (٦١) .

(٢) أخرجه البخاري (٦١١٧) عن عمران بن حصين رضي الله عنه .

(٣) أخرجه البخاري (٢٤) ومسلم (٣٦) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما .

(٤) أخرجه البخاري (٦١٢٠) عن أبي مسعود رضي الله عنه .

(٥) أخرجه الإمام أحمد (١/٣٧٨) والترمذي (٢٤٥٨) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

في قلب العبد لم يبق فيه خير .

وقال ذو النون المصري : الحياء وجود الهيبة في القلب مع وحشة ما سبق منك إلى ربك تعالىٰ .

وقال أيضاً : الحب ينطق ، والحياء يسكت ، والخوف يقلق .

وقال أبو عثمان : من تكلم في الحياء وهو لا يستحي من الله تعالىٰ فيما يتكلم به ، فهو مستدرج .

سئل عبد الله بن منازل من أين تجيء ؟ قال : من مجلس أبي القاسم المذكّر فقال : فيماذا كان يتكلم ؟ فقال : في الحياء ، فقال عبد الله : واعجباه من لم يستح من الله كيف يتكلم في الحياء ؟

وقال السري : إن الحياء والأنس يطرقان القلب ، فإذا وجدا فيه الزهد والورع حطّا ، وإلا رحلا .

وقال الجريري : تعامل القرن الأول من الناس فيما بينهم بالدين حتى رقَّ الدين ، ثم تعامل القرن الثاني حتى ذهب الوفاء ، ثم تعامل القرن الثالث بالمروءة حتى ذهبت المروءة ، ثم تعامل القرن الرابع بالحياء حتى ذهب الحياء ، ثم صار الناس يتعاملون بالرغبة والرهبة .

وقيل في قوله تعالىٰ : ﴿ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ ﴾ [القصص : ٢٥] قيل : إنما استحيت منه ، لأنها كانت تدعوه إلى الضيافة ، فاستحيت ألا يجيبها إليها موسى عليه السلام ، فيفوتها مقصودها ، فصفة المضيف الاستحياء ، وذلك استحياء الكرم ، وقيل : إنها دعته ليأخذ أجر ما سقى ، والدعاء لأخذ الأجرة ممن شيمته الكرم مؤلمٌ له ، فاستحيت مما في نفسها مما ذكرته له بقوله : ﴿ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ ﴾ [القصص : ٢٥] .

وقال الداراني : قال الله تعالىٰ : يا عبدي إنك ما استحييت مني ، أنسيت الناس عيوبك ، وأنسيت بقاع الأرض ذنوبك ، ومحوت من أم الكتاب زلاتك ، ولا أناقشك في الحساب يوم القيامة .

وقيل : رؤي رجل يصلي خارج المسجد ، فقيل له : لم لا تدخل المسجد فتصلي فيه ؟ فقال : أستحي منه تعالىٰ أن أدخل بيته ، وقد عصيته .

وقيل من علامات المستحي ألا يرى بموضع يستحيا منه .

وقال بعضهم : خرجنا ليلة ، فمررنا بأجمة ، فإذا رجل نائم وفرس عند رأسه ترعى ، فحركناه ، وقلنا له : ألا تخاف أن تنام في مثل هذا الموضع المخوف ؟ وهو مسبع ، فرفع رأسه وقال : أنا أستحي منه تعالىٰ أن أخاف غيره ، ووضع رأسه ونام . وأوحى الله سبحانه إلى عيسى عليه السلام : عظ نفسك ، فإن اتعظت فعظ الناس ، وإلا فاستحي مني أن تعظ الناس .

وقيل الحياء على وجوه :

حياء الجناية، كآدم عليه السلام لما قيل له : أفراراً منا ؟ فقال : لا بل حياء منك.

وحياء التقصير ، كالملائكة يقولون : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك .

وحياء الإجلال ، كإسرافيل عليه السلام تسربل بجناحه حياء من الله سبحانه .

وحياء الكرم كالنبي ﷺ كان يستحي من أمته أن يقول لهم : اخرجوا . فقال الله عز وجل ولا تسألني الحديث .

وحياء حشمة وهو قد يرجع إلى حياء الإجلال ، كعلي بن أبي طالب رضي الله عنه حين سأل المقداد بن الأسود حتى سأل رسول الله ﷺ عن حكم خروج المذي ، لمكان فاطمة رضي الله عنها .

وحياء الاستحقار كموسى عليه السلام قال : إني لتعرض لي الحاجة من الدنيا فاستحيي أن أسألكها يا رب ، فقال الله عز وجل له : سلني حتى ملح عجينك وعلف شاتك .

وحياء الإنعام هو حياء الرب سبحانه وتعالىٰ يدفع إلى العبد كتاباً مختوماً بعدما عبر الصراط ، وإذا فيه فعلت ، ما فعلت ولقد استحييت أن أظهره عليك

فاذهب فإني قد غفرت لك .

وقال الدقَّاق في هذا الخبر : إن يحيى بن معاذ قال : تنزيه الله تعالىٰ وبعده عن مشابهة خلقه ، سبحان من يذنب العبد ، أي : عبده ، فيستحيي هو منه فلا يفضحه ، ويعفو عنه .

وقال الفضيل بن عياض : خمس من علامات الشقاء : القسوة في القلب ، وجمود العين ، وقلة الحياء ، والرغبة في الدنيا ، وطول الأمل .

وفي بعض الكتب : ما أنصفني عبدي ، يدعونني فأستحي أن أرده ويعصيني فلا يستحي مني ، وقال : يحيى بن معاذ ، من استحيا من الله مطيعاً استحيا الله تعالىٰ منه وهو مذنب .

واعلم أن الحياء يوجب التذويب ، فيقال : الحياء ذوبان الحشا لاطلاع المولى ، ويقال : الحياء انقباض القلب لتعظيم الرب ، وقيل : إذا جلس الرجل ليعظ الناس ، ناداه ملك : عظ نفسك بما تعظ به أخاك ، وإلا فاستحي من سيدك فإنه يراك .

وسئل الجنيد عن الحياء فقال : رؤية الآلاء ، ورؤية التقصير ، فيتولد من بينهما حالة تسمى الحياء .

وقال الواسطي : لم يذق لذعات الحياء من لابس خرق حد أو نقض عهد .

وقال الواسطي أيضاً : المستحي يسيل منه العرق وهو الفضل الذي فيه ، وما دام في النفس شيء فهو مصروف عن الحياء .

سمعت الدقَّاق رحمه الله يقول : الحياء ترك الدعوى بين يدي الله تعالىٰ .
وقال الورَّاق : ربما أصلي لله تعالىٰ ركعتين فأنصرف عنهما ، وأنا بمنزلة من ينصرف عن السرقة من الحياء .

* * * *

(٢٧) باب الحرّية

هو ألا يكون العبد تحت رق المخلوقات ، ويقال : الإعراض عن الكل ، والإقبال على من له الكل ، قال الله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] .

قال القشيري : إنما آثروا على أنفسهم لتحررهم عما خرجوا عنه ، وآثروا به .

عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا : إنما يكفي أحدكم ما قنعت به نفسه ، وإنما يصير إلى أربعة أذرع وشبر ، وإنما يرجع الأمر إلى آخره .

قال : الحرية ألا يكون العبد تحت رق المخلوقات ، ولا يجري عليه سلطان المكوّنات ، وعلامة صحته : سقوط التمييز عن قلبه بين الأشياء ، فيتساوى عنده أخطار الأعراض . قال حارثة رضي الله عنه لرسول الله ﷺ : عزفت نفسي عن الدنيا ، فاستوى عندي حجرها وذهبها .

قال الدقَّاق : من دخل الدنيا وهو عنها حر ارتحل إلى الآخرة وهو عنها حر .

وقال الدقَّاق : من كان في الدنيا حراً منها كان في الآخرة حراً منها .

واعلم أن حقيقة الحرية في كمال العبودية ، فإذا صدقت لله عبوديته خلصت عن رقِّ الأغيار حريته ، فأما من توهَّم أن العبد يسلم له أن يخلع وقتاً عِذار العبودية ، ويحيد بلحظه عن حد الأمر والنهي ، وهو مميز في دار التكليف ، فذلك انسلاخ من الدين ، قاله الجنيد .

قال الله سبحانه لنبيه ﷺ : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر : ٩٩] يعني الأجل وعليه أجمع المفسرون .

وإن الذي أشار إليه القوم من الحرية هو ألا يكون العبد بقلبه ، تحت رق شيء من المخلوقات ، لا من أعراض الدنيا ، ولا من أعراض الآخرة ، فيكون فرد الفرد ، لم يسترقه عاجل دنيا ، ولا حاصل هوى ، ولا آجل مُنىً ، ولا سؤال ، ولا قصد ولا أرب ولا حظ .

وقيل للشبلي : ألا تعلم أنه تعالىٰ رحمن ؟ فقال : بلى ، ولكن منذ عرفت رحمته ، ما سألته أن يرحمني . ومقام الحرية عزيز ، قال السياري : لو صحت صلاة بغير قرآن لصحت بهذا البيت وهو :

أتمنـــى علـــى الـــزمـــان محـــالا　　　أن ترى مقلتاي طلعة حرّ خالص

بألا يذل لطمع في الدنيا ، ولا يعمل لعوض في أخرى .

وقال الحسين بن منصور : من أراد الحرية فليصِلِ العبودية .

وسئل الجنيد عمن لم يبق عليه من الدنيا إلا مقدار مص نواة ، فقال : المكاتب عبد ما بقي عليه درهم .

وقال الجنيد : إنك لا تصل إلى صريح الحرية ، وعليك من حقيقة عبوديته بقية .

وقال بشر الحافي : من أراد أن يذوق طعم الحرية ويستريح من العبودية ، فليطهر السريرة بينه وبين الله تعالىٰ .

وقال الحسين بن منصور : إذا استوفى العبد مقامات العبودية كلها ، يصير حراً من تعب العبودية ، فيترسم بالعبودية بلا عناء ولا كلفة ، وذلك مقام الأنبياء والصديقين ، يعني يصير محمولاً لا يلحقه بقلبه مشقة ، وإن كان متحلياً بها شرعاً .

قال منصور الفقيه : ما بقي في الأنس حر ولا في الجن حر ، قد مضى حر الفريقين ، فحلو العيش مر .

واعلم أن معظم الحرية في خدمة الفقراء .

قال الدقّاق : أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام : إذا رأيت لي

طالباً فكن له خادماً ، وقال ﷺ : « سيد القوم خادمهم »[1] .

وقال يحيى بن معاذ : أبناء الدنيا تخدمهم الإماء والعبيد ، وأبناء الآخرة تخدمهم الأحرار والأبرار .

قال إبراهيم بن أدهم : إن الحر الكريم يخرج من الدنيا قبل أن يخرج منها .

وقال إبراهيم بن أدهم : لا تصحب إلا حراً كريماً يسمع ولا يتكلم .

* * * *

---

(١) ذكره السيوطي في الجامع الصغير (٢/ ٥٤٠) .

(٢٨) باب الذكر

الذكر عبادة باللسان بموافقة الجنان .

الذكر إذا دام وجب الحضور في حضرة المذكور .

الذكر قربة للجاهل الغافل ، وتقريب للعاقل العالم .

الذكر بالجهر يكون مع شهود الغيبة ، والغفلة ، لعوام المؤمنين . والإسرار به من شأن الخواص المقربين .

ذكر الفاني بالشهود هو الغاية والمقصود ، وشتان بين من ذكر ليستنير ، وبين من وجد قبل ذكر التنوير ، من زعم أنه ذاكر للمذكور فقد غفل عن الحضور . موجب وجود ذكرك يا إنسان ، ما جبلت عليه من السهو والنسيان .

الذكر لساني وقلبي وأفضله ما جمعهما ، مما جاء به الكتاب العزيز ، ثم ما أمر الله به رسولًا من رسله ، أو نبياً من أنبيائه مما جاء به الكتاب ، وأرفعها : تلاوة القرآن .

والذكر على معنى الثناء على الله أفضل من الدعاء والتذلُّل .

والذكر مطلوب في جميع الأوقات ، لا يختص بوقت دون وقت ، بخلاف غيره من العبادات .

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير من إعطاء الذهب والورق ، وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ، ويضربوا أعناقكم » . قالوا : ما ذاك يا رسول الله ؟ قال : « ذكر الله تعالىٰ »[١] .

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧٤) وابن ماجه (٣٧٩٠) والحاكم (١/ ٤٩٦) .

وعن أنس رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة على أحد يقول : الله الله »[1] .

وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض : الله الله » .

والذكر ركن قوي في طريق الله سبحانه ، بل هو العمدة في هذا الطريق ، ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر .

والذكر على ضربين : ذكر اللسان ، وذكر القلب ، فذكر اللسان به يصل العبد إلى استدامة ذكر القلب ، والتأثير لذكر القلب ، فإذا كان العبد ذاكراً بلسانه وقلبه فهو الكامل في وصفه ، في حال سلوكه .

قال الدقَّاق : الذكر منشور الولاية ، فمن وفق للذكر فقد أعطي المنشور ، ومن سلب الذكر فقد عزل .

وقيل : إن الشبلي كان في ابتداء أمره ينزل كل يوم سرباً ، ويحمل مع نفسه حزمة من القضبان ، فكان إذا دخل قلبه غفلة ضرب نفسه بتلك الخشب حتى يكسرها على نفسه ، فربما كانت الحزمة تفنى قبل أن يمسي ، فكان يضرب بيديه ورجليه على الحائط .

وقيل : ذكر الله بالقلب سيف المريدين ، به يقاتلون أعداءه ، وبه يدفعون الآفات التي تقصدهم ، وإن البلاء إذا أظل العبد ، فإذا فزع بقلبه إلى الله سبحانه يحيد عنه في الحال كل ما يكرهه .

وسئل الواسطي عن الذكر فقال : الخروج عن ميدان الغفلة إلى فضاء المشاهدة على غلبة الخوف ، وشدة الحب له .

قال ذو النون المصري : من ذكر الله تعالىٰ ذكراً على الحقيقة نسي في جنب ذكره كل شيء ، وحفظ الله تعالىٰ عليه كل شيء ، وكان له عوضاً عن كل شيء .

---

(١) أخرجه أحمد (٣/١٠٧) ومسلم (٣٧٤) .

وسئل أبو عثمان فقيل له : نحن نذكر الله تعالىٰ ولا نجد في قلوبنا حلاوة ؟ فقال : احمدوا الله على أن زيّن جارحة من جوارحكم بطاعته .

وفي الخبر المشهور عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها » فقيل له : وما رياض الجنة ؟ فقال : « مجالس الذكر »[(١)] .

وعن جابر بن عبد الله قال : خرج علينا رسول الله ﷺ فقال : « أيها الناس ارتعوا في رياض الجنة » . قلنا يا رسول الله : ما رياض الجنة ؟ قال : « مجالس الذكر » . قال : اغدوا ، وروحوا واذكروا . من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده فإن الله سبحانه ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه[(٢)] .

وقال الشبلي : أليس الله تعالىٰ يقول : أنا جليس من ذكرني ؟ ما الذي استفدتم من مجالسة الحق تعالىٰ ؟ وأنشد :

ذكـرتـك لا أنـي نسيتـك لمحـة ... وأيسر ما في الذكر ذكر لساني
وكدت بلا وجد أموت من الهوى ... وهـام علـيّ القلـب بـالخفقـان
فلما أراني الوجد أنك حاضري ... شهـدتـك مـوجـوداً بكـل مكـان
فخـاطبـت مـوجـوداً بغيـر تكلـم ... ولاحظـت معلـومـاً بغيـر عيـان

ومن خصائص الذكر أنه غير مؤقت ، بل ما من وقت من الأوقات إلا والعبد مأمور بذكر الله ، إما فرضاً ، وإما ندباً .

والصلاة وإن كانت أشرف العبادات ، فقد لا تجوز في بعض الأوقات . والذكر بالقلب مستدام في عموم الحالات . قال الله تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٩١] .

وقال ابن فورك : قياماً بحق الذكر وقعوداً عن الدعوى فيه .

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٠) والترمذي (٣٥١٠) .

(٢) أخرجه أبو يعلى (١٨٦٥) والطبراني في الدعاء (١٨٩١) والحاكم (١/ ٤٩٤) والبيهقي في الشعب (٥٢٨) .

قال الدقَّاق : الذكر أتم من الفكر ، لأن الحق سبحانه يوصف بالذكر ، ولا يوصف بالفكر ، وما وصف به الحق تعالىٰ نفسه أتم مما اختص به الخلق .

وقال الكتاني : لولا أن ذكره فرض علي لما ذكرته ، إجلالًا له مثلي يذكره ، ولم يغسل فمه بألف توبة متقبلة عن ذكره ، وسمعت الدقَّاق ينشد :

ما إن ذكرتك إلا همّ يزجرني ... قلبي وسري وروحي عند ذكراكا
حتى كأن رقيباً منك يهتف بي ... إيـاك ويحـك والتـذكـار إيـاكـا

ومن خصائص الذكر جعل في مقابلته الذكر . قال تعالىٰ : ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ [البقرة : ١٥٢] .

وفي خبر إن جبريل عليه السلام قال لرسول الله ﷺ : « إن الله يقول : أعطيت أمتك ما لم أعط أمة من الأمم ، فقال : وما ذاك يا جبريل ؟ قال : قوله تعالىٰ : ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾ . لم يقل تعالىٰ هذا لأحد غير هذه الأمة » .

وقيل : إن الملك يستأمر الذاكر في قبض روحه .

وفي بعض الكتب : إن موسى عليه السلام قال : يا رب أين تسكن ؟ فأوحى الله تعالىٰ إليه : في قلب عبدي المؤمن .

ومعناه سكون الذكر في القلب . فإن الحق سبحانه وتعالىٰ منزه عن كل سكون وحلول ، وإنما هو إثبات ذكر وتحصيل .

وقال ذو النون : الذكر غيبة الذاكر عن الذكر ، وأنشد :

لا لأني أنساك أكثر ذكرا ... ك ولكن بذاك يجري لساني

وقال سهل بن عبد الله : ما من يوم إلا والجليل سبحانه ينادي !! يا عبدي ما أنصفتني ! أذكرك وتنساني ! وأدعوك إليَّ وتذهب إلى غيري ! وأذهب عنك البلايا ! وأنت معتكف على الخطايا ! يا ابن آدم ما تقول غداً إذا جئتني .

وقال الداراني : إن في الجنة قيعاناً ، فإذا أخذ الذاكر في الذكر ، أخذت

الملائكة في غرس الأشجار ، فربما يقف بعض الملائكة ، فيقال له لم وقفت ؟ فيقول : فتر صاحبي .

وقال الحسن : تفقدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء : في الصلاة ، والذكر ، وقراءة القرآن ، فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق ، ﴿ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [محمد : ٢١] .

وقال حامد الأسود : كنت مع إبراهيم الخوَّاص ، فجئنا إلى موضع فيه حيات كثيرة ، فوضع ركوته وجلس وجلست معه ، فلما كان برد الليل وبرد الهواء ، خرجت الحيَّات ، فصحت بالشيخ فقال : اذكر الله ، فذكرت فرجعت ، ثم عادت فصحت به ، فقال : مثل ذلك ، فلم أزل إلى الصباح في تلك الحالة ، فلما أصبحنا قام ومشى ومشيت معه ، فسقطت من وطائه حية عظيمة ، وقد تطوقت به فقلت : ما أحسست بها ؟ فقال : لا ، منذ زمان ما بت ليلة أطيب من البارحة ! .

وقال أبو عثمان : من لم يذق وحشة الغفلة ، لم يجد طعم أنس الذكر .

قال السري : مكتوب في بعض الكتب التي أنزلها الله تعالىٰ : إذا كان الغالب على عبدي ذكري عشقني وعشقته ، وبإسناده أوحى الله تعالىٰ إلى داود عليه السلام : فافرحوا بي ، وبذكري ، فتنعموا .

وقال النوري رحمه الله تعالىٰ : لكل شيء عقوبة ، وعقوبة العارف بالله انقطاعه عن الذكر ، وفي الإنجيل : اذكرني حين تغضب ، أذكرك حين أغضب ، وارض بنصرتي لك ، فإن نصرتي لك خير من نصرتك لنفسك .

وقيل لراهب : أأنت صائم ؟ فقال : صائم بذكره ! فإذا ذكرت غيره أفطرت ، وقيل : إذا تمكن الذكر من القلب ، فإن دنا منه الشيطان صرع كما يصرع الإنسان إذا دنا منه الشيطان ، فتجتمع عليه الشياطين فيقولون : ما لهذا ؟ فيقال : قد مسَّه الإنس .

وقال سهل : ما أعرف معصية أقبح من نسيان هذا الرب تعالىٰ ، وقيل : الذكر الخفي لا يرفعه الملك لأنه لا اطلاع له عليه ، فهو سر بين العبد وبين الله .

وقال بعضهم : وصف لي ذاكر في أجمة ، فأتيته فبينا هو جالس ، إذا سبع عظيم ضربه ضربة ، واستلب منه قطعة ، فغشي عليه وعليّ ، فلما أفاق ، قلت : ما هذا الأمر ؟ فقال : قيض الله تعالىٰ هذا السبع علي ، فكلما داخلني فترة عضني عضة كما رأيت .

وقال الجريري : كان بين أصحابنا رجل يكثر أن يقول الله الله ، فوقع يوماً على رأسه جذع فانشجّ رأسه ، فسقط الدم فاكتتب على الأرض الله الله .

❊ ❊ ❊ ❊

(٢٩) باب الفتوة

الفتوة : إيثار الغير على النفس ، فأدناها : الإيثار بالجاه والمال ، وأعلاها الإيثار بالنفس زيادة على المال ، وتنشأ من كمال المروءة ، وطهارة النفس من الشهوة الحيوانية ، ويدل على الفتوة : قوله تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ﴾ [المجادلة : ١٢] . وفي هذا الأمر تعظيم الرسول ﷺ ، وانتفاع الفقراء ، والزجر عن الإفراط في السؤال ، والتمييز بين المخلص والمنافق ، ومحب الآخرة ومحب الدنيا ، والأمر منسوخ ، بقوله : ﴿ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ ﴾ [المجادلة : ١٣] . . إلخ .

والفتوة : أن تكون ساعياً في أمر غيرك ، وقيل : ألا تشهد لك فضلاً ، ولا ترى لك حقاً على غيرك ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ﴾ [الكهف : ١٣] . والفتية : جمع فتى وهو الشاب الكامل ، مأخوذ من الفتوة ، وهي أن يكون العبد ساعياً أبداً في أمر غيره ، بأن يقضي حاجته ، ويترك خصومته ، ويتغافل عن زلّته ، ويقرّب من يؤذيه ويكرمه ، ويعتذر إلى من جنى عليه ، قال رسول الله ﷺ : « لا يزال الله في حاجة العبد ما دام العبد في حاجة أخيه المسلم »[1] . قال الدقّاق : هذا الخلق الفتوة ، لا يكون كماله إلا لرسول الله ﷺ ، فإن كل أحد في القيامة يقول : نفسي نفسي وهو عليه الصلاة والسلام يقول : أمتي أمتي ؛ وذلك لأن الشغل بالغير عن النفس في هذا المقام غاية الفتوة .

قال الجنيد : الفتوة بالشام ، واللسان بالعراق ، والصدق بخراسان .

وقال الفضيل : الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان .

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٤٨٠٢) .

والفتوة ألا ترى فضلاً لنفسك على غيرك .

وقال الورّاق : الفتى من لا خصم له . وقال الحكيم الترمذي : الفتوة أن تكون خصماً لربك على نفسك . وقيل : الفتى من لا يكون خصماً لأحد . وقال النصرأباذي : سمي أصحاب الكهف فتية ، لأنهم آمنوا بربهم بلا واسطة . وقيل : الفتى من كسر الصنم . قال تعالىٰ : ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾ [الأنبياء : ٦٠] . وقال تعالىٰ : ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا ﴾ [الأنبياء : ٥٨] . وصنم كل إنسان هواه ، فمن خالف هواه فهو فتى على الحقيقة .

وقال الحارث المحاسبي : الفتوة أن تنصف ولا تنتصف .

وقال عمرو بن عثمان المكي : الفتوة حسن الخلق .

وسئل الجنيد عن الفتوة فقال : ألا تنافر فقيراً ، ولا تعارض غنياً .

وقال النصرأباذي : المروءة شعبة من الفتوة وهو الإعراض عن الكونين ، والأنفة منهما .

وقال الحكيم الترمذي : الفتوة أن يستوي عندك المقيم والطارىء .

سئل ابن حنبل : ما الفتوة ؟ فقال : ترك ما تهوى لما تخشى ، وقيل لبعضهم : ما الفتوة ؟ فقال : ألا يميز بين أن يأكل عنده وليّ ، أو كافر .

قال بعض العلماء : استضاف مجوسي إبراهيم الخليل عليه السلام فقال : بشرط أن تسلم ، فمر المجوسي ، فأوحى الله إليه : نحن منذ خمسين سنة نطعمه على كفره ، فلو ناولته لقمة من غير أن تطالبه بتغيير دينه ، فمضى إبراهيم عليه السلام على أثره ، حتى أدركه ، واعتذر إليه فسأله عن السبب ؟ فذكر له ذلك ، فأسلم المجوسي .

وقال الجنيد : الفتوة كف الأذى عن الناس ، وبذل الندى .

وقال سهل بن عبد الله : الفتوة اتباع السنة ، وقيل : الفتوة الوفاء والحفاظ . وقيل : الفتوة فضيلة تأتيها ، ولا ترى نفسك فيها .

وقيل : الفتوة ألا تهرب إذا أقبل السائل . وقيل : ألا تحتجب من

القاصدين . وقيل : ألا تدّخر ولا تعتذر .

وقيل : الفتوة إظهار النعمة ، وإسرار المحنة ، وقيل : الفتوة أن تدعو عشرة أنفس ، فلا تتغير إن جاء تسعة أو أحد عشر .

وكان فتى يسمى أحمد بن سهل التاجر ، وقد اشترى منه صديقه قطعة قماش ، فأخذ الثمن الذي كان رأس ماله ، فقيل له : ألا تأخذ ربحاً ؟ فقال : أما الثمن فآخذه ، ولا أحملك منّة ، لأنه ليس من القدر ما أتخلق به معك ، ولكن لا آخذ الربح ، إذ ليس من الفتوة أن تربح على صديقك .

وخرج إنسان من نيسابور إلى نَسا يدّعي الفتوة ، فاستضافه رجل ومعه جماعة من الفتيان ، فلما فرغوا من أكل الطعام ، خرجت جارية تصب الماء على أيديهم ، فانقبض النيسابوري عن غسل اليد ، وقال : ليس من الفتوة أن تصب النسوان الماء على أيدي الرجال ، فقال واحد منهم : أنا منذ سنين أدخل هذه الدار ، لم أعلم أن امرأة تصب الماء على أيدينا أم رجلاً .

ونام رجل في المدينة المشرَّفة من الحجَّاج ، فتوهم أن هميانه[1] سرق ، فخرج فرأى جعفر الصادق فتعلَّق به وقال له : أنت أخذت همياني ، فقال له : إيش كان فيه . فقال : ألف دينار ، فأدخله داره وأعطاه الألف ، فرجع الرجل إلى منزله ، فرأى هميانه في بيته ، وكان قد توهَّم أنه حمله معه ، وأنه سرق فخرج إلى جعفر معتذراً ، ورد عليه الدنانير فأبى أن يقبلها ، وقال : شيء أخرجته من يدي لا أسترده ، فقال الرجل من هذا ؟ فقيل : جعفر بن محمد الصادق .

وقيل : سأل شقيق البلخي جعفر بن محمد عن الفتوة ، فقال : ما تقول أنت ؟ فقال شقيق : إن أعطينا شكرنا ، وإن مُنعنا صبرنا ، فقال جعفر : الكلاب عندنا بالمدينة كذلك تفعل ! فقال شقيق : يابن بنت رسول الله ﷺ ما الفتوة عندكم ؟ فقال : إن أُعطينا آثرنا ، وإن مُنعنا شكرنا ، فقال شقيق :

---

(١) هيمانه : كيس دراهمه .

الله أعلم حيث يجعل رسالته .

وقال الجريري : دعانا أبو العباس بن مسروق ليلة إلى بيته ، فاستقبلنا صديق لنا ، فقلنا له : ارجع معنا فنحن في ضيافة الشيخ ، فقال : إنه لم يدعني . فقالوا نحن نستثني (نستأذن) لك عند الدخول كما استثنى رسول الله ﷺ لعائشة .

فأخذنا صديقنا معنا ، فلما بلغ باب الشيخ أخبرناه بما قال ، وقلنا ، فقال : جعلت موضعي من قلبك أن تجيء إلى منزلي من غير دعوة ، عليَّ كذا وكذا إن مشيت إلى الموضع الذي تقعد فيه منه إلا على خدّي ، وألحَّ عليه ، ووضع خده على الأرض ، وحمل الرجل فوضع قدمه على خده من غير أن يوجعه ، وسحب الشيخ وجهه على الأرض إلى أن بلغ موضع جلوسه . (وجه فتوته فرحه بقدوم هذا الزائر عليه من غير دعوة) .

ومن الفتوة الستر على عيوب الأصدقاء ، لاسيما إذا كان لهم فيه شماتة الأعداء ، كان يقال للنصر أباذي : إن علياً القوال يشرب بالليل ، ويحضر مجلسك بالنهار ، وكان لا يسمع فيه ما يقال فاتفق أنه كان يمشي يوماً ومعه واحد ممن يذكر علياً عنده بذلك ، فوجد علياً مطروحاً في موضع وقد ظهر عليه أثر السكر ، وصار بحيث يغسل فمه ، فقال الرجل في نفسه : إلى كم نقول فيه للشيخ ولا يسمع هذا عليّ على الوصف الذي تقول ، فنظر إليه النصرأباذي وقال للعذول : احمله على رقبتك ، وانقله إلى منزله ، فلم يجد بداً من طاعته فيه ، وجه الفتوة من كون الشيخ لم يصدق ذلك أولاً ولا يجب أن يطلع عليه آخراً .

وقال المرتعش : دخلنا مع أبي حفص على مريض نعوده ونحن جماعة ، فقال أبو حفص : أتحب أن تبرأ ؟ فقال : نعم . فقال لأصحابه : تحملوا عنه من الألم ، فقام العليل ، وخرج معنا وأصبحنا كلنا مرضى أصحاب فراش ، فعاد .

* * * *

(٣٠) باب الفراسة

مأخوذ من التفرس ، وهو التثبت والنظر ، يقال تفرَّست فيه الخير ، إذا تثبتّ فيه ، ونظرت إليه ، وقد تكون الفراسة عادية تعرف بقرائن الأحوال ، وقد تكون موهبة إلهامية ، يخلقها الله في القلب وهي المرادة غالباً عند القوم ، قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [:] قيل : للمتفرسين .

والفراسة من كمال الخلق وطهارة النفس ، وهي نوعان : فراسة حكمية ، وفراسة شرعية .

الأولى تعلم بالعلامات ، والثانية تتحقق بالمكاشفات ، فراسة الحكيم تعليمية ، وفراسة المؤمن نورانية .

عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله عز وجل »[(١)] .

والفراسة خاطر يهجم على القلب ، فينفي ما يضاده ، وله على القلب حكم ، وقهر ، اشتقاقاً من فريسة السبع ، وهي على حسب قوة الإيمان ، فكل من كان أقوى إيماناً ، كان أحدَّ فراسة .

وقال الخرَّاز : من نظر بنور الفراسة نظر بنور الحق ، وتكون مواد علمه من الحق بلا سهو ولا غفلة بل حكم حق جرى على لسان عبد وقوله نظر بنور الحق يعني بنور خصَّه به الحق تعالىٰ .

وقال الواسطي : إن الفراسة سواطع أنوار بلغت في القلوب ، وتمكين معرفة ، حملت السرائر في الغيوب ، من غيب إلى غيب ، حتى يشهد الأشياء

---

(١) أخرجه البخاري في التاريخ ، والترمذي رقم (٣١٢٧) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٩٤) والطبراني في الكبير (٨/ ١٢١) .

من حيث أشهده الحق سبحانه إياها ، فيتكلم على ضمير الخلق .

ويحكى عن أبي الحسن الديلمي أنه قال : دخلت أنطاكية لأجل أسود قيل لي إنه يتكلم على الأسرار فأقمت فيها ، إلى أن خرج من جبل لِكام (جبل بالشام) ومعه شيء من المباح يبيعه ، وكنت جائعاً منذ يومين لم آكل شيئاً ، فأتيته لأمتحنه في صورة مشتر ، فقلت له بكم هذا ؟ وأوهمته أني أشتري ما بين يديه ، فقال اقعد ثمّ حتى إذا بعناه نعطيك من ثمنه ما تشتري به شيئاً ، فتركته وسرت إلى غيره أوهمه أني أساومه ، ثم رجعت إليه ، وقلت له : إن كنت تبيع هذا فقل لي بكم ؟ فقال : إنما جعت يومين فاقعد ، ثم حتى إذا بعناه نعطيك ما تشتري به شيئاً ، فقعدت فلما باعه أعطاني شيئاً ومشى ، فتبعته فالتفت إليّ ، وقال لي : إذا عرضت لك حاجة فأنزلها بالله تعالىٰ ، إلا أن يكون لنفسك فيها حظ ، فتحجب عن حاجتك .

قال الكتاني : الفراسة : مكاشفة اليقين ومعاينة الغيب ، وهو من مقامات الإيمان ، وقيل : كان الشافعي ومحمد بن الحسن رحمهما الله في المسجد الحرام ، فدخل رجل فقال : محمد بن الحسن أتفرس أنه نجار ، وقال الشافعي : أتفرس أنه حداد فسألاه ، فقال : كنت قبل هذا حداداً ، والساعة أنجر .

وقال أبو سعيد الخرَّاز : المستنبط من يلاحظ الغيب أبداً ، ولا يغيب عنه ، ولا يخفى عليه شيء ، وهو الذي دل عليه قوله تعالىٰ : ﴿ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء : ٨٣] ، والمتوسم هو الذي يعرف الوسم ، وهو العارف بما في سويداء القلوب بالاستدلال والعلامات ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر : ٧٥] العارفين بالعلامات التي يبديها على الفريقين من أوليائه وأعدائه ، والمتفرس : ينظر بنور الله تعالىٰ وذلك سواطع أنوار لمعت في قلبه ، فأدرك بها المعاني ، وهو من خواص الإيمان ، والذين هم أكبر منه حظاً : الربانيون ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ ﴾ [آل عمران : ٧٩] يعني علماء حكماء متخلقين بأخلاق الحق نظراً وخُلقاً ، وهم

فارغون عن الأخبار عن الخلق ، والنظر إليهم ، والاشتغال بهم .

وقيل : كان أبو القاسم المنادي مريضاً ، وكان كبير الشأن من مشايخ نيسابور ، فعاده أبو الحسن البوشنجي ، والحسن الحداد ، واشتريا بنصف درهم تفاحاً في الطريق نسيئة ، وحملاه إليه ، فلما قعدا قال أبو القاسم : ما هذه الظلمة ؟ فخرجنا ، قالا : إيش فعلنا ؟ وتفكرا فقالا : لعلنا لم نؤد ثمن التفاح ؟ فأعطياه الثمن وعادا إليه ، فلما وقع بصره عليهما ، قال : هذا عجب! يمكن أن يخرج الإنسان من الظلمة بهذه السرعة ، أخبراني عن شأنكما ؟ فذكرا له القصة ، فقال : نعم كان يعتمد كل واحد منكما على صاحبه في إعطاء الثمن ، والرجل يستحي منكما في التقاضي ، فكان تبقى التبعة عليكما ، وأنا السبب ، إنما رأيت ذلك فيكما .

وكان أبو القاسم المنادي هذا يدخل السوق كل يوم ينادي ، فإذا وقع بيده ما فيه كفايته من دانق إلى نصف درهم ، خرج منه وعاد إلى رأس وقته ومراعاة قلبه . وقال الحسين بن منصور : الحق تعالىٰ إذا استولى على سر ملكه الأسرار فيعاينها ويخبر عنها .

وسئل بعضهم عن الفراسة فقال : أرواح تتقلب في الملكوت فتشرف على معاني الغيوب ، فتنطق عن أسرار الخلق نطق مشاهدة ، لا نطق ظن وحسبان .

وقيل : كان بين زكريا الشختني وبين امرأة سبب قبل توبته ، فكان يوماً واقفاً على رأس أبي عثمان الحيري بعد ما صار من خواص تلامذته ، فتفكر في شأنها ، فرفع أبو عثمان رأسه إليه ، وقال له : أما تستحي من ربك . قال الأستاذ رحمه الله : كنت في ابتداء وصلتي بالأستاذ أبي علي الدقّاق ، عقد لي المجلس في مسجد المطرز ، فاستأذنته وقتاً في الخروج إلى نسا ، فأذن لي فيه ، فكنت أمشي معه يوماً في طريق مجلسه ، فخطر ببالي ليته ينوب عني في مجالس أيام غيبتي ، فالتفت إليّ وقال لي أنوب عنك أيام غيبتك في عقد المجالس ، فمشيت قليلاً فخطر ببالي أنه عليل يشق عليه أن ينوب عني في الأسبوع يومين ، فليته يقتصر على يوم واحد في الأسبوع ، فالتفت إليّ وقال :

إن لم يمكنني في الأسبوع يومان أنوب عنك في الأسبوع مرة واحدة ، فمشيت معه قليلاً فخطر ببالي شيء ثالث فالتفت إليّ وصرح بالإخبار عنه على القطع .

كان شاه الكرماني حادّ الفراسة لا تخطىء ، ويقول : من غضَّ بصره عن المحارم ، وأمسك نفسه عن الشهوات ، وعمر باطنه بدوام المراقبة ، وظاهره باتباع السنة ، وتعوَّد أكل الحلال ، لم تخطىء فراسته .

وسئل أبو الحسن النوري من أين تولّدت فراسة المتفرسين ؟ فقال : من قوله تعالىٰ : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ [الحجر : ٢٩] . فمن كان حظه من ذلك النور أتم ، كانت مشاهدته أحكم ، وحكمه بالفراسة أصدق ، ألا ترى كيف أوجب نفخ الروح فيه السجود له بقوله تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٢٩] ؟ وهذا الكلام من أبي الحسين النوري فيه أدنى غموض وإيهام ، بذكر نفخ الروح لتصويب من يقول بقدم الأرواح ، ولا كما يلوح لقلوب المستضعفين ، فإن الذي يصح عليه النفخ والاتصال والانفصال ، فهو قابل للتأثير والتغيير ، وذلك من سمات الحدوث ، وإن الله سبحانه خص المؤمنين ببصائر وأنوار بها يتفرسون ، وهي في الحقيقة معارف ، وعليه يحمل قوله ﷺ : « فإنه ينظر بنور الله » أي : بعلم وبصيرة يخصه الله تعالىٰ ، ويفرده به ، من دون أشكاله ، وتسمية العلوم والبصائر أنواراً غير مستبدع ، ولا يبعد وصف ذلك بالنفخ والمراد منه الخلق .

وقال الحسين بن منصور : المتفرِّس هو المصيب بأول مرماه إلى مقصده ، ولا يعرّج على تأويل وظن وحسبان . وقيل : فراسة المريدين تكون ظناً يوجب تحقيقاً ، وفراسة العارفين تحقيق يوجب حقيقة .

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي : إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق فإنهم جواسيس القلوب ، يدخلون في قلوبكم ويخرجون منها ، من حيث لا تحسون .

وقال الحداد : الفراسة أول خاطر بلا تعارض ، فإن عارض معارض من جنسه فهو خاطر وحديث نفس .

ويحكى عن أبي عبد الله الرازي نزيل نيسابور قال : كساني ابن الأنباري صوفاً ، ورأيت على رأس الشبلي قلنسوة ظريفة تليق بذلك الصوف ، فتمنيت في نفسي أن يكونا جميعاً ، فلما قام الشبلي من مجلسه التفت إليّ فتبعته وكانت عادته إذا أراد أن أتبعه يلتفت إليّ ، فلما دخل داره دخلت فقال لي : انزع الصوف فنزعته فلفّه ، وطرح القلنوسة عليه ودعا بنار فأحرقهما .

وقال أبو حفص النيسابوري : ليس لأحد أن يدّعي الفراسة ، ولكن يتقي الفراسة من الغير ، لأن النبي ﷺ قال : « اتقوا فراسة المؤمن » ولم يقل تفرسوا ، فكيف يصح دعوى الفراسة لمن هو في محل اتقاء الفراسة .

وقال أبو العباس بن مسروق : دخلت على شيخ من أصحابنا أعوده فوجدته على حالة رثة ، فقلت في نفسي : من أين يرتقي هذا الشيخ ؟ فقال لي أبو العباس : دع عنك هذه الخواطر الدنيئة ، فإن لله تعالىٰ ألطافاً خفية .

ويحكى عن الزبيدي قال : كنت في مسجد بغداد مع جماعة من الفقراء فلم يفتح علينا بشيء أياماً ، فأتيت الخواص لأسأله شيئاً ، فلما وقع بصره عليّ قال : الحاجة التي جئت لأجلها يعلمها الله أم لا ؟ فقلت : بلى ! فقال : اسكت ولا تبديها لمخلوق ، فرجعت فلم ألبث إلا قليلاً حتى فتح علينا بما فوق الكفاية .

وقيل : كان سهل بن عبد الله يوماً في الجامع ، فوقع حمام في المسجد من شدة ما لحقه من الحر والمشقة ، فقال سهل : إن شاهاً الكرماني مات الساعة إن شاء الله ! فكتبوا ذلك فكان كما قال .

وقيل : خرج أبو عبد الله التروغنذي ، وكان كبير الوقت إلى طوس ، فلما بلغ خرّ وقال لصاحبه وهو تلميذه : اشتر الخبز فاشتر ما يكفيهما فقال : اشتر أكثر من ذلك ، فاشترى صاحبه ما يكفي عشرة أنفس تعمداً ، فكأنه لم يجعل لقول ذلك الشيخ تحقيقاً ، قال : فلما صعدنا إلى الجبل إذا بجماعة قيدتهم اللصوص ، لم يأكلوا منذ مدة ، فسألونا الطعام ، فقال لي : قدم إليهم السفرة .

قال الأستاذ : كنت بين يدي الدقّاق يوماً ، فجرى حديث الشيخ أبي عبد الرحمن السلمي رحمه الله ، وأنه يقوم في السماع موافقة للفقراء ، فقال أبو علي : مثله في حاله لعل السكون أولى به ، ثم قال في ذلك المجلس ، امض إليه فستجده وهو قاعد في بيت كتبه ، وعلى وجه الكتب مجلدة حمراء مربعة صغيرة فيها أشعار الحسين بن منصور فاحمل تلك المجلّدة فلا تقل له شيئاً ، وجئني بها ، وكان وقت هاجرة ، فدخلت عليه فإذا هو في بيت كتبه والمجلدة موضوعة ، بحيث ذكر أبو علي ، فلما قعدت أخذ السلمي في الحديث وقال : كان بعض الناس ينكر على أحد من العلماء حركته في السماع ، فرؤي ذلك الإنسان يوماً خالياً في بيت وهو يدور كالمتواجد ، فسئل عن حاله فقال : كانت مسألة مشكلة عليّ ، فتبين لي معناها فلم أتمالك من السرور حتى قمت أدور فقيل لي مثل هذا يكون حالهم . فلما رأيت ما أمرني به أبو علي ، وما وصف لي على الوجه الذي قال ، وجرى على لسان السلمي ، ما كان قد ذكره به تحيرت وقلت ، كيف أفعل بينهما ، ثم فكرت في نفسي وقلت : لا وجه إلا الصدق ، فقلت للسلمي إن الأستاذ أبا علي وصف لي هذه المجلدة ، وقال لي احملها إليّ من غير أن تستأذن الشيخ ، وأنا أخافك ، وليس يمكنني مخالفته ، فأي شيء تأمرني به ؟ فأخرج مجلداً آخر من كلام الحسين بن منصور وفيه تصنيف له للسلمي سماه كتاب « الصيهور في نقض الدهور » ألّفه في الرد على الدهرية ، القائلين بقدم العالم ، قال لي : احمل هذا المجلد إليه ، وقل له : إني أطالع تلك المجلدة ، فأنقل منها أبياتاً إلى مصنفاتي فخرجت من عنده إليه وبذلك علم أن أبا علي والسلمي كاشف كل منهما الآخر . ويحكى عن الحسن الحداد رحمه الله أنه قال : كنت عند أبي القاسم المنادي ، وعنده جماعة من الفقراء ، فقال لي : اخرج وأتهم بشيء ، فسررتُ حيث أذن لي في التكلف للفقراء ، وأن آتيهم بشيء بعد ما علم فقري ، قال : فحملت مكتلاً وخرجت ، فلما أتيت سكة سيار رأيت شيخاً بها ، فسلمت عليه وقلت : جماعة من الفقراء في موضع ، فهل لك أن تتخلق معهم بشيء ، فأمر حتى إذا أخرج إليّ شيئاً من الخبز واللحم والعنب ، فلما بلغت الباب نادى

أبو القاسم المنادي من وراء الباب ، رده إلى الموضع الذي أخذته منه ، فرجعت واعتذرت إلى الشيخ وقلت : لم أجدهم ، وعرضت بأنهم تفرقوا ورددت الطعام عليه . ثم جئت السوق ، ففتح عليّ بشيء فحملته ، فقال : ادخل فقصصت عليه القصة ، قال : نعم ذاك ابن سيّار رجل سلطاني ، إذا جئت للفقراء بشيء فأتهم بمثل هذا لا بمثل ذلك ، وقال أبو الحسين القرافي : زرت أبا الخير التيناتي في المسجد ، فلما ودعته خرج معي إلى باب المسجد ، وقال لي : يا أبا الحسين أنا أعلم أنك لا تحمل معك معلوماً ، ولكن احمل معك هاتين التفاحتين ، فأخذتهما ووضعتهما في جيبي ، وسرت فلم يفتح عليّ بشيء ثلاثة أيام ، فأخرجت واحدة منهما فأكلتها ، ثم أردت أن أخرج الثانية فإذا هما جميعاً في جيبي فكنت آكل منهما ، ويعودان إلى باب الموصل ، فقلت في نفسي : إنهما يفسدان عليّ حال توكلي إذ صارتا معلوماً لي فأخرجتهما من جيبي بمرة ، فنظرت فإذا فقير ملفوف في عباءة ، يقول : أشتهي تفاحة ، فناولتهما إياه فلما عبرت وقع لي أن الشيخ إنما بعثهما إليه ، وكنت في رفقة في الطريق ، فانصرفت إلى الفقير فلم أجده .

كان شاب يصحب الجنيد ، وكان يتكلم على خواطر الناس ، فذكر للجنيد ، فقال له الجنيد : إيش هذا الذي ذكر عنك ؟ فقال للجنيد : اعتقد شيئاً فقال : اعتقدت . فقال الشاب : اعتقدتَ كذا وكذا ، فقال الجنيد : لا ، فقال له الشاب : اعتقد ثانياً ، فقال : اعتقدت كذا وكذا . فقال : لا ، فقال الشاب : ثالثاً . فقال : مثله ، فقال الشاب : هذا عجب أنت صدوق ، وأنا أعرف قلبي ، فقال الجنيد : صدقت في الأول والثاني ، والثالث ، ولكني أردت أن أمتحنك هل يتغير قلبك .

اعتلَّ ابن الرقي ، فحمل إليه دواء في قدح ، فأخذه ثم قال : وقع اليوم في المملكة حدث ، لا آكل ولا أشرب حتى أعلم ما هو ؟ فورد الخبر بعده بأيام ، أن القرمطي دخل مكة في ذلك اليوم ، وقتل بها تلك المقتلة العظيمة ، وذكر لابن الكاتب هذه الحكاية ، فقال : هذا عجيب ، فقلت : هذا ليس

بعجيب ، فقال لي أبو علي بن الكاتب : إيش خبر مكة حرسها الله اليوم ، فقلت : هو ذا تحارَبَ الطلحيون وبنو الحسن ، ومقدّم الطلحيين أسود عليه عمامة حمراء ، وعلى مكة اليوم غيم على مقدار الحرم ، فكتب ابن الكاتب إلى مكة ، فكان كما ذكرت له .

ويروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : دخلت على عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وكنت رأيت في الطريق امرأة تأملت محاسنها ، فقال عثمان رضي الله عنه : يدخل عليّ أحدكم وآثار الزنا ظاهرة على عينيه ، فقلت له : أوحي بعد رسول الله ﷺ ؟ فقال : لا ، ولكن تبصرة وبرهان ، وفراسة صادقة .

وقال أبو سعيد الخراز : دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيراً عليه خرقتان ، يسأل الناس شيئاً ، فقلت في نفسي مثل هذا كَلٌّ على الناس فنظر إليّ وقال : ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ ﴾ [البقرة : ٢٣٥] قال : فاستغفرت في سرّي ، فناداني وقال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ ﴾ [الشورى : ٢٥] .

وحكي عن إبراهيم الخوَّاص أنه قال : كنت ببغداد في جامع المدينة ، وهناك جماعة من الفقراء ، فأقبل علينا شاب ظريف طيب الرائحة حسن الحرمة حسن الوجه فقلت لأصحابنا : يقع لي أنه يهودي ، فكلهم كرهوا ذلك ، فخرجت وخرج الشاب ثم رجع إليهم ، وقال : إيش قال الشيخ فيّ ؟ فاحتشموه ، فألحّ عليهم ، فقالوا : قال : إنك يهودي ، قال فجاءني وأكبّ على يديّ ، وأسلم فقيل له : ما السبب ؟ فقال : إنا نجد في كتبنا أن الصديق لا تخطىء فراسته فقلت : أمتحن المسلمين ، فتأملتهم ، وقلت : إن كان فيهم صدّيق ففي هذه الطائفة ، لأنهم يتلون حديثه سبحانه فلبست عليكم ، فلما اطلع هذا الشيخ عليّ ، وتفرّس فيّ ، علمت أنه صديق ، وصار الشاب من كبار الصوفية .

قال الجريري : هل فيكم من إذا أراد الحق سبحانه أن يحدث في هذه

المملكة حدثاً أعلمه قبل أن يبديه ؟ قلنا : لا . قال : فابكوا على قلوب لم تجد من الله تعالىٰ شيئاً .

وقال أبو موسى الديلمي : سألت عبد الرحمن بن يحيى عن التوكل ، فقال : لو أدخلت يدك في فم التنين حتى تبلغ الرسغ ، لا تخاف مع الله تعالىٰ شيئاً غيره ، قال : فخرجت لأبي يزيد لأسأله عن التوكل ، فدققت عليه الباب فقال : أليس في قول عبد الرحمن كفاية ؟ فقلت : افتح الباب ، فقال : ما زرتني أتاك الجواب من وراء الباب ، ولم يفتح لي الباب ، قال : فمضيت ولبثت سنة ثم قصدته ، فقال : مرحباً جئتني زائراً ، فكنت عنده شهراً ، فكان لا يخطر بقلبي شيء إلا حدثني عنه ، فعند وداعه لي ، قلت له : أفدني فائدة ، فقال : حدثتني أمي أنها كانت حاملاً بي ، فكانت إذا قدّم لها طعام من حلال امتدت يدها إليه ، وإذا كانت فيه شبهة انقبضت يدها عنه .

وقال إبراهيم الخوَّاص : دخلت البادية فأصابتني شدة ، فلما بلغت مكة ، داخلني شيء من الإعجاب ، فنادتني عجوز : يا إبراهيم ! كنت معك في البادية فلم أكلمك ، لأني لم أرد أن أشغل سرّك ، أخرج عنك هذا الوسواس .
وحكي أن الفرغاني كان يخرج كل سنة إلى الحج ، ويمر بنيسابور ، ولا يدخل على أبي عثمان الحيري ، قال : فدخلت عليه مرة وسلمت عليه ، فلم يردّ عليّ السلام ، فقلت في نفسي : مسلم يدخل عليه ويسلم عليه ، فلا يرد سلامه ، فقال أبو عثمان : مثل هذا يحج ، ويدع أمه لا يبرها ، قال : فرجعت إلى فرغانة ولزمتها حتى ماتت ، ثم قصدت أبا عثمان ، فلما دخلت استقبلني وأجلسني عنده ، ثم إن الفرغاني لازمه ، وسأله سياسة دابته ، فولّاه ذلك ، حتى مات أبو عثمان رضي الله عنه .

وقال خير النسَّاج : كنت جالساً في بيتي ، فوقع لي أن الجنيد بالباب ، فنفيت عن قلبي ، فوقع لي ثانياً ، فوقع لي ثالثاً فخرجت ، فإذا بالجنيد ، فقال : لم لم تخرج مع الخاطر الأول ؟

وقال محمد بن الحسين البسطامي دخلت على أبي عثمان المغربي ، فقلت

في نفسي لعله يشتهي شيئاً ، فقال أبو عثمان : لا يكفي الناس أن آخذ منهم حتى يريدوا مسألتي إياهم .

وقال بعض الفقراء : كنت ببغداد فوقع لي أن المرتعش يأتيني بخمسة عشر درهماً ، لأشتري بها الركوة ، والحبل ، والنعل ، وأدخل البادية ، قال : فدق عليّ الباب ، ففتحته فإذا أنا بالمرتعش معه خريقة ، فقال : خذها ، فقلت : يا سيدي لا أريدها ، فقال : فلم تؤذينا كما أردت فقلت خمسة عشر درهماً فقال : هي خمسة عشر درهماً ، وقال بعضهم في قوله تعالىٰ : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٢] أي : ميت الذهن ، فأحياه الله بنور الفراسة ، وجعل له نور التجلي والمشاهدة ، لا يكون كمن يمشي بين أهل الغفلة غافلاً .

وقيل : إذا صحت الفراسة ، ارتقى صاحبها إلى المشاهدة ، قال أبو العباس بن مسروق : قدم علينا شيخ ، فكان يتكلم علينا في هذا الشأن بكلام حسن ، وكان عذب اللسان جيد الخاطر ، فقال لنا في بعض كلامه : كل ما وقع لكم في خاطركم ، فقولوه لي : فوقع في قلبي أنه يهودي ، وكان الخاطر يقوي ولا يزول ، فذكرت ذلك للجريري ، فكبر عليه ذلك ، فقلت : لا بد أن أخبر الرجل بذلك ، فقال : تقول لنا : ما وقع لكم في خاطركم فقولوه لي ، إنه يقع لي أنك يهودي ! فأطرق ساعة ثم رفع رأسه ، وقال : صدقت أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقال : قد مارست جميع المذاهب ، وكنت أقول : إن كان مع أحد شيء فمع هؤلاء ، فداخلتكم لأختبركم ، فأنتم على الحق وحسن إسلامه .

ويحكى عن الجنيد أنه كان يقول له السري : تكلم على الناس ، فقال الجنيد : وكان في قلبي حشمة من الكلام على الناس ، فإني كنت أتهم نفسي في استحقاق ذلك ، فرأيت ليلة النبي ﷺ في المنام ، وكانت ليلة جمعة ، فقال لي : تكلم على الناس ، فانتبهت وأتيت باب السريّ قبل أن أصبح ، فدققت عليه الباب فقال : لم يصدقنا حتى قيل لك ! فقعد للناس في الجامع بالغد ، فانتشر في الناس أن الجنيد قعد ليتكلم على الناس ، فوقف عليه غلام

نصراني متنكراً ، وقال له أيها الشيخ ما معنى قول رسول الله ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله تعالىٰ ؟ » فأطرق الجنيد ثم رفع رأسه وقال : أسلم فقد حان وقت إسلامك ، فأسلم الغلام وحسن إسلامه .

* * * *

(٣١) باب الخُلُق

الخلق الحسن : وهو جبلّي ، وكسبي ، وهو بسط الوجه ، وكف الأذى ، وبذل الندى ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

عن أنس رضي الله عنه قال : قيل يا رسول الله : أيُّ المؤمنين أفضل إيماناً ؟ قال : « أحسنهم خلقاً »[1] إذ الخلق الحسن أفضل مناقب العبد ، وبه يظهر جواهر الرجال ، والإنسان مستور بخَلْقه ، مشهور بخُلُقه .

قال الدقَّاق : إن الله سبحانه خصَّ نبيه ﷺ بما خصَّه به ، ثم لم يثن عليه بشيء من خصاله ، بمثل ما أثنى عليه بخلقه ، فقال عز من قائل : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] . وقال الواسطي : وصفه بالخلق العظيم ، لأنه جاد بالكونين ، واكتفى بالله تعالىٰ ، وقال الواسطي أيضاً : الخلق العظيم ألا يخاصِم ولا يخاصَم ، من شدة معرفته بالله عز وجل .

وقال الحسين بن منصور : معناه لم يؤثر فيك جفاء الخلق بعد مطالعتك الحق .

وقال أبو سعيد الخرَّاز : لم يكن لك همة غير الله تعالىٰ .

قال الكتاني : التصوف خلق ، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف .

ويروى عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال : إذا سمعتموني أقول لمملوك : أخزاه الله تعالى ، فاشهدوا أنه حرٌّ . وقال الفضيل : لو أن العبد أحسن الإحسان كله وكانت له دجاجة فأساء إليها لم يكن من المحسنين .

وقيل : كان ابن عمر رضي الله عنهما : إذا رأى واحداً من عبيده يحسن

---

(١) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (٨٧٨) مرسلاً بلفظ : أي العمل أفضل ؟ .

الصلاة يعتقه ، فعرفوا ذلك من خلقه ، فكانوا يحسنون الصلاة مراءاة له ، وكان يعتقهم فقيل له في ذلك فقال : من خدعنا بالله انخدعنا له .

قال الحارث المحاسبي : فقدنا ثلاثة أشياء : حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن القول مع الأمانة ، وحسن الإخاء مع الوفاء .

وقال الرازي : الخلق استصغار ما منك من الطاعات ، واستعظام ما منه إليك .

وقيل للأحنف : ممن تعلّمت الخلق ؟ فقال : من قيس بن عاصم المنقري! قيل : وما بلغ من خلقه ؟ قال : بينا هو جالس في داره ، إذ جاءت خادم له بسُفُّود عليه شواء ، فسقط من يدها ، فوقع على ابن له فمات ، فدهشت الجارية ، فقال : لا روعة عليك ، أنت حرة لوجه الله تعالىٰ .

وقال شاه الكرماني : علامة حسن الخلق كف الأذى واحتمال المؤن .

وقال النبي ﷺ : « إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق »[1] .

وقيل لذي النون المصري : من أكثر الناس هماً ؟ قال : أسوؤهم خلقاً . وقال وهب : ما تخلّق عبد بخلق أربعين صباحاً إلّا جعله الله له طبيعة فيه . وقال الحسن البصري في قوله تعالىٰ : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر : ٤] وخلقك فحسّن .

وقيل : كان لبعض النسَّاك شاة ، فرآها على ثلاثة قوائم ، فقال : من فعل هذا بها ؟ فقال غلام له : أنا ، فقال : لم ؟ فقال : لأغمك بها ! فقال : لا ، بل لأغمّنّ مَنْ أمركَ بذلك ! اذهب فأنت حر .

وقيل : كان أويس القرني إذا رآه الصبيان يرمونه بالحجارة ، فيقول : إن كان لا بد فارموني بالصغار ، كي لا تدقوا ساقي فتمنعوني عن الصلاة .

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ، والحاكم في المستدرك ، والبيهقي في الشعب .

وشتم رجل الأحنف بن قيس ، وكان يتبعه ، فلما قرب من الحيّ ، وقف وقال : يا فتى إن كان بقي في قلبك شيء تقول فقله ، كي لا يسمعك بعض سفهاء الحي فيجيبوك .

وقيل لحاتم الأصم : أيحتمل الرجل من كل أحد ؟ فقال : نعم إلا من نفسه .

روي أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه دعا غلاماً له فلم يجبه ، فدعاه ثانياً وثالثاً فلم يجبه ، فقام إليه فرآه مضطجعاً ، فقال : أما تسمع يا غلام ؟ فقال : نعم ، قال : فما حملك على ترك جوابي ؟ قال : أمنت عقوبتك ، فتكاسلت ، فقال : امض ، فأنت حر لوجه الله تعالىٰ .

وقيل : نزل معروف الكرخي دجلة ليتوضأ ، ووضع مصحفه وملحفته ، فجاءت امرأة وحملتهما ، فتبعها معروف ، وقال : يا أختي أنا معروف ، ولا بأس عليك ، ألك ابن يقرأ ؟ قالت : لا ، قال : فزوج ؟ قالت : لا ، قال : فهات المصحف وخذي الثوب .

ودخل اللصوص مرة دار الشيخ أبي عبد الرحمن السلمي بالمكابرة ، وحملوا ما وجدوا ، فسمعتُ بعض أصحابنا يقول : سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن يقول : اجتزت بالسوق فرأيت جبتي على من يزيد ، فأعرضت ، ولم ألتفت إليه .

قال الجريري : قدمت من مكة حرسها الله تعالىٰ ، فبدأت بالجنيد لكي لا يتعنى إليّ ، فسلّمت عليه ثم مضيت إلى المنزل ، فلما صليت الصبح بالمسجد إذا أنا به خلفي في الصف ، فقلت : إنما جئتك أمس لئلا تتعنى ، فقال : ذاك فضلك ، وهذا حقك .

وسئل أبو حفص عن الخُلُق فقال : هو ما اختار الله عز وجل لنبيه محمد ﷺ في قوله تعالىٰ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

وقيل : الخلق أن تكون من الناس قريباً ، وفيما بينهم غريباً .

وقيل : الخلق قبول ما يرد عليك من جفاء الخلق ، وقضاء الحق ، بلا ضجر ولا قلق .

وقيل : كان أبو ذر على حوض يسقي إبلاً له ، فأسرع بعض الناس إليه ، فانكسر الحوض ، فجلس ، ثم اضطجع ، فقيل له في ذلك ، فقال : إن رسول الله ﷺ أمرنا إذا غضب الرجل أن يجلس ، فإن ذهب عنه وإلا فليضطجع .

وقيل : مكتوب في الإنجيل : يا عبدي اذكرني حين تغضب ! أذكرك حين أغضب ! .

وقالت امرأة لمالك بن دينار : يا مرائي ، فقال : يا هذه وجدت اسمي الذي أضلّه أهل البصرة .

وقال لقمان لابنه : لا تُعرَفُ ثلاثة إلا عند ثلاثة : الحليم عند الغضب ، والشجاع عند الحرب ، والأخ عند الحاجة إليه .

وقال موسى عليه السلام : إلهي أسألك ألا يقال لي ما ليس فيّ ! فأوحى الله سبحانه إليه : ما فعلت ذلك لنفسي فكيف أفعله لك ؟ وقيل ليحيى بن زياد الحارثي وكان له غلام سوء : لم تمسك هذا الغلام ؟ فقال : لأتعلم عليه الحلم . وقيل في قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان : ٢٠] الظاهرة تسوية الخَلق ، والباطنة تصفية الخُلُق .

وقال الفضيل : لأن يصحبني فاجر حسن الخلق أحب إليّ من أن يصحبني عابد سيء الخلق .

وقيل : الخلق الحسن احتمال المكروه بحسن المداراة .

وحكي أن إبراهيم بن أدهم ، خرج إلى بعض البراري ، فاستقبله جندي ، فقال : أين العمران ؟ فأشار إلى المقبرة ، فضرب رأسه وأوضحه ، فلما جاوزه ، قيل له : إنه إبراهيم بن أدهم زاهد خراسان ، فجاء

يعتذر إليه ، فقال : إنك لما ضربتني سألت الله تعالىٰ لك الجنة فقال لم ؟ فقال : علمت أني أؤجر عليه ، فلم أرد أن يكون نصيبي منك الخير ونصيبك مني الشر .

وحكي أن أبا عثمان الحيري دعاه إنسان إلى ضيافة ، فلما وافى باب داره قال : يا أستاذ ليس الآن وقت دخولك وقد ندمت ، فانصرف ، فرجع أبو عثمان ، فلما وافى منزله ، عاد إليه الرجل ، وقال : يا أستاذ ندمت وأخذ يعتذر إليه ، فقال : احضر الساعة ، فقام أبو عثمان ومضى معه ، فلما وافى باب داره ، قال مثل ما قال في الأولى ، ثم كذلك فعل ثالثة ورابعة . وأبو عثمان ينصرف ويحضر ، فلما كان بعد مرات ، قال : يا أستاذ أردت اختبارك ، وأخذ يعتذر ويمدحه ، فقال أبو عثمان : لا تمدحني على خلق تجد مثله في الكلاب ، الكلب إذا دعي حضر ، وإذا زُجر انزجر .

وقيل : إن أبا عثمان اجتاز بسكة وقت الهاجرة ، فألقي عليه من سطح طست رماد ، فتغير أصحابه ، وبسطوا ألسنتهم في المُلقي ، فقال أبو عثمان : لا تقولوا شيئاً ، من استحق أن يصب عليه النار ، فصولح على الرماد ، لم يجز له أن يغضب .

وقيل : نـزل بعض الفقـراء على جعفر بن حنظلة ، فكان جعفر يخدمه جداً والفقير يقول : نعم الرجل أنت ، لو لم تكن يهودياً ! فقال جعفر : عقيدتي لا تقدح فيما تحتاج إليه من الخدمة ؛ فسل لنفسك الشفاء ولي الهداية .

وقيل : كان لعبد الله الخياط مُعامِل مجوسي ، يحفظ له ثياباً ، ويدفع إليه دراهم زيوفاً ، وكان عبد الله يأخذها ، فاتفق أنه قام من حانوته يوماً لشغل ، فجاء المجوسي بالدراهم الزيوف ، فدفعها إلى تلميذه فلم يقبلها ، فدفع إليه الصحاح ، فلما رجع عبد الله قال لتلميذه : أين قميص المجوسي ؟ فذكر له القصة ، فقال : بئس ما عملت ! إنه منذ مدة يعاملني بمثلها ، وأنا أصبر عليه وألقيها في بئر ، لئلا يغرّ بها غيري .

وقيل : الخلق السيء يضيّق قلب صاحبه ، لأنه لا يسع فيه غير مراده ، كالمكان الضيق لا يسع فيه غير صاحبه .

وقيل : حسن الخلق ألا تتغير ممن يقف في الصف بجنبك .

وقيل : من سوء خلقك وقوع بصرك على سوء خلق غيرك .

وسئل رسول الله ﷺ عن الشؤم ، فقال : « سوء الخلق »[1] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قيل يا رسول الله ادع الله تعالىٰ على المشركين قال : « إنما بعثت رحمة ولم أبعث عذاباً »[2] .

* * * *

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٦/ ٨٥) والطبراني في المعجم الأوسط (٤٣٦٠) .

(٢) أخرجه البخاري في التاريخ ، ورمز له السيوطي بالحسن .

(٣٢) باب الجود والسخاء

السخاء : إخراج العبد بعض ما يملكه بسهولة ، والجود : إخراجه أكثر ما يملكه بسهولة ، والإيثار : إخراج جميع ما يملكه بسهولة مع حاجته إليه ، فحقيقته تقديم غيرك على نفسك .

وكل من الجود والسخاء لا يتحلى به إلا من كانت نفسه شريفة ، قانعة فانية في حب الخير ، راغبة فيما عنده تعالىٰ ، مما وعد به على لسان سيد الرسل ﷺ .

قال الله سبحانه : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسولُ الله ﷺ : « السخي قريب من الله تعالىٰ ، قريب من الناس ، قريب من الجنة ، بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله تعالىٰ ، بعيد من الناس ، بعيد من الجنة ، قريب من النار ، ولجاهل السخي أحب إلى الله من عابد بخيل »[١] .

قال الأستاذ القشيري :

ولا فرق على لسان القوم بين الجود والسخاء .

ولا يوصف الحق سبحانه بالسخاء ، لعدم التوقيف ولعدم ورود النص بذلك .

وحقيقة الجود ألا يصعب عليه البذل ، وعند القوم السخاء هي الرتبة الأولى ، ثم الجود بعده ، ثم الإيثار ، فمن أعطى البعض وأبقى البعض فهو

---

(١) ذكره في كشف الخفا (٢/ ٤٥٤) وقال : رواه الترمذي وقال : غريب ، والعقيلي في الضعفاء .

صاحب سخاء ، ومن بذل الأكثر وأبقى لنفسه شيئاً فهو صاحب جود ، والذي قاسى الضرر وآثر غيره بالبلغة فهو صاحب إيثار .

قال أسماء بن خارجة : ما أحب أن أردَّ أحداً عن حاجة طلبها مني ، لأنه إن كان كريماً أصون عرضه ، وإن كان لئيماً أصون عنه عرضي .

وقيل : كان مورق العجلي يتلطف في إدخال الرفق على إخوانه ، يضع عندهم ألف درهم ، فيقول : أمسكوها عندكم حتى أعود إليكم ، ثم يرسل إليهم : أنتم منها في حل .

وقيل : لقي رجل من أهل منبج ، رجلاً من أهل المدينة ، فقال : ممن الرجل ؟ فقال : من أهل المدينة ، فقال له : لقد أتانا رجل منكم ، يقال له الحكم بن المطلب ، فأغنانا ، فقال له المدني : وكيف أغناكم ؟ وما أتاكم إلا في جبة صوف ؟ فقال : ما أغنانا بمال ، ولكنه علمنا الكرم ، فعاد بعضنا على بعضٍ حتى استغنينا .

قال الدقَّاق : لما سعى غلام الخليل بن أحمد بالصوفية إلى الخليفة ، أمر بضرب أعناقهم ، فأما الجنيد فقد تستر بالفقه ، وكان يفتي على مذهب أبي ثور ، وأما الشحَّام والرقَّام والنوري ، وجماعة ، فقبض عليهم ، فبسط النطع لضرب أعناقهم ، فتقدم النوري ، فقال له السياف : تدري لماذا تبادر ؟ فقال : نعم ! قال : وما يعجلك ؟ فقال : أوثر عليّ أصحابي بحياة ساعة ، فتحيّر السياف وأنهى الخبر إلى الخليفة ، فردَّهم إلى القاضي ، ليتعرف حالهم ، فألقى القاضي على أبي الحسين النوري مسائل فقهية ، فأجابه عن الكل ، ثم أخذ يقول : وبعد ، فإن لله عباداً إذا قاموا قاموا بالله ، وإذا نطقوا نطقوا بالله ، وسرد ألفاظاً أبكى بها القاضي ، فأرسل القاضي إلى الخليفة ، وقال : إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض مسلم .

وقيل : كان علي بن الفضيل يشتري من باعة المحلّة ، فقيل له : لو دخلت السوق فاسترخصت ، فقال : هؤلاء نزلوا بقربنا ، رجاء منفعتنا .

وقيل : بعث رجل إلى جبلة بن سحيم بجارية ، وكان موجوداً بين

أصحابه ، فقال : قبيح أن أتخذها لنفسي وأنتم حضور ! وأكره أن أخص بها واحداً ، وكلكم له حق وحرمة ، وهذه لا تحتمل القسمة ، وكانوا ثمانين ، فأمر لكل واحد بجارية أو وصيف .

وقيل : عطش عبيد الله بن أبي بكرة في طريقه يوماً ، فاستسقى من منزل امرأة ، فأخرجت له كوزاً من ماء ، وقامت خلف الباب ، وقالت : تنحوا عن الباب ، وليأخذه بعض غلمانكم فإني امرأة من العرب ، مات خادمي منذ أيام ، فشرب عبيد الله الماء ، وقال لغلامه : احمل إليها عشرة آلاف درهم ، فقالت : سبحان الله تسخر بي ! فقال : احمل إليها عشرين ألف درهم ، فقالت له : أسأل الله تعالىٰ العافية . فقال : يا غلام احمل إليها ثلاثين ألف درهم ، فردت الباب وقالت : أفّ لك ، فحمل إليها ثلاثين ألف درهم ، فأخذتها ، فما أمست حتى كثر خطّابها .

وقيل : الجود : إجابة الخاطر الأول .

وكان أبو الحسن البوشنجي في الخلاء ، فدعا تلميذاً له ، وقال له : انزع عني هذا القميص ، وادفعه إلى فلان ، فقيل له : هلا صبرت حتى تخرج من الخلاء ، فقال : لم آمن على نفسي أن يتغيّر عليّ ما وقع لي من التخلف منه بذلك القميص .

وقيل لقيس بن سعد بن عبادة : هل رأيت أحداً أسخى منك ؟ فقال له : نعم نزلنا بالبادية على امرأة ، فحضر زوجها ، فقالت له : إنه نزل بك ضيفان ، فجاء بناقة ونحرها ، وقال : شأنكم بها ، فلما كان الغد جاء بأخرى ، ونحرها وقال : شأنكم بها ! فقلنا : ما أكلنا من التي نحرت لنا البارحة إلا اليسير فقال : إني لا أطعم أضيافي الغابّ (البائت) فبقينا عنده يومين أو ثلاثة والسماء تمطر ، وهو يفعل ذلك ، فلما أردنا الرحيل وضعنا له مئة دينار في بيته ، وقلنا للمرأة : اعتذري لنا إليه ومضينا فلما متع (ارتفع) النهار ، إذا نحن برجل يصيح خلفنا ، قفوا أيها الركب اللئام ، أعطيتموني ثمن قراي ، ثم إنه لحقنا ، وقال : لتأخذنه وإلا طعنتكم برمحي هذا ، فأخذناه

وانصرف عنا ، فأنشأ يقول :

وإذا أخذت ثواب ما أعطيته فكفى بذاك لنائل تكديرا

دخل أبو عبد الله الروذباري دار بعض أصحابه ، فوجده غائباً وباب بيت له مقفل ، فقال : صوفي ، وله باب بيت مقفل ، اكسروا القفل ، فكسروا القفل ، وأمر بجميع ما وجد في الدار والبيت ، وأنفذه إلى السوق ، وباعوه ، وأصلحوا وقتاً من الثمن ، وقعدوا في الدار ، فدخل صاحب المنزل ولم يمكنه أن يقول شيئاً ، فدخلت امرأته بعدهم الدار وعليها كساء ، فدخلت بيتاً ورمت بالكساء ، وقالت : يا أصحابنا هذا من جملة المتاع ، فبيعوه ، فقال الزوج لها : لم تكلفت هذا باختيارك ؟ فقالت له : اسكت ، مثل هذا الشيخ يباسطنا ، ويحكم علينا ، ويبقى لنا شيء ندّخره عنه !.

وقال بشر بن الحارث : النظر إلى البخيل يقسي القلب .

وقيل : مرض قيس بن سعد بن عبادة ، فاستبطأ إخوانه ، فسأل عنهم ، فقيل له : إنهم يستحيون ، مما لك عليهم من الدين ! فقال : أخزى الله ما يمنع الإخوان من الزيارة ! ثم أمر من ينادي : من كان لقيس عليه دين فهو منه في حل . فكسرت عتبته بالعشي ، لكثرة من عاده .

وقيل لعبد الله بن جعفر : إنك تبذل الكثير إذا سئلت ، وتضن في القليل إذا نوجزت ، فقال : إني أبذل مالي وأضن بعقلي .

وقيل: خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له ، فنزل على نخيل قوم ، وفيها غلام أسود يعمل فيها ، إذ أتى الغلام بقوته ، فدخل كلب الحائط ودنا من الغلام ، فرمى إليه الغلام بقرص فأكله ، ثم رمى إليه بالثاني والثالث فأكله ، وعبد الله بن جعفر ينظر إليه ، فقال له : يا غلام كم قوتك كل يوم ؟ فقال : ما رأيت . قال : فلم آثرت هذا الكلب ؟ قال : ما هي بأرض كلاب ؟ إنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت رده ، قال : فما أنت صانع ؟ فقال له : أطوي يومي هذا ، فقال عبد الله بن جعفر أألام على السخاء ؟ إن هذا لأسخى مني فاشترى الحائط والغلام ، وما فيها من الآلات ، فأعتق الغلام ، ووهبها له .

وقيل : أتى رجل صديقاً له ، ودقَّ عليه الباب ، فلما خرج إليه قال له : لماذا جئتني ؟ قال : لأربعمئة درهم ، دَيْنٌ ركبتني ، فدخل الدار ، ووزن له أربعمئة درهم ، وأخرجها إليه ، ودخل الدار باكياً ، فقالت له امرأته : هلا تعللت حين شق عليك الإجابة ؟ فقال : إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله حتى احتاج إلى مفاتحتي به .

وقال مطرف بن عبد الله الشخّير : إذا أراد أحد منكم حاجة فليرفعها في رقعة ، فإني أكره أن أرى في وجهه ذلّ الحاجة .

وقيل : أراد رجل أن يضارّ عبد الله بن العباس ، فأتى وجوه البلد ، وقال لهم : يقول لكم ابن العباس ، تغدّوا عندي اليوم ، فأتوا فملؤوا الدار ، فقال : ما هذا ؟ فأخبر الخبر فأمر بشراء الفواكه في الوقت ، وأمر بالخبز والطبخ ، وأصلح أمراً ، فلما فرغوا قال لوكلائه : أموجود لنا كل يوم هذا ؟ فقالوا : نعم ؟ فقال : فليتغد كل هؤلاء عندنا كل يوم .

كان الأستاذ أبو سهل الصعلوكي يتوضأ يوماً في صحن داره ، فدخل إليه إنسان ، وسأله شيئاً من الدنيا ، ولم يحضره شيء ، فقال : اصبر حتى أفرغ ، فصبر ، فلما فرغ قال له : خذ القمقمة واخرج ، فأخذها وخرج ، ثم صبر حتى علم أنه بَعُد ، فصاح وقال : دخل علي إنسان ، وأخذ القمقمة ، فمشوا خلفه ، فلم يدركوه ، وإنما فعل ذلك ليوهمهم اختلاس القمقمة ، لأن أهل المنزل كانوا يلومونه على كثرة البذل .

وسمعته يقول : وهب الأستاذ أبو سهل الصعلوكي جبَّتهُ من إنسان في الشتاء ، وكان يلبس بدلها جبة النساء ، حين يخرج إلى التدريس ، إذ لم يكن له جبة أخرى ، فتقدم الوفد المعروفون من فارس فيهم من كل نوع ، إمام من الفقهاء والمتكلمين والنحويين ، فأرسل إليه صاحب الجيش أبو الحسن وأمره أن يركب للاستقبال ، فلبس دُراعة فوق تلك الجبة التي للنساء ، وركب ، فقال صاحب الجيش : إنه يستخف بي وإمام البلد يركب في جبة النسوان ، ثم إنه ناظرهم أجمعين ، فظهر كلامه على كلام جميعهم في كل فن .

وسمعته يقول : لم يناول الأستاذ أبو سهل أحداً شيئاً بيده ، وإنما كان يطرحه على الأرض ليأخذه الآخذ من الأرض . وكان يقول : الدنيا أقل خطراً من أن أرى لأجلها يدي فوق يد أحد ، وقد قال ﷺ : « اليد العليا خير من اليد السفلى »[1] .

وقيل : كان أبو مرثد رحمه الله أحد الكرام ، فمدحه بعض الشعراء ، فقال : ما عندي ما أعطيك ، ولكن قدّمني إلى القاضي ، وادَّع عليّ عشرة آلاف درهم ، حتى أقرّ لك بها ، ثم احبسني ، فإن أهلي لا يتركوني مسجوناً ، ففعل ذلك ، فلم يمس حتى دفع إليه عشرة آلاف درهم وأخرج من السجن .

وقيل : سأل رجل الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه شيئاً ، فأعطاه خمسين ألف درهم ، وخمسمئة دينار ، وقال : ائت بحمال يحمله لك فأتي بحمّال فأعطاه طيلسانه ، وقال : يكون كراء الحمال من قبلي .

وسألت امرأة الليث بن سعد سكرجة عسل ، فأمر لها بزق من عسل ، فقيل له في ذلك ، فقال : إنها سألت على قدر حاجتها ، ونحن نعطيها على قدر نعمنا .

وقال بعضهم : صلَّيت في مسجد الأشعث بالكوفة الصبح ، أطلب غريماً لي ، فلما سلمت وضع بين يدي كل واحد حلة ونعلين ، وكذلك وضع بين يدي ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : إن الأشعث قدم من مكة ، فهذا لأهل جماعة مسجده ، فقلت : إنما جئت أطلب غريماً لي ، ولست من جماعته ، فقالوا : هو لكل من حضر .

وقيل : لما قربت وفاة الشافعي رضي الله عنه قال : مروا فلاناً يغسلني ، وكان الرجل غائباً ، فلما قدم أخبر بذلك ، فدعا بتذكرته فوجد عليه سبعين ألف درهم ديناً ، فقضاها ، وقال : هذا غسلي إياه .

وقيل : لما قدم الشافعي من صنعاء إلى مكة كان معه عشرة آلاف دينار ،

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٤) والطبراني في المعجم الكبير كما في المجمع (٣/ ٢٦٢) .

فقيل له : تشتري بها قنية[1] ، فضرب خيمته خارج مكة ، وصبَّ الدنانير فكل من دخل عليه كان يعطيه قبضة قبضة ، فلما جاء وقت الظهر ، قام ونفض الثوب ولم يبق شيء .

وقيل : خرج السري يوم عيد ، فاستقبله رجل كبير الشأن ، فسلم السري عليه سلاماً ناقصاً ، فقيل له : هذا رجل كبير الشأن فقال : قد عرفته ، ولكن روى مسنداً أنه إذا التقى المسلمان قسمت بينهما مئة رحمة تسعون لأبشّهما ، فأردت أن يكون معه الأكثر .

وقيل : بكى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوماً ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام ، وأخاف أن يكون الله تعالىٰ قد أهانني ، وروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : زكاة الدار أن يتخذ فيها بيت للضيافة ، وقيل في قوله تعالىٰ : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ [الذاريات : ٥١] قيل : قيامه عليهم بنفسه ، وقيل : لأن ضيف الكريم كريم ، وقال إبراهيم بن الجنيد : كان يقال : أربعة لا ينبغي للشريف ألا يأنف منهن ، لو أن كان أميراً : قيامه من مجلسه لأبيه ، وخدمته لضيفه ، وخدمته لعالم يتعلم منه ، والسؤال عما لم يعلم .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالىٰ : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ [النور : ٦١] أنهم كانوا يتحرجون في أن يأكل أحدهم وحده ، فرخَّص لهم في ذلك ، وقيل : أضاف عبد الله بن عامر بن كريز رجلاً فأحسن قراه ، فلما أراد الرجل أن يرتحل عنه ، لم يعنه غلمانه ، فقيل له في ذلك : فقال عبد الله : إنهم لا يعينون من ارتحل عنا . أنشد عبد الله بن باكويه الصوفي ، قال : أنشدنا المتنبي :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحلون هم

---

(١) قنية : شيء يقنن ويدخَّر .

وقال عبد الله بن المبارك : سخاء النفس عما في أيدي الناس ، أفضل من سخاء النفس بالبذل .

وقال بعضهم : دخلت على بشر بن الحارث في يوم شديد البرد وقد تعرّى من الثياب ، وهو ينتفض من البرد ، فقلت : يا أبا نصر الناس يزيدون في الثياب في مثل هذا اليوم ، وأنت قد نقصت فقال : ذكرت الفقراء ، وما هم فيه ، ولم يكن لي ما أواسيهم به ، فأردت أن أوافقهم بنفسي في مقاساة البرد .

قال الدقَّاق : ليس السخاء ألا يعطي الواجدُ المعدمَ إنما السخاء أن يعطي المعدمُ الواجدَ .

* * * *

(٣٣) باب الغيرة

الغيرة : هي سقوط الاحتمال وضيق الصدر عن الصبر ، وهي إن لم تكن في مباح فهي مذمومة ، ولهذا قال النبي ﷺ : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله »(١) وإن كانت في مباح فهي ممدوحة ومطلوبة .

والغيرة كراهية مشاركة الغير فيما للنفس فيه حظ ، من مال أو جاه أو غيرهما ، وهي بهذا المعنى مذمومة ، لأنها تنشأ عن الحسد ، كحب الرياسة .

أما إذا كانت الغيرة لله تعالىٰ بأن لا يرضى العبد من قلبه أن يميل إلى غير ما يرضيه تعالىٰ فهي ممدوحة ومطلوبة ، هذا إذا أسندت الغيرة للعبد ، أما إذا أسندت للرب تعالىٰ فالمراد منها : إرجاع العبد إلى ما يرضيه عند صدور التفاتة إلى غيره غيرةً عليه وحفظاً له ، قال الله تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] . وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أحد أغير من الله ، ومن غيرته حرّم الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن »(٢) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله يغار ، وإن المؤمن يغار ، وغيرة الله تعالىٰ أن يأتي العبد المؤمن ما حرّم الله تعالىٰ عليه »(٣) .

والغيرة كراهية مشاركة الغير ، وإذا وصف الحق بالغيرة ، فمعناه : أنه لا يرضى بمشاركة الغير معه ، فيما هو حق له تعالىٰ ، من طاعة عبده له .

حكي عن السري السقطي أنه قرىء بين يديه ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٥] فقال السريّ لأصحابه : أتدرون ما هذا الحجاب ؟ هذا حجاب الغيرة ! ولا أحد أغير من الله تعالىٰ .

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦) والبخاري (٨٧٣) ومسلم (٤٤٢) (١٣٥) .
(٢) أخرجه البخاري بنحوه عن عائشة .
(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٨٧) والبخاري (٥٢٢٣) ومسلم (٢٧٦١) .

ومعنى قوله : هذا حجاب الغيرة : يعني أنه لم يجعل الكافرين أهلاً لمعرفة صدق الدين .

وكان الدقَّاق يقول : إن أصحاب الكسل عن عبادته تعالىٰ هم الذين ربط الحق بأقدامهم مثقلةَ الخذلان ، فاختار لهم البعد عنه ، فأخرهم عن كل القرب ، وبذلك تأخروا ، وفي معناه أنشدوا :

أناصب لمن هويت ولكن ما احتيالي لسوء رأي الموالي

(الموالي : الهوى والشهوة والنفس والشيطان) .

وفي معناه أيضاً قالوا : سقيم ليس يعاد ، ومريد ولا يراد .

قال العباس الزوزني : كان لي بداية حسنة وكنت أعرف كم بقي بيني وبين الوصول إلى مقصودي من الظفر بمرادي ؟ فرأيت ليلة من الليالي في المنام كأني أتدهده من حالق جبل (مرتفع) فأردت الوصول إلى ذروته ، قال : فحزنت فأخذني النوم ، فرأيت قائلاً يقول : يا عباس ! الحق لم يرد منك أن تصل إلى ما كنت تطلب ، ولكنه فتح على لسانك الحكمة ، قال : فأصبحت وقد ألهمت كلمات الحكمة .

وسمعت أبا علي يقول : كان شيخ من شيوخ له حال ووقت مع الله ، فخفي مدة لم ير بين الفقراء ، ثم إنه ظهر بعد ذلك [فحزن على تقصيره عن مطلوبه ، فرأى في نومه ما دله على ما اختاره الله له من فتح الحكمة على لسانه] لا على ما كان عليه من الوقت ، فسئل عنه فقال : آه وقع حجاب .

وكان الأستاذ أبو علي رحمه الله تعالىٰ إذا وقع شيء في خلال المجلس ، يشوش قلوب الحاضرين ، يقول : هذا من غيرة الحق سبحانه ، يريد أن لا يجري عليهم ما يجري من صفاء هذا الوقت ، وقد أنشدوا في معناه :

همت بإتياننا حتى إذا نظرت إلى المرأة نهاها وجهها الحسن
ما كان هذا جزائي من محاسنها عذبت بالهجر حتى شفني الحزن

وقيل لبعضهم : تريد أن تراه فقال : لا فقيل لم ؟ فقال : لأني أنزه ذلك

الجمال عن نظر مثلي ، وفي معناه أنشدوا :

إنـي لأحسـد نـاظـري عليكـا   متـى أغـض إذا نظـرت إليكـا

وأراك تخطر في شمائلك (أفعالك الدالة على كمالك وجلالك) التي هي فتنتي فأغار منك عليكا

وسئل الشبلي متى تستريح ؟ فقال : إذا لم أر له ذاكراً .

قال القشيري : سمعت الأستاذ أبا علي الدقّاق يقول في قول النبي ﷺ في مبايعته فرساً من أعرابي وأنه استقاله فأقاله فقال الأعرابي : عمّرك الله تعالىٰ ممن أنت ؟ فقال له النبي ﷺ : امرؤ من قريش ، فقال بعض أصحابه من الحاضرين للأعرابي : كفاك جفاءً ألا تعرف نبيك ؟ وكان أبو علي يقول : إنما قال امرؤ من قريش غيرةً وإلا كان واجباً عليه التعرّف إلى كل أحد من هو ؟ ثم إن الله سبحانه أجرى على لسان ذلك الصحابي التعريف للأعرابي بقوله : كفاك جفاء ألا تعرف نبيك ؟ ومن الناس من قال : إن الغيرة من صفات أهل البداية ، وأن الموحد لا يشهد الغيرة ولا يتصف بالاختيار ، وليس له فيما يجري في المملكة تحكم ، بل الحق أولى بالأشياء فيما يقضي على ما يقضي .

قال أبو عثمان المغربي : الغيرة من عمل المريدين ، فأما أهل الحقائق فلا .

وقال الشبلي : الغيرة غيرتان : فغيرة البشرية على النفوس ، وغيرة الإلهية على القلوب .

وقال الشبلي : غيرة الإلهية على الأنفاس أن تضيع فيما سوى الله تعالىٰ ، والواجب أن يقال : الغيرة غيرتان ، غيرة الحق سبحانه على العبد ، وهو ألا يجعله للخلق فيضن به عليهم ، وغيرة العبد للحق وهو ألا يجعل شيئاً من أحواله ، وأنفاسه لغير الحق تعالىٰ ، فلا يقال : أنا أغار على الله تعالىٰ ، ولكن يقال أنا أغار لله ، فإذن الغيرة على الله جهل ، وربما تؤدي إلى ترك الدين ، والغيرة لله توجب تعظيم حقوقه وتصفية الأعمال له .

واعلموا أن من سنة الحق تعالىٰ مع أوليائه ، أنهم إذا ساكنوا غيراً ، ولاحظوا شيئاً ، وضاجعوا بقلوبهم شيئاً ، شَوَّش عليهم ذلك ، فيغار على قلوبهم ، بأن يعيدها خالصة لنفسه ، فارغة عما ساكنوه ولا حظوه وضاجعوه ، كآدم عليه السلام لما وطن نفسه على الخلود في الجنة أخرجه منها ، وإبراهيم عليه السلام لما أعجبه إسماعيل عليه السلام أمره بذبحه حتى أخرجه من قلبه ، فلما أسلما وتله للجبين وصفا سره منه ، أمره سبحانه بالفداء عنه .

وقال محمد بن حسان : بينا أنا أدور في جبل لبنان ، إذ خرج علينا رجل شاب قد أحرقته السموم والرياح ، فلما نظر إليّ ولّى هارباً فتبعته ، وقلت له : تعظني بكلمة ؟ فقال لي : احذر فإنه غيور لا يحب أن يرى في قلب عبده سواه ، وقال النصر أباذي : الحق غيور ، ومن غيرته أنه لم يجعل إليه طريقاً سواه .

وقيل : أوحى الله سبحانه إلى بعض أنبيائه : إن لفلان إليّ حاجة ، ولي أيضاً إليه حاجة ، فإن قضى حاجتي قضيت حاجته .

فقال ذلك النبي عليه السلام في مناجاته : إلهي كيف يكون لك حاجة ؟ فقال : إنه ساكنٌ بقلبه غيري ، فليفرغ قلبه عنه ، أقضي حاجته .

وقيل : إن أبا يزيد البسطامي رأى جماعة من الحور العين في منامه ، فنظر إليهن فسلب وقته أياماً ، ثم إنه رأى في منامه جماعة منهن فلم يلتفت إليهن ، وقال : إنكن شواغل ! .

وقيل : مرضت رابعة العدوية ، فقيل لها : ما سبب علّتكِ ؟ فقالت : نظرت بقلبي إلى الجنة فأدبني فله العتبى لا أعود .

ويحكى عن السري أنه قال : كنت أطلب رجلاً صديقاً لي مدة من الأوقات ، فمررت في بعض الجبال ، فإذا أنا بجماعة زمنى وعميان ومرضى ، فسألت عن حالهم فقالوا : هاهنا رجل يخرج في السنة مرة ، يدعو لهم فيجدون الشفاء ، فصبرت حتى خرج فدعا لهم ، فوجدوا الشفاء ، فقفوت أثره ، وتعلقت به ، وقلت له : بي علة بالجنة ، فما دواؤها ؟ فقال : يا سري

خل عني ، فإنه تعالىٰ غيور ، لا يراك تساكن غيره فتسقط من عينه .

قال الأستاذ : ومنهم من غيرته حين يرى الناس يذكرونه بالغفلة ، فلا يمكن رؤية ذلك ، وتشق عليه .

قال الدقَّاق : لما دخل الأعرابي المسجد مسجد رسول الله ﷺ وبال فيه ، وتبادر إليه الصحابة لإخراجه ، قال رحمه الله : إنما أساء الأعرابي الأدب ، ولكن الخجل وقع على أصحابه ، والمشقة حصلت لهم حين رأوا مِن وَضع حشمته ، كذلك العبد إذا عرف جلال قدره سبحانه ، يشق عليه سماع ذكر من يذكره بالغفلة ، وطاعة من لا يعبده بالحرمة .

حكي أن أبا بكر الشبلي مات له ابن كان اسمه أبا الحسن، فحزنت أمه عليه وقطعت شعر رأسها ، فدخل الشبلي الحمام وتنوّر بلحيته ، فكان كل من أتاه مُعَزّياً قال: إيش هذا يا أبا بكر ؟ فكان يقول: موافقة لأهلي ، فقال له بعضهم: أخبرني يا أبا بكر : لم فعلت هذا ؟ فقال : علمت أنهم يعزونني على الغفلة ، ويقولون : آجرك الله تعالىٰ ، ففديت ذكرهم لله تعالىٰ بالغفلة بلحيتي .

وسمع النوري رجلاً يؤذن فقال : طعنة وسم الموت ، وسمع كلباً ينبح ، فقال له : لبيك وسعديك ، فقيل له : إن هذا ترك للدين فإنه يقول للمؤذن في تشهده طعنة وسم الموت ، ويلبي عند نباح الكلب ، وفي نسخة ويقول للكلب : لبيك فسئل عن ذلك فقال : أما ذلك كان ذكره لله على رأس الغفلة ، وأما الكلب فإنه دعا إلى خير فقال تعالىٰ : ﴿ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الإسراء : ٤٤] . وأذّن الشبلي مرة فلما انتهى إلى الشهادتين ، قال : لولا أنك أمرتني ما ذكرت معك غيرك ، وسمع رجل رجلاً يقول : جلّ الله ، فقال له : أحبُّ أن تُجِلّه عن هذا !

سمعت بعض الفقراء يقول : سمعت أبا الحسن الخزفاني رحمه الله يقول : لا إله إلا الله من داخل القلب ، محمد رسول الله من القرط .

ومن نظر إلى ظاهر اللفظ توهم أنه استصغر الشرع ولا كما يخطر بالبال ، إذ الأخطار للأغيار بالإضافة إلى قدر الحق تعالىٰ متصاغرة في التحقيق .

(٣٤) باب الولاية

عامة وخاصة ، فالعامة ولاية الإيمان ، ثم ولاية القيام بالمأمورات ، والخاصة محبة الله للعبد ، وحفظه له ، وهي بكل حال ممدوحة ومطلوبة ، قال الله عز وجل : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : ٦٢] .

أولياء الله معدن سره ، وهم مطلعون على غيبه المكنون ، وهم عرائس الحضرة ، أسدل الله عليهم حجاب الغيرة ، أولياء الله فارقوا هذا العالم بالأرواح ، وساكنوهم بما ظهر من هياكل الأشباح ، للأولياء قلوب نورها أضوء من نور الشمس الحسية ، فيا لها من أنوار مضيئة ، فهم نجوم الأرض لأهل السماء ، ونورهم لنا ولهم أسمى .

أَمُرتَقِبُ النجوم من السماء ... نجوم الأرض أبهر في الضياء

فتلك تبين وقتاً ثم تخفى ... وهذي لا تكدر بالخفاء

هداية تلك في ظلم الليالي ... هداية هذه كشف الغطاء

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : يقول الله تعالىٰ : « من آذى لي ولياً فقد استحل محاربتي ، وما تقرَّب إلي العبد بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، وما ترددت في شيء أنا فاعله ، كترددي في قبض روح عبدي المؤمن ، فإنه يكره الموت ، وأكره مساءته ، ولا بد له منه »[1] .

الولي له معنيان : أحدهما فعيل بمعنى مفعول ، وهو من يتولى الله سبحانه أمره ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٦] . فلا يكله إلى

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦١٣٧) بلفظ « من عادى لي ولياً . . » عن أبي هريرة .

نفسه لحظة ، بل يتولى الحق سبحانه رعايته ، والثاني : فعيل ، مبالغة من الفاعل وهو الذي يتولى عبادة الله وطاعته ، فعبادته تجري على التوالي ، من غير أن يتخللها عصيان ، فالولي بهذا المعنى : هو الذي توالت طاعاته لربه ، وارتفعت في درجات قربه ، وهو ما تضمنه قوله في الخبر السابق : « وما تقرب إليّ عبدي بشيء . . » إلى آخره .

وبالمعنى الأول : هو الذي توالت عليه النعم من ربه ، والحفظ له في قلبه وجوارحه من الزلات ، وهو ما تضمنه قوله في الخبر : فإذا أحببته كنت سمعه إلى آخره فهو حينئذ يحفظه في قلبه وجوارحه ، من سمعه وبصره ويده ورجله . فيكون ولياً بمعنى توالي طاعاته لربه ، ووالياً بمعنى توالي فضل ربه عليه .

وكلا الوصفين واجب حتى يكون الولي ولياً بحيث يجب قيامه بحقوق الله تعالىٰ على الاستقصاء والاستيفاء ، ودوام حفظ الله إياه في السراء والضراء ، ومن شرط الولي أن يكون محفوظاً ، كما أن من شرط النبي أن يكون معصوماً . فكل من كان للشرع عليه اعتراض ، فهو مغرور مخدوع .

قال الدقّاق : قصد أبو يزيد البسطامي بعض من وصف بالولاية ، فلما وافى مسجده قعد ينتظر خروجه ، فخرج الرجل وتنخم في المسجد ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه ، وقال هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب الشريعة ، فكيف يكون أميناً على أسرار الحق .

واختلفوا في أن الولي هل يجوز أن يعلم أنه ولي أم لا ؟ فمنهم من قال : لا يجوز ذلك ، وقال : إن الولي يلاحظ نفسه بعين التصغير ، وإن ظهر عليه شيء من الكرامات ، خاف أن يكون مكراً ، وهو يستشعر الخوف دائماً أبداً ، لخوف سقوطه عما هو فيه ، وأن تكون عاقبته بخلاف حال هؤلاء ، يجعلون من شرط الولاية وفاء المآل ، وقد ورد في هذا الباب حكايات كثيرة عن الشيوخ ، وإليه ذهب من شيوخ هذه الطائفة جماعة لا يحصون ، ولو اشتغلنا بذكر ما قالوا لخرجنا عن حد الاختصار ، وإلى هذا كان يذهب من شيوخنا

الذين لقيناهم كالإمام أبو بكر بن فورك رحمه الله ، ومنهم من قال : يجوز أن يعلم الولي أنه ولي ، وليس من شرط تحقيق الولاية في الحال الوفاء في المآل ، ثم إن كان ذلك من شرطه أيضاً ، فيجوز أن يكون هذا الولي ، خُص بكرامة : هي تعريف الحق سبحانه إياه أنه مأمون العاقبة ، إذ القول بجواز كرامات الأولياء واجب ، وهو وإن قارفه (خالطه) خوف العاقبة ، فما هو عليه من الهيبة والتعظيم والإجلال في الحال أشد وأتم ، فإن اليسير من الهيبة والتعظيم أهدأ للقلوب في كثير من الخوف .

ولما قال ﷺ : عشرة في الجنة من أصحابي ، فالعشرة لا محالة صدقوا الرسول ﷺ ، وعرفوا سلامة عاقبتهم ، ثم لم يقدح ذلك في حالهم ، ولأن من شرط صحة المعرفة بالنبوة الوقوف على حد المعجزة ، ويدخل في جملته العلم بحقيقة الكرامات ، فإذا رأى الكرامات ظاهرة عليه ، لا يمكن ألا يميز بينها وبين غيرها ، فإذا رأى شيئاً من ذلك علم أنه في الحال على الحق ، ثم يجوز أن يعرف أنه في المآل يبقى على هذه الحالة ، ويكون هذا من التعريف له كرامة . فجاز أن يعلم الولي أنه ولي .

والقول بكرامات الأولياء صحيح ، وكثير من حكايات القوم يدل على ذلك ، وإلى هذا القول كان يذهب من شيوخنا الذين لقيناهم منهم الأستاذ أبو علي الدقَّاق رحمه الله . وقيل : إن إبراهيم بن أدهم قال لرجل : أتحب أن تكون لله عز وجل ولياً ؟ فقال : نعم ، فقال : لا ترغب في شيء من الدنيا والآخرة، وفرّغ نفسك لله عز وجل، وأقبل بوجهك عليه ليقبل عليك ويواليك.

وقال يحيى بن معاذ في صفة الأولياء : هم عباد تسربلوا بالأنس بعد المكابدة ، واعتنقوا الرَّوح بعد المجاهدة بوصولهم إلى مقام الولاية .

قال أبو يزيد : أولياء الله تعالىٰ عرائس الله ، ولا يرى العرائس إلا المحرمون ، وهم محذرون عنده في حجاب الأنس ، لا يراهم أحد في الدنيا ولا في الآخرة .

وقال الصيدلاني كنت أصلح اللوح على قبر أبي بكر الطمستاني ، أنقر فيه

اسمه في مقبرة الحيرة كثيراً وكان يقلع ذلك اللوح ، ويسرق ، ولم يقلع مثله من غيره من القبور ، فكنت أتعجب منه فسألت الدقَّاق عن ذلك ، فقال : إن ذلك الشيخ آثر الخفاء في الدنيا وأنت تريد أن تشهر قبره باللوح الذي تصلحه فيه ، وإن الحق سبحانه يأبى إلا إخفاء قبره ، كما آثر هو ستر نفسه .

وقال أبو عثمان المغربي : الولي قد يكون مشهوراً ، ولكن لا يكون مفتوناً ، وقال النصرأباذي ليس للأولياء سؤال إنما هو الذبول والخمول ، وقال أيضاً : نهايات الأولياء بدايات الأنبياء عليهم السلام .

وقال سهل بن عبد الله : الولي هو الذي توالت أفعاله على الموافقة .

وقال يحيى بن معاذ : الولي لا يرائي ولا ينافق ، وما أقل صديق من كان هذا خلقه ، والولي يصحب الناس بقدر حاجته إليهم .

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحاب
فإن الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

وقال آخر :

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة
فلربما انقلب الصديق فكان أعلم بالمضرة

وقال الجوزجاني : الولي هو الفاني في حاله ، الباقي في مشاهدة الحق ، تولى الله سبحانه سياسته ، فتوالت عليه أنوار التولي ، لم يكن له عن نفسه إخبار ، ولا مع غير الله عز وجل قرار .

وقال أبو يزيد : حظوظ الأولياء مع تباينها من أربعة أسماء ، وقيام كل فريق باسم منها ، وهي الأول والآخر والظاهر والباطن ، فمن فني عنها لم يلتفت بعد ملابستها فهو الكامل التام ، فمن كان حظه من اسمه تعالىٰ الظاهر لاحظ عجائب قدرته ، ومن كان حظّه من اسمه الباطن لاحظ ما جرى في السرائر من أنواره ، ومن كان حظه من اسمه الأول كان شغله بما سبق ، ومن كان حظه من اسمه الآخر كان مرتبطاً بما يستقبله ، وكل كوشف على قدر

طاقته ، إلا من تولاه الحق سبحانه ببره ، وقام عنه بنفسه ، وهذا الذي قاله أبو يزيد ، يشير إلى أن الخواص من عباده ، ارتقوا عن هذه الأقسام الأربعة ، فلا العواقب هم في ذكرها ، ولا السوابق في فكرها ، ولا الطوارق هم في أسرها ، وكذا أصحاب الحقائق ، يكونون مُحوا عن نعوت الخلائق كما قال الله سبحانه : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ [الكهف : ١٨] وقال يحيى بن معاذ : الولي ريحان الله تعالىٰ في الأرض يشمّه الصديقون فتصل رائحته إلى قلوبهم ، فيشتاقون به إلى مولاهم ويزدادون عبادة على تفاوت أخلاقهم ، وسئل الواسطي : كيف يُغَذّى الولي في ولايته فقال : في بدايته بعبادته وفي كهولته بستره بلطافته ، لم يجذبه إلى ما سبق له من نعوته وصفاته ، ثم يذيقه طعم قيامه به في أوقاته .

وقيل علامة الولي ثلاثة أشياء: شغله بالله، وفراره إلى الله، وهمه إلى الله.

وقال الخرّاز : إذا أراد الله تعالىٰ أن يوالي عبداً من عبيده ، فتح عليه باب ذكره ، فإذا استلذ الذكر فتح عليه باب القرب ، ثم رفعه إلى مجالس الأنس به ، ثم أجلسه على كرسي التوحيد ، ثم رفع عنه الحجب وأدخله دار الفردانية ، وكشف له عن الجلال والعظمة ، فإذا وقع بصره على الجلال والعظمة ، بقي بلا هو فحينئذ صار العبد زمناً فانياً ، فوقع في حفظه سبحانه وبرىء من دعاوى نفسه .

قال أبو تراب النخشبي : إذا ألف القلب الإعراض عن الله ، صحبته الوقيعة في أولياء الله تعالىٰ ، وقالوا : من صفة الولي أن لا يكون له خوف ، لأن الخوف ترقب مكروه يحل في المستقبل ، أو انتظار محبوب يفوت في المستأنف ، والولي ابن وقته ، ليس له مستقبل فيخاف شيئاً ، وكما لا خوف له لا رجاء له ، لأن الرجاء انتظار محبوب يحصل ، أو مكروه يكشف ، وذلك في الثاني من الوقت ، وكذلك لا حزن له ، لأن الحزن من حزونة القلب ، ومن كان في ضياء الرضا ، وبرد الموافقة ، فأنى يكون له حزن ، قال تعالىٰ : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : ٦٢] .

(٣٥) باب الدعاء

الدعاء : مواضع ، وأوقات عديدة ، ينبغي الاعتناء بها ، لقوله ﷺ : « إن لله نفحات ، فتعرضوا لنفحات الله »[١] .

فمنها الدعاء بظهر الغيب للأخ المسلم ، ومنها حالة الاضطرار ، وعند نزول الغيث ، وعند الأذان ، وعند اصطفاف الناس للصلاة ، والجهاد ، وفي الثلث الأخير من كل ليلة إلى الفجر ، وعند المحتضر ، فإن الملائكة حضور يؤمنون على الدعاء ومن الصائم عند إفطاره ، والمسافر عند سفره ، ومن الوالدين لولدهما ، وفي يوم الاثنين وليلته ، وفي ليلة القدر ، وعند حدوث الخشوع والقشعريرة في الجسم ، وعند غلبة الرجاء ، وباسم الله الأعظم ، وقد اختلف في تعيينه فقيل هو : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ١٦٣] . وقيل : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] . وقيل : ﴿ ۞ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ [طه : ١١١] . وقيل : ﴿ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧] . وقيل : آخر سورة الحشر ، وفي يوم عرفة ، وفي شهر رمضان ، وفي السجود في الصلاة ، وبالجملة فالدعاء له : أجنحة ، وأركان ، وأسباب ، وأوقات ، فإن صادف الأركان قوي ، وإن صادف الأجنحة طار ، وإن صادف الأسباب نجح ، وإن صادف الأوقات فاز ، فأركانه الاضطرار وأجنحته قوة الصدق فيما يرجوه ويؤمله أو يخافه ، وأسبابه : الصلاة على النبي ﷺ وأوقاته ما تقدّم ، والدعاء : إنما هو لمن كان على جادة التكليف ، أما من هو في مقام الرضا ، أو فيما يقاربه فقد يكون الدعاء في حقه ذنباً ، يتعين عليه التوبة منه ، كما ورد عن بعضهم أنه قال : تجاسرت البارحة ، فسألت ربي المعافاة من النار ،

---

(١) رواه الطبراني في الأوسط عن محمد بن مسلمة ، وإسناده ضعيف .

فالأمر مرجعه حال الداعي ووقته ، فقد يكون في بعض الأوقات حاله الرضا ، وقد يكون حاله الاضطرار ، فيعامل حالة الرضا بالسكوت ، وحالة الاضطرار بالدعاء والتملق وإظهار الفاقة ، وكل هذا مأخوذ من السلف والسنة المطهرة .

الدعاء رفع الحاجات إلى رافع الدرجات ، أو إظهار العجز والمسكنة بلسان التضرع ، قال الله عز وجل : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] . وقال تعالىٰ : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف : ٥٥] . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسولُ الله ﷺ : « الدعاء مخ العبادة »[1] . والدعاء : مفتاح الحاجة ، وهو مستروح أصحاب الفاقات ، وملجأ المضطرين ، ومتنفس ذوي المآرب ، وقد ذمَّ الله سبحانه قوماً تركوا الدعاء فقال : ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ [التوبة : ٦٧] قيل : لا يمدونها إلينا في السؤال .

وقال سهل بن عبد الله : خلق الله الخلق ، وقال : ناجوني فإن لم تفعلوا ، فانظروا إليّ ، فإن لم تفعلوا فاسمعوا مني ، فإن لم تفعلوا فكونوا ببابي ، فإن لم تفعلوا فأنزلوا حاجاتكم بي .

وقال سهل بن عبد الله : أقرب الدعاء إلى الإجابة دعاء الحال ، ودعاء الحال أن يكون صاحبه مضطراً لا بد له مما يدعو لأجله .

وجاءت امرأة إلى الجنيد فقالت له : ادع الله أن يردَّ عليَّ ابني ، فإن ابناً لي ضاع ، فقال لها : اذهبي واصبري ، فمضت ثم عادت ، فقالت له مثل ذلك ، فقال لها الجنيد : اذهبي واصبري ، فمضت ثم عادت ، ففعلت مثل ذلك مرات ، والجنيد يقول لها : اصبري ، فقالت له : عيل صبري ، ولم يبق لي طاقة عليه فادع لي ، فقال لها الجنيد : إن كان الأمر كما قلت فاذهبي فقد رجع ابنك ، فمضت فوجدته ، ثم عادت تشكر له ، فقيل للجنيد : بم عرفت

---

(١) أخرجه الترمذي رقم (٣٣٧١) ، وقال : حديث غريب ، وعند أحمد بلفظ الدعاء هو العبادة وبهذا اللفظ عند الترمذي برقم (٤/ ٢٧١) عن النعمان بن بشير (٣٢٤٧) و (٣٣٧٢) .

ذلك ؟ فقال : قال الله عز وجل : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ [النمل : ٦٢] .

وقد اختلف الناس في أن الأفضل الدعاء أم السكوت والرضا ؟ فمنهم من قال : الدعاء في نفسه عبادة ، قال ﷺ : « الدعاء مخ العبادة » ، والإتيان بما هو عبادة أولى من تركها ، ثم هو حق الله سبحانه وتعالىٰ فإن لم يستجب للعبد ولم يصل إلى حظ نفسه فلقد قام بحق ربه ، لأن الدعاء إظهار فاقة العبودية .

وقد قال أبو حازم الأعرج : لأن أحرم الدعاء أشد عليّ من أن أحرم الإجابة . .

وطائفة قالوا : السكوت والخمول تحت جريان الحكم أتم ، والرضا بما سبق من اختيار الحق أولى ، ولهذا قال الواسطي : اختيار ما جرى لك في الأزل خير لك من معارضة الوقت ، وقد قال ﷺ خبراً عن الله تعالىٰ : من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين .

وقال قوم : يجب أن يكون العبد صاحب دعاء بلسانه ، وصاحب رضا بقلبه ، ليأتي بالأمرين جميعاً ، والأولى أن يقال : إن الأوقات مختلفة ، ففي بعض الأحوال الدعاء أفضل من السكوت ، وهو الأدب ، وفي بعض الأحوال ، السكوت أفضل من الدعاء ، وهو الأدب ، وإنما يعرف ذلك في الوقت ، لأن علم الوقت إنما يحصل في الوقت ، فإذا وجد بقلبه إشارة إلى الدعاء فالدعاء له أولى ، وإذا وجد إشارة إلى السكوت فالسكوت له أولى ، ويصح أن يقال : ينبغي للعبد ألا يكون ساهياً عن شهود ربه في حال دعائه ، ثم يجب عليه أن يراعي حاله ، وإن وجد من الدعاء زيادة بسطة في وقته ، فالدعاء له أولى ، وإن عاد إلى قلبه في وقت الدعاء شبه زجر ومثل قبض ، فالأولى له ترك الدعاء في هذا الوقت ، وإن لم يجد في قلبه زيادة بسط ولا حصول زجر ، فالدعاء وتركه ههنا سيان ، فإن كان الغالب عليه في هذا الوقت العلم ، فالدعاء أولى لكونه عبادة ، وإن كان الغالب عليه في هذا الوقت المعرفة والحال والسكوت ، فالسكوت أولى ، ويصح أن يقال ، ما كان

للمسلمين فيه نصيب أو للحق سبحانه فيه حق ، فالدعاء أولى ، وما كان لنفسك فيه حظ فالسكوت أتم .

وفي الخبر المروي : أن العبد يدعو الله سبحانه وهو يحبه ، فيقول : « يا جبريل أخّر حاجة عبدي ، فإني أحب أن أسمع صوته ، وإن العبد ليدعو الله ، والله يبغضه ، فيقول : يا جبريل اقض لعبدي حاجته ، فإني أكره أن أسمع صوته »[1] .

ويحكى عن يحيى بن سعيد القطان رحمه الله تعالىٰ : أنه رأى الحق سبحانه في المنام ، فقال : إلهي كم أدعوك فلا تجيبني ؟ فقال : يا يحيى لأني أحب أن أسمع صوتك .

وقال ﷺ : « والذي نفسي بيده إن العبد ليدعو الله تعالىٰ وهو عليه غضبان ، فيعرض عنه ثم يدعوه فيعرض عنه ، ثم يدعوه فيعرض عنه ، ثم يدعو فيقول الله تعالىٰ لملائكته : أبى عبدي أن يدعو غيري فقد استجبت له »[2] .

عن الحسن عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان رجل على عهد رسول الله ﷺ ، يتّجر من بلاد الشام إلى المدينة ، ومن المدينة إلى بلاد الشام ، ولا يصحب القوافل توكلاً منه على الله تعالىٰ ، قال : فبينما هو جاء من الشام يريد المدينة ، إذ عرض له لص على فرس ، فصاح بالتاجر قف ، قال : فوقف له التاجر ، وقال له : شأنك بمالي ، وخل سبيلي ، قال : فقال له اللص : المال مالي ، وإنما أريد نفسك ، فقال له التاجر : ما تريد بنفسي ؟ شأنك والمال ، خل سبيلي ، قال : فرد عليه اللص مثل المقالة الأولىٰ فقال له التاجر : أنظرني حتى أتوضأ ، وأصلي وأدعو ربي عز وجل ، قال : افعل ما بدا لك ، فقام التاجر ، وتوضأ وصلى أربع ركعات ثم رفع يديه إلى السماء

---

(١) أخرجه ابن ماجه والبيهقي في دلائل النبوة والطبراني كما في المجمع (١٠/ ١٥١) .
(٢) أخرجه ابن ماجه .

فكان من دعائه أن قال : يا ودود ! يا ودود ! يا ذا العرش المجيد ! يا مبدىء يا معيد ! يا فعال لما تريد ! أسألك بنور وجهك الذي ملأ أركان عرشك ، وأسألك بقدرتك التي قدرت بها على خلقك ، وبرحمتك التي وسعت كل شيء ، لا إله إلا أنت ، يا مغيث أغثني ! ثلاث مرات ، فلما فرغ من دعائه ، إذا بفارس على فرس أشهب ، عليه ثياب خضر ، بيده حربة من نور ، فلما نظر اللص إلى الفارس ، ترك التاجر ومرّ نحو الفارس ، فلما دنا منه ، شد الفارس على اللص فطعنه طعنة أذراه عن فرسه ، ثم جاء إلى التاجر فقال له : قم فاقتله فقال له التاجر : فمن أنت ؟ فما قتلت أحداً قط ! ولا تطيب نفسي بقتله ، فرجع الفارس إلى اللص فقتله ، ثم جاء إلى التاجر وقال : اعلم أني ملك من السماء الثالثة ، حين دعوت الأولى سمعنا لأبواب السماء قعقعة ، فقلنا : أمر حدث ، ثم دعوت الثانية : ففتحت أبواب السماء ولها شرر كشرر النار ، ثم دعوت الثالثة ، فهبط جبريل علينا من قبل السماء ، وهو ينادي من لهذا المكروب ؟ فدعوت ربي أن يوليني قتله . واعلم يا عبد الله أنه من دعا بدعائك هذا في كل كربة وشدة وكل نازلة ، فرج الله تعالىٰ عنه وأعانه ، قال : وجاء التاجر سالماً غانماً ، حتى دخل المدينة وجاء إلى النبي ﷺ فأخبره بالقصة ، وأخبره بالدعاء ، فقال له النبي ﷺ : « لقد لقنك الله أسماءه الحسنى التي إذا دعي بها أجاب وإذا سئل بها أعطى » .

ومن آداب الدعاء : حضور القلب ، وألا يكون ساهياً ، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله تعالىٰ لا يستجيب دعاء عبد من قلب لاهٍ »[1] . ومن شرائطه أن يكون مطعمه حلالًا فلقد قال النبي ﷺ لسعد : « أطب كسبك ، تستجب دعوتك » . وقد قيل : الدعاء مفتاح الحاجة وأسنانها لقم الحلال .

وكان يحيى بن معاذ يقول : إلهي كيف أدعوك ، وأنا عاص ، وكيف لا أدعوك ، وأنت كريم .

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٤٧٩) بلفظ « من قلب غافل لاهٍ » .

وقيل : مرَّ موسى عليه السلام برجل يدعو ويتضرع ، فقال موسى عليه السلام : إلهي لو كانت حاجته بيدي قضيتها ، فأوحى الله إليه : أنا أرحم به منك ، ولكنه يدعوني وله غنم وقلبه عند غنمه ، وإني لا أستجيب لعبد يدعوني وقلبه عند غيري ، فذكر موسى عليه السلام للرجل ذلك ، فانقطع إلى الله بقلبه، فقضيت حاجته. وقيل لجعفر الصادق ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا؟

فقال : لأنكم تدعون من لا تعرفونه .

ظهر بيعقوب بن الليث علة أعيت الأطباء ، فقالوا له : في ولايتك رجل صالح يسمى سهل بن عبد الله لو دعا لك لعل الله يستجيب له ، فاستحضر سهلاً فقال : ادع الله عز وجل لي ، فقال سهل رحمه الله : كيف يستجاب دعائي فيك ؟ وفي حبسك مظلومون ؟ فأطلق كل من كان في حبسه ، فقال سهل : اللهم كما أريته ذل المصيبة ، فأره عز الطاعة ، وفرّج عنه فعوفي ، فعرض مالاً على سهل فأبى أن يقبله ، فقيل له : لو قبلته ودفعته إلى الفقراء ، فنظر إلى الحصباء في الصحراء فإذا هي جواهر ، فقال لأصحابه من يعطي مثل هذا يحتاج إلى مال يعقوب بن الليث .

وقيل : كان صالح المرّي يقول كثيراً : من أدمن قرع باب يوشك أن يفتح له ، فقالت رابعة : إلى متى تقول هذا ؟ متى أغلق هذا الباب حتى يستفتح ؟ فقال صالح : شيخ جهل وامرأة علمت ، قال السري : حضرت مجلس معروف الكرخي ، فقام إليه رجل فقال : يا أبا محفوظ ادع الله أن يرد عليّ كيسي فإنه سرق وفيه ألف دينار ، فسكت فأعاد ، ثم سكت فأعاد ، فقال معروف : ماذا أقول ؟ ما زويته عن أنبيائك وأصفيائك فرده عليه ، فقال الرجل : فادع الله لي : فقال اللهم خر له ، وحكى عن الليث أنه قال : رأيت عقبة بن نافع ضريراً ، ثم رأيته بصيراً ، فقلت له : بم رد عليك بصرك ؟ فقال : أتيت في منامي ، فقيل لي : قل : يا قريب يا مجيب يا سميع الدعاء يا لطيفاً لما يشاء ، رد عليّ بصري فقلتها فردّ الله عليّ بصري ، وقال الدقّاق : كان بي وجع العين ابتداء ما رجعت إلى نيسابور من مرو ، وكنت مدة أيام لم

أجد النوم ، فتناعست صباحاً ، فسمعت قائلاً يقول لي : أليس الله بكافٍ عبده فانتبهت ، وقد فارقني الرمد ، وزال في الوقت الوجع ، ولم يصبني بعد ذلك وجع العين .

وحكي عن محمد بن خزيمة أنه قال : لما مات الإمام أحمد بن حنبل ، كنت في الإسكندرية فاغتممت ، فرأيت في المنام أحمد بن حنبل وهو يتبختر ، فقلت : يا أبا عبد الله : أيّ مشية هذه ؟ فقال : مشية الخدَّام في دار السلام ، فقلت : ما فعل الله عز وجل بك ؟ فقال : غفر لي ، وتوّجني ، وألبسني نعلين من ذهب ، وقال : يا أحمد هذا بقولك : القرآن كلامي ، ثم قال : يا أحمد ادعني بتلك الدعوات التي بلغتك عن سفيان الثوري ، وكنت تدعو بها في الدنيا ، فقلت : يا رب كل شيء ، بقدرتك على كل شيء ، اغفر لي كل شيء ، ولا تسألني عن شيء ، فقال : يا أحمد هذه الجنة ، فادخلها فدخلتها ، وقيل : تعلّق شاب بأستار الكعبة وقال : إلهي لا لك شريك فيؤتى ، ولا وزير فيرشى ، إن أطعتك فبفضلك ولك الحمد ، وإن عصيتك فبجهلي ، ولك الحجة عليّ ، فبإثبات حجتك علي ، وانقطاع حجتي لديك ، إلا غفرت لي ، فسمع هاتفاً يقول : الفتى عتيق من النار ، وقيل : فائدة الدعاء إظهار الفاقة بين يديه تعالىٰ ، وإلا فالرب يفعل ما يشاء ، وقيل : دعاء العامة بالأقوال ، ودعاء الزهاد بالأفعال ، ودعاء العارفين بالأحوال . وقيل : خير الدعاء ما هيجته الأحزان ، وقال بعضهم : إذا سألت الله تعالىٰ حاجة فتسهلت فاسأل الله تعالىٰ عقب ذلك الجنة ، فلعل ذلك يوم إجابتك ، وقيل : ألسنة المبتدئين منطلقة بالدعاء ، وألسنة المتحققين خرست عن ذلك ، وسئل الواسطي : أن يدعو فقال : أخشى أني إن دعوت أن يقال لي : إن سألتنا ما لك عندنا ، فقد اتهمتنا ، وإن سألتنا ما ليس لك عندنا ، فقد أسأت الثناء علينا ، وإن رضيت ، أجرينا لك من الأمور ما قضيناه لك به في الدهور ، وروي عن عبد الله بن منازل أنه قال : ما دعوت منذ خمسين سنة ، ولا أريد أن يدعو لي أحد ، وفي هذا وما قبله ميل إلى أن ترك الدعاء أولى ، والأكثرون على خلافه ، قال الغزالي : فإن قيل فما فائدة الدعاء مع أن القضاء لا مرد له ؟

فاعلم أن من جملة القضاء رد البلاء بالدعاء ، فالدعاء سبب لرد البلاء ، ووجود الرحمة ، كما أن الماء سبب لخروج النبات من الأرض ، وقيل : الدعاء سلّم المذنبين ، وقيل : الدعاء المراسلة ، وما دامت المراسلة باقية ، فالأمر جميل بعد . وقيل : لسان المذنبين دموعهم .

قال الدقَّاق : إذا بكى المذنب فقد راسل الله تعالىٰ ، وفي معناه أنشدوا :

دموع الفتى عما يُجِنّ تترجم   وأنفاسه تبدين ما القلب يكتم

وقال بعضهم : الدعاء ترك الذنوب .

وقيل : الدعاء لسان الاشتياق إلى الحبيب .

وقيل : الإذن في الدعاء خير من العطاء .

وقال الكتاني : لم يفتح الله تعالىٰ لسان المؤمن بالمعذرة إلا لفتح باب المغفرة .

وقيل : الدعاء يوجب الحضور والعطاء يوجب الصرف . والمقام على الباب أتم من الانصراف بالثواب .

وقيل : الدعاء مواجهة الحق تعالىٰ بلسان الحياء .

وقيل : شرط الدعاء الوقوف مع القضا بوصف الرضا .

وقيل : كيف تنتظر إجابة الدعوة وقد سددت طريقها بالهفوة .

وقيل لبعضهم : ادع لي : فقال : كفاك من الأجنبية أن تجعل بينك وبينه واسطة .

جاءت امرأة إلى بقي بن مخلد فقالت له : إن ابني قد أسره الروم ، ولا أقدر على مال أكثر من دويرة لي ، ولا أقدر على بيعها ، فلو أشرت إلى من يفديه بشيء ، فإنه ليس لي ليل ولا نهار ، ولا نوم ولا قرار ، فقال لها : نعم انصرفي حتى أنظر في أمره إن شاء الله تعالىٰ .

فأطرق الشيخ وحرّك شفتيه ، قال : فلبثنا مدة ، فجاءت المرأة ومعها

ابنها ، وأخذت تدعو له ، وتقول : قد رجع سالماً ، وله حديث يحدثك به ، فقال الشاب : كنت بين يدي بعض ملوك الروم مع جماعة من الأسارى ، وكان له إنسان يستخدمنا كل يوم ، فكان يخرجنا إلى الصحراء للخدمة ، ثم يردنا وعلينا قيودنا ، فبينما نحن نجيء من العمل بعد المغرب مع صاحبه الذي كان يحفظنا ، انفتح القيد من رجلي ، ووقع على الأرض ، ووصف اليوم والساعة ، فوافق الوقت الذي جاءت فيه المرأة للشيخ ، ودعا الشيخ ، قال : فنهض إليّ الذي كان يحفظني ، وصاح عني ، وقال : كسرت القيد ، قلت : لا إنه سقط من رجلي ، قال : فتحيَّر ، وأحضر أصحابه ، وأحضر الحداد ، وقيّدوني ، فلما مشيت خطوات ، سقط القيد من رجلي ، فتحيَّروا في أمري ، فدعوا رهبانهم ، فقالوا لي : ألك والدة ؟ قلت : نعم ، فقالوا وافق دعاؤها الإجابة ، وقد أطلقك الله عز وجل ، فلا يمكننا تقييدك ، فزودوني ، وأصحبوني بمن أوصلني إلى ناحية المسلمين .

* * * *

(٣٦) باب الفقر

هو التبري من رؤية الملكة ، ويقال : هو إرسال النفس في أحكام الله تعالىٰ .

والفقراء السالكون ممن مضى على ثلاثة أقسام :

فمنهم من كان لا يخالط أحداً من أبناء غير جنسه ، فإن وقع له شيء من ذلك قهراً تخلّص منه ، ولو بالهروب ، كما وقع لسفيان الثوري ، لما تولى الخلافة من يعتقده ، ويجيبه : ففر منه بالسفر من بلده .

والقسم الثاني : كانوا يجتمعون مع غيرهم ، إذا أتوا إليهم مع حفظ قلوبهم ، عن الميل إلى دنياهم .

والقسم الثالث : يذهبون إلى غيرهم وفي ذلك خطر المخالطة والوقوف على الأبواب .

الفقر : نفض اليدين من الكونين ، اعتماداً واستناداً ووجوداً ، وشهوداً ، ثم هو إحاطي بكل جزء من أجزاء العالم ، لافتقارها إلى نعمة الإيجاد والإمداد .

فالفقير الكامل : هو المتخلي عن الأسباب وتعلق القلب برب الأرباب .

والفقر شعار الصالحين وخلية المحبين ونعت الأولياء ، وصفة الأصفياء .

وحقيقته الكاملة : التجرد ظاهراً وباطناً عن الفاني من مشتهيات الدنيا ، مع دوام الرضا باختيار الحق تعالىٰ له .

وهو التجرُّد بالقلب عن الميل إلى الدنيا ، وإن لابسها ظاهراً .

وهو من أكبر أسباب الوصول إلى الحق تعالىٰ ، لبعد صاحبه عن الشواغل والقواطع .

وقيل : هو التجرُّد عن النظر إلى الأعمال والأحوال والمقامات والخروج

عن ذكرها وفكرها ، اشتغالاً بالله سبحانه ، لكمال الافتقار إليه ودوام الإقبال عليه . والفقير لا يرى من نفسه جميلاً ويراها في بحر النعم غريقة .

والفقر على ثلاث درجات :

الأولى : فقر الزهاد .

الثانية : التبرؤ من رؤية الأعمال والأحوال والمقامات .

الثالثة : التبرؤ من رؤية كونه متبرئاً .

قال الله عز وجل : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ ﴾ [البقرة : ٢٧٣] .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمئة عام »[١] وهي نصف يوم . وعن عبد الله : قال : قال رسولُ الله ﷺ : « إن المسكين ليس بالطوّاف الذي ترده اللقمة واللقمتان ، والتمرة والتمرتان ، قال : فقيل : من المسكين يا رسول الله ؟ قال : الذي لا يجد ما يغنيه، ويستحيي أن يسأل الناس، فلا يفطن له، فيتصدق عليه[٢]» .

قال الأستاذ القشيري : معنى قوله : يستحيي أن يسأل الناس ، أي : يستحيي من الله تعالىٰ أن يسأل الناس لا أنه يستحيي من الناس .

والفقر شعار الأولياء ، وحلية الأصفياء ، واختيار الحق سبحانه لخواصه ، من الأتقياء ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

والفقراء صفوة الله من عباده ، ومواضع أسراره ، بين خلقه ، بهم يصون الحق تعالىٰ الخلق ، وببركاتهم يبسط عليهم الرزق . ولا بد للفقير من خلوة ، لأنه بسببها يدرك ما هو فيه من الخطر ، ومن النعم ، ومن تحف المولى سبحانه .

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٦) والترمذي (٢٣٥٣) وابن حبان (٦٧٦) وابن ماجه (٤١٢٢) .
(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٤) وأبو يعلى (٥١١٨) وأبو نعيم في الحلية (٧/ ١٠٨) .

ويتبين بالخلوة أشياء كثيرة .

قال شيبان : أمران هما خير الدنيا والآخرة ، إذا عملت بهما أتكفل لك بالجنة ، تحمّل ما تكره إذا أحبه الله ، وترك ما تحب إذا كرهه الله .

وقال بعضهم : قاتل هواك أشد مما تقاتل عدوك . وقيل لبعضهم : إنك تشدّد ، فقال : كيف لا أشدد ؟ وقد صدّني أربعة عشر عدواً : شيطان يفتنّي ، ومؤمن يحسدني ، وكافر يقاتلني ، ومنافق يبغضني ، والعشرة جوع ، وعطش ، وعري ، وحر ، وبرد ، وهوام ، ومرض ، وفقد ، وموت ، ونار ، لا أقاومها إلا بسلاح التقوى ، وقيل له : ما مالك ؟ فقال : ثقتي بالله ، وإياسي ممّا في أيدي الناس . وقال : ما رأيت يقيناً أشبه بشك لا يقين فيه ، من شيء نحن عليه .

وإن لم يكن في المبتدىء خمس خصال فلا يرجى : عقل حسن ، واتباع للسنة ، وصحبة الأكابر ، ومن أين يأكل ، وحفظ لسانه ، وصيانته .

قال أبو سفيان : إذا رأيت العالم لا يتورع في علمه ، فليس لك أن تأخذ عنه ، وكان يقول : وضعوا مفاتيح الدنيا على الدنيا فلم تنفتح ، ووضعوا عليها مفاتيح الآخرة فانفتحت .

وقال عيسى بن مريم : طوبى لمن حزب لسانه ، ووسعه بيته ، وبكى على خطيئته .

وقال كعب الأحبار رحمه الله تعالىٰ : والذي نفسي بيده لأن أبكي من خشية الله حتى تسيل دموعي على وجهي ، أحب إليّ من أن أتصدق بجبل من ذهب .

فقد زكريا ابنه يحيى عليهما السلام ، فوجده بعد ثلاث مضطجعاً على قبر وهو يبكي ، فقال : ما هذا يا بني ؟ فقال : أخبرتني أن جبريل أخبرك ، أن بين الجنة والنار مفازة ، لا يطفئها إلا حر الدموع ، فقال : ابك يا بني .

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : لأن أدمع دمعة من خشية الله ،

أحب إليّ من أن أتصدق بألف دينار .

وقال إبراهيم بن أدهم : إن للذنوب ضعفاً في القوة ، وظلمة في القلب ، وإن للحسنات قوة في البدن ، ونوراً في القلب .

وقيل لسفيان الثوري : لو دعوت الله عز وجل فقال : ترك الذنوب هو الدعاء . ولقي حكيم حكيماً فقال له : إني لأحبك في الله ! فقال : لو علمت مني ما أعلم من نفسي لأبغضتني في الله! فقال له الأول : لو أعلم منك ما تعلمه من نفسك ، لكان فيما أعلمه من نفسي شغل عن بغضك ! .

وكان الربيع بن خيثم إذا قيل له : كيف أصبحت ؟ يقول : أصبحنا ضعفى مذنبين ، نأكل أرزاقنا ، وننتظر آجالنا .

وقيل لإبراهيم بن أدهم : من أين عيشك ؟ فقال : نرقع دنيانا بتمزيق ديننا ، فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع .

وقيل لمحمد بن واسع : كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحت طويلاً أملي ، قصيراً أجلي ، سيئاً عملي .

وروي عن بعض العلماء أنه قال : إنما يدخل الجنة من يرجوها ، وإنما يجتنب النار من يخشاها ، وإنما يرحم الله من يرحم .

الإنسان لثلاثة : فمنه لله ، ومنه لنفسه ، ومنه للدود والتراب ، فروحه لله ، وعمله له خيراً وشراً ، وجسده للدود والتراب ، وقال سفيان الثوري : ما أمن أحد على دينه إلا سلب .

وقال أبو حنيفة : أكثر ما سلب الناس الإيمان عند الموت .

وقال إبليس لعنه الله : إذا ظفرت من ابن آدم بثلاث لم أطلبه بغيرها : إذا أعجب بنفسه ، واستكثر عمله ، ونسي ذنوبه .

وينبغي للفقير أن يتفقد حاله ، ويواظب التبرك بالصالحين ، وسماع فوائدهم ، مع التحفظ عليه ، وعليهم جهده .

والفقراء الصبّر هم جلساء الله تعالىٰ يوم القيامة ، بذلك ورد الخبر عن

النبي ﷺ ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل شيء مفتاح ، ومفتاح الجنة حب المساكين ، والفقراء الصبر ، جلساء الله يوم القيامة »[١] .

وقيل إن رجلاً أتى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم ، فأبى أن يقبلها منه ، وقال له : تريد تمحو اسمي من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم ، لا أفعل .

وقال معاذ النسفي : ما أهلك الله تعالىٰ قوماً وإن عملوا ما عملوا حتى أهانوا الفقراء وأذلوهم .

وقيل : لو لم يكن للفقير إلى الله فضيلة غير إرادته ، وتمنيه سعة أرزاق المسلمين ، ورخص أسعارهم لكفاه ذلك ، لأنه يحتاج إلى شرائها ، والغني يحتاج إلى بيعها ، هذا لعوام الفقراء ، فكيف حال خواصهم ؟ .

سئل يحيى بن معاذ عن الفقر فقال : حقيقته ألا يستغني العبد إلا بالله تعالىٰ ، ورسمه عدم الأسباب كلها ، وقال إبراهيم القصَّار : الفقر لباس يورث الرضا إذا تحقق العبد فيه .

وقدم فقير على أبي علي الدقَّاق سنة خمس وتسعين وثلثمئة ، أو سنة أربع من زوزن ، وعليه مسح وقلنسوة ، فقال له بعض أصحابنا : بكم اشتريت هذا المسح على وجه المطايبة ؟ فقال : اشتريته بالدنيا ، فطلب مني بيعه بالآخرة فلم أبعه بها . وقال أبو علي الدقَّاق : قام فقير في مجلس يطلب شيئاً وقال : إني جائع منذ ثلاث ، وكان هناك بعض المشايخ فصاح عليه ، وقال : كذبت ! إن الفقر سر وهو لا يضع سره عند من يحمله إلى من يريد .

وقال حمدون القصَّار : إذا اجتمع إبليس وجنوده ، لم يفرحوا بشيء كفرحهم بثلاثة أشياء : رجل مؤمن قتل مؤمناً ، ورجل يموت على الكفر ، وقلب فيه خوف الفقر .

---

(١) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (١٦٥٨٣) .

وقال الجنيد : يا معشر الفقراء إنكم تعرفون بالله ، وتكرمون لله ، فانظروا كيف تكونون مع الله إذا خلوتم به ؟ وقال الجنيد : وسئل عن الافتقار إلى الله أهو أتم ؟ أم الاستغناء بالله تعالىٰ ؟ فقال : إذا صح الافتقار إلى الله صح الاستغناء بالله ، وإذا صح الاستغناء بالله كمل الغنى به ، فلا يقال أيهما أتم ؟ الافتقار أم الغنى ؟ لأنهما حالتان لا تتم إحداهما إلا بالأخرى .

وقال رويم في نعت الفقير فقال : هو إرسال النفس في أحكام الله .

وقيل : نعت الفقير ثلاثة أشياء : حفظ سره فيما بينه وبين مولاه ، وأداء فرضه ، وصيانة فقره .

وقيل لأبي سعيد الخرَّاز : لم تؤخر عن الفقراء رفق الأغنياء ؟ فقال : لثلاث خصال : لأن ما في أيديهم غير طيب ، ولأنهم غير موفقين ، ولأن الفقراء مرادون بالبلاء .

وقيل : أوحى الله تعالىٰ إلى موسى عليه السلام : إذا رأيت الفقراء فسائلهم ، كما تسائل الأغنياء ، وإن لم تفعل فاجعل كل شيء علمتك تحت التراب .

وروي عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : لأن أقع من فوق قصرٍ فأتحطم ، أحب إليّ من مجالسة الغني ، لأني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إياكم ومجالسة الموتى » قيل : يا رسول الله ومن الموتى ؟ قال : « الأغنياء »[1] .

وقيل للربيع بن خيثم : قد غلا السعر ، فقال : نحن أهون على الله من أن يجيعنا ، إنما يجيع أولياءه .

وقال إبراهيم بن أدهم : طلبنا الفقر فاستقبلنا الغنى ، وطلب الناس الغنى فاستقبلهم الفقر .

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٥١) .

قيل ليحيى بن معاذ : ما الفقر ؟ فقال : هو خوف الفقر ، قيل : فما الغنى ؟ قال : الأمن بالله تعالىٰ .

قال ابن الكريني : إن الفقير الصادق ليحترز من الغنى حذراً أن يدخله الغنى فيفسد عليه فقره ، كما أن الغني يحترز من الفقر حذراً من أن يدخل عليه فيفسد غناه عليه . وسئل أبو حفص بماذا يقدم الفقير على ربه عز وجل ؟ فقال : وما للفقير أن يقدم به على ربه تعالىٰ سوى فقره ، وقيل : أوحى الله سبحانه إلى موسى عليه السلام : أتريد أن تكون لك يوم القيامة مثل حسنات الخلق أجمع ؟ قال : نعم . قال عِد المريض . فجعل موسى على نفسه في كل شهر سبعة أيام يطوف على الفقراء ، يفلي ثيابهم ، ويعود المرضى .

وقال سهل بن عبد الله : خمسة أشياء من جوهر النفس : فقير يظهر الغنى ، وجائع يظهر الشبع ، ومحزون يظهر الفرح ، ورجل بينه وبينه عداوة فيظهر له المحبة ، ورجل يصوم بالنهار ، ويقوم بالليل ، ولا يظهر ضعفاً .

وقال بشر بن الحارث : أفضل المقامات اعتقاد الصبر على الفقر إلى القبر .

وقال ذو النون المصري : علامة سخط الله على العبد خوفه من الفقر .

وقال الشبلي : أدنى علامات الفقر ، أن لو كانت الدنيا بأسرها لأحد ، فأنفقها في يوم ثم خطر بباله أن لو أمسك منها قوت يوم ، ما صدق في فقره .

وقال الدقَّاق : تكلم الناس في الفقر والغنى ، أيهما أفضل ؟ وعندي : الأفضل أن يعطى الرجل كفايته ، ثم يصان فيه .

قال ابن الجلَّاء ، وقد سئل عن الفقير ، فسكت حتى خلا من الناس ، ثم ذهب ورجع عن قريب ، ثم قال : كان عندي أربعة دوانيق ، والدانق سدس الدرهم ، فاستحييت من الله تعالىٰ أن أتكلم في الفقر . فذهبت ، وأخرجته . ثم قعد ، وتكلم في الفقر بما يليق به .

وسأل إبراهيم بن المولد ابنَ الجلّاء متى يستحق الفقير اسم الفقير ؟

فقال : إذا لم يبق عليه بقية منه ، فقلت كيف ذلك ؟ فقال : إذا كان له ، فليس له ، وإذا لم يكن له ، فهو له .

وقيل : صحة الفقر ألا يستغني الفقير في فقره بشيء إلا بمن إليه فقره .

وقال عبد الله بن المبارك : إظهار الغنى في الفقر أحسن من الفقر .

قال بنان المصري : كنت بمكة قاعداً ، وشاب بين يدي ، فجاءه إنسان وحمل إليه كيساً فيه دراهم ، وضعه بين يديه ، فقال : لا حاجة لي فيه ، فقال فرّقه على المساكين ، فلما كان العشاء رأيته في الوادي يطلب شيئاً لنفسه ، فقلت : لو تركت لنفسك شيئاً مما كان معك ؟ فقال له : لم أعلم أني أعيش إلى هذا الوقت .

وقال أبو حفص : أحسن ما يتوسل به العبد إلى مولاه ، دوام الفقر إليه على جميع الأحوال ، وملازمة السنة في جميع الأفعال ، وطلب القوت من وجه حلال .

وقال المرتعش : ينبغي للفقير ألا تسبق همته خطوته .

وقال أبو علي الروذباري : كان أربعة في زمانهم : واحد كان لا يقبل من الإخوان ، ولا من السلطان ، وهو يوسف بن أسباط ورث سبعين ألف درهم ، ولم يأخذ منها شيئاً ، وكان يعمل الخوص بيده ، وآخر كان يقبل من الإخوان والسلطان جميعاً ، وهو أبو إسحاق الفزاري ، فكان ما يأخذه من الإخوان ينفقه في المستورين الذين لا يتحركون ، والذي يأخذه من السلطان كان يخرجه إلى مستحقيه من أهل طرسوس ، والثالث كان يأخذ من الإخوان ولا يأخذ من السلطان ، وهو عبد الله بن المبارك كان يأخذ من الإخوان ، ويكافىء عليه ، والرابع كان يأخذ من السلطان ولا يأخذ من الإخوان ، وهو : مخلد بن الحسين ، كان يقول : السلطان لا يمن ، والإخوان يمنون .

وقال الدقّاق : جاء في الخبر : من تواضع لغني لأجل غناه ذهب ثلثا دينه ، وإنما كان ذلك لأن المرء بقلبه ولسانه ونفسه ، فإذا تواضع الغني بنفسه

ولسانه ذهب ثلثا دينه ، فلو اعتقد فضله بقلبه كما تواضع له بلسانه ونفسه ذهب دينه كله .

وقيل : أقل ما يلزم الفقير في فقره أربعة أشياء : علم يسوسه ، وورع يحجزه ، ويقين يحمله ، وذكر يؤنسه . وقيل : من أراد الفقر لشرف الفقر مات فقيراً ، ومن أراد الفقر لئلا يشتغل عن الله مات غنياً .

وقال المزين : كانت الطرق الموصلة إلى الله أكثر من نجوم السماء ، فما بقي منها طريق إلا طريق الفقر ، وهو أصح الطرق .

قال النوري : نعت الفقير السكون عند العدم ، والإيثار عند الوجود .

وسئل الشبلي عن حقيقة الفقر فقال : ألا يستغني العبد بشيء دون الله تعالىٰ .

وقال الخشَّاب الكبير : الفقر فقر وذل ، فقلت له لا بل فقر وعز ، فقال : فقر وثرى ، فقلت : لا بل فقر وعرش .

سئل الدقَّاق عن معنى قوله ﷺ : « كاد الفقر أن يكون كفراً »[1] قال : فقلت : آفة الشيء وضده ، على حسب فضيلته وقدره ، فكل ما كان في نفسه أفضل فضده وآفته أنقص ، كالإيمان لما كان أشرف الخصال كان ضده الكفر ، فلما كان الخطر على الفقر الكفر بالله أي : التغطية للحق ، دل على أنه أشرف الأوصاف .

قال الجنيد : إذا لقيت الفقير فالقه بالرفق ، ولا تلقه بالعلم ، فإن الرفق يؤنسه ، والعلم يوحشه ، فقلت له : يا أبا القاسم : وهل يكون فقير يوحشه العلم ؟ فقال لي : نعم الفقير إذا كان صادقاً في فقره ، فطرحت عليه علمك ، ذاب كما يذوب الرصاص على النار .

وقال مظفر القرمسيني : الفقير هو الذي لا يكون له إلى الله حاجة ، قال الأستاذ رحمه الله : وهذا اللفظ فيه أدنى غموض لمن سمعه ، على وجه الغفلة

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية .

عن مرمى القوم ، وإنما أشار قائله إلى سقوط المطالبات وانتفاء الاختيار ، والرضا بما يجريه الحق سبحانه .

وقال ابن خفيف : الفقر عدم الإملاك ، والخروج من أحكام الصفات .
وقال أبو حفص : لا يصح لأحد الفقر حتى يكون العطاء أحب إليه من الأخذ ، وليس السخاء أن يعطي الواجد المعدم ، إنما السخاء أن يعطي المعدم الواجد .

وقال ابن الجلاَّء : لولا شرف التواضع لله ، لكان حكم الفقير إذا مشى أن يتبختر .

وقال يوسف بن أسباط : منذ أربعين سنة ما ملكت قميصين .

وقال بعضهم : رأيت كأن القيامة قد قامت ، وقيل : أدخلوا مالك بن دينار ، ومحمد بن واسع الجنة ، فنظرت أيهما يتقدم ، فتقدم محمد بن واسع ، فسألت عن سبب تقدمه ؟ فقيل لي : إنه كان له قميص واحد ، ولمالك قميصان .

وقال محمد بن المسرحي : الفقير الذي لا يرى لنفسه حاجة إلى شيء من الأسباب .

وسئل سهل بن عبد الله : متى يستريح الفقير ؟ فقال : إذا لم ير لنفسه غير الوقت الذي هو فيه .

وتذاكروا عند يحيى بن معاذ الفقر ، والغنى ، فقال : لا يوزن غداً لا الفقر ولا الغنى ، وإنما يوزن الصبر والشكر ، فيقال : تصبر وتشكر .

وقيل : أوحى الله تعالىٰ إلى بعض أنبيائه عليهم السلام : إن أردت أن تعرف رضاي عنك ، فانظر كيف رضا الفقراء عنك .

وقال أبو بكر الزقَّاق : من لم يصحبه التقى في فقره ، أكل الحرام المحض .

وقيل : كان الفقراء في مجلس سفيان الثوري كأنهم الأمراء .

وقال أبو بكر ابن طاهر : من حكم الفقير ألا يكون له رغبة في الدنيا ، فإن كان ولا بد ، فلا تجاوز رغبته كفايته ، وأنشد بعضهم :

قالوا غدا العيد ماذا أنت لابسه فقلت خلعة ساق حبه جرعا
فقر وصبر هما ثوباي تحتهما قلب يرى إلفه الأعياد والجمعا
أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به يوم التزاور في الثوب الذي خلعا
الدهر لي مأتم إن غبت يا أملي والعيد ما كنت لي مرأى ومستمعا

وقال أبو بكر المصري ، وقد سئل عن الفقير الصادق ، فقال : الذي لا يملك ولا يميل .

وقال ذو النون المصري : دوام الفقر إلى الله تعالىٰ مع التخليط ، أحب إلي من دوام الصفاء مع العجب .

مكث أبو جعفر الحدَّاد عشرين سنة يعمل كل يوم بدينار ، وينفقه على الفقراء ، ويصوم ، ويخرج بين العشاءين فيتصدَّق عليه من الأبواب .

وقال النوري : نعت الفقير السكون عند العدم ، والبذل والإيثار عند الوجود .

وقال الكتاني : كان عندنا بمكة فتىً عليه أطمار رثة ، وكان لا يداخلنا ، ولا يجالسنا ، فوقعت محبته في قلبي ، ففتح لي بمائة درهم من وجه حلال ، فحملتها إليه ، ووضعتها على طرف سجادته ، وقلت له : إنه فتح لي ذلك من وجه حلال ، تصرفه في بعض أمورك ، فنظر إليّ شزراً ، ثم كشف عما هو مستور عني ، قال : اشتريت هذه الجلسة مع الله سبحانه على الفراغ ، بسبعين ألف دينار غير الضياع والمستغلات ، تريد أن تخدعني عنها بهذه الدريهمات ، وقام وبدَّدها ، وقعدت ألتقطها ، فما رأيت كعزه حين مرّ ، ولا كذلّي حين كنت ألتقطها .

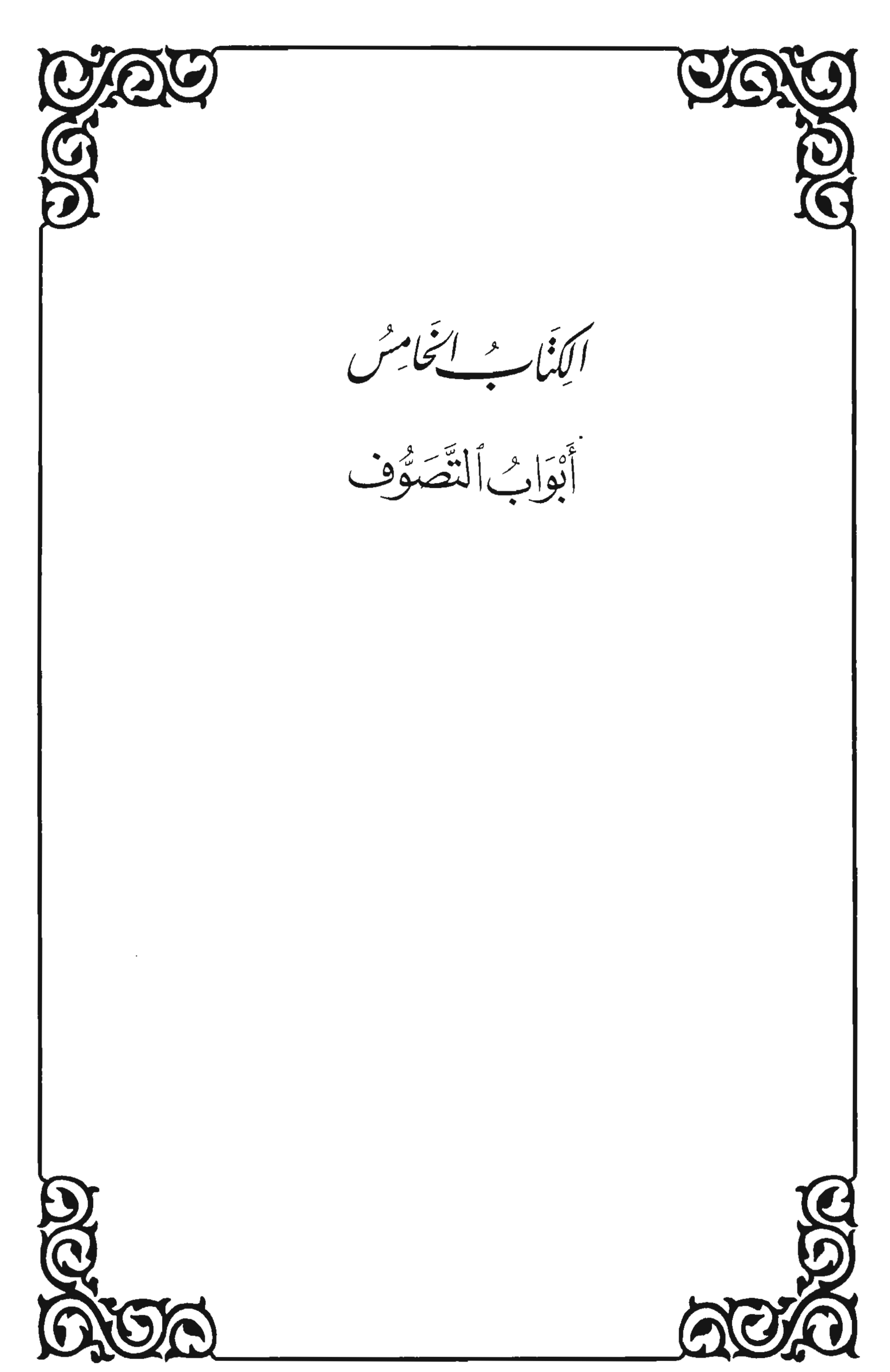
وقال أبو عبد الله بن خفيف : ما وجبت عليّ زكاة الفطر منذ أربعين سنة ، ولي قبول عظيم بين الخاص والعام .

وسئل ابن خفيف عن فقير يجوع ثلاثة أيام ، وبعد ثلاثة يخرج ، ويسأل مقدار كفايته ، إيش يقال فيه ؟ فقال : يقال مُكِدٌّ . كلوا واسكتوا ، فلو دخل فقير من هذا الباب لفضحكم كلكم .

وسئل الدقي عن سوء أدب الفقراء مع الله تعالىٰ في أحوالهم ، فقال : هو انحطاطهم من الحقيقة إلى العلم .

وقال النسَّاج : دخلت بعض المساجد ، وإذا فيه فقير ، فلما رآني تعلّق بي ، وقال : أيها الشيخ تعطَّفْ عليّ ، فإن محنتي عظيمة ، فقلت : وما هي . فقال : فقدت البلاء ، وقويت بالعافية ، فنظرت فإذا قد فتح عليه بشيء من الدنيا ، وقال الورّاق : طوبى للفقير في الدنيا والآخرة ، فسألوه عنه ، فقال : لا يطلب السلطان منه في الدنيا الخراج ، ولا الجبار في الآخرة الحساب .

* * * *



الكِتَابُ الخَامِسُ

أَبْوَابُ ٱلتَّصَوُّف



١ ـ باب التصوف

التصوف حفظ الحواس ومراعاة الأنفاس ، وهو ترك الاختيار . وهو الجد في السلوك إلى ملك الملوك .

والتصوف : الإكباب على العمل ، والإعراض عن العلل ، وهو مأخوذ من الصفاء ، والصفاء محمود بكل لسان .

عن أبي جحيفة قال : خرج علينا رسول الله ﷺ متغير اللون ، فقال : ذهب صفو الدنيا وبقي الكدر .

فالموت اليوم تحفة لكل مسلم ، ثم هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة ، فيقال للرجل : صوفي ، وللجماعة صوفية ، ومن يتوصل إلى ذلك بالاكتساب والتشبه بهم يقال له متصوف ، وللجماعة : المتصوّفة ، وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ، ولا اشتقاق ، والأظهر فيه أنه غير مشتق بل هو اسم جامد كاللقب .

فأما قول من قال : إنه مشتق من الصوف ، فذلك وجه ، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف ، ومن قال : إنهم منسوبون إلى صفة مسجد الرسول ﷺ فالنسبة إلى الصفة لا تجيء على نحو الصوفي ، ومن قال : إنه مشتق من الصفاء ، فهو بعيد في مقتضى اللغة .

وقول من قال : إنه مشتق من الصف ، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم ، فالمعنى صحيح ، ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف .

ثم إن هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج في تعيينهم إلى قياس لفظ ، واستحقاق اشتقاق .

وتكلم الناس في التصوف ما معناه ، وفي الصوفي من هو ؟ فكلٌ عبر بما وقع له ، ونحن ننتقي إن شاء الله بعض مقالاتهم ، قال الجريري : التصوف

الدخول في كل خلق سني ، والخروج من كل خلق دنيّ .

وقال المرعشي : سئل شيخي عن التصوف ، فقال : سمعت الجنيد وقد سئل عنه فقال : هو أن يميتك الحق عنك ، ويحييك به .

وقال الحسين بن منصور : الصوفي وحداني الذاتي لا يقبله أحد ، ولا يقبل أحداً .

وقال أبو حمزة البغدادي : علامة الصوفي الصادق ، أن يفتقر بعد الغنى ، ويذل بعد العز ، ويخفى بعد الشهرة ، وعلامة الصوفي الكاذب أن يستغني بالدنيا بعد الفقر ، ويعز بعد الذل ، ويشتهر بعد الخفاء .

وسئل عمر بن عثمان المكي عن التصوف ، فقال : أن يكون العبد في كل وقت ، بما هو أولى به في الوقت .

وقال محمد بن علي القصَّاب : التصوُّف أخلاق كريمة ، ظهرت في زمان كريم ، من رجل كريم ، مع قوم كرام .

وسئل سمنون عن التصوف ؟ فقال : هو أن لا تملك شيئاً ، وألا يملكك شيء .

وسئل رويم عن التصوف فقال : استرسال النفس مع الله تعالىٰ على ما يريده .

وسئل الجنيد عن التصوف فقال : هو أن تكون مع الله بلا علاقة .

وقال رويم : التصوف مبني على ثلاثة خصال ، التمسك بالفقر والافتقار إلى الله عز وجل ، والتحقق بالبذل والإيثار ، وترك التعرض والاختيار .

وقال معروف الكرخي : التصوف الأخذ بالحقائق ، واليأس مما في أيدي الخلائق .

وقال حمدون القصَّار : اصحب الصوفية ، فإن للقبيح عندهم وجوهاً من المعاذير .

وسئل الخراز عن أهل التصوف فقال : هم قوم أعطوا حتى بسطوا ،

ومنعوا حتى فقدوا ، ثم نودوا من أسرار قريبة ، ألّا فابكوا علينا .

وقال الجنيد : التصوف جد وتعب لا صلح فيها ، وقال أيضاً : هم أهل بيت واحد لا يدخل فيهم غيرهم ، وقال أيضاً : التصوف ذكر مع اجتماع ، ووجد مع استماع ، وعمل مع اتباع .

وقال بعضهم : الصوفي كالأرض يطرح عليها كل قبيح ، ولا يخرج منها إلا كل مليح .

وقال أيضاً : إنه كالأرض ، يطؤها البر والفاجر ، وكالسحاب يظل كل شيء ، وكالقطر يسقي كل شيء .

وقال أيضاً : إذا رأيت الصوفي يعنى بظاهره ، فاعلم أن باطنه خراب .
وقال سهل بن عبد الله : الصوفي من يرى دمه هدراً ، وملكه مباحاً .

وقال النوري : نعت الصوفي السكون عند العدم ، والإيثار عند الوجود .

وقال الكتّاني : التصوف خلق ، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء .

وقال أبو علي الروذباري : التصوف الإناخة على باب الحبيب ، وإن طرد عنه ، وقال أيضاً : صفوة القرب بعد كدورة البعد ، وقال أيضاً : أقبح من كل قبيح صوفي شحيح . وقيل : التصوف كف فارغ وقلب طيب .

وقال الشبلي : التصوف : الجلوس مع الله بلا همّ .

وقال أبو منصور الصوفي : هو المشير عن الله تعالىٰ ، فإن الخلق أشاروا إلى الله .

وقال الشبلي : الصوفي منقطع عن الخلق ، متصل بالحق كقوله تعالىٰ : ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ [طه : ٤١] قطعه عن كل غير ، ثم قال له : ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

وقال : الصوفية أطفال في حجر الحق ، وقال : التصوف برقة محرقة ، وقال أيضاً : هو العصمة عن رؤية الكون . وقال رويم : لا زالت الصوفية

بخير ما تنافروا ، فإذا اصطلحوا فلا خير فيهم .

وقال الجريري : التصوف مراقبة الأحوال ولزوم الأدب .

وقال المزيّن : التصوف الانقياد للحق .

وقال أبو تراب النخشبي : الصوفي لا يكدّره شيء ويصفو به كل شيء .

وقال الصوفي : لا يتعبه طلب ، ولا يزعجه سبب .

وقال ذو النون في أهل التصوف :

هم قوم آثروا الله عز وجل على كل شيء ، فآثرهم على كل شيء . وقال الواسطي رحمه الله : كان للقوم إشارات ، ثم صارت حركات ، ثم لم يبق إلا حسرات على ما كان يفهم من تلك الإشارات .

وسئل النوري عن الصوفي فقال : من سمع السماع ، وآثر الأسباب .

وقال الحصري : الصوفي لا تقلّه الأرض ولا تظلّه السماء ، إنما أشار إلى حال المحو . وقيل : الصوفي من إذا استقبله حالان ، أو خلقان كلاهما حسن ، كان مع الأحسن منهما .

وسئل الشبلي : لم سمّوا بهذه التسمية ؟ فقال : لبقية بقيت عليهم من نفوسهم ، فلولا ذلك لما تعلقت بهم تسمية .

وقد سُئل ابن الجلاّء : ما معنى قولهم : صوفي ؟ فقال : ليس نعرفه في شرط العلم ، ولكن نعرف أن من كان فقيراً مجرّداً من الأسباب ، وكان مع الله بلا مكان ، ولا يمنعه الحق سبحانه عن علم كل مكان ، يسمى صوفياً . وقال بعضهم : التصوف : إسقاط الجاه وسواد الوجه في الدنيا والآخرة ، فيرضى بأن لا تقضى له حاجة في الدنيا ولا في الآخرة ، فلا يكون له حظّ سوى ربه واسوداد الوجه يكون لعدم قضاء حاجته .

وقال أبو يعقوب المزايلي : التصوف حال يضمحل فيها معالم الإنسانية .

وقال السيرواني : الصوفي من يكون مع الواردات لا الأوراد .

وقال الدقّاق : أحسن ما قيل في هذا الباب قول من قال : هذا طريق لا يصلح إلا لأقوام ، قد كنس الله بأرواحهم المزابل ، ولهذا قال رحمه الله يوماً : لو لم يكن للفقير إلا روح فعرضها على كلاب هذا الباب لم ينظر كلب إليها . وقال الأستاذ الصعلوكي : التصوف : الإعراض عن الاعتراض ، وقال الحصري : الصوفي لا يوجد بعد عدمه ، ولا يعدم بعد وجوده ، وهذا فيه إشكال . ومعنى قوله : لا يوجد بعد عدمه ، أي : إذا فنيت آفاته لا تعود تلك الآفات ؛ وقوله : ولا يعدم بعد وجوده ، يعني : إذا استقبل بالحق ، لم يسقط بسقوط الخلق . فالحادثات لا تؤثر فيه .

ويقال : الصوفي المصطلم (المستغرق عن نفسه بالله يجري عليه من ألطافه) عنه بما لاح له من الحق .

ويقال : الصوفي مقهور بتصريف الربوبية مستور بتصرف العبودية .

ويقال : الصوفي لا يتغير ، فإن تغيّر لا يتكدّر .

قال الخرّاز : كنت في جامع القيروان يوم الجمعة ، فرأيت رجلاً يدور في الصف ، ويقول : تصدّقوا عليّ ، فقد كنت صوفياً فضعفت ، فرفقته بشيء ، فقال لي مرّ ، ويلك ! ليس هذا من ذلك ، ولم يقبل الرفق .

* * * *

٢ ـ باب الأدب

هو ما يتولَّد من صفاء القلب وحضوره ، أو : وضع الأشياء موضعها ، أو حسن معاملة ، أو مجالسة الخلق على بساط الصدق ، ومطالعة الحقائق بقطع العلائق ، ويتولد من الحياء والهيبة والشفقة ، وهو منحصر في خمسة :

أولها : حفظ الحرمة مع الله تعالىٰ ، ومع من له نسبة في جانب الله ، من رسول ، أو نبي ، أو ولي ، أو عالم ، أو غيرهم ، حتى من عوام المؤمنين .

الثاني : علو الهمة في الدنيا والدين ، بحيث لا يكون له تعلق بشيء من النقائص ، لا ظاهراً ولا باطناً ، وما جرى عليه من ذلك بالقضاء الأزليّ ، بادره بالتوبة .

الثالث : حسن الخدمة بلزوم الاتباع ، وترك الابتداع ، والتبرّي من الحول والقوة في كل أمر .

الرابع : نفوذ العزيمة بحيث لا يسمح لنفسه في حل عزيمة ، ولا يتراخى في محل التشمير ، ولا يركن لمواطن التقصير .

الخامس : شكر النعمة ، وأصله شهود المنة لله تعالىٰ ، وهو مبني على خالص التوحيد وخالص الإيمان .

ولكل واحد مما ذكر عند الإخلال به عقوبة تخصه إما بالعذاب ، وإما بسدل الحجاب ، أو بالصرف عن مواقف الأحباب .

هذا وقال بعضهم : لكل وقت وكل حال أدب ، ولكل مقام أدب ، فمن لزم أدب الأوقات بلغ مبلغ الرجال ، ومن ضيع الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب ، ومردود من حيث يظن القبول ، فالزم الأدب ظاهراً وباطناً ، فمسيء الأدب في الظاهر يعاقب ظاهراً ، ومسيئه في الباطن يعاقب بالجفا ، ومراعاة أدب الباطن أوجب ، لأن الباطن للخالق وصفة أدب الباطن : إخلاصه بالتوكل

على المولى سبحانه ، والخوف منه والرجاء فيه ، وحمل القلب على مر الصبر ، وسلامة الصدر ، وحسن الظن بالرب ، وبالإخوان المؤمنين والاهتمام بأمورهم .

وسبب ترك الأدب الاغترار بثلاث : اغتراره بظاهر ما يجري عليه من إمداده ، وحسن ظنه بنفسه في حاله ، ونصرة غلطها بفتح باب التأويل وذلك من الرضا عنها ، والسكون إليها ، ونسيان خوف المكر بها ، في عموم أحواله .

قال الله عز وجل : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٧] . قيل : حفظ آداب الحضرة ، وقال تعالىٰ : ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [التحريم : ٦] معناه فقهوهم وأدبوهم بالعلم .

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : « حق الوالد على والده : أن يحسن اسمه ، ويحسن مرضعه ، ويحسن أدبه » .

ويحكى عن سعيد بن المسيب أنه قال : من لم يعرف ما لله عز وجل عليه في نفسه ، ولم يتأدب بأمره ونهيه ، كان من الأدب في عزلة .

وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله عز وجل أدبني ، فأحسن أدبي »[١] .

وحقيقة الأدب : اجتماع جميع خصال الخير ، فالأديب هو الذي اجتمع فيه خصال الخير ، ومنه أخذت المأدبة ، وهي اسم للاجتماع على الطعام .

قال الدقّاق رحمه الله : العبد يصل بطاعته إلى الجنة ، وبأدبه في طاعته إلى الله تعالىٰ .

وقال : رأيت من أراد أن يمد يده في الصلاة بين يدي الله تعالىٰ إلى أنفه ليزيل ما به فقبض على يده حملاً له على الأدب مع الله تعالىٰ في صلاته . قال الأستاذ أي : القشيري رحمه الله : وإنما أشار بذلك إلى نفسه لأنه لا يمكن

---

(١) أخرجه السمعاني في أدب الإملاء ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

الإنسان أن يعرف من غيره أنه قبض على يده وكان أبو علي رحمه الله إذا جلس لذكر لا يستند إلى شيء وكان يوماً في مجمع ، فأردت أن أضع وسادة خلف ظهره ، لأني رأيته غير مستند ، فتنحى عن الوسادة قليلاً فتوهمت أنه توقى الوسادة ، لأنه لم يكن عليه خرقة أو سجادة ، فقال : لا أريد الاستناد ، فتأملت بعدُ حاله فكان لا يستند إلى شيء .

قال الجلاجلي : التوحيد موجب يوجب الإيمان ، فمن لا إيمان له لا توحيد له والإيمان موجب يوجب الشريعة فمن لا شريعة له لا إيمان له ولا توحيد له .

والشريعة موجب يوجب الأدب ، فمن لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان ولا توحيد .

وقال ابن عطاء : الأدب الوقوف مع المحسنات ، فقيل وما معناه ؟ فقال : أن تعامل الله بالأدب سراً وعلناً ، فإذا كنت كذلك كنت أديباً ، وإن كنت أعجمياً ثم أنشد :

إذا نطقت جاءت بكل ملاحة وإن سكتت جاءت بكل مليح

قال الجريري : منذ عشرين سنة ما مددت رجلي وقت جلوسي في الخلوة ، فإن حسن الأدب مع الله تعالىٰ أولى .

وقال الدقَّاق : من صاحب الملوك بغير أدب أسلمه الجهل إلى القتل .

روي عن ابن سيرين أنه سئل أي : الأدب أقرب إلى الله تعالىٰ ، فقال : معرفته برُبوبيته ، وعمل بطاعته ، والحمد لله على السراء والصبر على الضراء .

وقال يحيى بن معاذ : إذا ترك العارف أدبه مع معروفه فقد هلك مع الهالكين ، قال أبو علي : ترك الأدب موجب يوجب الطرد ، فمن أساء الأدب على البساط رد إلى الباب ، ومن أساء الأدب على الباب رد إلى سياسة الدواب .

وقيل للحسن البصري : قد أكثر الناس في علم الآداب فما أنفعها عاجلاً ؟

وما أوصلها آجلاً ؟ فقال : التفقه في الدين ، والزهد في الدنيا ، والمعرفة بما لله تعالىٰ عليك .

وقال يحيى بن معاذ : من تأدَّب بأدب الله تعالىٰ صار من أهل محبة الله .

وقال سهل : القوم الذين استعانوا بالله على أمر الله ، وصبروا لله على آداب الله .

وروي عن ابن المبارك أنه قال : نحن إلى قليل من الأدب أحوج منا إلى كثير من العلم ، قال ابن المبارك : طلبنا الأدب حين فاتنا المؤدبون .

وقيل : ثلاث خصال ليس معهن غربة : مجانبة أهل الريب ، وحسن الأدب ، وكف الأذى .

ولما دخل أبو حفص بغداد ومعه أصحابه ، ورأى الجنيد أدبهم ، قال له الجنيد : لقد أدبت أصحابك أدب السلاطين ، فقال له أبو حفص : حسن الأدب في الظاهر عنوان حسن الأدب في الباطن .

وعن عبد الله بن المبارك أنه قال : الأدب للعارف كالتوبة للمستأنف .

وقيل لبعضهم : يا سيء الأدب ! فقال : لست بسيء الأدب ، فقيل له : من أدّبك ؟ قال : الصوفية .

قال أبو نصر السراج : الناس في الأدب على ثلاث طبقات ، أما أهل الدنيا : فأكثر آدابهم في الفصاحة والبلاغة ، وحفظ العلوم ، وأسماء الملوك ، وأشعار العرب .

وأما أهل الدين : فأكثر آدابهم في رياضة النفوس ، وتأديب الجوارح ، وحفظ الحدود ، وترك الشهوات .

وأما أهل الخصوصية : فأكثر آدابهم في طهارة القلوب ، ومراعاة الأسرار ، والوفاء بالعهود ، وحفظ الوقت ، وقلة الالتفات إلى الخواطر ، وحسن الأدب في مواقف الطلب ، وأوقات الحضور ، ومقامات القرب .

قال سهل بن عبد الله : من قهر نفسه بالأدب فهو يعبد الله بالإخلاص .

وقيل : كمال الأدب لا يصفو إلا للأنبياء والصِّدِّيقين .

وقال ابن المبارك : أكثر الناس في الأدب ، ونحن نقول : هو معرفة النفس .

وقال الشبلي : الانبساط بالقول مع الحق ترك الأدب .

وقال ذو النون المصري : أدب العارف فوق كل أدب ، لأن معروفه مؤدب قلبه .

وقال بعضهم : يقول الحق سبحانه : من ألزمته القيام مع أسمائي وصفاتي ، ألزمته الأدب ، ومن كشفت له عن حقيقة ذاتي ، ألزمته العطب ، فاختر أيهما شئت : الأدب ، أو العطب ؟ .

وقيل : مدَّ ابن عطاء يوماً رجله بين أصحابه وقال : ترك الأدب بين أهل الأدب أدب ، ويشهد لهذه الحكاية ، الخبر الذي روي أن النبي ﷺ كان عنده أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، في حائط على طرف بئر وقد دلّى رجليه فيها ، وانكشف بعض فخذه ولم يغطه ، فدخل عثمان فغطى فخذه ، وقال : « ألا أستحي من رجل استحيت منه الملائكة ؟ »[1] نبّه ﷺ على أن حشمة عثمان رضي الله عنه وإن عظمت عنده ، فالحالة التي كانت بينه وبين أبي بكر وعمر كانت أصفى ، وفي قريب من معناه أنشدوا :

فيّ انقباض وحشمة فإذا ... جالست أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسي على سجيتها ... وقلت ما شئت غير محتشم

وقال الجنيد : إذا صحت المحبة سقطت شروط الأدب .

وقال أبو عثمان : إذا صحت المحبة ، تأكدت على المحب ، ملازمة الأدب .

وقال النوري : من لم يتأدب للوقت ، فوقته المقت .

---

(١) أخرجه الترمذي ، عن عائشة رضي الله عنها .

وقال ذو النون : إذا خرج المريد عن استعمال الأدب ، فإنه يرجع من حيث جاء .

قال الدقّاق في قوله تعالىٰ : ﴿ ۞وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٣] . قال : لم يقل أيوب : ارحمني بل قال : ﴿ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ فأثنى على الله بصفة من صفاته وضمّنه ارحمني ، لأنه حفظ آداب الخطاب ، وكذلك عيسى عليه السلام حيث قال : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ﴾ [المائدة : ١١٨] . وقال : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ﴾ [المائدة : ١١٦] . ولم يقل لم أقل : رعايةً لآداب الحضرة .

وقال الجنيد : جاءني بعض الصالحين يوم جمعة ، فقال : ابعث معي فقيراً ، يدخل عليّ سروراً ، ويأكل معي شيئاً ، فالتفتُ فإذا أنا بفقير شهدت فيه الفاقة ، فدعوته وقلت له : امض مع هذا الشيخ ، وأدخل عليه سروراً ، فمضى فلم ألبث أن جاء الرجل فقال : يا أبا القاسم : لم يأكل ذلك الرجل الفقير إلا لقمةً وخرج ، فقلت : لعلك قلت كلمة جفاء عليه ، فقال : لم أقل شيئاً ، فالتفتُ فإذا أنا بالفقير جالس ، فقلت : لم لم تتم عليه السرور ؟ فقال : يا سيدي خرجت من الكوفة ، وقدمت بغداد ، ولم آكل شيئاً ، وكرهت أن يبدو مني سوء أدب من جهة الفاقة في حضرتك ، فلما دعوتني سررت إذ جرى ذلك ابتداء منك ، فمضيت وأنا لا أرضى له الجنان ، فلما جلست على مائدته ، سوّى لقمة ، وقال لي : كل فهذا أحب إليّ من عشرة آلاف درهم ، فلما سمعت هذا علمت أنه دنيء الهمة ، فتجنبت أن آكل طعامه . فقال الجنيد : ألم أقل لك إنك أسأت أدبك معه ؟ فقال : يا أبا القاسم ! التوبة ، فسأله أن يمضي معه ، ويفرحه ، فأجابه إلى ذلك .

* * * *

٣ ـ باب أحكام الصوفية في السفر

قال الله عز وجل : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [يونس : ٢٢] .

عن ابن عمر : أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على البعير خارجاً إلى سفر كبّر ثلاثاً ثم قال : « ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف : ١٣ ـ ١٤] . ثم يقول : اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ، ومن العمل الصالح ما ترضى ، اللهم هوّن علينا سفرنا واطوِ عنا بعده ، اللهم أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل ، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر ، في الأهل ، والمال » . وإذا رجع قالهن وزاد فيهن « آيبون تائبون لربنا حامدون »(١) .

ولما كان رأي كثير من أهل هذه الطائفة ، اختيار السفر أفردنا بالذكر السفر ، لكونه أعظم شأنهم ، وهذه الطائفة مختلفون ، فمنهم من آثر الإقامة على السفر ، ولم يسافر إلا لفرض كحجة الإسلام ، والغالب عليهم الإقامة ، مثل الجنيد ، وسهل ، وأبي يزيد ، وأبي حفص ، وغيرهم ، ومنهم من آثر السفر وكانوا على ذلك إلى أن خرجوا من الدنيا ، مثل أبي عبد الله المغربي ، وإبراهيم بن أدهم ، وغيرهم .

وكثير منهم سافروا في ابتداء أمورهم ، في حال شبابهم أسفاراً كثيرة ، ثم قعدوا عن السفر في آخر أحوالهم ، مثل أبي عثمان الحيري ، والشبلي ، وغيرهم ، ولكل منهم أصول بنوا عليها طريقتهم .

واعلم أن السفر قسمين : سفر بالبدن ، وهو انتقال من بقعة إلى بقعة ،

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٤٤) ومسلم في الحج (١٣٤٢) وأبو داود في الجهاد (٢٥٩٩) .

وسفر بالقلب : وهو ارتقاء من صفة إلى صفة ، فترى ألفاً يسافر بنفسه ، وقليل من يسافر بقلبه .

قال الدقَّاق رحمه الله : كان بفرخك ـ قرية بظاهر نيسابور ـ شيخ من شيوخ هذه الطائفة ، وله على هذا اللسان تصانيف ، سأله بعض الناس ، هل سافرت أيها الشيخ ؟ فقال : تريد سفر الأرض ، أم سفر السماء ؟ سفر الأرض لا ، وسفر السماء بلى .

وقال أيضاً : جاءني بعض الفقراء وأنا بمرو ، فقال لي : قطعت إليك مشقة بعيدة ، والمقصود لقاؤك ، فقلت له : كان يكفيك خطوة واحدة لو سافرت عن نفسك .

وحكاياتهم في السفر تختلف على ما ذكرنا ، من أقسامهم ، وأحوالهم .

قال أحنف الهمداني : كنت في البادية وحدي فأعييت ، فرفعت يدي وقلت : يا رب إني ضعيف زمن ، وقد جئت إلى ضيافتك ، فوقع في قلبي أن يقال لي : من دعاك ؟ فقلت : يا رب : هي مملكة تحتمل الطفيلي ! فإذا أنا بهاتف من ورائي ، فالتفتُ إليه ، فإذا هو أعرابي على راحلته ، فقال : يا أعجمي إلى أين ؟ فقلت : إلى مكة ، قال : أوَ دعاك ؟ قلت : لا أدري ! فقال : أليس قال : من استطاع إليه سبيلاً ؟ فقلت : المملكة واسعة ، تحتمل الطفيلي ، فقال : نعم الطفيلي أنت ، يمكنك أن تخدم الجمل ؟ قلت : نعم . فنزل عن راحلته ، وأعطانيها ، وقال : سر عليها .

استوصى أحد الفقراء الكتَّاني فقال : اجهد أن تكون كل ليلة ضيف مسجد ، وألا تموت إلا بين منزلتين .

ويُحكى عن الحصري أنه كان يقول : جلسة خير من ألف حجة ، وإنما أراد جلسة تجمع الهمّ على نعت الشهود .

ولعمري إنها أتم من ألف حجة على وصف الغيبة عنه .

وقال محمد الفرغاني : كنا نسافر مقدار عشرين سنة ، أنا وأبو بكر

الزقَّاق ، والكتَّاني ، لا نختلط بأحد ، ولا نعاشر أحداً ، فإذا قدمنا بلداً فإن كان فيه شيخ سلمنا عليه ، وجالسناه إلى الليل ، ثم نرجع إلى مسجد ، فيصلي الكتاني من أول الليل إلى آخره ، ويختم القرآن .

ويجلس الزقَّاق من أول الليل إلى آخره مستقبل القبلة .

وكنت أستلقي من أول الليل إلى آخره على ظهري متفكراً، ثم نصبح ونصلي صلاة الفجر على وضوء العتمة ، فإذا وقع معنا إنسان ينام ، كنا نراه أفضلنا .

وسئل رويم عن أدب السفر فقال : ألا يجاوز همه قدمه ، وحيثما وقف قلبه يكون منزله .

وحكي عن مالك بن دينار أنه قال : قد أوحى الله إلى موسى عليه السلام اتخذ نعلين من حديد ، وعصاً من حديد ، ثم سِح في الأرض ، واطلب الآثار والعبر ، حتى تنخرق النعلان ، وتنكسر العصا .

وقيل : كان أبو عبد الله المغربي يسافر أبداً ومعه أصحابه ، وكان يكون محرماً ، فإذا تحلل من إحرامه أحرم ثانياً ، ولم يتسخ له ثوب ولا طال له ظفر ولا شعر ، وكان يمشي مع أصحابه بالليل وراءه فكان إذا حاد أحدهم عن الطريق يقول : يمينك يا فلان ، يسارك يا فلان ، وكان لا يمد يده إلى ما وصلت إليه يد الآدميين ، وكان طعامه أصل شيء من النبات ، يؤخذ فيقلع لأجله .

وقيل : كل صاحب تقول له : قم . فقال : إلى أين ؟ فليس بصاحب ، وفي معناه أنشدوا :

إذا استُنْجدوا لم يسألوا من دعاهم　　لأيـــة حـــرب أم لأي مكـــان

وحكي عن أبي علي الرباطي فقال : صحبت عبد الله المروَزي ، وكان يدخل البادية ، قبل أن أصحبه بلا زاد ، فلما صحبته قال لي : أيما أحب إليك تكون أنت الأمير أم أنا ؟ فقلت : لا ، بل أنت . فقال : وعليك الطاعة ! فقلت : نعم ، فأخذ مخلاة ، ووضع فيها زاداً ، وحملها على ظهره ، فإذا قلت : أعطني حتى أحملها ، قال : الأمير أنا وعليك الطاعة ، قال : فأخذنا

المطر ليلة ، فوقف إلى الصباح على رأسي وعليه كساء يمنع عني المطر ، فكنت أقول في نفسي : يا ليتني مت ، ولم أقل : أنت الأمير ، ثم قال لي : إذا صحبت إنساناً ، فاصحبه ، كما رأيتني صحبتك .

وقدم شاب على أبي علي الروذباري ، فلما أرادوا الخروج إلى السفر ، قال الشاب : يقول الشيخ شيئاً ، فقال : يا فتى كانوا لا يجتمعون عن موعد ، ولا يتفرقون عن مشورة . وعن المزين الكبير قال : كنت يوماً مع إبراهيم الخواص ، في بعض أسفاره ، فإذا عقرب تسعى على فخذه ، فقمت لأقتلها فمنعني ، وقال : دعها كل شيء مفتقر إلينا ، ولسنا مفتقرين إلى شيء .

وقال أبو عبد الله النصبيني : سافرت ثلاثين سنة ما خطت قط خرقة على مرقعتي ، ولا عدلت إلى موضع علمت أن لي فيه رفيقاً ، ولا تركت أحداً يحمل معي شيئاً .

واعلموا أن القوم استوفوا آداب الحضور ، من المجاهدات ، ثم لما ظنوا أنهم تعلموا الصبر والزهد والتوكل والرضا وغيرها من المقامات ، أخرجوها من المعلومات ، وحملوها على مفارقة المعارف ، كيف يعيشون مع الله بلا علاقة ولا واسطة ؟ فلم يتركوا شيئاً من أورادهم في أسفارهم ، وقالوا : الرخص لمن كان سفره ضرورة ، ونحن لا شغل لنا ، ولا ضرورة في أسفارنا علينا .

قال النصرأباذي : ضعفت في البادية مرة ، فأيست من نفسي ، فوقع بصري على القمر ، وكان ذلك بالنهار ، فرأيت مكتوباً عليه : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة : ١٣٧] فاستقللت ، وفتح عليّ من ذلك الوقت ، هذا الحديث . أي : خرق العادة .

وقال أبو يعقوب السوسي : يحتاج المسافر إلى أربعة أشياء في سفره : علم يسوسه ، وورع يحجزه ، ووجد يحمله ، وخلق يصونه .

وقيل : سمي السفر سفراً ، لأنه يسفر عن أخلاق الرجال .

وكان الكتاني يقول : إذا سافر الفقير إلى اليمن ، ثم رجع إليه مرة

أخرى ، يأمر أصحابه بهجرانه ، وإنما كان يفعل ذلك ، لأنهم كانوا يسافرون إلى اليمن ذلك الوقت ، لأجل الرفق .

وقيل : كان إبراهيم الخوَّاص ، لا يحمل شيئاً في السفر ، وكان لا تفارقه الإبرة ، والركوة ، أما الإبرة فلخياطة ثوبه إن تمزق ستراً للعورة ، وأما الركوة فللطهارة ، وكان لا يرى ذلك علاقة ولا معلوماً .

وحكي عن الرازي قال : خرجت من طرسوس حافياً ، وكان معي رفيقي ، فدخلنا بعض قرى الشام ، فجاء لي فقير بحذاء ، فامتنعت من قبوله ، فقال لي رفيقي : البس هذا فقد عييت ، فإنه قد فتح عليك هذا النعل بسببي . فقلت : ما لك ؟ فقال : نزعت نعلي موافقة لك ، ومراعاة لحق الصحبة .

وقيل : كان الخوَّاص في سفر ، ومعه ثلاثة نفر ، فبلغوا مسجداً في بعض المفاوز ، وباتوا فيه ، ولم يكن عليه باب . وكان برد شديد ، فناموا ، فلما أصبحوا رأوه واقفاً على الباب ، فقالوا له في ذلك . فقال : خشيت عليكم أن تجدوا البرد ، وكان قد وقف طول ليلته . وقيل : إن الكتاني استأذن أمه في الحج مرة فأذنت له من غير طيب نفس ، فخرج فأصاب ثوبه البول في البادية ، فقال : إن هذا لخلل في حالي ، فانصرف راجعاً ، فلما دقَّ باب داره ، أجابته أمه ، ففتحت ، فرآها جالسة خلف الباب ، فسألها عن سبب جلوسها ، فقالت : مذ خرجت اعتقدتُ ألا أبرح من هذا الموضع حتى أراك .

وقال إبراهيم القصَّار : سافرت ثلاثين سنة ، أصلح قلوب الناس الفقراء .

وقيل : زار رجل داود الطائي ، فقال : يا أبا سليمان كانت نفسي تنازعني إلى لقائك منذ زمان ، فقال : لابأس ، إذا كانت الأبدان هادئة ، والقلوب ساكنة ، فالتلاقي أيسر .

قال أبو نصر الصوفي : خرجت من البحر بعمان ، وقد أثر فيّ الجوع فكنت أمرّ في السوق ، فبلغت حانوت حلاوى ، فرأيت حُملاناً مشوية ، وحلاوات ، فتعلقت برجل ، وقلت له : لما لحقني من الجوع لطول إقامتي في البحر ، واحتجت إلى ما يصلح به بدني ، للقوة على الطاعة ، وقراءة

القرآن ونحوه ، لا للشهوة ، اشتر لي من هذه الأشياء ، فقال : لماذا ؟ ألك عليّ شيء ، أو علي دين ؟ فقلت : لا بد لي أن تشتري لي من هذا ، فرآني رجل فقال لي : خله عنك يا فتى ! ذاك أنا ، لا هو ، اقترح عليّ واحكم بما تريد ، ثم اشترى لي ما أردت ومضى .

وحكي عن أبي الحسين المصري فقال : اتفقت مع الشجري في السفر ، من طرابلس ، فسرنا أياماً لم نأكل شيئاً ، فرأيت قرعاً مطروحاً ، فأخذت آكله ، فالتفت إليّ الشيخ ولم يقل شيئاً ، فرميت به ، وعلمت أنه كره ذلك ، ثم فتح علينا بخمسة دنانير ، فدخلنا قرية ، فقلت : يشتري الشيخ لا محالة ، فمر ولم يفعل ، ثم قال لي الشيخ : نحن جياع ، ولم يشتر لنا شيئاً هو ذا ، فوافى اليهودية ـ قرية على الطريق ـ وثم رجل صاحب عيال إذا دخل قلنا يشتغل بنا ، فادفعها إليه لينفقها علينا وعلى عياله ، فوصلنا إليها ودفع الدنانير إلى الرجل ، وأنفقها ، فلما خرجنا ، قال لي : إلى أين يا أبا الحسين ؟ فقلت : أسير معك ! فقال : لا إنك تخونني في قرعة ، وتصحبني ؟ أي : لا تصحبني ، وأبى أن يصحبني .

وقال عبد الله بن خفيف : كنت في حال حداثتي ، استقبلني بعض الفقراء ، فرأى فيّ أثر الضرّ والجوع ، فأدخلني داره ، وقدم لي لحماً طبخ بالكشك ، واللحم متغير ، فكنت آكل الثريد ، وأتجنب اللحم لتغيره ، فلقمني لقمة ، فأكلتها بجهد ، ثم لقمني ثانية ، فبلغتني مشقة ، فرأى ذلك فيّ ، وخجل ، وخجلت لأجله ، فخرجت ، وانزعجت في الحال للسفر ، فأرسلت إلى والدتي من يخبرها ، ويحمل إليّ مرقعتي ، فلم تعارضني الوالدة ، ورضيت بخروجي ، فارتحلت من القادسية ، مع جماعة من الفقراء ، فتهنا ، ونفد ما معنا ، وأشرفنا على التلف ، فوصلنا إلى حيّ من أحياء العرب ، ولم نجد شيئاً فاضطررنا إلى أن اشترينا منهم كلباً بدنانير ، وشووه ، والضرورات تبيح المحظورات ، وأعطوني قطعة من لحمه ، فلما أردت أكله فكرت في حالي ، فوقع لي أنه عقوبة خجل ذلك الفقير فتبت في نفسي ، فدلونا على الطريق ، فمضيت ، وحججت ، ثم رجعت معتذراً إلى الفقير .

٤ ـ باب الصحبة

هي مطلق الاجتماع ، وإن قلّ الزمن ، وهي على ثلاثة أقسام : صحبة الأدنى ، والمماثل ، والأعلى .

فصحبة الأدنى : يشترط الرفق به ، والرحمة له ، والتنبيه على ما به الكمال ، والزجر عن أسباب النقص .

وصحبة القرين يعتبر فيها الإغضاء ، والتغافل ، مع الحمل على أحسن وجوه التأويل ، فيما ظاهره يخالف سنن المتابعة .

وصحبة الأعلى : وهي في الحقيقة : خدمة يلزم لها التسليم ، والبعد عن أسباب الاعتراض ، وغير ذلك مما يعتبر في صحبة الأصاغر للأكابر .

الصحبة في الله : ممدوحة ، ومطلوبة . قال الله عز وجل : ﴿ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ ﴾ [التوبة : ٤٠] .

لما أثبت الله سبحانه للصديق الصحبة : بيّن له أنه أظهر عليه الشفقة ، فقال تعالىٰ : ﴿ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ ﴾ .

فالحرّ شفيق على من يصحبه .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « متى ألقى أحبابي ؟ » فقال له أصحابه : بأبينا أنت وأمنا أو لسنا أحبابك ؟ قال : « أنتم أصحابي ! أحبابي قوم لم يروني وآمنوا بي ! وأنا إليهم بالأشواق أكثر ! » وفي نسخة بدل أحبابي : إخواني ، ويدل لها قوله ﷺ : « وددت لو رأيت إخواني » . قالوا : أو لسنا إخوانك يا رسول الله قال : « أنتم أصحابي »[1] . الخبر .

---

(١) أخرجه الترمذي ، وصحّحه .

فالصحبة له ﷺ آكد من الأخوة والمحبة .

الصحبة على ثلاثة أقسام : صحبة مع من فوقك في المنزلة ، من دين ، أو علم ، أو نحوه ، وهي في الحقيقة خدمة ، فحقك في صحبته الإخلاص والخدمة له .

والثاني : صحبة من دونك ، وهي تقضي على المتبوع بالشفقة ، والرحمة للمتبوع على التابع بالوفاق والحرمة .

والثالث : صحبة الأكفاء والنظراء ممن يساويك ، وهي مبنية على الإيثار والفتوة ، فمن صحب شيخاً فوقه في الرتبة ، فأدبه : ترك الاعتراض عليه ، وحمل ما يبدو منه على وجه جميل ، وتلقي أحواله بالإيمان ، بحاله وأنه حق .

سأل الطوسي منصور بن خلف : كم سنة صحبت أبا عثمان المغربي ؟ فنظر إليه شزراً، وقال : إني لم أصحبه ، بل خدمته مدة ، وأما إذا صحبك من هو دونك، فالخيانة منك في حق صحبته ألا تنبهه على ما فيه من نقصان حالته.

كتب أبو الخير التينائي إلى جعفر بن محمد بن نصير : وزر جهل الفقراء عليكم ، لأنكم اشتغلتم بنفوسكم عن تأديبهم ، فبقوا جهلة .

وأما إذا صحبت من هو في درجتك ، فسبيلك التعامي عن عيوبه ، وحمل ما ترى منه على وجه من التأويل جميل ما أمكنك ، فإن لم تجد تأويلاً عدت إلى نفسك بالتهمة ، والتزام اللائمة .

قال الدقَّاق رحمه الله : قال لي أحمد بن أبي الحواري : قلت لأبي سليمان الداراني : إن فلاناً لا يقع من قلبي ، فقال أبو سليمان : وليس يقع أيضاً من قلبي ، ولكن يا أحمد ! لعلنا أتينا من قبلنا ، لسنا من جملة الصالحين ، فلسنا نحبهم ، فينبغي للعبد إذا وجد نقصاً في غيره أن يردّه إلى نفسه ، وعلى أن حق كل من المتكافئين أن ينبّه صاحبه فيما يحتاج إلى التنبيه فيه برفق ، وحسن سياسة .

وقيل : صحب رجل إبراهيم بن أدهم ، فلما أراد أن يفارقه قال له الرجل : إن كنت رأيت فيّ عيباً فنبّهني ! فقال إبراهيم : إني لم أر لك عيباً ، لأني لاحظتك بعين الوداد ، فاستحسنت منك ما رأيت ، فسل غيري عن عيبك ، وفي معناه أنشدوا :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

وحكي عن إبراهيم بن شيبان أنه قال : كنا لا نصحب من يقول : نعلي .

قال القلانسي ـ وكان من أساتذة الجنيد ـ صحبت أقواماً بالبصرة فأكرموني ، فقلت مرة لبعضهم : أين إزاري ؟ فسقطت من أعينهم .

وقال الزقّاق : منذ أربعين سنة أصحب هؤلاء الصوفية ، فما رأيت رفقاً لأصحابنا ، إلا من بعضهم لبعض ، أو ممن يحبهم .

ومن لم يصحبه التقوى ، والورع في هذا الأمر ، أكل الحرام النص (الخالص) .

قال رجل لسهل بن عبد الله : أريد أن أصحب يا أبا محمد ! فقال : إذا مات أحدنا فمن يصحبه الباقي منا ؟ فقال : يصحب الله ، فقال له : فليصحبه الآن .

وصحب رجل رجلاً مدة ، ثم بدا لأحدهما المفارقة ، فاستأذن صاحبه ، فقال له : أذنت لك بشرط ألا تصحب أحداً ، إلا إذا كان فوقنا ، وإن كان أيضاً فوقنا فلا تصحبه ، لأنك صحبتنا أولاً .

فيه : نصح بالغ ، لحفظ حرمة الصاحب الأول .

فحق العبد أن ينتقل من حال إلى حال فوقه ، أو مثله ، لا دونه ، ونهاه عن الانتقال إلى من هو فوقه ، حتى لا يقع في قلبه انتقاص لمن فارقه ، فيقع في خطأ وزلل ، فقال الرجل : زال من قلبي إرادة المفارقة .

قال الكتّاني : صحبني رجل وكان على قلبي ثقيلاً ، فوهبت له شيئاً تطيب به نفسه ، ليزول ما في قلبي من ثقل ، فلم يزل ، فحملته إلى بيتي وقلت له :

ضع رجلك على خدي ! فأبى ! فقلت : لا بد ، ففعل ، واعتقدت ألا يرفع رجله من خدي حتى يرفع الله من قلبي ما كنت أجده ، فلما زال عن قلبي ما كنت أجده ، قلت له : ارفع رجلك الآن .

وكان إبراهيم بن أدهم يعمل في الحصاد وحفظ البساتين وغيره ، وينفق على أصحابه .

وقيل : كان مع جماعة من أصحابه ، فكان يعمل بالنهار ، وينفق عليهم ، ويجتمعون بالليل في موضع ، وهم صيام ، فكان يبطىء في الرجوع من العمل ، فقالوا ليلة : تعالوا نأكل فطورنا دونه ، حتى يعود بعد هذا أسرع ، فأفطروا وناموا ، فلما رجع إبراهيم وجدهم نياماً ، فقال : مساكين ! لعلهم لم يكن لهم طعام ! فعمد إلى شيء من الدقيق كان هناك ، فعجنه ، وأوقد النار ، وطرح الملّة (الرماد الحار) على العجين ، وجعل ينفخ في النار لينضج العجين ، فانتبهوا وهو ينفخ في النار ، واضعاً محاسنه على التراب ، فقالوا له في ذلك ، فقال : لعلكم لم تجدوا فطوراً فنمتم ، فأحببت أن تستيقظوا والملة قد أدركت ، يعني نضج العجين ، فقال بعضهم لبعض : انظروا إيش الذي عملنا ، وما الذي به يعاملنا .

وقيل : كان إبراهيم بن أدهم إذا صحبه أحد شارطه على ثلاثة أشياء : أن تكون الخدمة والأذان له ، وأن تكون يده في جميع ما يفتح الله عليهم به من الدنيا كيدهم ، فقال له رجل يوماً من أصحابه : أنا لا أقدر على هذا ! فقال : أعجبني صدقك .

وقال يوسف بن الحسين : قلت لذي النون : مع من أصحب ؟ فقال : مع من لا تكتمه شيئاً ، يعلمه الله تعالىٰ منك .

وقال سهل بن عبد الله لرجل : إن كنت ممن يخاف السباع فلا تصحبني .

قال بشر بن الحارث : صحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار .

وحكى الجنيد قال : لما دخل أبو حفص بغداد ، كان معه إنسان أصلع ، لا يتكلم بشيء ، فسألت أصحاب أبي حفص عن حاله ، فقالوا : هذا رجل

أنفق عليه مائة ألف درهم ، واستدان مائة ألف أنفقها عليه ، ولا يرخص له أبو حفص أن يتكلم بحرف ، لأن السكوت أفضل له ، وأجمع لِهَمِّه ، وأبعد من رؤية نفسه .

وقال ذو النون : لا تصحب مع الله إلا بالموافقة ، ولا مع الخلق إلا بالمناصحة ، ولا مع النفس إلا بالمخالفة ، ولا مع الشيطان إلا بالعداوة .

وقال رجل لذي النون : مع من أصحب ؟ فقال : مع من إذا مرضتَ عادَك ، وإذا أذنبتَ تابَ عليك .

قال أبو علي : الشجر إذا نبت بنفسه ولم يستنبته أحد يُورق ولكن لا يثمر ، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يتخرج به لا يجيء منه شيء ، وكان الأستاذ أبو علي يقول : أخذت هذا الطريق عن النصرأباذي ، وأخذه عن الشبلي ، والشبلي من الجنيد ، والجنيد عن السري ، والسري عن معروف الكرخي ، ومعروف عن داود الطائي ، وداود الطائي لقي التابعين وأخذ عنهم، وسمعته يقول : لم أتخلف إلى مجلس النصرأباذي قط إلا اغتسلت قبله .

قال الأستاذ الإمام القشيري رحمه الله : وأنا لم أدخل على أبي علي في وقت بدايتي إلا صائماً ، وكنت أغتسل قبله ، وكنت أحضر باب مدرسته غير مرة ، فأرجع من الباب احتشاماً منه ، أن أدخل عليه ، فإذا تجاسرت مرة ودخلت المدرسة ، كنت إذا بلغت وسط المدرسة ، يصحبني شبه خدر ، حتى لو غرز فيّ إبرة مثلاً لعلي كنت لا أحس بها ، ثم إذا قعدت لواقعة وقعت لي ، لم أحتج أن أسأله بلساني عن المسألة ، فكما كنت أجلس كان يبتدىء بشرح واقعتي ، وغير مرة رأيت منه هذا عياناً ، وكنت أذكر في نفسي كثيراً ، أنه لو بعث الله في وقتي رسولاً إلى الخلق ، هل يمكنني أن أزيد من حشمته على قلبي فوق ما كان منه رحمه الله ؟ فكان لا يتصور لي أن ذلك ممكن ! ولا أذكر أني في طول اختلافي إلى مجلسه ، ثم كوني معه بعد حصول الوصلة ، أن جرى في قلبي أو خطر ببالي عليه قط أي اعتراض ! إلى أن خرج رحمه الله من الدنيا .

أوحى الله سبحانه إلى موسى عليه السلام : كن يقظاناً ، مرتاداً ، لنفسك أخداناً ، وكلٌ خدن لا يواتيك على مسرة فأقصه (أبعده) ، ولا تصحبه ، فإنه يقسي قلبك ، وهو لك عدو ، وأكثر من ذكري تستوجب شكري ، والمزيد من فضلي .

قال الطمستاني : اصحبوا مع الله ، فإن لم تطيقوا ، فاصحبوا مع من يصحب مع الله ، لتوصلكم بركات صحبتهم إلى صحبة الله تعالىٰ .

* * * *

٥ - باب التوحيد

قال الله عز وجل : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ [البقرة : ١٦٣] .

عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بينا رجل فيمن كان قبلكم ، لم يعمل خيراً قط إلا التوحيد ، فقال لأهله : إذا أنا مت فأحرقوني ! ثم اسحقوني ! ثم ذروا نصفي في البرّ ونصفي في البحر ، في يوم ريح ، ففعلوا : فقال الله تعالىٰ للريح : أدّي ما أخذت ! فإذا هو بين يديه تعالىٰ ، فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : استحياء منك فغفر له »[١] .

وفي الصحيح ثم قال له : لم فعلت هذا ؟ قال : من خشيتك ! وأنت أعلم ! فغفر الله له .

فعلم أن التوحيد مطلوب ، وأنه سبب النجاة من النار ، وهو أفضل الطاعات وأشرفها ، وشرط في صحتها .

التوحيد : هو الحكم بأن الشيء واحد .

والعلم بأن الشيء واحد أيضاً توحيد .

وغلبة رؤية الحق على القلب توحيد ، فمن حصل له التوحيد الأول فهو مؤمن ، ومن حصل له الثاني فهو عالم ، ومن حصل له الثالث فهو عارف بالله ، فالأول توحيد الكافّة ، والثاني توحيد العلماء ، والثالث توحيد الصوفية .

ويقال في اللغة : وحّدته ، إذا وصفته بالوحدانية ، وأصل أحد وحّد ،

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢/٧٨) عن أبي سعيد الخدري ، وهو في البخاري (٦٤٨١) ومسلم (٢٥٧) .

فقلبت الواو المفتوحة همزة ، والواو المفتوحة قد تقلب همزة ، كما في قوله : امرأة أسماء ، بمعنى وسماء ، من الوسامة .

ومعنى كونه سبحانه واحداً على لسان أهل العلم قيل : هو الذي لا يصح في وصفه الوضع ، والرفع ، بخلاف قولك إنسان واحد ، فإنه يصح في وصفه ذلك ، لأنك تقول فيه : إنسان بلا يد ، ولا رجل ، فيصح رفع شيء منه ، بل رفعه بالكلية ، كما يصح وضعه . والحق سبحانه منزه عن ذلك ، لأنه أحديّ الذات ، لا يقبل شيئاً من ذلك ، بخلاف اسم الجملة الحاملة لأجزاء ، كالإنسان حامل لرأسه ويده ورجله وغيرها . وقال بعض أهل التحقيق : معنى أنه واحد : نفي التقسيم لذاته ، ونفي التشبيه عن حقه وصفاته ، ونفي الشرك معه في أفعاله ومصنوعاته ، فالحق سبحانه مخالف لمخلوقاته كلها ، مخالفة مطلقة ، وعطف صفاته على حقه للإيضاح .

والتوحيد ثلاثة : توحيد الحق للحق ، وهو علمه تعالىٰ بأنه واحد ، وخبره عنه بأنه واحد .

والثاني : توحيد الحق سبحانه للخلق ، وهو حكمه سبحانه بأن العبد موحد ، وخلقه توحيد العبد .

والثالث : توحيد الخلق للحق ، وهو علم العبد بأن الله تعالىٰ واحد ، وحكمه وإخباره عنه بأنه واحد .

فهذه جملة في معنى التوحيد على شرط الإيجاز والتحديد .

واختلفت عبارات الشيوخ عن معنى التوحيد .

سئل ذو النون المصري عن التوحيد ؟ فقال : أن تعلم أن قدرة الله تعالى في إيجاد الأشياء بلا مزاج (طباع) وصنعه للأشياء بلا علاج ، ومهما تصور في نفسك شيء فالله بخلافه .

وقال الجريري : ليس لعلم التوحيد إلا لسان التوحيد .

وسئل الجنيد عن التوحيد فقال : هو إفراد الموَحّد بتحقيق وحدانيته ،

بكمال أحديته ، أنه الواحد الذي لم يلد ولم يولد ، بنفي الأضداد والأنداد والأشباه ، بلا تشبيه ، ولا تكييف ، ولا تصوير ولا تمثيل ، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

وقال الجنيد : إذا تناهت عقول العقلاء في التوحيد ، تناهت إلى الحيرة ، لا حيرة شك ونفي حتى يوقع في التعطيل ، ولا حيرة إثبات جهة وجرم حتى يوقع في التجسيم ، بل حيرة علم الوحدانية ، بأن يعلم العبد واحداً قديماً منزهاً عن صفات الحوادث .

فمن ثبته الله للعلم بواحد قديم منزه عما ذكرنا ، فهو الذي يراه في آخرته ، بإدراك يخلقه له في بصره ، ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾ [الإسراء : ٧٢] .

وسئل الجنيد عن التوحيد فقال : معنى تضمحل فيه الرسوم ، وتندرج فيه العلوم ، ويكون الله تعالىٰ كما لم يزل ، فهو معنى يخلقه الله في قلب الموحد العارف به ، ويغلب على قلبه ، حتى لا يرى غيره تعالىٰ ، كما كان في الأزل .

وقال الحصري : أصولنا في التوحيد خمسة أشياء : رفع الحدث ، وإفراد القدم ، وهجر الإخوان ، ومفارقة الأوطان ، ونسيان ما علم وجهل .

سمعت منصور بن خلف المغربي يقول : كنت في صحن الجامع المنصور ببغداد ، والحصري يتكلم في التوحيد ، فرأيت ملكين يعرجان إلى السماء ، فقال أحدهما لصاحبه : الذي يقوله هذا الرجل علم التوحيد ، والتوحيد غيره ، فإن الحصري كان يكلم الناس بالأدلة الدالة على الوحدانية ، لينقلهم من الاعتقاد إلى درجة العلم ، لترتفع درجتهم عند الله ، كما قال تعالىٰ : ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ ﴾ [المجادلة : ١١] . وكان الرائي يسمع كلامه ، فرأى الملكين صاعدين يقول للآخر : هذا يتكلم في علم التوحيد ، لا في حال التوحيد وحقيقته . وفائدة الرؤية : تحريك الرائي إلى الانتقال من علم التوحيد إلى حال التوحيد وحقيقته ، ليكون في أعلى درجات التوحيد ،

فإن من كان في حال التوحيد ، فعلم التوحيد عنده . ومن كان في علم التوحيد ، فاعتقاد التوحيد عنده ، فمتى بلغ أعلى مقامات التوحيد كان متصفاً بمقاماته كلها .

وقال فارس : التوحيد هو إسقاط الوسائط عند غلبة الحال ، والرجوع إليها عند الأحكام ، وإن الحسنات لا تغيّر الأقسام من الشقاوة والسعادة .

وقال الشبلي : التوحيد صفة الموحَّد حقيقة ، وحلية الموحِّد رسماً .

وسئل الجنيد عن توحيد الخواص فقال : أن يكون العبد شبحاً بين يدي الله تعالىٰ ، تجري عليه تصاريف تدبيره ، في مجاري أحكام قدرته ، في لجج بحار توحيده ، بالفناء عن نفسه وعن دعوة الخلق له ، وعن استجابتهم بحقائق وجوده ووحدانيته في حقيقة قربه ، بذهاب حسه وحركته ، لقيام الحق له فيما أراده منه ، وهو أنه يرجع آخر العبد إلى أوله ، فيكون كما كان قبل أن يكون .

وسئل البوشنجي عن التوحيد فقال : غير مشبه الذوات ، ولا منفي الصفات .

وقال سهل بن عبد الله وقد سئل عن ذات الله فقال : ذات الله موصوفة بالعلم ، غير مدركة بالإحاطة ، ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا ، وهي موجودة بحقائق الإيمان ، من غير حد ولا إحاطة ولا حلول ، وتراه العيون في العقبى ، ظاهراً في ملكه وقدرته ، قد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته ، ودلهم عليه بآياته ، فالقلوب تعرفه ، والعقول لا تدركه ، ينظر إليه المؤمنون بالأبصار ، من غير إحاطة ولا إدراك نهاية .

وقال الجنيد : أشرف كلمة في التوحيد ما قاله أبو بكر الصديق رضي الله عنه : سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته .

قال الأستاذ القشيري : ليس يريد الصديق رضي الله عنه أنه لا يعرف ، لأن عند المحققين العجز عجز عن الموجود دون المعدوم ، كالمقعد عاجز عن قعوده ، إذ ليس بكسب له ولا فعل ، والقعود موجود فيه ، كذلك العارف عاجز عن معرفته ، والمعرفة موجودة فيه ، لأنها ضرورية ، وعند هذه الطائفة

المعرفة به سبحانه في الانتهاء ضرورية ، فالمعرفة الكسبية في الابتداء ، وإن كانت معرفة على التحقيق ، فلم يعدها الصديق رضي الله عنه شيئاً ، بالإضافة إلى المعرفة الضرورية ، كالسراج عند طلوع الشمس وانبساط شعاعها عليه ، وظاهر كلام الصديق : إن العبد إنما يعرف من جلال الله وعظمته ما خلق له المعرفة به دون ما عجزت العقول عن إدراكه ، ولم يخلقه له من معرفة حقيقة ذاته وصفاته ، فهو عاجز عن معرفة ذلك .

وقال الجنيد : التوحيد الذي انفرد به الصوفية ، هو إفراد القدم عن الحدث ، والخروج عن الأوطان ، وقطع المحاب وترك ما علم وجهل ، وأن يكون الحق مكان الجميع ، ليشتغل قلب العبد به ، ويتفرغ عما عداه .

وقال يوسف بن الحسين : من وقع في بحار التوحيد لا يزداد على مر الأوقات إلا عطشاً .

وقال الجنيد : علم التوحيد مباين لوجوده ، ووجوده مفارق لعلمه .

وقال الجنيد أيضاً : علم التوحيد طُوي بساطه منذ عشرين سنة ، والناس يتكلمون في حواشيه .

وقف رجل على الحسين بن منصور ، فقال : من الحق الذي تشيرون إليه ؟ فقال : مُعِلّ الأنام ولا يعتل ، أي : الذي وجوده علة كل موجود ولا علّة لوجوده . .

وقال الشبلي : من اطلع على ذرة من علم التوحيد ضعف عن حمل بقَّة ، لثقل ما حمله .

سئل الشبلي فقيل له : أخبرنا عن توحيد مجرّد ، بلسان حق مفرد ؟ فقال : ويحك من أجاب عن التوحيد المجرد بالعبارة فهو ملحد ، لأنه لا يدرك كنهه ، ومن أشار إليه فهو ثنوي أي : فهو مدرك نفسه وربه ، فلم يكمل استغراقه ولم يكمل توحيده ، ومن أومأ إليه فهو عابد وثن لتضمن ذلك جهة وشبحاً ، ومن نطق فيه فهو غافل ، ومن سكت عنه فهو جاهل ، ومن توهم أنه واصل فليس له حاصل ، ومن رأى أنه قريب فهو بعيد ، ومن تواجد فهو

فاقد ، وكلما ميزتموه بأوهامكم ، وأدركتموه بعقولكم في أتم معانيكم فهو مصروف مردود إليكم ، محدث مصنوع مثلكم .

وقال يوسف بن الحسين : توحيد الخاصة وهو التوحيد الكامل ، أن يكون العبد بسره ووجده وقلبه ، كأنه قائم بين يديه سبحانه ، يجري عليه تصاريف تدبيره ، وأحكام قدرته ، في بحار توحيده ، بالفناء عن نفسه ، وذهاب حسه ، بقيام الحق له في مراده منه ، فيكون كما هو قبل أن يكون في جريان حكمه سبحانه عليه .

وقيل : التوحيد للحق صفة قديمة له والتوحيد في الخلق طفيلي حادث .

وقيل : التوحيد إسقاط الياءات ، لا تقول لي وبي ومني وإليّ .

وقيل لأبي بكر الطمستاني : ما التوحيد ؟ فقال : توحيدٌ ، وموحَّدٌ ، وموحِّد ، هذه ثلاثة .

وقال رويم : التوحيد محو آثار البشرية عن القلب ، وتجرد الألوهية .

قال الدقّاق في آخر عمره ، وكان قد اشتدت به العلة : من أمارات التأييد حفظ التوحيد في أوقات الحكم ، ثم قال كالمفسر لقوله مشيراً إلى ما كان من حاله : هو أن يقرضك بمقاريض القدرة في إمضاء الأحكام ، قطعة ، قطعة ، وأنت شاكر حامد .

وقال الشبلي : ما شمّ رائحة التوحيد من تصوّر عنده التوحيد .

وقال أبو سعيد الخرّاز : أول مقام لمن وجد علم التوحيد ، وتحقق بذلك ، فناء ذكر الأشياء عن قلبه ، وانفراده بالله تعالىٰ .

وقال الشبلي لرجل : تدري لم لا يصح توحيدك ؟ فقال : لا ، قال : لأنك تطلبه بك .

وقال ابن عطاء : علامة حقيقة التوحيد نسيان التوحيد ، وهو أن يكون القائم به واحداً ، ويقال : من الناس من يكون في توحيده مكاشفاً بالأفعال ، يرى الحادثات بالله ، ومنهم من هو مكاشف بالحقيقة ، فيضمحل إحساسه بما

سواه ، فهو يشاهد الجمع سراً بسر ، وظاهره بوصف التفرقة .

سئل الجنيد عن التوحيد فقال : سمعت قائلاً يقول :

وغنّى لي من قلبي وغنّيـت كمـا غنـى
وكنـا حيثمـا كـانـوا وكـانـوا حيثمـا كنـا

فاعتبر الجنيد بذلك نفسه ، وحاله مع الله ، وكونه تعالىٰ خلق له السماع في قلبه ، وعبّر عنه بالغناء ، فلما خلقه في قلبه هاجت عليه أحوال الموافقة ، لما سمعه ، أخذاً من قوله : وغنيت كما غنى ، فقال له السائل : أهلك القرآن والأخبار حتى تستدل بغيرهما ؟ فقال : لا ، ولكن الموحّد يأخذ أعلى التوحيد من أدنى الخطاب .

* * * *

٦ - باب أحوالهم عند الخروج من الدنيا

من خوفهم ، ورجائهم ، وحبهم للقاء الله ، وغير ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ﴾ [النحل : ٣٢] يعني : طيبة نفوسهم ببذلهم ، لا يثقل عليهم رجوعهم إلى مولاهم .

عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن العبد ليعالج كربة الموت وسكرات الموت ، وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض ، تقول عليك السلام ، تفارقني وأفارقك إلى يوم القيامة »[١] .

عن أنس أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت ، فقال : كيف تجدك ؟ فقال : أرجو الله ، وأخاف ذنوبي ، فقال رسول الله ﷺ : « شيئان لا يجتمعان في قلب عبد مؤمن في هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو ، وأمّنه مما يخاف »[٢] .

واعلم أن أحوالهم في حال النزع مختلفة ، فبعضهم الغالب عليه الهيبة ، وبعضهم الغالب عليه الرجاء ، ومنهم من كشف له في تلك الحالة ما أوجب له السكون وجميل الثقة .

حكى أبو محمد الجريري قال : كنت عند الجنيد في حال نزعه ، وكان يوم الجمعة ، ويوم نيروز ، وهو يقرأ القرآن ، فختمه ، ثم شرع في ختمة ، فقلت له : في هذه الحال يا أبا القاسم ! فقال : ومن أولى مني بذلك ! وهو ذا تطوى صحيفتي .

---

(١) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٤٢١٨٣) .

(٢) أخرجه الترمذي في الجنائز (٩٨٣) وابن ماجه في الزهد (٤٢٦١) .

وقال الهروي : مكثت عند الشبلي الليلة التي مات فيها ، فكان يقول طول ليلته هذين البيتين :

كل بيت أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج
وجهك المأمول حجتنا يوم يأتي الناس بالحجج

أوصى حمدون القصَّار إلى أصحابه ألا يتركوه في حال الموت بين النسوان .

وقيل لبشر الحافي وقد احتضر : كأنك يا أبا نصر تحبُّ الحياة ؟ فقال : القدوم على الله شديد .

وقال سفيان الثوري يقول لبعض أصحابه إذا سافر : إن وجدت الموت فاشتره لي ، فلما قربت وفاته كان يقول : كنا نتمناه ، فإذا هو شديد .

وقيل لما حضر الحسن بن علي الوفاة بكى ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : أقدم على سيّد لم أره .

ولما حضر بلالًا الوفاة ، قالت امرأته : واحزناه ! فقال : بل واطرباه ، غداً نلقى الأحبة ، محمداً وحزبه .

وقيل : فتح عبد الله بن المبارك عينه عند الوفاة ، وضحك ، وقال : لمثل هذا فليعمل العاملون .

وكان مكحول الشامي الغالب عليه الحزن ، فدخلوا عليه في مرض موته ، وهو يضحك ؟ فقيل له في ذلك فقال : ولم لا أضحك ؟ وقد دنا فراق ما كنت أحذره ، وسرعة القدوم على ما كنت أرجوه وآمله .

وحضرت وفاة أبي سعيد الخرَّاز وهو يقول في آخر نفسه :

حنين قلوب العارفين إلى الذكر وتذكارهم وقت المناجاة للسر
أديرت كؤوس للمنايا عليهم فأغفوا عن الدنيا كإغفاء ذي السكر
همومهم جوالة بمعسكر به أهل ود الله كالأنجم الزهر
فأجسامهم في الأرض قتلى بحبّه وأرواحهم في الحجب نحو العلى تسري

فما عـرّسـوا إلا بقـرب حبيبهـم   ولا عرّجوا عن مس بؤس ولا ضر

وقيل للجنيد : إن أبا سعيد الخرَّاز كان كثير التواجد عند الموت ، فقال : لم يكن بعجيب أن تطير روحه اشتياقاً .

وقال بعضهم وقد قربت وفاته : يا غلام ! اشدد أكتافي وعفّر خدي ، ثم قال : دنا الرحيل ولا براءة لي من ذنب ، ولا عذر أعتذر به ، ولا قوة أنتصر ، أنت لي ، أنت لي ، ثم صاح صيحة ومات ، فسمعوا صوتاً : استكان العبد لمولاه ، فقبله .

وقيل لذي النون المصري عند موته : ما تشتهي ؟ قال : أن أعرفه قبل موتي بلحظة .

وقيل لبعضهم وهو في النزع : قل الله . فقال : إلى متى تقولون : قل الله ، وأنا محترق بالله ؟

وقال بعضهم : كنت عند ممشاد الدينوري ، فقدم فقير وقال : سلام عليكم ، فردوا عليه ، فقال : هل هاهنا موضع نظيف يمكن للإنسان أن يموت فيه ؟ فأشاروا عليه بمكان ، وكان ثمَّ عين ماء ، فجدد الفقير الوضوء ، وركع ما شاء الله ، ومضى إلى المكان الذي أشاروا إليه ، ومدّ رجليه ، ومات .

كان أبو العباس الدينوري يتكلَّم في مجلسه ، فصاحت امرأة تواجداً ، فقال لها : موتي ، فقامت المرأة ، فلما بلغت باب الدار التفتت إليه ، وقالت : قد متّ ، فوقعت ميتة .

وقال بعضهم : كنت عند ممشاد الدينوري عند وفاته ، فقيل له : كيف تجد العلة ؟ فقال : سلوا العلة عني ، كيف تجدني ؟ فقيل له : قل لا إله إلا الله . فحوّل وجهه إلى الجدار وقال : أفنيت كلي بكلك ، هذا جزاء من يحبك .

وقيل لأبي محمد الدبيلي وقد حضرته الوفاة ، قل : لا إله إلا الله ، فقال : هذا شيء قد عرفناه ، وبه نفنى ، ثم أنشأ يقول :

تسربل ثوب التيه لما هويته وصدَّ ولم يرضَ بأن أكُ عبده

وقيل للشبلي عند وفاته : قل : لا إله إلا الله فقال :

قال سلطان حبه أنا لا أقبل الرشا

فسلوه فديته لِمْ بقتلي تحرّشا

قال ابن عطاء : سمعت بعض الفقراء يقول : لما مات يحيى الاصطخري، جلسنا حوله ، فقال له رجل منا : قل أشهد أن لا إله إلا الله . فجلس مستوياً ، ثم أخذ بيد واحد منا وقال له : قل أشهد أن لا إله إلا الله ، ثم أخذ بيد الآخر حتى عرض الشهادة على جميع الحاضرين ، ثم مات .

ويحكى عن فاطمة أخت أبي علي الروذباري ، قالت : لما قرب أجل أخي أبي علي الروذباري ، وكان رأسه في حجري ، فتح عينيه وقال : هذه أبواب السماء قد فتحت ، وهذه الجنان قد زينت ، وهذا قائل يقول لي : يا أبا علي قد بلغناك الرتبة القصوى ، وإن لم تردها ، ثم أنشد يقول :

وحقك لا نظرت إلى سواكا بعين مودة حتى أراكا

أراك معذبي بفتور لحظ وبالخد المورّد من جناكا

ثم قال : يا فاطمة الأول ظاهر ، والثاني فيه إشكال .

ولما قربت وفاة أحمد بن نصر قال له واحد من تلامذته قل : أشهد أن لا إله إلا الله ، فنظر إليه وقال له : لا تترك الحرمة . بالفارسية (بي حرمتي مكن) .

وقال بعضهم : رأيت فقيراً يجود بنفسه غريباً والذباب على وجهه ، فجلست أذبّ عن وجهه ، ففتح عينيه وقال : من هذا ؟ أنا منذ كذا سنة في طلب وقت يصفو لي ، فلم يتفق إلا الآن ، جئت أنت توقع نفسك فيه ، مُرّ عافاك الله .

وقال أبو عمران الاصطخري : رأيت أبا تراب في البادية ، قائماً ميتاً ، لا يمسكه شيء .

قال أبو نصر السرَّاج : كان سبب وفاة أبي الحسين النوري رحمه الله أنه سمع هذا البيت :

ما زلت أنزل في ودادك منزلًا   تتحيـر الألبـاب عنـد نـزولـه

فتواجد النوري وهام في الصحراء ، فوقع في أجمة قصب قد قطعت ، وبقي أصولها مثل السيوف ، فكان يمشي عليها ، ويعيد هذا البيت إلى الغداة ، والدم يسيل من رجليه ، فوقع مثل السكران ، فورمت قدماه ، ومات .

وحكي أنه قيل له عند النزع ، قل : لا إله إلا الله ، فقال : أليس إليه أعود .

وقيل : مرض إبراهيم الخوَّاص في المسجد الجامع بالريّ ، وكانت به علة الإسهال ، فكان إذا قام مجلساً يدخل الماء ، ويتوضأ ، فدخل الماء مرة ، فخرجت روحه .

دخل يوسف بن الحسين على إبراهيم الخوَّاص عائداً له ، بعدما أتى عليه أيام لم يعده ، ولم يتعهده ، فلما رآه قال للخوّاص : أتشتهي شيئاً ؟ قال : نعم قطعة كبد مشويّ ، قال القشيري : لعل الإشارة فيه : أنه أراد أشتهى قلباً يرقّ لفقير ، وكبداً تشتوي وتحترق لغريب ، لأنه كالمستجفي ليوسف بن الحسين حيث لم يتعهده .

وقيل : كان سبب موت ابن عطاء ، أنه أدخل مرة على الوزير ، فكلمه الوزير بكلام غليظ ، فقال له ابن عطاء : اهدأ يا رجل ! فأمر فضرب بخفه على رأسه ، فمات منه .

قال أبو بكر الدّقّي : كنا عند أبي بكر الزقَّاق بالغداة ، فقال : خوفاً على نقص في دينه أو نحوه : إلهي كم تبقيني هاهنا ؟ فما بلغ الغداة الأولى حتى مات .

وحكي أن أبا علي الروذباري ، قال : رأيت في البادية حدثاً ، فلما رآني

قال : أما يكفيه أن شغفني بحبه حتى علّني ! ثم رأيته يجود بروحه ، فقلت له : قل لا إله إلا الله . فأنشأ يقول :

أيا من ليس لي عنه　　وإن عذّبني بُدُّ
ويا من نال من قلبي　　منالًا ما له حدّ
إذا لم يرحم المولى　　إلى من يشتكي العبد ؟

وقيل للجنيد : قل لا إله إلا الله . فقال : ما نسيته فأذكره ، وقال :

حاضر في القلب يعمره　　لست أنساه فأذكره
فهو مولاي ومعتمدي　　ونصيبي منه أوفره

وكان بكران الدينوري يخدم الشبلي ، فسئل ما الذي رأيت منه ؟ فقال : قال لي عليّ درهم مظلمة ! وقد تصدقت عن صاحبه بألوف ، فما على قلبي شغل أعظم منه ، ثم قال لي : وضئني للصلاة ، ففعلت ، فنسيت تخليل لحيته ، وقد أَمْسَكَ على لسانه ، فقبض على يدي وأدخلها في لحيته ، ثم مات ، فبكى السائل وقال : ما تقولون في رجل لم يفته حتى في آخر عمره أدب من آداب الشريعة ؟ .

وقال المزين الكبير : كنت بمكة حرسها الله تعالىٰ ، فوقع بي انزعاج ، فخرجت أريد المدينة ، فلما وصلت إلى بئر ميمونة ، إذا أنا بشاب مطروح ، فعدلت إليه وهو ينزع ، فقلت له : قل لا إله إلا الله ، ففتح عينيه وأنشأ يقول :

أنا إن مت فالهوى حشو قلبي　　وبداء الهوى تموت الكرام

فشهق شهقة ، ثم مات ، فغسلته وكفنته ، وصلَّيت عليه ، فلما فرغت من دفنه ، سكن ما كان بي من إرادة السفر ، فرجعت إلى مكة حرسها الله تعالىٰ .

وقيل لبعضهم : أتحبُّ الموت ؟ فقال : القدوم على من يرجى خيره خير من البقاء مع من لا يؤمن شره .

وحكي عن الجنيد أنه قال : كنت عند أستاذي ابن الكربي ، وهو يجود بنفسه ، فنظرت إلى السماء ، فقال : بعد ، ثم نظرت إلى الأرض ، فقال :

بعد ، يعني أنه أقرب إليك من أن تنظر إلى السماء أو إلى الأرض ، بل هو وراء المكان .

قال أبو يزيد عند موته : ما ذكرتك إلا عن غفلة ، ولا قبضتني إلا عن فترة .

وقال أبو علي الروذباري : دخلت مصر فرأيت الناس مجتمعين فقالوا : كنا في جنازة فتى ، سمع قائلاً يقول :

كبـرت همـة عبـد طمعت في أن تراكا
أو مـا حسـب لعيـن أن ترى من قد رآكا

فشهق شهقة ومات .

دخل جماعة على ممشاد الدينوري في مرضه ، فقالوا : فعل الله بك ، وصنع . فقال : منذ ثلاثين سنة ، تعرض عليّ الجنة بما فيها فما أعرتها طرفي. وقالوا له عند النزع : كيف تجد قلبك ؟ فقال : منذ ثلاثين سنة فقدت قلبي .

قال الوجيهي : كان سبب موت ابن بنان أنه ورد على قلبه شيء ، فهام على وجهه ، فلحقوه في وسط متاهة بني إسرائيل في الرمل ، ففتح عينيه وقال : ارتع فهذا مرتع الأحباب ، وخرجت روحه .

وقال أبو يعقوب النهرجوري : كنت بمكة حرسها الله تعالىٰ ، فجاءني فقير معه دينار ، فقال : إذا كان غداً فأنا أموت ، فأصلح لي بنصف هٰذا قبراً ، والنصف الثاني لجهازي . فقلت في نفسي : دوخل الشاب (خولط في عقله) فإنه قد أصابته فاقة الحجاز ، فلما كان الغد جاء ودخل الطواف ثم مضى ، وامتد على الأرض ، فقلت : هو ذا يتماوت ، فذهبت إليه ، فحرّكته فإذا هو ميت ، فدفنته كما أمر .

وقيل : لما تغيرت الحال على أبي عثمان الحيري ، مزّق ابنه أبو بكر قميصاً ، ففتح أبو عثمان عينيه ، وقال : يا بني إن خلاف السنة في الظاهر من رياء الباطن .

وقيل : دخل ابن عطاء على الجنيد وهو يجود بنفسه ، فسلَّم ، فأبطأ في رد الجواب ، ثم ردّ وقال : اعذرني فلقد كنت في وردي ، ثم مات .

وحكى أبو علي الروذباري قال : قدم علينا فقير ، فمات ، فدفنته ، وكشفت عن وجهه لأضعه على التراب ، ليرحم الله عز وجل غربته ، ففتح عينيه ، وقال : يا أبا علي أتذللني بين يدي من دلَّلني ! فقلت : يا سيدي : أحياة بعد موت ؟ فقال : بلى أنا حيٌّ ، وكل محب لله تعالىٰ حيّ ، لأنصرنك غداً بجاهي يا روذباري .

ويحكى عن علي بن سهل الأصبهاني أنه قال : أترون أني أموت كما يموت الناس ، مرض وعيادة ! إنما أدعي فيقال : يا علي فأجيب فكان يمشي يوماً ، فقال : لبيك ، ومات .

قال المزين : لما مرض أبو يعقوب النهرجوري مرض وفاته : قلت له وهو في النزع : قل لا إله إلا الله ، فتبسم إليّ ، وقال إياي تعني ، وعزة من لا يذوق الموت ، ما بيني وبينه إلا حجاب العزة ! وانطفى من ساعته ، فكان المزين يأخذ بلحيته ويقول : حجام ! مثلي يقلى أولياء الله تعالىٰ الشهادة ! واخجلتاه منه ! وكان يبكي إذا ذكر هذه الحكاية .

وقال المالكي : كنت أصحب خيراً النسَّاج سنين كثيرة ، فقال لي قبل موته بثمانية أيام : أنا أموت يوم الخميس ، وقت المغرب ، وأدفن يوم الجمعة قبل الصلاة ، وستنسى هذا ، فلا تنسَ ، قال أبو الحسين : فأنسيته إلى يوم الجمعة ، فلقيني من أخبرني بموته ، فخرجت لأحضر جنازته قبل الصلاة ، كما قال : فسألت من حضر وفاته ، فقال : إنه غشي عليه ، ثم أفاق ، ثم التفت إلى ناحية البيت ، وقال : قف عافاك الله ، فإنما أنت عبد مأمور وأنا عبد مأمور ، والذي أمرت به لا يفوتك ، والذي أمرت به يفوتني ، فدعا بماء فجدد وضوءه ، وصلَّى ثم تمدَّد وغمض عينيه ، فرؤي في المنام بعد موته ، فقيل له : كيف حالك ؟ فقال : لا تسل ! ولكني تخلصت من دنياكم الوضرة (الفاسدة) .

وذكر أبو الحسين الحمصي مصنف كتاب « بهجة الأسرار » ، أنه لما مات سهل بن عبد الله : انكبَّ الناس على جنازته وكان في البلد يهودي نيّف على السبعين ، فسمع الضجة ، فخرج لينظر ما كان ، فلما نظر إلى الجنازة صاح وقال : أترون ما أرى ؟ فقالوا : لا ، إيش ترى ؟ فقال : أرى قوماً ينزلون من السماء ، يتمسحون بالجنازة . ثم إنه تشهد وأسلم وحسن إسلامه .

وقال الخرَّاز : كنت بمكة حرسها الله تعالىٰ ، فجزت يوماً بباب بني شيبة ، فرأيت شاباً حسن الوجه ميتاً ، فنظرت في وجهه ، فتبسَّم في وجهي ، وقال لي : يا أبا سعيد أما علمت أن الأحياء أحياء وإن ماتوا ، وإنما ينقلون من دار إلى دار .

وقال الجريري : بلغني أنه قيل لذي النون المصري عند النزع : أوصنا ! فقال : لا تشغلوني فإني متعجب من محاسن لطفه .

سئل أبو حفص في حال وفاته ما الذي تعظنا به ؟ فقال : لست أقوى على القول ، ثم رأى من نفسه قوة ، فقلت له : قل حتى أحكي عنك . فقال : الانكسار بكل القلب على التقصير .

* * * *

٧ ـ باب المعرفة بالله

هي : تحقيق العلم بإثبات الوحدانية ، وهي : جزم القلب بوجود واجب الوجود ، ويقال : حياة القلب مع الله . ويقال : نسيان غير الله ، والعالم يبتغي الثواب ، ويخاف العقاب ، والعارف عبادته امتثال لأمر مولاه ، لا يرجو ثواباً ، ولا يخاف عقاباً ، فله الهيبة بدل الخوف ، والأنس خلف الرجاء .

قال تعالىٰ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ [الأنعام : ٩١] ـ

جاء في التفسير : وما عرفوا الله حق معرفته .

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « إن دعامة البيت أساسه ، ودعامة الدين المعرفة بالله تعالىٰ ، واليقين ، والعقل القامع ، قال : الكف عن معاصي الله ، والحرص على طاعة الله عز وجل »[1] .

قال الأستاذ القشيري : المعرفة على لسان العلماء هي العلم ، وهو صفة توجب تمييزاً لا يحتمل متعلقه النقيض ، فكل علم معرفة ، وكل معرفة علم ، وكل عالم بالله تعالىٰ عارف ، وكل عارف عالم ، وعند هؤلاء القوم : صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته ، ثم صدق الله في معاملاته ، ثم تنقى عن أخلاقه الرديئة وآفاته ، ثم طال بالباب وقوفه ، ودام بالقلب اعتكافه ، فحظي من الله تعالىٰ . . بجميع إقباله ، وصدق الله في جميع أحواله ، وانقطع عنه هواجس نفسه ، ولم يصغ بقلبه إلى خاطر يدعوه إلى غيره ، فإذا صار من الخلق أجنبياً ، ومن آفات نفسه بريّاً ، ومن المساكنات والملاحظات نقيّاً ، ودام في السر مع الله تعالىٰ مناجاته ، وحق في كل لحظة إليه رجوعه ، وصار محدَّثاً[2] من قبل الحق سبحانه بتعريف أسراره ، فيما يجريه من تصاريف

---

(١) اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة (١ / ١٢) .

(٢) أي : مُلهَماً .

أقداره ، يسمى عند ذلك عارفاً ، وتسمى حالته معرفة ، وبالجملة فبمقدار أجنبيته عن نفسه ، تحصل معرفته بربه تعالىٰ .

وقد تكلَّم المشايخ في المعرفة ، فكل تعلّق بما وقع له ، وأشار إلى ما وجده في وقته .

فقال الدقَّاق : من أمارات المعرفة بالله ، حصول الهيبة من الله تعالىٰ ، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته ، ومن ازدادت هيبته استقامت حالته ، وعظمت بين الخليقة حرمته ، وقال : المعرفة توجب السكينة في القلب ، كما أن العلم يوجب السكون ، فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته .

وقال الشبلي : ليس لعارف علاقة ، ولا لمحبٍّ شكوى ، ولا لعبد دعوى ، ولا لخائف قرار ، ولا لأحد من الله عز وجل فرار .

وقال أيضاً : المعرفة أولها الله ، وآخرها ما لا نهاية له .

وقال أبو حفص : مذ عرفت الله ما دخل قلبي حق ولا باطل . قال القشيري : وفي قول أبي حفص إشكال ، وأجلُّ ما يحتمله : إن عند القوم المعرفة توجب غيبة العبد عن نفسه ، لاستيلاء ذكر الحق عليه ، فلا يشهد غير الله عز وجل ، ولا يرجع إلى غيره ، فكما أن العاقل يرجع إلى قلبه وتفكره وتذكره ، فيما يسنح له من أمر ، أو يستقبله من حال ، فالعارف رجوعه إلى ربه ، فإذا لم يكن مشتغلاً إلا بربه تعالىٰ ، لم يكن راجعاً إلى قلبه ، وكيف يدخل المعنى قلب من لا قلب له ، وفرق بين من عاش بقلبه ، وبين من عاش بربه .

وسئل أبو يزيد عن المعرفة فقال : ﴿ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ﴾ [النمل : ٣٤] . قال الأستاذ : هذا معنى ما أشار إليه أبو حفص .

وقال أبو يزيد : للخلق أحوال ، ولا حال للعارف ، لأنه محيت رسومه ، وفنيت هويته بهوية غيره ، وغيبت آثاره بآثار غيره .

وقال الواسطي : لا تصح المعرفة وفي العبد استغناء بالله ، وافتقار إليه ، والافتقار والاستغناء من أمارات صحو العبد ، وبقاء رسومه ، لأنهما من صفاته ، والعارف محو في معروفه ، فكيف يصح له ذلك ؟ وهو لاستهلاكه في وجوده ، أو لاستغراقه في شهوده ، إن لم يبلغ الوجود ، مختطف عن إحساسه بكل وصف هو له !. ولهذا قال الواسطي أيضاً : من عرف الله انقطع ، بل خرس وانقمع .

قال ﷺ : « لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »[1] هذه صفات الذين بعد مرماهم ، فأما من نزلوا عن هذا الحد ، فقد تكلموا في المعرفة فأكثروا ، وأعطوا كل ذي حق حقه .

قال الأنطاكي : من كان بالله أعرف ، كان له أخوف ، وقال بعضهم : من عرف الله تعالىٰ تبرّم بالبقاء ، وقيل : من عرف الله تعالىٰ صفا له العيش ، وطابت له الحياة ، وهابه كل شيء ، وذهب عنه خوف المخلوقين ، وأنس بالله .

وقيل : من عرف الله تعالىٰ ذهب عنه رغبة الأشياء ، وكان بلا فصل ولا وصل .

وقيل : المعرفة توجب الحياء كما أن التوحيد يوجب الرضاء والتسليم .

وقال رويم : للعارف مرآة إذا نظر فيها انجلى له مولاه .

وقال ذو النون المصري : ركضت أرواح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في ميدان المعرفة ، فسبقت روح سيدنا محمد ﷺ أرواح الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى روضة الوصال . وقال ذو النون : معاشرة العارف كمعاشرة الله تعالىٰ ، يحتملك ، ويحلم عنك تخلقاً بأخلاق الله تعالىٰ .

وسئل ابن يزدانيار : متى يشهد العارف الحق ؟ فقال : إذا بدا الشاهد ، وفني الشواهد ، وذهب الحواس ، واضمحلّ الإخلاص .

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (١٠٩٠) وأبو داود في الصلاة (٨٧٩) .

وقال الحسين بن منصور : إذا بلغ العبد إلى مقام المعرفة ، أوحى الله إليه بخواطره ، وحرس سره أن يَسْنَح فيه غير خاطر الحق .

وقال : علامة العارف أن يكون فارغاً من الدنيا والآخرة .

وقال سهل بن عبد الله : المعرفة غايتها شيئان الدهش ، والحيرة .

وقال ذو النون : أعرف الناس بالله أشدهم تحيراً فيه (الحيرة في معلوماته من حيث عدم مناهيها ، حيرة فكر لا شك ، وتنزها عن الجهات ونحوها ، والدهش لكمال المعروف وعزته) .

سئل الجنيد عن قول أهل المعرفة : أقوام يقولون بترك الحركات من باب البر والتقوى ؟ فقال : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال ، وهو عندي عظيم ، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا ، فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله تعالىٰ ، وإلى الله ، رجعوا فيها ، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البرِّ ذرَّة .

قيل لأبي يزيد بم وجدت هذه المعرفة ؟ فقال : ببطن جائع وبدن عار .

قيل لأبي يعقوب السوسي : هل يأسف العارف على شيء غير الله تعالىٰ ؟ فقال : وهل يرى غيره فيتأسف عليه ؟ قلت : فبأي عين ينظر إلى الأشياء ؟ فقال : بعين الفناء والزوال .

وقال أبو يزيد : العارف طيّار ، والزاهد سيَّار .

وقيل : العارف تبكي عينه ويضحك قلبه .

وقال الجنيد : لا يكون العارف عارفاً حتى يكون كالأرض يطؤه البر والفاجر ، وكالسحاب يظل كل شيء ، وكالمطر يسقي ما لا يحب .

وقال يحيى بن معاذ : يخرج العارف من الدنيا ولا يقضي وطره من شيئين ، بكاؤه على نفسه ، وثناؤه على ربه .

وقال أبو يزيد : إنما نالوا المعرفة بتضييع مالهم ، وهو ما أبيح لهم في دنياهم ، ولم يجره عليه مولاهم ، والوقوف مع ماله .

وقال يوسف بن علي : لا يكون العارف عارفاً حتى لو يكون أعطي مثل ملك سليمان ، لم يشغله عن الله طرفة عين .

وقال ابن عطاء : المعرفة على ثلاثة أركان : الهيبة ، والحياء والأنس .

قيل لذي النون : بم عرفت ربك ؟ فقال : عرفت ربي بربي ، ولولا ربي لما عرفت ربي .

وقيل : العالم يقتدىٰ به ، والعارف يهتدى به .

وقال الشبلي : العارف لا يكون لغيره لاحظاً ، ولا بكلام غيره لافظاً ، ولا يرى لنفسه غير الله حافظاً .

وقيل : العارف أنس بذكر الله فأوحشه من خلقه ، وافتقر إلى الله فأغناه عن خلقه ، وذلَّ لله تعالىٰ فأعزَّه في خلقه .

وقال أبو الطيب السامري : المعرفة طلوع الحق على الأسرار ، بمواصلة الأنوار ، وقيل : العارف فوق ما يقول ، والعالم دون ما يقول .

وقال الداراني : إن الله تعالىٰ يفتح للعارف ، وهو على فراشه ، ما لا يفتح لغيره وهو قائم يصلي .

وقال الجنيد : العارف من نطق الحق عن سره وهو ساكت .

وقال ذو النون : لكل شيء عقوبة وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله تعالىٰ .

وقال رويم : رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين .

وقال أبو بكر الورَّاق : سكوت العارف أنفع ، وكلامه أشهى وأطيب .

وقال ذو النون : الزهَّاد ملوك الآخرة ، وهم فقراء العارفين .

وسئل الجنيد عن العارف ، فقال : لون الماء لون إنائه ، يعني أنه بحكم وقته .

وسئل أبو يزيد عن العارف ، فقال : لا يرى في نومه غير الله ، ولا في

يقظته غير الله ، ولا يوافق غير الله ، ولا يطالع غير الله .

سئل بعض المشايخ : بم عرفت الله ؟ فقال : بلمعةٍ لمعت بلسان مأخوذ عن التمييز المعهود ، ولفظة جرت على لسان هالك مفقود . يشير إلى وجد ظاهر ، ويخبر عن سر ساتر ، هو هو بما أظهره ، وهو غيره بما أشكله (ستره) ثم أنشد :

نطقت بلا نطق هو النطق إنه — لك النطق لفظاً أو يبين عن النطق
تراءيت كي أخفى وقد كنت خافياً — وألمعت لي برقاً فأنطقت بالبرق

وسئل أبو تراب عن صفة العارف ، فقال : هو الذي لا يكدره شيء ، ويصفو به كل شيء .

وقال أبو عثمان المغربي : العارف تضيء له أنوار العلم ، فيبصر به عجائب الغيب .

وقال الدقَّاق : العارف مستهلك في بحار التحقيق .

وقال بعضهم : المعرفة أمواج ترفع وتحطُّ .

وسئل يحيى بن معاذ عن العارف ؟ فقال : كائن بائن ، ومرة قال : كان فبان .

وقال ذو النون : علامة العارف ثلاثة : لا يطفىء نور معرفته نور ورعه ، ولا يعتقد باطناً من العلم ما ينقض عليه ظاهراً من الحكم ، أي : لا يعمل بما يرد على قلبه من الواردات إذا خالفه ظاهر حكم الشرع .

وثالثها لا تحمله كثرة نعم الله عليه على هتك أستار محارم الله .

وقيل : ليس بعارف من وصف المعرفة عند أبناء الآخرة ، فكيف عند أبناء الدنيا .

وقال الخرَّاز : المعرفة تأتي من عين الجود ، وبذل المجهود .

وسئل الجنيد عن قول ذي النون المصري في صفة العارف : كان هاهنا فذهب ! فقال الجنيد : العارف لا يحصره حال عن حال ، ولا يحجبه منزل

عن التنقل في المنازل ، فهو مع أهل كل مكان ، بمثل الذي هو فيه ، يجد مثل الذي يجدونه ، وينطق فيها بمعالمها لينتفعوا بها .

وقال محمد بن الفضل : المعرفة حياة القلب مع الله .

وسئل الخرَّاز : هل يصير العارف إلى حال يجفو عليه البكاء ؟ فقال : نعم ، إنما البكاء في أوقات سيرهم إلى الله ، فإذا نزلوا إلى الوصول من برّه زال عنهم ذلك .

* * * *

٨ ـ باب المحبة

الحِبُّ والحُبُّ : المحبة ، والحِبُّ أيضاً : الحبيب .

المحبة : الود والميل للمحبوب ، ويلزم ذلك الموافقة في المطلوب ، ومعنى المحبة : اختلف أهل الحق في تفسيرها ، فمنهم من قال : صفة فعل ، ومنهم من قال : صفة ذات .

فأما الأولون فقالوا : يستحيل معنى التحنن والميل في حقه تعالىٰ ، فالمراد بالمحبة في حقه تعالىٰ : إنعامه وإحسانه على عبده ، وفي حق العبد ، انقياده وإذعانه له تعالىٰ ، فإنه سبحانه يستحيل أن يميل ، أو يمال إليه ، لما يلزم من ذلك التحيز ، والجهة ، المحالين في حقه تعالىٰ .

وأما القائلون بأنها صفة ذات ، حملاً منهم المحبة على الإرادة ، فقالوا الله مريد للخير والشر ، فكيف يحبُّ الكفر ويرضاه ؟ والجواب لا يرضاه غير معاقب عليه ، أو تقول : ولا يرضى لعباده المخصوصين من أوليائه ، قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ [الحجر : ٤٢] فهو تعالىٰ لا يريد لخواص عباده الكفر ، ولا يخلقه لهم أصلاً .

والمحبة عند أرباب الأحوال : حالة لطيفة جداً ، يجدها العبد بقلبه ، تحمله على إيثار المحبوب طوعاً . قال تعالىٰ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

وقال رسول الله ﷺ : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن لم يحب لقاء الله لم يحب الله لقاءه »[١] .

وعن جبريل عليه السلام ، عن ربه تبارك وتعالىٰ قال : « من أهان لي ولياً

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣١٣) و (٢/ ٣٤٦) ومسلم (٢٦٨٥) .

فقد بارزني بالمحاربة » . وفي رواية : « من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب » . أي : أعلمته بأنه محارب لي ، وما ترددت في شيء كترددي في قبض روح عبدي المؤمن ، يكره الموت وأكره مساءته ، ولا بد له منه ، وما تقرب إِليَّ عبدي بشيء أحب إِليّ مما افترضت عليه ، ولا يزال العبد يتقرب إِليّ بالنوافل حتى أحبّه ، ومن أحببته كنت له سمعاً ، وبصراً ، ويداً ، ومؤيداً[١] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إِذا أحب الله عبداً قال لجبريل : يا جبريل إِني أحب فلاناً فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادي جبريل في أهل السماء : إِن الله تعالىٰ قد أحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض ، وإِذا أبغض الله تعالىٰ العبد ، قال مالك : لا أحسبه إِلا قال في البغض مثل ذلك »[٢] .

المحبة : حالة شريفة ، شهد الحق سبحانه بها للعبد ، وأخبر عن محبته للعبد ، فالحق سبحانه يوصف بأنه يحبُّ العبد ، والعبد يوصف بأنه يحبُّ الحق ، والمحبة على لسان العلماء هي الإِرادة ، وليس مراد القوم بالمحبة الإِرادة ، فإِن الإِرادة لا تتعلق بالقديم اللهم إِلا أن تحمل على إِرادة التقرب إِليه ، والتعظيم له ، ونحن نذكر من تحقيق هذه المسألة طرفاً إِن شاء الله تعالىٰ ، فمحبة الحق سبحانه للعبد إِرادته لإِنعام مخصوص عليه ، كما أن رحمته له إِرادة الإِنعام عليه ، فالرحمة أخص من الإِرادة والمحبة أخص من الرحمة ، فإِرادة الله تعالىٰ أن يوصل إِلى العبد الثواب والإِنعام تسمى رحمة ، وإِرادته لأن يخصه بالقربة والأحوال العلية تسمى محبة ، وإِرادته سبحانه من حيث هي صفة واحدة ، فبحسب تفاوت متعلقاتها تختلف أسماؤها ، فإِذا تعلقت بالعقوبة تسمى غضباً ، وإِذا تعلقت بعموم النعم تسمى رحمة ، وإِذا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) برواية مقاربة ، وطرفه : « من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب » .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٤٠) وفي التوحيد (٧٤٨٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

تعلقت بخصوصها تسمى محبة ، فمحبة الله تعالىٰ للعبد إرادته أن يخصه بدرجة رفيعة . وقوم قالوا : محبة الله للعبد ، مدحه له ، وثناؤه عليه بجميل ، فيعود معنى محبته على هذا القول ، إلى كلامه ، وكلامه قديم .

وقال قوم : محبته للعبد من صفات فعله ، فهو إحسان مخصوص يلقى الله العبد به ، وحالة مخصوصة يرقيه إليها ، كما قال بعضهم : إن رحمته بالعبد نعمته معه ، وقوم من السلف قالوا : محبته من الصفات الخبرية ، فأطلقوا اللفظ ، وتوقفوا عن التفسير .

فأما ما عدا هذه الجملة ، مما هو المعقول من صفة محبة الخلق ، كالميل إلى الشيء والاستئناس بالشيء ، والسكون إليه وتعلُّق القلب به ، وكحالة يجدها المحبُّ مع محبوبه من المخلوقين ، فالقديم سبحانه يتعالىٰ عن ذلك .

وأما محبَّة العبد لله ، فحالة يجدها في قلبه ، تلطف على العبارة ، وقد تحمله تلك الحالة على التعظيم له ، وإيثار رضاه ، وقلة الصبر عنه ، والاهتياج إليه ، وعدم القرار من دونه ، ووجود الاستئناس بدوام ذكره له بقلبه ، وليس محبَّة العبد له سبحانه متضمنة ميلاً ولا اختطاطاً[1] ، أي : ميلاً حسياً ، فالمراد المعنوي : كيف ، وحقيقة الصمدية مقدسة عن اللحوق والدرك بمعنى الإحاطة .

قال تعالىٰ : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] أي : لا تحيط به ، والمحب بوصف الاستغراق أولى منه بأن يوصف بالاختطاط ، أي : بأنه في خطة ، تحيط به ، وبمحبته ، لأن وصفه بهذا قد يوهم أن المحبوب يحاط به ، ولا توصف المحبة بوصف ، ولا تحدّ بحدّ أوضح ولا أقرب إلى الفهم من المحبة ، والاستقصاء في المقال عند الإشكال ، فإذا زال الاستعجام والاستبهام ، سقطت الحاجة إلى الاستغراق في شرح الكلام .

---

(١) أي : خطة تحيط به .

وعبارات الناس عن المحبة كثيرة ، وتكلَّموا في أصلها في اللغة، فبعضهم قال : الحبُّ : اسم لصفاء المودة ، لأن العرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونضارتها حَبَبُ الأسنان ، وقيل : الحبُّ مأخذه الحُباب ، ما يعلو الماء عند المطر الشديد، فعلى هذا المحبة: غليان القلب وثورانه، عند العطش والاهتياج إلى لقاء المحبوب ، والحِباب : المحابة والموادة ، وقيل : إن الحب مشتق من حباب الماء . أي : معظمه ، لأن المحبة غاية معظم ما في القلب من المهمات، وقيل: اشتقاقه من الإحباب، بمعنى اللزوم والثبات ، يقال : أحب البعير ، وهو أن يبرك فلا يقوم، فكان المحب لا يبرح بقلبه عن ذكر محبوبه.

وقيل : الحب بمعنى المحبة مأخوذ من الحب ، وهو القرط ، وهو الحلق الذي يعلق بالأذن ، قال الشاعر في وصف شخص بالشجاعة :

تبيت الحية النضناض منه   مكان الحب تستمع السرارا

وسمي القرط حباً إما للزومه الأذن ، ولِقَلَقهِ ، وقيل : مأخوذ من الحبّ ، والحب جمع حبة ، وحبة القلب ما به قوامه ، فسمي الحب حباً باسم محله ، وقيل : الحب والحب كالعَمر والعُمر ، وقيل : مأخوذ من الحِبّة ، وهي بزور الصحراء ، فسمي الحب حباً لأنه لباب الحياة ، كما أن الحَبّ لباب النبات ، وقيل : الحب هي الخشبات الأربع التي يوضع عليها الجرة ، فسميت المحبة حباً لأنه يتحمل من محبوبه كل عز وذل ، وقيل : هو من الحب (الزير الذي فيه الماء) لأنه يمسك ما فيه ، فلا يسع فيه غير ما امتلأ به ، كذلك إذا امتلأ القلب بالحب ، فلا مساغ فيه لغير محبوبه .

وأما أقاويل الشيوخ فيه ، فقال بعضهم : المحبة : الميل الدائم بالقلب الهائم ، وقيل : المحبة إيثار المحبوب على جميع المصحوب ، وقيل : هي موافقة الحبيب في المشهد والمغيب ، وقيل : محو المحب لصفاته ، وإثبات المحبوب بذاته ، لكمال اشتغال المحب بمحبوبه حتى ينسى صفات نفسه ، وقيل : مواطأة القلب لمرادات الرب ، وقيل : خوف ترك الحرمة مع إقامة الخدمة .

وقال أبو يزيد البسطامي : المحبة استقلال الكثير من نفسك ، واستكثار القليل من حبيبك .

وقال سهل : الحب معانقة الطاعة ، ومباينة المخالفة .

وسئل الجنيد عن المحبة ، فقال : دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب ، أشار بذلك إلى استيلاء ذكر المحبوب ، حتى لا يكون الغالب على قلب المحب إلا ذكر صفات المحبوب ، والتغافل بالكلية عن صفات نفسه ، والإحساس بها ، وقال أبو علي الروذباري : المحبة الموافقة للمحبوب في أمره ونهيه .

وقال أبو عبد الله القرشي : حقيقة المحبة أن تهب كلك لمن أحببت ، فلا يبقى لك منك شيء .

وقال الشبلي : سميت المحبة محبة ، لأنها تمحو من القلب ما سوى المحبوب .

وقال ابن عطاء : المحبة إقامة العتاب على الدوام .

وقال الدقَّاق : المحبة لذة ، ومواضع الحقيقة دهش ، وقال : العشق مجاوزة الحد في المحبة .

والحق سبحانه لا يوصف بأنه يُجاوز الحد فلا يوصف بالعشق ، ولو جمع محابّ الخلق كلهم لشخص واحد لم يبلغ ذلك استحقاق قدر الحق سبحانه ، فلا يقال : إن عبداً جاوز الحد في محبة الله تعالىٰ ، فلا يوصف الحق سبحانه بأنه يعشق ، ولا العبد في صفته سبحانه أنه يعشقه ، فنفى العشق ولا سبيل له إلى وصف الحق سبحانه به ، لا من الحق للعبد ، ولا من العبد للحق سبحانه .

قال الشبلي : المحبة أن تغار على المحبوب أن يحبه مثلك ، فليس مراده أن تغار عليه أن يحبه أحد من المؤمنين مثلك ، لتختص به دونهم ، فإن ذلك نقص وحسد ، فتغار على المحبوب لكماله وجماله ، وتنزهه أن يحبه مثلك

لنقصك ، وعدم صلاحيتها لك عند نفسك .

وقال ابن عطاء : المحبة أغصان تغرس في القلب ، فتثمر على قدر العقول .

وقال النصرأباذي : المحبة نوعان : محبة توجب حقن الدماء ، ومحبة توجب سفك الدماء ، فالمحبة من العبد إيثار المحبوب ، وهي درجتان : محبة أقل ، ومحبة أكمل ، فأقلها محبة النعم وتواليها عليه من المنعم ، فإذا شكر عليها ، تزايدت عليه ، وحفظت عليه نفسه ونعمه ، وأكملها استغراقه في ذكر ربه ، ومناجاته وتلذذه بذلك .

والثانية أوجبت سفك الدماء لرؤية المنعم .

وقال سمنون : ذهب المحبون لله تعالىٰ بشرف الدنيا والآخرة ، لأن النبي ﷺ قال : « المرء مع من أحب »[1] ، فهم مع الله تعالىٰ ، كما أن الله تعالىٰ معهم .

وقال يحيى بن معاذ : حقيقة المحبة ما لا ينقص بالجفاء ، ولا يزيد بالبر ، لأن هذه المحبة محبة للذات ، لما عليه من صفات الجلال والكمال ، بخلاف المحبة للنعم فإنها تزول بزوالها .

وقال أيضاً : ليس بصادق من ادعى محبته ولم يحفظ حدوده .

وقال الجنيد : إذا صحت المحبة سقطت شروط الأدب ، وفي هذا المعنى أنشد الدقَّاق :

إذا صفت المودة بين قوم ودام ودادهم سمج الثناء

وكان يقول : لا ترى أباً شفيقاً يبجل ابنه في الخطاب ، والناس يتكلفون في مخاطبته ، والأب يقول : يا فلان باسمه .

وقال الكتاني : المحبة الإيثار للمحبوب .

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٣٦) والبخاري (٦١٧٠) ومسلم (٢٦٤٠) من حديث جابر .

رؤي مجنون بني عامر في المنام ، فقيل له : ما فعل الله تعالىٰ بك ؟ فقال : غفر لي ، وجعلني حجة على المحبِّين ، باستغراقه في محبة ليلى ، وهيمانه في البراري .

وقال أبو يعقوب السوسي : حقيقة المحبة أن ينسى العبد حظه من الله عز وجل ، وينسى حوائجه إليه .

وقال الحسين بن منصور : حقيقة المحبة : قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك .

قيل للنصرأباذي : ليس لك من المحبة شيء ، فقال : صدقوا ، ولكن لي حسراتهم ، فهو ذا أحترق فيه ، أي : في الله ، وهذا كمال في الأدب ، وستر لحاله عمن حجب ، فورّى بقوله : صدقوا ، أي : في أن محبته ليست هي قلقاً ولا طيشاً ، وإنما هي حسرات المحبين الكاملين ، الذين أفرغوا جهدهم في المحبة ، وما بلغوا مطلوبهم ، لأن معرفتهم لكماله ولجلاله ، لم يقوموا بها حق القيام .

وقال أيضاً : المحبة مجانبة السلو على كل حال . ثم أنشد :

ومن كان في طول الهوى ذاق سلوة ... فإني من ليلى لها غير ذائق
وأكثر شيء نلته من وصالها ... أماني لم تصدق كلجة بارق

وقال محمد بن الفضل : المحبة سقوط كل محبة من القلب إلا محبة الحبيب ، وقال الجنيد : المحبة إفراط الميل بلا نيل ، ويقال : المحبة تشويش في القلوب يقع من المحبوب ، ويقال : المحبة فتنة تقع في الفؤاد من المراد ، وأنشد ابن عطاء :

غرست لأهل الحب غصناً من الهوى ... ولم يك يدري ما الهوى أحد قبلي
فأورق أغصاناً وأينع صبوة ... وأعقب لي مراً من الثمر المحلي
وكل جميع العاشقين هواهم ... إذا نسبوه كان من ذلك الأصلي

وقيل : الحب أوله ختل (مخادعة ، كناية عن معاملة الله عبده بالرفق

وتوالي نعمه عليه) وآخره قتل ، يعني إذا أحب العبد الله ، ودامت معاملته له ، اطلع من صفاته تعالىٰ على ما يحثه على طلبه وشغله به عن غيره ، فإذا وجد اللذة في كمال شغله ، ثم حجب عنها تألم وسقم .

جريت مع العشاق في حلبة الهوى ففقتهم سبقاً وجئت على رسلي

وقال أبو علي الدقَّاق في قوله ﷺ : « حبك للشيء يعمي ويصم » . فقال يعمي عن الغير غيرة ويُصم عن المحبوب هيبة .

وقرىء بين يدي السري : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٥] . فقال لأصحابه : أتدرون ما هذا الحجاب ؟ هذا حجاب الغيرة ، فالحق سبحانه يغار على كلامه العزيز أن يسمعه من ليس له أهلاً

ثم أنشد أبو علي :

إذا ما بدا لي تعاظمته فأصدر في حال من لم يرد

أصدر : أرجع ، يرد : من ورد الماء .

وقال الحارث المحاسبي : المحبة ميلك إلى الشيء بكليتك ، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سراً وجهراً ، ثم علمك بتقصيرك في حبه .

وقال السريّ : لا تصلح المحبة بين اثنين حتى يقول الواحد للآخر : يا أنا .

وقال الشبلي : المحب إذا سكت هلك أي : غماً ، لأن راحته في ذكره ، والعارف إن لم يسكت هلك ، أي : غماً ، لأنه لا يقدر على النطق بكل ما يخلقه الله في قلبه .

وقيل : المحبة نار في القلب تحرق ما سوى مراد المحبوب .

وقيل : المحبة بذل المجهود والحبيب يفعل ما يشاء .

وقال النوري : المحبة هتك الأستار وكشف الأسرار .

وقال أبو يعقوب السوسي : لا تصح المحبة إلا بالخروج عن رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب بفناء علم المحبة .

وقال الجنيد : دفع السريّ إليّ رقعة ، وقال : هذه خير لك من سبعمئة قصة ، أو حديث يعلو ، فإذا فيها :

ولما ادعيت الحب قالت كذبتني فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا
فما الحب حتى يلصق القلب بالحشا وتـذبـل حتـى لا تجيـب المنـاديـا
وتنحـل حتـى لا يبقـي لـك الهـوى سـوى مقلـة تبكـي بهـا وتنـاجيـا

وقال ابن مسروق : رأيت سمنوناً يتكلَّم في المحبة فتكسرت قناديل المسجد كلها .

وقال إبراهيم بن فاتك : سمعت سمنوناً ، وهو جالس في المسجد يتكلم في المحبة ، إذ جاء طير صغير ، فقرب منه ، ثم قرب ، فلم يزل يدنو منه حتى جلس بين يديه ، ثم ضرب بمنقاره الأرض ، حتى سال منه الدم ثم مات .

وقال الجنيد : كل محبة كانت لغرض ، فإذا زال ذلك الغرض زالت تلك المحبة .

وقيل : حبس الشبلي في المارستان ، فدخل عليه جماعة ، فقال : من أنتم ، فقالوا : محبوك يا أبا بكر ، فأقبل يرميهم بالحجارة ، ففروا ، فقال : إن ادعيتم محبتي فاصبروا على بلائي ، وأنشد الشبلي فقال :

يـا أيهـا السيـد الكـريـم حبك بين الحشا مقيم
يا رافع النوم عن جفوني أنت بما مر بي عليم

وكتب يحيى بن معاذ إلى أبي يزيد : سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبته ، فكتب إليه أبو يزيد : غيرك شرب بحور السماوات والأرض ، وما روي بعد ، ولسانه خارج وهو يقول : هل من مزيد ، وأنشدوا :

عجبت لمن يقول ذكرت إلفي وهل أنسى. فأذكر ما نسيت

أموت إذا ذكرتك ثم أحيا　　ولولا حسن ظني ما حييت
فأحيا بالمنى وأموت شوقاً　　فكم أحيا عليك وكم أموت
شربت الحبَّ كأساً بعد كأس　　فما نفد الشراب وما رويت

وقيل : أوحى الله عز وجل إلى عيسى عليه السلام : إني إذا اطلعت على قلب عبد فلم أجد فيه حب الدنيا والآخرة ، ملأته من حبي .

وفي بعض الكتب المنزلة: عبدي أنا وحقك لك محب، فبحقي كن لي محباً.

وقال ابن المبارك : من أعطي شيئاً من المحبة ، ولم يعط مثله من الخشية ، فهو مخدوع .

وقيل : المحبة ما يمحو أثرك .

وقيل : المحبة سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه ، ثم السكر الذي يحصل عند الشهود لا يوصف ، وأنشدوا :

فأسكر القوم دور كأس　　وكان سكري من المدير

وكان أبو علي ينشد كثيراً :

لي سكرتان وللندمان واحدة　　شيء خصصت به من بينهم وحدي

وقال ابن عطاء : المحبة إقامة العتاب على الدوام ، فكان للأستاذ أبي علي جارية تسمى فيروز ، وكان يحبها إذ كانت قد خدمته كثيراً ، فقال : كانت فيروز تؤذيني يوماً ، وتستطيل علي بلسانها ، فقال أبو الحسن القارىء : لم تؤذين هذا الشيخ ؟ فقالت : لأني أحبه .

وقال يحيى بن معاذ : مثقال خردلة من الحب أحب إليّ من عبادة سبعين سنة بلا حب .

وحكي أن بعض أهل الهند عشق جارية ، فرحلت الجارية ، فخرج الرجل في وداعها ، فدمعت إحدى عينيه دون الأخرى ، فغمض التي لم تدمع أربعاً وثمانين سنة ولم يفتحها ، عقوبة لها لأنها لم تبك على فراق حبيبته ، وفي معناه أنشدوا :

بكت عيني غداة البين دمعاً وأخرى بالبكا بخلت علينا
فعاقبت التي بخلت علينا بـأن أغمضتهـا يـوم التقينـا
وجازيت التي جادت بدمع بأن أقررتها بالحب عينا

وعن بعضهم : تذاكرنا المحبة عند ذي النون ، فقال : كفوا عن هذه المسألة ، لا تسمعها النفوس فتدعيها ، ثم أنشأ يقول :

الخوف أولى بالمسيء إذا تـــألـــه وَالحـــزنْ
والحـب يجمـل بـالتقـي وبـالنقـي مـن الـدرن

وقال يحيى بن معاذ : من نشر المحبة عند غير أهلها ، فهو في دعواه دعيّ .

وقيل : ادّعى رجل الاستهلاك في محبة شخص ، فقال له الشاب : كيف هذا ؟ وهذا أخي أحسن مني وجهاً وأكثر وأتم جمالًا ، فرفع الرجل رأسه يلتفت وكان على سطح ، فألقاه من السطح ، وقال : من يدعي هوانا لا ينظر إلى سوانا .

وكان سمنون يقدم المحبة على المعرفة . والأكثرون يقدمون المعرفة على المحبة ، وعند محققيهم المحبة استهلاك في لذة ، والمعرفة شهود في حيرة ، وفناء في هيبة .

وقال الكتاني : جرت مسألة المحبة بمكة ، فتكلَّم الشيوخ فيها ، وكان الجنيد أصغرهم سناً ، فقالوا له : هات ما عندك يا عراقي ! فأطرق رأسه ، ودمعت عيناه ، ثم قال : المحب عبد ذاهب عن نفسه ، متصل بذكر ربه ، قائم بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرق قلبه أنوار هويته ، وصفَّى شربه من كأس ودّه ، وانكشف له الجبار من أستار غيبه ، فإن تكلم فبالله ، وإن نطق فمن الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو بالله ، ومن الله ، ولله ، ومع الله ، فبكى الشيوخ . وقالوا : ما على هذا مزيد ! جبرك الله يا تاج العارفين .

وقيل : أوحى الله إلى داود عليه السلام : يا داود إني حرمت على القلوب أن يدخلها حبي وحب غيري .

احتبس بول الفضيل ، فرفع يديه إلى السماء ، وقال : اللهم بحبي لك إلا أطلقته عني ، فما برحنا حتى شفي .

وقيل : المحبة الإيثار كامرأة العزيز واسمها زليخا ، لما تناهت في أمرها ، قالت : ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [يوسف : ٥١] . وفي الابتداء قالت : ﴿ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [يوسف : ٢٥] ، فوركت الذنب في الابتداء عليه ، أي : نسبته إليه ، وفي الانتهاء نادت على نفسها بالخيانة .

وحكي عن أبي سعيد الخرَّاز أنه قال : رأيت النبي ﷺ في المنام ، فقلت: يا رسول الله ! اعذرني ، فإن محبة الله شغلتني عن محبتك ! فقال : يا مبارك من أحبَّ الله فقد أحبني .

وقيل : قالت رابعة في مناجاتها : إلهي تحرق بالنار قلباً يحبك ؟ فهتف بها هاتف : ما كنا نفعل هكذا ! فلا تظني بنا ظن السوء ! .

وقيل : الحب حرفان حاء وباء ، والإشارة فيه أن من أحب الله فليخرج عن روحه وبدنه . وكالإجماع من إطلاقات القوم : إن المحبة هي الموافقة ، وأشد الموافقات : الموافقة بالقلب ، والمحبة توجب انتفاء المباينة ، فإن المحب أدباً مع محبوبه، وبذلك ورد الخبر عن أبي موسى الأشعري ، أن النبي ﷺ قيل له: الرجل يحبُّ القوم ولما يلحق بهم ؟ فقال : المرء مع من أحب ! .

وقال أبو حفص : أكثر فساد الأحوال من ثلاثة : فسق العارفين ، وخيانة المحبِّين ، وكذب المريدين .

قال أبو عثمان : فسق العارفين إطلاق الطرف واللسان والسمع إلى أسباب الدنيا ومنافعها ، وخيانة المحبِّين اختيار هواهم على رضا الله تعالىٰ فيما يستقبلهم ، وكذب المريدين أن يكون ذكر الخلق ورؤيتهم تغلب على ذكر الله تعالىٰ ورؤيته .

راود خطاف خطافة في قبة سليمان عليه السلام فامتنعت عليه ، فقال لها : تمتنعين عليّ وأنا إن شئت قلبت القبة على سليمان ، فدعاه سليمان عليه السلام ، وقال : ما حملك على ما قلت ؟ فقال : يا نبي الله إن العشاق لا يؤاخذون بأقوالهم ، فقال : صدقت .

وهذا النوع قد يقع من بعض المحبِّين ويسمى الشطح ، فلا يؤاخذون ، ولا يعد لهم حالًا ولا مقاماً .

* * * *

٩ ـ باب الشوق

حقيقة نيران تستولي على القلوب فتحرقها ، ولهب يتزايد على الأكباد فيقطعها ، ولا دواء له إلا لقاء المحبوب ، وجمع القلب ، والهمة على المقصود ، والمطلوب ، قال ابن الفارض :

إلى كم أواخي الستر ها قد هتكته   وحل أواخي الحجب لي عقد بيعتي

قال الله عز وجل : ﴿ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأَاتٍۚ ﴾ [العنكبوت : ٥] .

قال السائب : صلى بنا عمار بن ياسر صلاة فأوجز فيها ، فقلت : خففت أبا اليقظان ! فقال : وما عليّ من ذلك ولقد دعوت الله بدعوات سمعتها من رسول الله ﷺ ، فلما قام تبعه رجل من القوم ، فسأله عن الدعوات ، فقال له هي : « اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق ، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي ، وتوفني ما علمت الوفاة خيراً لي ، اللهم إني أسألك خشيتك في الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب ، وأسألك القصد في الغنى والفقر ، وأسألك نعيماً لا ينفد ، وقرة عين لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت ، وأسألك النظر إلى وجهك الكريم ، وشوقاً إلى لقائك ، في غير ضرَّاء مضرّة ، ولا فتنة مضلة ، اللهم زينا بزينة الإيمان ، اللهم اجعلنا هداة مهتدين »(١) .

قال الأستاذ : الشوق اهتياج القلوب إلى لقاء المحبوب ، وعلى قدر المحبة يكون الشوق .

سمع القشيري أستاذه الدقَّاق يُفرِّق بين الشوق والاشتياق ، ويقول: الشوق يسكن باللقاء ، والرؤية ، والاشتياق لا يزول باللقاء . وفي معناه أنشدوا :

---

(١) أخرجه النسائي في سننه ، والحاكم في المستدرك .

ما يرجع الطرف عنه عند رؤيته حتى يعود إليه الطرف مشتاقا

قال النصرأباذي : للخلق كلهم مقام الشوق ، وليس لهم مقام الاشتياق ، ومن دخل في حال الاشتياق هام فيه ، حتى لا يرى له أثر ولا قرار .

جاء حامد الأسود إلى عبد الله بن المنازل فقال : رأيت في المنام أنك تموت إلى سنة ، فلو استعددت للخروج ، فقال ابن منازل : أجلتنا إلى أمد بعيد ، أأعيش أنا إلى سنة ؟ لقد كان لي أنس بهذا البيت ، الذي سمعته من هذا الثقفي ، يعني أبا علي رحمه الله ، وهو :

يا من شكى شوقه من طول فرقته اصبر لعلك تلقى من تحبُّ غدا

وقال أبو عثمان : علامة الشوق حب الموت مع الراحة .

وقال يحيى بن معاذ : علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات . قال الدقَّاق : خرج داود عليه السلام إلى بعض الصحارى منفرداً ، فأوحى الله إليه ما لي أراك يا داود وحدانياً ؟ فقال : إلهي استأثر الشوق إلى لقائك على قلبي ، فحال بيني وبين صحبة الخلق ، فأوحى الله إليه : ارجع إليهم فإنك إن أتيتني بعبد آبق أثبتك في اللوح المحفوظ جهبذاً (نَقّاداً عارفاً بالجيد والرديء) .

وقيل : كانت عجوز قدم بعض أقاربها من السفر ، وأظهر قومها السرور ، والعجوز تبكي ، فقيل لها : ما يبكيك ؟ فقالت : ذكّرني قدوم هذا الفتى يوم القدوم على الله .

وسئل ابن عطاء عن الشوق فقال : احتراق الأحشاء ، وتلهّب القلوب ، وتقطع الأكباد .

وسئل الشوق أعلى أم المحبة ؟ فقال : المحبة لأن الشوق منها يتولد . وقال بعضهم : الشوق لهيب ينشأ بين أثناء الحشا يسنح (يظهر) عن الفرقة فإذا وقع اللقاء طفىء ، وإذا كان الغالب على الأسرار مشاهدة المحبوب ، لم يطرقها الشوق .

وقيل لبعضهم : هل تشتاق ؟ فقال : لا ، إنما الشوق إلى غائب ، وهو حاضر .

قال الدقّاق في قوله تعالىٰ ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ [طه : ٨٤] قال : معناه شوقاً إليك ، فستره بلفظ الرضا المؤول بما ذكر .

وسمعته يقول : من علامات الشوق تمني الموت على بساط العوافي ، كيوسف عليه السلام لما ألقي في الجبِّ لم يقل توفني ، ولما أدخل السجن لم يقل توفني ، ولما دخل عليه أبواه وخر الإخوة له سجداً وتم له الملك والنعم ، قال : ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا ﴾ [يوسف : ١٠١] . وفي معناه أنشد بعضهم :

نحن في أكمل السرور ولكن ليس إلا بكم يتم السرور

عيب ما نحن فيه يا أهل ودي أنكم غيب ونحن حضور

وفي معناه أنشدوا :

من سرَّه العيد الجيد فقد عدمت به السرورا

كان السرور يتم لي لو كان أحبابي حضورا

وقال ابن خفيف : الشوق ارتياح القلوب بالوجد ، ومحبة اللقاء بالقرب .

وقال أبو يزيد البسطامي : إن لله عباداً لو حجبهم في الجنة عن رؤيته ، لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار .

قال الحسين الأنصاري : رأيت في النوم كأن القيامة قد قامت ، وشخص قائم تحت العرش ، فيقول الحق سبحانه : يا ملائكتي ! من هذا ؟ فقالوا : الله أعلم ، فقال : هذا معروف الكرخي سكر من حبي فلا يفيق إلا بلقائي .

وفي بعض الحكايات في مثل هذا المنام أنه قيل : هذا معروف الكرخي ، خرج من الدنيا مشتاقاً إلى الله تعالىٰ فأباح الله تعالىٰ له النظر إليه ! .

وقال فارس : قلوب المشتاقين منورة بنور الله تعالىٰ ، فإذا تحرَّك اشتياقهم أضاء النور ما بين السماء والأرض ، فيعرضهم الله على الملائكة ، فيقول : هؤلاء المشتاقون إليّ أشهدكم أني إليهم أشوق ! .

قال الدقّاق في قوله ﷺ : « أسألك الشوق إلى لقائك »[1] قال : كان الشوق مئة جزء ، تسعة وتسعون له ﷺ ، وجزء متفرق في الناس ، فأراد أن يكون ذلك الجزء له ، فغار أن تكون شظية من الشوق لغيره .

وقيل : شوق أهل القرب ، أتم من شوق المحجوبين ، ولهذا قيل :

وأبرح ما يكون الشوق يوماً   إذا دنت الخيام من الخيام

وقيل : إن المشتاقين يتحسسون حلاوة الموت عند وروده ، لما قد كشف لهم من رَوح الوصول أحلى من الشهد .

قال السريّ : الشوق أجل مقام للعارف إذا تحقَّق فيه ، وإذا تحقَّق في الشوق لهما عن كل شيء يشغله عمن يشتاق إليه .

وقال أبو عثمان الحيري في قوله عز وجل : ﴿ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ ﴾ [العنكبوت: ٥] : هذا تعريض للمشتاقين ، معناه إني أعلم أن اشتياقكم إليّ غالب ، وأنا أجلت للقائكم أجلاً ، وعن قريب يكون وصولكم إلى من تشتاقون إليه .

وقيل : أوحى الله إلى داود عليه السلام : قل لشبان بني إسرائيل : لم تشغلون أنفسكم بغيري ؟ وأنا مشتاق إليكم ؟ ما هذا الجفاء ؟ .

وقيل : أوحى الله إلى داود عليه السلام : لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم ، ورفقي بهم ، وشوقي إلى ترك معاصيهم ؟ لماتوا شوقاً إليّ ! وانقطعت أوصالهم من محبتي ، يا داود هذه إرادتي للمدبرين عني ، فكيف إرادتي للمقبلين إليّ ؟

وقيل : مكتوب في التوراة : شوّقناكم فلم تشتاقوا ، وخوّفناكم فلم تخافوا ، ونُحْنا لكم فلم تنوحوا .

قال الدقّاق : بكى شعيب عليه السلام حتى عمي ، فرد الله بصره عليه ، ثم بكى حتى عمي ، فرد الله بصره عليه ، ثم بكى حتى عمي ، فأوحى الله

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٦٤) والطبراني في الدعاء (٦٢٥) .

تعالىٰ إليه : إن كان هذا البكاء لأجل الجنة ؟ فقد أبحتها لك ، وإن كان لأجل النار ؟ فقد أجرتك منها ، فقال : لا ، بل شوقاً إليك . فأوحى الله تعالىٰ إليه لأجل ذلك أخدمتك نبيي ! وكليمي موسى عليه السلام عشر سنين !.

وقيل : من اشتاق إلى الله اشتاق إليه كل شيء ، وفي الخبر : اشتاقت الجنة إلى ثلاثة : علي ، وعمار ، وسلمان .

قال الدقّاق : قال بعض المشايخ : أنا أدخل السوق والأشياء تشتاق إليّ ، وأنا على جميعها حرٌّ .

قال مالك بن دينار : قرأت في التوراة : شوقناكم فلم تشتاقوا ، وزمرنا لكم (بمزامير داود ما يحرك الجبال) فلم ترقصوا .

قال الجنيد ، وقد سئل من أي شيء يكون بكاء المحب إذا لقي المحبوب ؟ فقال : إنما يكون ذلك سروراً به ، ووجداً من شدة الشوق إليه . ولقد بلغني أن أخوين تعانقا ، فقال أحدهما : واشوقاه ! وقال الآخر : واوجداه ! صرّح كل منهما بما وجده من السرور بأخيه ، فانطفأ باللقاء ما كان يجده الأول من الشوق ، وزال به ما كان يجده الثاني من الوجد .

وللشوق مراتب أولها استحسان ، ثم مودّة ، ثم محبّة ، ثم خلّة ، ثم هوًى ثم عشق ثم تهيُّم ثم وَلَهٌ .

* * * *

١٠ ـ باب حفظ قلوب المشايخ وترك الاختلاف عليهم

قال الله تعالىٰ في قصة موسى مع الخضر عليهما السلام : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف : ٦٦] .

والخضر مختلف في نبوته وولايته ، والأكثر على أنه نبي ، وجزم به ابن الصلاح ، وأقره النووي ، ورجَّحه الجمهور .

قال الأستاذ : لما أراد موسى صحبة الخضر حفظ شرط الأدب ، فاستأذن أولًا في الصحبة ، ثم شرط عليه الخضر ، ألا يعارضه في شيء ، ولا يعترض عليه في حكم ، ثم لما خالفه موسى عليه السلام ، تجاوز عنه المرة الأولى والثانية ، فلما صار إلى الثالثة ، والثلاث آخر حد القلة ، وأول حد الكثرة ، سامه الفرقة (أرادها منه) فقال : ﴿ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ﴾ [الكهف : ٧٨] .

عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « ما أكرم شاب شيخاً لسنه ، إلا قيض الله من يكرمه عند كبر سنه »[١] .

قال الدقَّاق : بدء كل فرقة ، المخالفة ؛ يعني أن من خالف شيخه ، لم يبق على طريقته ، وانقطعت العلقة بينهما ، وإن جمعتهما البقعة . فمن صحب شيخاً من الشيوخ ، ثم اعترض عليه بقلبه ، فقد نقض عهد الصحبة ، ووجبت عليه التوبة ، على أن الشيوخ قالوا : عقوق الأستاذين لا توبة عنها ، الأولى عنه .

وذلك لا بمعنى أنه معصية لا يتوب الله على فاعلها ، فإنه يقبل التوبة عن عباده في الكفر ، فما دونه ، بل بمعنى أنه : لا ينبغي للشيخ أن يعفو عنه ، بل يؤدبه لأن العفو عنه يُجرؤه ، ويزيل عنه حرمة الشيخ من قلبه بالكلية .

---

(١) أخرجه الترمذي ، وقال : حديث صحيح .

قال السلمي : خرجت إلى مرو في حياة شيخي الصعلوكي ، وكان له قبل خروجي أيام الجمعة بالغدوات مجلس دور القرآن والختم . فوجدته عند رجوعي قد رفع ذلك المجلس ، وعقد لأبي العقاني في ذلك الوقت مجلسَ القول (الإنشاد) ليذكر به الناس ، وربما أنشدهم فيه أشعاراً ترقق قلوبهم ، فداخلني من ذلك شيء فكنت أقول في نفسي : قد استبدل مجلس الختم بمجلس القول ؟ فقال لي يوماً : يا أبا عبد الرحمن إيش يقول الناس فيّ ! فقلت : يقولون : رفع مجلس القرآن ! ووضع مجلس القول ! فقال : من قال لأستاذه لم ؟ لا يفلح أبداً .

وقال الجنيد : دخلت على السري يوماً فأمرني شيئاً ، فقضيت حاجته سريعاً ، فلما رجعت إليه ناولني رقعة ، وقال : هذا لمكان قضاء حاجتك لي سريعاً . فقرأت الرقعة فإذا مكتوب فيها : سمعت حادياً يحدو في البادية :

أبكي وهل يدريك ما يبكيني   أبكـي حـذاراً أن تفـارقينـي
وتقطعـي حبلـي وتهجـرينـي   وتجعليـن البعـد منـك دونـي

ولهذا أقام الله المشايخ ليداوا قلوب الطالبين ، ويردوا إليه الشاردين ، ومداواة كل مريد باللائق بمرضه ، وهو مما يختص به مشايخ هذا الفن ، فإنهم عرفوه علماً ، وسلوكاً ، وحالًا .

يحكى عن أبي الحسن الهمداني قال : كنت ليلة عند جعفر الخلدي ، وكنت أمرت في بيتي أن يعلق طير سمين في التنور ، وكان قلبي معه ، فقال لي جعفر : أقم عندنا الليلة ! فتعلّلت بشيء ، ورجعت إلى منزلي ، فأخرج الطير من التنور ، ووضع بين يديّ ، فدخل كلب من الباب ، وحمل الطير عند تغافل الحاضرين ، فأتي بالدهن الذي سقط من الطير ووضع تحته في وعاء فتعلق به ذيل الغلام فانصبّ ، فلما أصبحت دخلت على جعفر ، فحين وقع بصره عليّ قال : من لم يحفظ قلوب المشايخ ، سُلِّطَ عليه كلب يؤذيه .

قدم شقيق البلخي وأبو تراب النخشبي على أبي يزيد البسطامي لزيارته ، فقُدّمت السفرة وشاب يخدم أبا يزيد ، فقالا له : كل معنا يا فتى ، فقال : أنا

صائم ، فقال أبو تراب : كل ولك أجر صوم شهر ، فأبى . فقال شقيق : كل ولك أجر صوم سنة ، فأبى ، فقال أبو يزيد : دعوا مَن سقط من عين الله تعالىٰ ، فأُخذ ذلك الشاب في سرقة بعد سنة ، وقطعت يده .

وصف سهل بن عبد الله رجلاً بالولاية ، خبّازاً بالبصرة ، فسمع رجل من أصحاب سهل بن عبد الله ذلك فاشتاق إليه ، فخرج إلى البصرة ، فأتى حانوت الخبّاز ، فرآه يخبز ، وقد تنقب لمحاسنه على عادة الخبّازين ، فقال في نفسه : لو كان هذا ولياً لم يحترق شعره بغير نقاب ، ثم إنه سلّم عليه وسأله شيئاً ، فقال الرجل : إنك استصغرتني ولا تنتفع بكلامي ، وأبى أن يكلمه .

سمع الرازي الحيري يصف محمد بن الفضل البلخي ، ويمدحه فاشتاق إليه ، فخرج إلى زيارته فلم يقع بقلبه من محمد بن الفضل ما كان اعتقده ، فرجع إلى أبي عثمان وسأله ، فقال : كيف وجدته ؟ فقال : لم أجده كما ظننته ، فقال : لأنك استصغرته ، وما استصغر أحد أحداً إلا حرم فائدته ، ارجع إليه بالحرمة ، فرجع إليه عبد الله فانتفع بزيارته .

ومن المشهور أن عمرو بن عثمان المكي رأى الحسين بن منصور يكتب شيئاً : فقال له : ما هذا ؟ فقال : هو ذا أعارض به القرآن ، فدعا عليه وهجره ، قال الشيوخ : إن ما حلّ به بعد طول المدة كان لدعاء ذلك الشيخ عليه .

ولما نفى أهل بلخ محمد بن الفضل من البلد دعا عليهم ، وقال : اللهم امنعهم الصدق ، فلم يخرج من بلخ بعده صدّيق .

وقال الأبيوردي : من رضي عنه شيخه لا يكافأ في حال حياته ، لئلا يزول عن قلبه تعظيم ذلك الشيخ ، فإذا مات الشيخ أظهر الله عز وجل عليه ما هو جزاء رضاه ، ومن تغيّر عليه قلب شيخه لا يكافأ في حال حياة ذلك الشيخ لئلا يرقّ له ، فإنهم مجبولون على الكرم ، فإذا مات الشيخ فحينئذ يجد المكافأة بعده .

علامات الشيخ أربع :

١ ـ علمه بما يجب لله ورسوله من العقائد بالبراهين السمعية والعقلية ، حتى يقوى بذلك على إزالة التشويش والشكوك عن المريد إذا عرض له .

٢ ـ اعتقاده اعتقاد أهل الحق وجماعة المسلمين من أهل السنة .

٣ ـ عالم بالأحكام المتعلقة بالقلوب والأبدان .

٤ ـ أن يكون مستعملاً علمه فيما يعلمه من أحكام الله تعالىٰ ، قائماً بحدوده غير مخل بحق من حقوقه .

* * * *

١١ - باب السماع

السماع : الإصغاء إلى الأصوات الحسنة المصاحبة للتلحين ، وذلك يختلف حكمه باختلاف ما منه الصوت المذكور .

فإن كان من نحو آلات ، كعود وقانون وغيرهما ، فقد وقع فيه اختلاف بين الأئمة ، والمعتمد عند الشافعي : تحريمه سدّاً للذريعة ودرءاً للمفسدة .

وإن كان بدون آلات ، بل من إنسان ، ففيه تفصيل بين الذكر والأنثى : فهو من الأنثى محرَّم عند خوف الفتنة ، وإلا فهو مكروه . ومن الذّكَر فإن كان أمرد جميلاً ، فحكمه حكم الأنثى .

وإن كان غير ذلك فلا بأس به ، إن كان كسماع قرآن ، وما اشتمل على توحيد الإله ، أو على ما يتعظ به العبد ، أو على مدح رسول ، أو نبيّ ، أو وليّ ، بما يليق به ، بدون إفراط ولا تفريط .

وإن كان غزلاً أو تشبيباً خارجاً عن حد الاعتدال ، مشتملاً على الكذب ، بالمبالغات المفرطة ، فمثله لا يحلُّ سماعه .

وليس المراد بالسماع الغناء مع رفع الصوت ، إذ هو من محل الخلاف ، فهم لا يقدمون إلا على واجب ، أو مندوب ، ويخرجون عن المختلف فيه ، والمكروه لا سبيل إليه إذ هو عندهم كالمحرم .

والسماع عند الصوفية لا يرجع مباحاً إلا بشروط .

منها : أن يكونوا في مكان لا يطلع عليهم غيرهم ، والقوَّال هو الذي يمدهم ، ويذكر لهم من درر الشعر ما يناسب حالهم ، وتقوى به قلوبهم على السير إلى الله تعالىٰ ، وأن يكون القوَّال بغير أجرة ، وألا يكون معهم أحد من أبناء الدنيا ، وألا يكون معهم شبَّان مرد ، وأن يكون سماعهم مع السكون والأدب، لا مع الحركة، والرقص، وضرب الأرض بالأقدام، بإظهار التواجد.

وأقبح من ذلك ، ما جمعوه مع السماع ، من الدف ، والشبابة ، والتصفيق .

السماع هو الانتباه بالقلب إلى ما يحمد شرعاً ، قال الله عز وجل : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ [الزمر : ١٧ ـ ١٨] واللام في قوله القول : تقتضي التعميم والاستغراق ، والدليل على أنه مدحهم باتباعهم الأحسن ، وقال تعالىٰ : ﴿ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ [الروم : ١٥] جاء في التفسير : إنه السماع وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة : ٨٣] .

والسماع على ثلاث درجات : سماع العامة (المريدين) ، وسماع الخاصة ، وسماع خاصة الخاصة .

فسماع العامة يحصل من دواعي الأعمال ، كالرجاء ، والخوف ، ورؤية النعم .

وسماع الخاصة من طروق الأحوال إليهم ، وسماع خاصة الخاصة من فضل الله لشغلهم به عن غيره .

وسماع الأشعار بالألحان الطيبة ، والأنغام المستلذة ، إذا لم يعتقد المستمع محظوراً ، ولم يسمع على مذموم في الشرع كمزمار ، ولم ينجرّ بسماعه في زمام هواه ، ولم ينخرط في سلك لهوه ، مباح في الجملة ، ولا خلاف أن الأشعار أنشدت بين يدي رسول الله ﷺ وأنه سمعها من منشديها ، ولم ينكر عليهم في إنشادها ، فإذا جاز استماعها بغير الألحان الطيبة ، فلا يتغير الحكم بأن يسمع بالألحان المطربة ، من غير آلات الملاهي ، هذا ظاهر من الأمر .

قال أنس : كانت الأنصار يحفرون الخندق ، فجعلوا يقولون :

نحن الذين بايعوا محمداً ... على الجهاد ما بقينا أبداً

فأجابهم رسول الله ﷺ :

« اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة ... فأكرم الأنصار والمهاجرة »

وقد سمع السلف الأكابر الأبيات بالألحان ، فممن قال بإباحة سماع الشعر بالألحان من السلف مالك بن أنس ، وأهل الحجاز كلهم كانوا يبيحون الغناء ، وأما الحِداء فإجماع منهم على إجازته ، وقد وردت الأخبار بذلك .

وروي عن ابن جريج أنه كان يرخص في السماع ، فقيل له : إذا أتي بك يوم القيامة ، ويؤتى بحسناتك وسيئاتك ففي أي الجانبين سماعك ؟ فقال لا في الحسنات ولا في السيئات ، يعني أنه من المباحات .

وأما الإمام الشافعي فإنه لا يحرّمه ، ويجعله في العوام مكروهاً ، حتى لو احترف بالغناء ، أو اتصف على الدوام بسماعه على وجه التلهي ترد به الشهادة ، ويجعله مما يسقط المروءة ، ولا يلحقه بالمحرّمات ، وليس كلامنا في هذا النوع من السماع ، فإن هذه الطائفة جلّت رتبتهم عن أن يستمعوا بلهو ، أو يقعدوا للسماع بسهو ، أو يكونوا بقلوبهم مفكرين في مضمون لغوه ، أو يستمعوا على صفة غير كفء ، وقد روي عن ابن عمر رضي الله عنهما آثار في إباحة السماع ، وكذلك عن عبد الله بن جعفر ، وكذلك عن عمر رضي الله عنهم أجمعين في الحداء وخيره ، لاسيما إذا ترتب عليه ما ينتفع به القلب .

وأنشد بين يدي رسول الله ﷺ الأشعار فلم ينه عنها .

وروي أنه ﷺ استنشد الأشعار ، ومن المشهور الظاهر أنه دخل بيت عائشة رضي الله عنها وفيه جاريتان تغنيان فلم ينههما ، فعن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه دخل عليها ، وعندها قينتان تغنيان ، بما تقاذفت به الأنصار يوم بعاث ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : مزمار الشيطان (مرتين) فقال رسول الله ﷺ : « دعهما يا أبا بكر ، فإن لكل قوم عيداً ، وعيدنا هذا اليوم »[1] .

وعن عائشة رضي الله عنها أنها أنكحت ذات قرابتها من الأنصار ، فجاء

---

(١) أخرجه البخاري في العيدين (١٨٩٨) .

النبي ﷺ فقال : « أهديتم الفتاة أي : إلى بعلها » فقالت : نعم ، قال : فأرسلتِ من يغني ! قالت : لا ! فقال النبي ﷺ : « إن الأنصار فيهم غزل (أي : رفع صوت بمحاسن العروس ليحببوها لبعلها) فلو أرسلتم من يقول :

« أتيناكم أتيناكم فحيَّانا وحيَّاكم »[1]

عن البراء بن عازب قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « حسّنوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً »[2] . وهذا الخبر يدل على فضيلة الصوت الحسن . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لكل شيء حلية وحلية القرآن الصوت الحسن »[3] . وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « صوتان ملعونان صوت ويل عند مصيبة ، وصوت مزمار عند نعمة »[4] . مفهوم الخطاب يقتضي إباحة غير هذا في غير هذه الأحوال ، وإلا بطل التخصيص .

والأخبار في هذا الباب تكثر ، والزيادة تخرجنا عن المقصود من الاختصار .

وحسن الصوت مما أنعم الله به على صاحبه من الناس . قال الله تعالىٰ : ﴿ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ﴾ [فاطر : ١] . قيل في التفسير من ذلك : الصوت الحسن .

وذمّ الله سبحانه الصوت الفظيع فقال تعالىٰ : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان : ١٩] واستلذاذ القلوب واشتياقها إلى الأصوات الطيبة ، واسترواحها إليها ، مما لا يمكن جحوده . فإن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب ، والجمل يقاسي تعب السير ومشقة الحمولة فيهون عليه بالحداء ، قال

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٩٠٠) .

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٣) وأبو داود (١٤٦٨) بلفظ « زينوا . . » .

(٣) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ، والضياء المقدسي في المختارة عن أنس ، وقال : حديث صحيح .

(٤) أخرجه البزار (٧٩٥٠) وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ١٣) رواته ثقات .

الله عز وجل : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [الغاشية : ١٧] .

وحكى إسماعيل بن عليّة قال : كنت أمشي مع الشافعي رضي الله عنه وقت الهاجرة ، فجزنا بموضع يقول فيه واحد شيئاً ، فقال : مل بنا إليه ! ثم قال لي : أيطربك هذا ؟ فقلت لا ، فقال : مالك حِسٌّ ؟. وقال رسول الله ﷺ : « ما أذن الله لشيء كأذَنِه (كاستماعه) لنبي يتغنى بالقرآن » . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لم يأذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن »[١] . وقيل : إن داود عليه السلام كان يستمع لقراءته الجن ، والإنس ، والطير ، والوحش ، إذا قرأ الزبور .

وقال ﷺ لأبي موسى الأشعري : « لقد أعطيت مزماراً من مزامير آل داود »[٢] .

وقال معاذ بن جبل : لو علمت أنك تسمع قراءتي لحبَّرته لك تحبيراً .

حكى أبو بكر الرقّي قال : كنت في البادية ،فوافيت قبيلة من قبائل العرب ، فأضافني رجل منهم ، فرأيت غلاماً أسود مقيداً هناك ، ورأيت جِمَالًا قد ماتت بفناء البيت ، فقال لي الغلام : أنت الليلة ضيف ، وأنت على مولاي كريم ، فتشفع لي ، فإنه لا يردك ، فقلت لصاحب البيت لا آكل طعامك حتى تخلي هذا العبد تفكه من قيده . فقال لي : هذا الغلام قد أفقرني ، وأتلف مالي ، فقلت : فما فعل ؟ فقال له صوت طيب ، وكنت أعيش من ظهر هذه الجمال ، فحملها أحمالًا ثقيلة ، وحدا لها ، حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام في يوم واحد ، فلما حطَّ عنها ماتت كلها ، ولكن قد وهبته لك ، وحل عنه القيد ، فلما أصبحنا أحببت أن أسمع صوته فسألته ذلك ، فأمر الغلام أن يحدو على جمل كان على بئر هناك يستقي عليه ، فحدا ، فهام الجمل على وجهه ، وقطع حباله ، ولم أظن أني سمعت صوتاً أطيب منه ، فوقعت لوجهي ، حتى أشار إليه بالسكوت .

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٤٧٣٥) ومسلم في صلاة المسافرين (٧٩٢) .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٤٧٦١) ومسلم في صلاة المسافرين (٧٩٣) .

قال الجنيد : وقد سئل ما بال الإنسان يكون هادئاً فإذا سمع السماع اضطرب ؟ فقال : إن الله سبحانه لما خاطب الذر في الميثاق الأول بقوله : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] استفرغت عذوبة سماع الكلام الأرواح ، فلما سمعوا السماع حرّكهم ذكر ذلك . قال الأستاذ أبو علي الدقّاق رحمه الله : السماع حرام على العوام لبقاء نفوسهم ، مباح للزهاد لحصول مجاهداتهم ، مستحب لأصحابنا لحياة قلوبهم .

وكان الحارث المحاسبي يقول : ثلاث إذا وجدت تمتع بهن وقد فقدناها ، حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن الصوت مع الديانة ، وحسن الإخاء مع الوفاء .

سئل ذو النون المصري عن الصوت الحسن ، فقال : مخاطبات ، وإشارات ، أودعها الله كل طيّب وطيّبة .

وسئل مرة أخرى عن السماع ، فقال : وارد حق يزعج القلوب إلى الحق ، فمن أصغى إليه بنفس تزندق .

وقال الجنيد : تنزل الرحمة على الفقراء في ثلاثة مواطن :

عند السماع ، فإنهم لا يسمعون إلا عن حق ولا يقولون إلا عن وجد .

وثانيها عند أكل الطعام ، فإنهم لا يأكلون إلا عن فاقة ، وعند مجاراة العلم ، فإنهم لا يذكرون إلا صفات الأولياء .

وقال الجنيد : السماع فتنة لمن طلبه ، ترويح لمن صادفه .

وحكي عن الجنيد أنه قال : السماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء : الزمان ، والمكان ، والإخوان .

وسئل الشبلي عن السماع ، فقال : ظاهره فتنة ، وباطنه عبرة ، فمن عرف الإشارة ، حل له استماع العبرة ، وإلا فقد استدعى الفتنة ، وتعرّض للبلية ، وقيل : لا يصلح السماع إلا لمن كانت له نفس ميتة ، وقلب حي ، فنفسه ذبحت بسيوف المجاهدة ، وقلبه حي بنور الموافقة .

وسئل أبو يعقوب النهرجوري عن السماع ، فقال : حال يبدي الرجوع إلى الأسرار من حيث الاحتراق .

وقيل : السماع لطف غذاء الأرواح لأهل المعرفة .

قال أبو علي الدقّاق رحمه الله : السماع طبع إلا عن شرع ، وخرق إلا عن حق ، وفتنة إلا عن عبرة ، ويقال : السماع على قسمين : سماع بشرط العلم والصحو ، فمن شرط صاحبه معرفة الأسامي والصفات ، وإلا وقع في الكفر المحض ، وسماع بشرط الحال ، فمن شرط صاحبه الفناء عن أحوال البشرية ، والتنقي من آثار الحظوظ ، بظهور أحكام الحقيقة .

سأل ابن أبي الحواري الداراني عن السماع ، فقال : من اثنين أحب إليَّ من الواحد ، وسئل أبو الحسن النوري عن الصوفي ، فقال : من سمع السماع وآثر الأسباب .

وسئل أبو علي الروذباري عن السماع يوماً ، فقال : ليتنا تخلصنا منه رأساً برأس .

وقال المغربي : من ادّعى السماع ولم يسمع صوت الطيور ، وصرير الباب ، وتصفيق الرياح ، فهو فقير مدّع .

وكان ابن زيري من أصحاب الجنيد ، كان يحضر موضع سماع . فإن استطابه فرش إزاره وجلس ، وقال : الصوفي مع قلبه ، وإن لم يستطبه ، قال : السماع لأرباب القلوب . ومرّ وأخذ نعله .

سئل رويم عن وجود الصوفية عند السماع ، فقال : يشهدون المعاني التي تعزب عن غيرهم ، فتشير إليهم إليّ إليّ ، فيتنعمون بذلك من الفرح ، ثم يقع الحجاب فيعود ذلك الفرح بكاء ، فمنهم من يخرق ثيابه ، ومنهم من يصيح ، ومنهم من يبكي ، كل إنسان على قدره .

وقال الحصري : إيش أعمل بسماع ينقطع إذا انقطع من يسمع منه ؟ بل ينبغي أن يكون سماعك سماعاً متصلاً غير منقطع .

وقال الحصري أيضاً : ينبغي أن يكون ظمأ دائم ، وشرب دائم ، فكلما ازداد شربه ازداد ظمؤه .

وجاء عن مجاهد في تفسير قوله تعالىٰ : ﴿ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ [الروم : ١٥] إنه السماع من الحور العين ، بأصوات شهية ، نحن الخالدات فلا نموت أبداً ، نحن الناعمات فلا نبأس أبداً .

وقيل : السماع نداء ، والوجد قصد .

قال أبو عثمان المغربي : قلوب أهل الحق قلوب حاضرة ، وأسماعهم أسماع مفتوحة .

وقال الصعلوكي : المستمع بين استتار وتجلٍّ ، فالاستتار يوجب التلهيب ، والتجلي يورث الترويح ، والاستتار يتولد منه حركات المريدين ، وهو محل الضعف ، والعجز ، والتجلي يتولد منه سكون الواصلين ، وهو محل الاستقامة والتمكين ، وذلك صفة الحضرة ليس فيها إلا الذبول ، تحت موارد الهيبة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ﴾ [الأحقاف : ٢٩] وقال أبو عثمان الحيري : السماع على ثلاثة أوجه : فوجه منها للمريدين والمبتدئين ، يستدعون بذلك الأحوال الشريفة ، ويخشى عليهم في ذلك الفتنة والمراءاة . والثاني للصادقين يطلبون الزيادة في أحوالهم ، ويسمعون من ذلك ما يوافق أوقاتهم . والثالث لأهل الاستقامة من العارفين ، فهؤلاء لا يختارون على الله فيما يرد على قلوبهم من الحركة والسكون .

وكان أبو سعيد الخرَّاز يقول : من ادعى أنه مغلوب عند الفهم ، يعني في السماع ، وأن الحركات مالكة له ، فعلامته تحسين المجلس الذي هو فيه بوجده .

ذكر السلمي هذه الحكاية لأبي عثمان الحيري فقال : هذا أدناه ، وعلامته الصحيحة ألا يبقى في المجلس مُحِقٌّ إلا أنس به ، ولا يبقى فيه مبطل إلا استوحش منه .

وقال بندار بن الحسين : السماع على ثلاثة أوجه : منهم من يسمع بالطبع ، ومنهم من يسمع بالحال ، ومنهم من يسمع بحق ، فالذي يسمع بالطبع يشترك فيه الخاص والعام ، فإن جبلّة البشرية استلذاذ الصوت الطيب .

وأما الذي يسمع بالحال ، فهو يتأمل ما يرد عليه من ذكر عتاب ، أو خطاب ، أو وصل ، أو هجر ، أو قرب ، أو بعد ، أو تأسف على فائت ، أو تعطش إلى آتٍ ، أو وفاء بعهد ، أو تصديق لوعد ، أو نقض لعهد ، أو ذكر قلق ، أو اشتياق ، أو خوف فراق ، أو فرح ووصال ، أو حذر انفصال ، وما جرى مجراه .

وأما من يسمع بحق ، فيسمع بالله ولله ، ولا يتصف بهذه الأحوال التي هي ممزوجة بالحظوظ البشرية ، فإنها مبقاة مع العلل ، فيسمعون من حيث صفاء التوحيد بحق لا حَظٍ .

وقيل : أهل السماع على ثلاث طبقات : أبناء الحقائق يرجعون في سماعهم إلى مخاطبة الحق سبحانه لهم ، وضرب يخاطبون الله تعالىٰ بقلوبهم بمعاني ما يسمعون ، فهم مطالبون بالصدق فيما يشيرون به إلى الله تعالىٰ ، وثالث : هو فقير مجرد قطع العلاقات من الدنيا والآفات ، يسمعون بطيبة قلوبهم ، وهؤلاء أقربهم إلى السلامة .

سئل أبو علي الروذباري عن السماع فقال : مكاشفة الأسرار إلى مشاهدة المحبوب .

وقال الخوَّاص رحمه الله تعالىٰ ، وقد سئل ما بال الإنسان يتحرك عند سماع غير القرآن ما لا يجد ذلك في سماع القرآن ؟ فقال : لأن سماع القرآن صدمة ، لا يمكن لأحد أن يتحرك فيه لشدة غلبته ، وسماع القول ترويح فيتحرك .

قال الجنيد : إذا رأيت المريد يحبُّ السماع فاعلم أن فيه بقية من البطالة .

وقال سهل بن عبد الله : السماع علم استأثر الله به ، لا يعلمه إلا هو .

لما دخل ذو النون المصري بغداد ، اجتمع إليه الصوفية ، ومعهم قوّال ، فاستأذنوه بأن يقول بين يديه شيئاً فأذن ، فابتدأ يقول :

صغير هواك عذبني   فكيف به إذا احتنكا
وأنت جمعت من قلبي   هوى قد كان مشتركا
أما ترثي لمكتئب   إذا ضحك الخليّ بكى

قال : فقام ذو النون ، وسقط على وجهه والدم يقطر من جبينه ، ولا يسقط على الأرض ، ثم قام رجل من القوم يتواجد ، فقال له ذو النون : الذي يراك حين تقوم . فقعد الرجل ، قال الدقّاق في هذه الحكاية : كان ذو النون صاحب إشراف على ذلك الرجل ، حيث نبهه أن ذلك ليس مقامه ، وكان ذلك الرجل صاحب إنصاف ، حيث قبل ذلك منه فرجع .

قال ابن الجلّاء : كان بالمغرب شيخان لهما أصحاب وتلامذة ، يقال لأحدهما جبلة ، وللآخر رزيق ، فزار رزيق يوماً جبلة في أصحابه ، فقرأ رجل من أصحاب رزيق شيئاً ، فصاح واحد من أصحاب جبلة ومات ، فلما أصبحوا قال جبلة لرزيق : أين الذي قرأ بالأمس فليقرأ ، فقرأ فصاح جبلة صيحة فمات القارىء ، فقال جبلة : واحد بواحد ، والبادىء أظلم .

وسئل إبراهيم المارستاني عن الحركة عند السماع ، فقال : بلغني أن موسى عليه السلام قصّ في بني إسرائيل ، فمزّق واحد منهم قميصه ، فأوحى الله إليه : قل له مزّق لي قلبك ، ولا تمزق ثيابك .

وسأل أبو علي المغازلي الشبلي فقال : ربما يطرق سمعي آية من كتاب الله تعالىٰ ، فتحدو لي على ترك الأشياء ، والإعراض عن الدنيا ، ثم أرجع إلى أحوالي وإلى الناس ، فقال الشبلي : ما اجتذبك إليه فهو عطف منه عليك ، ولطف ، وما رددت إلى نفسك فهو شفقة منه عليك ، لأنه لم يصح لك التبري من الحول والقوة في التوجه إليه .

كان أحمد العكي مع الشبلي في مسجد ليلة في شهر رمضان ، وهو يصلي

خلف إمـام له ، وأنا بجنبه ، فقرأ الإمام: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ [الإسراء : ٨٦] فزعق زعقة قلت : طارت روحه ، وهو يرتعد ويقول : بمثل هذا يخاطب الأحباب ، ويردد ذلك كثيراً .

وحكي عن الجنيد أنه قال : دخلت على السري يوماً ، فرأيت عنده رجلاً مغشياً عليه ، قلت : ما له ؟ فقال : سمع آية من كتاب الله تعالىٰ ، فقلت : تقرأ عليه ثانياً ، فقرأ ، فأفاق ، فقال لي : من أين علمت هذا ؟ فقلت : إن قميص يوسف ذهب بسببه عينا يعقوب عليه السلام ، ثم به عاد بصره ، فاستحسن مني ذلك .

كان شاب يصحب الجنيد فكان إذا سمع شيئاً يتغير ، ويضبط نفسه ، حتى كان يقطر كل شعرة من بدنه بقطرة ، فيوماً من الأيام صاح صيحة تلفت بها نفسه .

قال أبو الحسين الدرّاج : قصدت يوسف بن الحسين في الريّ ، فلما سألت عن منزله ، فكل من أسأله عنه ، يقول لي : إيش تفعل بذلك الزنديق ؟ فضيّقوا صدري ، حتى عزمت على الانصراف ، فبت تلك الليلة في مسجد ، ثم قلت : جئت هذا البلد ، فلا أقل من زيارته ، فلم أزل أسأل عنه حتى وقعت إلى مسجده ، وهو قاعد في المحراب ، وبين يديه رجل ، وعليه مصحف يقرأ فيه ، وإذا هو شيخ بهيّ حسن الهيئة الوجه واللحية ، فدنوت منه وسلمت عليه ، فرد عليّ السلام ، وقال : من أين ؟ فقلت : من بغداد ، قصدت زيارة الشيخ ، فقال : لو أن في بعض البلدان قال لك إنسان : أقم عندي حتى أشتري لك داراً أو جارية ، أكان يمنعك عن زيارتي ؟ فقلت : يا سيدي ما امتحنني الله بشيء من ذلك ، ولو كان لا أدري كيف كنت أكون ، فقال : تحسن أن تقول شيئاً . فقلت : نعم ، وقلت :

رأيتـك تبنـي دائمـاً فـي قطيعتـي ولو كنت ذا حزم لهدّمت ما تبني

فأطبق الشيخ المصحف ، ولم يزل يبكي حتى ابتلت لحيته ، وثوبه ، حتى رحمته من كثرة بكائه ، ثم قال لي : يا بني ! تلوم أهل الريّ على قولهم :

يوسف بن الحسين زنديق ، ومن وقت الصلاة هو ذا أقرأ القرآن ، ثم لم تقطر من عيني قطرة ، وقد قامت عليّ القيامة بهذا البيت .

وقال الدّرّاج : كنت أنا وابن الفوطي مارّين على الدجلة ، بين البصرة ، والأبلة (مدينة بجنب البصرة) وإذا بقصر حسن له منظر ، وعليه رجل ، وبين يديه جارية تغني وتقول :

فـــي سبيـــل الله ود   كان مني لك يبذل
كـــل يـــوم تتلـــون   غير هذا بك أجمل

وإذا شاب تحت المنظرة بيده ركوة ، وعليه مرقعة يسمع ، فقال لها : يا جارية : بإذن مولاك ! أعيدي :

كـــل يـــوم تتلـــون   غير هذا يك أجمل

فأعادته ، فقال الشاب : قولي : فأعادته بإذن مولاها ، الأولى ، والثانية، فقال الفقير : هذا والله تلوّني مع الحق ، وشهق شهقة خرجت روحه ، فقال صاحب القصر للجارية : أنت حرة لوجه الله تعالىٰ .

وخرج أهل البصرة في جنازته وفرغوا من دفنه ، والصلاة عليه ، فقام صاحب القصر ، وقال : أليس تعرفوني ؟ أشهدكم أن كل شيء لي ، في سبيل الله ، وكل مماليكي أحرار ، ثم اتزر بإزار ، وارتدى برداء ، وتصدق بالقصر ، ومر فلم ير له بعد ذلك وجه ، ولا سمع له أثر .

سمع أبو سلمان الدمشقي طوافاً ينادي : يا سعتر برّي ، فسقط مغشياً عليه ، فلما أفاق سئل ؟ فقال : حسبته يقول : اسع تر برّي .

وسمع عتبة الغلام رجلاً يقول : سبحان رب السماء ، إن المحب لفي عَناء ! فقال عتبة : صدقت ، وسمع رجل آخر ذلك القول ، فقال : كذبت . فكل واحد منهما سمع من حيث هو .

وسئل رويم عن المشايخ الذين لقيهم في السماع ، فقال : هو كالقطيع إذا وقع فيه الذئب .

وقال الخرَّاز : رأيت عليّ بن الموفق في السماع يقول : أقيموني ، فأقاموه ، فقام وتواجد ، وقال : أنا الشيخ الزّفّان (ذم لنفسه وإظهار لعجزه عن كتم حاله) .

وقيل : قام الرّقّي ليلة إلى الصباح يقوم ويسقط على هذا البيت ، والناس قيام يبكون :

بالله فاردد فؤاد مكتئب   ليس له من حبيبه خَلَف

قال الحسين بن محمد : خدمت سهل بن عبد الله سنين كثيرة ، فما رأيته تغير عند سماع شيء كان يسمعه من الذكر والقرآن وغيره ، فلما كان في آخر عمره قرىء بين يديه ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ ﴾ [الحديد : ١٥] رأيته تغير وارتعد ، وكاد يسقط على الأرض ، فلما رجع إلى حال صحوه ، سألته عن ذلك ، فقال : يا حبيبي ضعُفنا (ضعفنا عن كتم أحوالنا) .

وحكى ابن سالم قال : رأيت سهلاً مرة أخرى ، قرىء بين يديه : ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢٦] فتغير ، وكاد يسقط ، فقلت له في ذلك ، فقال : ضعفت ، وهذه صفة الأكابر لا يرد عليه وارد ، وإن كان قوياً إلا وهو أقوى منه .

دخل السلمي على أبي عثمان المغربي ، وواحد يستقي من البئر على بكرة ، فقال : يا أبا عبد الرحمن تدري إيش تقول البكرة ؟ فقلت : لا ، فقال : تقول الله الله ، بحسب ما وقع في سمعه من صوتها .

وقال رويم : روي عن علي بن أبي طالب أنه سمع صوت ناقوس ، فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول هذا ؟ فقالوا : لا ، فقال : إنه يقول : سبحان الله حقاً حقاً ، إن المولى صمد يبقى .

وقال الوجيهي : كان جماعة من الصوفية مجتمعين في بيت الحسن القزاز ، ومعهم قوَّالون ، يقولون ، ويتواجدون ، فأشرف عليهم ممشاد الدينوري ، فسكتوا ، فقال : ارجعوا إلى ما كنتم فيه ، فلو جمع ملاهي

الدنيا في أذني ، ما شغل همي ، ولا شفى بعض ما بي .

وبهذا الإسناد عن الوجيهي قال : سمعت أبا علي الروذباري يقول : بلغنا في هذا الأمر إلى مكان مثل حد السيف ، إن ملنا كذا ففي النار .

وقال خير النسَّاج : قص موسى بن عمران عليه السلام على قوم قصة ، فزعق واحد منهم زعقة ، فانتهره موسى عليه السلام ، فأوحى الله تعالىٰ إليه : يا موسى بطيبي ناحوا ، وبحبي باحوا ، وبوجدي صاحوا ، فلم تنكر على عبادي ؟ وقيل : سمع الشبلي قائلاً يقول : الخيار عشرة بدانق ، فصاح ، وقال : إذا كان الخيار عشرة بدانق ، فكيف الشرار ؟ وقيل : إذا تغنت الحق العين في الجنة ، توردت الأشجار .

وقيل : كان عون بن عبد الله يأمر جارية له ، حسنة الصوت ، فتغني بصوت حزين ، حتى تُبكي القوم .

وسئل أبو سليمان الداراني عن السماع ، فقال : كل قلب يريد الصوت الحسن فهو ضعيف ، يداوي كما يداوى الصبي ، إذا أريد أن ينام ، ثم قال أبو سليمان : إن الصوت الحسن لا يدخل في القلب شيئاً ، إنما يحرك من القلب ما فيه .

قال ابن أبي الحواري : صدق والله أبو سليمان .

وقال الجريري : كونوا ربانيين ، أي : سامعين من الله تعالىٰ ، قائلين بالله تعالىٰ .

وسئل بعضهم عن السماع فقال : بروق تلمع ثم تخمد ، وأنوار تبدو ثم تخفى ، ما أحلاها لو بقيت مع صاحبها طرفة عين ، ثم أنشأ يقول :

خطرة في السر منه خطرت　　خطرة البرق ابتدى ثم اضمحل
أي زور لك لو قصداً سرى　　وملمٌ بك لو حقاً فعل

فالسماع كالبرق الذي لم يثبت ، وكالنور الذي لم يدم .

وقيل : السماع فيه نصيب لكل عضو ، فما يقع إلى العين تبكي ، وما يقع

إِلى اللسان يصيح ، وما يقع على اليد يمزق ويلطم ، وما يقع على الرجل يرقص .

وقيل : مات بعض ملوك العجم ، وخلّف ابناً صغيراً ، فأرادوا أن يبايعوه فقالوا : كيف نصل إِلى معرفة عقله وذكائه ؟ فتوافقوا على أن يأتوا بقوال يقول شيئاً ، فإِن أحسن الإِصغاء علموا كياسته ، فأتوا بقوّال ، فلما قال القوال شيئاً : ضحك الرضيع ، فقبّلوا الأرض بين يديه وبايعوه .

اجتمع أبو عمرو بن نجيد والنصرأباذي ، ومن في طبقتهما في موضع ، فقال النصرأباذي : أنا أقول إِذا اجتمع القوم فواحد يقول شيئاً ويسكت الباقون ، خير من أن يغتابوا أحداً ، فقال أبو عمرو : لأن تغتاب أنت ثلاثين سنة ، أنجى لك من أن تظهر في السماع ما لست متصفاً به .

قال الأستاذ أبو علي الدقَّاق : الناس في السماع ثلاثة : متسمع ، ومستمع ، وسامع ، فالمتسمع يسمع بوقت ، والمستمع يسمع بحال ، والسامع يسمع بحق .

وقال الأستاذ القشيري : سألت أبا علي غير مرة شبه طلب رخصةٍ في السماع ؟ فكان يحيلني على ما يوجب الإِمساك عنه ، ثم بعد طول المعاودة قال : إِن المشايخ قالوا : ما جمع قلبك إِلى الله تعالىٰ فلا بأس به .

عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : أوحى الله تعالىٰ إِلى موسى عليه السلام : إِني جعلت فيك عشرة آلاف سمع ، حتى سمعت كلامي ، وعشرة آلاف لسان حتى أجبتني ، وأحب ما تكون إِلي وأقربه ، إِذا أكثرت الصلاة على محمد ﷺ .

وقيل : رأى بعضهم النبي ﷺ في المنام فقال : الغلط في هذا أكثر . يعني به السماع .

قال الأولاسي : رأيت إِبليس لعنه الله في المنام على بعض سطوح أولاس ، وأنا على سطح ، وعلى يمينه جماعة ، وعلى يساره جماعة ، وعليهم ثياب لطاف ، فقال لطائفة منهم قولوا : فقالوا وغنّوا ، فاستفزعني

طيبه ، حتى هممت أن أطرح نفسي من السطح ، ثم قال : ارقصوا ، فرقصوا أطيب ما يكون ، ثم قال لي : يا أبا الحارث : ما أصبت شيئاً أدخل به عليكم إلا هذا .

قال عبد الله بن علي : اجتمعت ليلة مع الشبلي رحمه الله ، فقال القوَّال شيئاً ، فصاح الشبلي رحمه الله ، وتواجد قاعداً ، فقيل له : يا أبا بكر مالك من بين الجماعة قاعداً ؟ فقام ، وتواجد ، وقال :

لـي سكـرتـان وللنـدمـان واحـدة ... شيء خصصت به من بينهم وحدي

وقال الروذباري : جُزْتُ بقصرٍ ، فرأيت شاباً حسن الوجه ، مطروحاً وحوله ناس ، فسألت عنه ، فقالوا : إنه جاز بهذا القصر وفيه جارية تغني :

كبـرت همـة عبـد ... طمعت في أن تراكا
أومـا حسـب لعيـن ... أن ترى من قد رآكا

فشهق شهقة ومات .

* * * *

١٢ - باب إثبات كرامات الأولياء

الكرامة : ظهور أمر خارق على يد الولي ، غير مقارن لدعوى النبوة ، وهي عون له على طاعته ، ومقوية ليقينه ، وحاملة له على حسن استقامته ، ودالَّة على صدق دعواه الولاية ، إن ادعاها لحاجة ، وشهدت له بها الشريعة .

ثم ظهور الكرامات على الأولياء جائز بل واقع ، والدليل على جوازه أنه أمر موهوم حدوثه في العقل ، لا يؤدي حصوله إلى رفع أصل من الأصول ، فواجب وصفه سبحانه بالقدرة على إيجاده ، وإذا وجب كونه مقدوراً لله تعالىٰ ، فلا شيء يمنع جواز حصوله .

وظهور الكرامات علامة على صدق من ظهرت عليه في أحواله ، فمن لم يكن صادقاً فظهور مثلها عليه لا يجوز ، والذي يدل عليه : أن تعريف القديم سبحانه إيانا ، حتى نفرق بين من كان صادقاً في أحواله ، وبين من هو مبطل ، من طريق الاستدلال ، أمر موهوم حدوثه في العقل ، ولا يكون ذلك إلا باختصاص الولي ، بما لا يوجد مع المفتري في دعواه ، وذلك الأمر هي الكرامة التي أشرنا إليها ، ولابد أن تكون الكرامة فعلاً ناقضاً للعادة ، في أيام التكليف ، ظاهراً على موصوف بالولاية ، في معنى تصديقه في حاله .

وتكلَّم الناس في الفرق بين الكرامات وبين المعجزات ، من أهل الحق ، فكان الإمام أبو إسحاق الإسفرايني يقول : المعجزات دلالات صدق الأنبياء ، ودليل النبوة لا يوجد مع غير النبي ، كما أن العقل المحكم لما كان دليلاً للعالم في كونه عالماً ، لم يوجد مما لا يكون عالماً .

وكان يقول : الأولياء لهم كرامات ، شبه إجابة الدعاء ، فأما جنس ما هو معجزة للأنبياء فلا .

وأما الإمام أبو بكر بن فورك رحمه الله ، فكان يقول : المعجزات دلالات

الصدق ، ثم إن ادعى صاحبها النبوة ، فالمعجزة تدل على صدقه في مقالته ، وإن أشار صاحبها إلى الولاية ، دلت المعجزة على صدقه في حالته ، فتسمى كرامة ، ولا تسمى معجزة وإن كانت من جنس المعجزات للفرق . وكان رحمه الله يقول : من الفرق بين المعجزات والكرامات ، أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مأمورون بإظهارها ، والولي يجب عليه سترها وإخفاؤها ، والنبي يدّعي ذلك ، ويقطع القول به ، والولي لا يدعيها ، ولا يقطع بكرامته ، لجواز أن يكون ذلك مكراً .

وقال أوحد وقته في فنه القاضي أبو بكر الأشعري الباقلاني رحمه الله : إن المعجزات تختص بالأنبياء ، والكرامات تكون للأولياء ، كما تكون للأنبياء ، ولا تكون للأولياء معجزة ، لأن من شرط المعجزة اقتران دعوى النبوة بها ، والمعجزة لم تكن معجزة لعينها ، وإنما كانت معجزة لحصولها على أوصاف كثيرة ، فمتى اختل شرط من تلك الشرائط ، لا تكون معجزة ، وأحد تلك الشرائط دعوى النبوة ، والولي لا يدّعي النبوة ، فالذي يظهر عليه لا يكون معجزة ، وهذا القول الذي نعتمده ، ونقول به ، بل ندين الله به .

فشرائط المعجزات كلها أو أكثرها ، يوجد في الكرامات ، إلا هذا الشرط الواحد ، فالكرامة فعل من الله لا محالة ، لأن ما كان قديماً ، لم يكن له اختصاص بأحد ، وهو ناقض للعادة ، وتحصل في زمان التكليف ، وتظهر على عبد تخصيصاً له وتفضيلاً ، وقد تحصل باختياره ودعائه ، وقد لا تحصل له ، وقد تكون بغير اختياره في بعض الأوقات ، ولم يؤمر الوليّ بدعاء الخلق إلى نفسه ، ولو أظهر شيئاً من ذلك على من يكون أهلاً له لجاز .

واختلف أهل الحق في الولي هل يجوز أن يعلم أنه ولي ؟ أم لا ؟ فكان الإمام أبو بكر بن فورك رحمه الله يقول : لا يجوز ذلك ، لأنه يسلبه الخوف ويوجب له الأمن .

وكان الأستاذ أبو علي الدقّاق رحمه الله يقول بجوازه ، وهو الذي نأثره (ننقله) ونقول به ، وليس ذلك بواجب في جميع الأولياء ، حتى يكون كل

ولي يعلم أنه وليّ واجباً ، ولكن يجوز أن يعلم بعضهم ذلك ، كما يجوز ألا يعلمه بعضهم ، وإذا علم بعضهم أنه وليّ ، كانت معرفته تلك كرامة له ، انفرد بها ، وليس كل كرامة لولي ، يجب أن تكون بعينها لجميع الأولياء ، بل لو لم يكن للولي كرامة ظاهرة عليه في الدنيا ، لم يقدح عدمها في كونه ولياً ، بخلاف الأنبياء ، فإنه يجب أن تكون لهم معجزات ، لأن النبي ﷺ مبعوث إلى الخلق ، فبالناس حاجة إلى معرفة صدقه ، ولا يعلم إلا بالمعجزة ، وبعكس ذلك حال الولي ، لأنه ليس بواجب على الخلق ، ولا على الولي أيضاً ، العلم بأنه ولي ، والعشرة من الصحابة رضي الله عنهم ، صدّقوا الرسول ﷺ فيما أخبرهم أنهم من أهل الجنة ، وقول من قال : لا يجوز ذلك لأنه يخرجهم من الخوف ، فلا بأس ألا يخافوا تغيّر العاقبة ، والذي يجدونه في قلوبهم من الهيبة والتعظيم والإجلال لله سبحانه ، يزيد ويربو على كثير من الخوف .

واعلم أنه ليس للولي مساكنة إلى الكرامة التي تظهر عليه ، ولا له ملاحظة لها ، وربما يكون لهم في ظهور جنسها قوة يقين ، وزيادة بصيرة ، لتحققهم أن ذلك فعل الله تعالى ، فيستدلون بها على صحة ما هم عليه من العقائد . وبالجملة فالقول بجواز ظهورها على الأولياء واجب ، وعليه جمهور أهل المعرفة ، ولكثرة ما تواتر بأجناسها الأخبار ، والحكايات ، صار العلم بكونها وظهورها على الأولياء في الجملة علماً قوياً ، انتفى عنه الشكوك ، ومن توسط هذه الطائفة ، وتواترت عليه حكاياتهم ، وأخبارهم ولم يبق له شبهة في ذلك على الجملة .

ومن دلائل إظهار الكرامات نص القرآن في قصة صاحب سليمان عليه السلام حيث قال : ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ ﴾ [النمل : ٤٠] ولم يكن نبياً ، والأثر عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه صحيح ، أنه قال : يا سارية الجبل ، وكان بالشام أو بمصر يقاتل العدو ، وأراد العدو أن يكيده ، ويسبقه إلى الجبل ، حال خطبته يوم الجمعة ، وسمعه الناس ، وسارية ، فتحصنوا بالجبل . وتبليغ صوت عمر إلى سارية في ذلك الوقت ،

حتى تحرَّز من مكامن العدو من الجبل في تلك الساعة . فإن قيل كيف يجوز إظهار هذه الكرامات الزائدة في المعاني على معجزات الرسل ، وهل يجوز تفضيل الأولياء على الأنبياء عليهم السلام ، قيل : هذه الكرامات ، لاحقة بمعجزات نبنيا ﷺ ، لأن كل من ليس بصادق في الإسلام لا تظهر عليه الكرامة ، فكل نبي ظهرت كرامته على واحد من أمته فهي معدودة من جملة معجزاته ، إذ لو لم يكن ذلك الرسول صادقاً لم تظهر على يد من تابعه الكرامة ، فأما رتبة الأولياء فلا تبلغ رتبة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام للإجماع المنعقد على ذلك ، وهذا أبو يزيد البسطامي سئل عن هذه المسألة فقال : مثل ما حصل للأنبياء عليهم السلام ، كمثل زق فيه عسل ترشح منه قطرة ، فتلك القطرة مثل ما لجميع الأولياء ، وما في الظرف مثل ما لنبينا ﷺ .

فصل :

ثم هذه الكرامات قد تكون إجابة دعوة ، وقد تكون إظهار طعام في أوان فاقة ، من غير سبب ظاهر ، أو حصول ماء في زمان عطش ، أو تسهيل قطع مسافة في مدة قريبة ، أو تخليص من عدو ، أو سماع خطاب من هاتف ، أو غير ذلك من فنون الأفعال الناقضة للعادة .

واعلم أن كثيراً من المقدورات يعلم اليوم قطعاً أنه لا يجوز أن يظهر كرامة للأولياء ، وبضرورة أو شبه ضرورة يعلم ذلك ، فمنها حصول إنسان لا من أبوين ، وقلب جماد بهيمة أو حيواناً ، وأمثال هذا كثيرة .

فصل :

فإن قيل : ما معنى الولي ؟ قيل : يحتمل أمرين : أن يكون فعيلاً مبالغة من الفاعل ، كالعليم والقدير وغيره ، فيكون معناه : من توالت طاعاته من غير تخلُّل معصية ، ويجوز أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول كقتيل بمعنى مقتول ، وهو الذي يتولَّى الحق سبحانه حفظه وحراسته ، على الإدامة والتوالي ، فلا يخلق له الخذلان الذي هو قدرة العصيان ويديم توفيقه الذي هو قدرة الطاعة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٦] .

فصل :

فإن قيل : هل يكون الولي معصوماً ، قيل : إما وجوباً ، كما يقال في حق الأنبياء فلا ، وإما أن يكون محفوظاً حتى لا يُصرَّ على الذنوب ، إن حصلت هنّات ، أو آفات ، أو زلات ، فلا يمتنع ذلك في وصفهم ، ولقد قيل للجنيد رحمه الله : العارف يزني يا أبا القاسم ؟ فأطرق ملياً (طويلاً) ثم رفع رأسه وقال : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب : ٣٨] .

فصل :

فإن قيل : فهل يسقط الخوف عن الأولياء ؟ قيل : أما الغالب على الأكابر فكان الخوف ، وذلك الذي قلنا فيما تقدّم على جهة القدرة غير ممتنع ، وهذا السري السقطي يقول : لو أن أحداً دخل بستاناً فيه أشجار كثيرة وعلى كل شجرة طير يقول له : بلسان فصيح : السلام عليك يا ولي الله ، فلم يخف أنه مكر ، لكان ممكوراً به ، لأنه تعالىٰ قال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر : ٢٨] وأمثال هذا من حكاياتهم كثيرة .

فصل :

فإن قيل : فهل تجوز رؤية الله تعالىٰ بالأبصار اليوم ؟ أي : في الدنيا على جهة الكرامة ؟ فالجواب عنه : إنّ الأقوى فيه أنه لا يجوز ، لحصول الإجماع عليه ، ولقد قال الإمام أبو بكر بن فورك رحمه الله يحكي عن أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه ؛ أنه قال في ذلك قولين في كتاب الرؤية الكبير :

أحدهما : الجواز ، وقد رآه النبي ﷺ في الدنيا ليلة المعراج لقوّته ، والمؤمنون في الآخرة يخلق الله لهم قوة الإدراك الذي يدرك به ما ليس في جهة .

والثاني : عدم الجواز ، للإجماع الذي ذكره المؤلف والحقُّ الأول . والإجماع على عدم وقوع الرؤية لا عدم جوازها ، مع أنه محمول على غير نبينا

ﷺ ، والمعتمد أنها واقعة للنبي ﷺ في الدنيا والآخرة ، ولغيره من المؤمنين جائزة عقلاً وشرعاً في الدنيا لا واقعة ، وواقعة في الآخرة .

فصل :

فإن قيل : هل يجوز أن يكون الولي ولياً في الحال ثم تتغير عاقبته ؟ قيل : من جعل من شرط الولاية حسن الموافاة لا يجوز ذلك ، ومن قال إنه في الحال مؤمن على الحقيقة ، وإن جاز أن تتغير حاله ، لا يبعد أن يكون ولياً في الحال صدّيقاً ، ثم يتغير ، وهذا الذي نختاره ، ويجوز أن يكون من جملة كرامات الولي أن يعلم أنه مأمون العاقبة ، وأنه لا تتغير عاقبته ، فتلتحق هذه المسألة بما ذكرنا أن الولي يجوز أن يعلم أنه ولي .

فصل :

فإن قيل : فهل يزايل الولي خوف المكر ؟ قيل : إذا كان مصطلماً (مستغرقاً) عن شاهده ، مختطفاً عن إحساسه بحاله ، فهو مستهلك عنه فيما استولي عليه ، والخوف من صفات الحاضرين منهم .

فصل :

فإن قيل : فما الغالب على الولي في أوان صحوه ؟ قيل : صدقه في أداء حقوقه سبحانه وتعالى ، ثم رِفْقُه وشفقته على الخلق في جميع أحواله ، ثم انبساط رحمته لكافة الخلق ، ثم دوام تحمله عنهم ، بجميل الخلق وابتدائه لطلب الإحسان من الله تعالىٰ إليهم ، من غير التماس منهم ، وتعليق الهمة بنجاة الخلق وترك الانتقام منهم ، والتوقي عن استشعار حقد عليهم ، مع قصر اليد عن أموالهم ، وترك الطمع بكل وجهٍ فيهم ، وقبض اللسان عن بسطه بالسوء فيهم ، والتصاون عن شهود مساويهم ، ولا يكون خصماً لأحد في الدنيا ولا في الآخرة .

واعلم أن من أجلِّ الكرامات التي تكون للأولياء ، دوام التوفيق

للطاعات ، والعصمة عن المعاصي والمخالفات ، ومما شهد من القرآن على إظهار الكرامات على الأولياء ، قوله تعالىٰ في صفة مريم عليها السلام ، ولم تكن نبياً ولا رسولاً ، أن زكريا عليه السلام كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً ، وكان يقول : أنى لك هذا ؟ فتقول مريم : ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٣٧] ، وقوله سبحانه لمريم : ﴿ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [مريم : ٢٥] وكان في غير أوان الرطب ، وكذلك قصة أصحاب الكهف والأعاجيب التي ظهرت عليهم ، من كلام الكلب معهم ، وغير ذلك ، فقد جاء في قصتهم أنهم مروا بكلب ، فنبح عليهم فطردوه ، فقال لهم : لا تطردوني ، أنا أحب أحباء الله ، فناموا حتى أحرسكم ، وأنهم ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾ [الكهف : ٢٥] نياماً . . . إلخ .

ومن ذلك : قصة ذي القرنين وتمكينه سبحانه له ما لم يمكن لغيره .

ومن ذلك : ما أظهر على يدي الخضر ، من إقامة الجدار ، وغيره ، من الأعاجيب ، كخرقه السفينة ، وقتله الغلام مما كان يعرفه مما خفي على موسى عليه السلام .

كل ذلك أمور ناقضة للعادة ، اختص بها الخضر عليه السلام ، ولم يكن نبياً ، وإنما كان ولياً ، والراجح أنه نبي .

ومما روي من الأخبار في هذا الباب حديث جريج الراهب ، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : عيسى بن مريم ، وصبي في زمان جريج ، وصبي آخر ، فأما عيسى فقد عرفتموه ، وأما جريج فكان رجلاً عابداً في بني إسرائيل ، وكانت له أم ، فكان يوماً يصلي ، إذ اشتاقت إليه أمه ، فقالت : يا جريج ! فقال : يا رب الصلاة خير أم آتيها ؟ ثم صلى ، فدعته ، فقال : مثل ذلك ، ثم صلى ودعته ، فقال مثل ذلك ، ثم صلى فاشتد على أمه فقالت : اللهم لا تمته حتى تريه وجه المومسات ، وكانت زانية في بني إسرائيل ، فقالت لهم : أنا أفتن جريجاً ، حتى يزني ، فأتته فلم تقدر على شيء ، وكان راع يأوي بالليل إلى أصل

صومعته ، فلما أعياها ، راودت الراعي على نفسها ، فأتاها ، فولدت ، ثم إنها قالت : ولدي هذا من جريجَ فأتاه بنو إسرائيل ، وكسروا صومعته ، وشتموه ، ثم صلى ودعا ، ثم نخس الغلام ، قال محمد بن سيرين : قال أبو هريرة : كأني أنظر إلى النبي ﷺ حين قال بيده : يا غلام من أبوك ؟ فقال : الراعي ! فندموا على ما كان منهم واعتذروا إليه ، وقالوا : نبني صومعتك من ذهب أو قال من فضة فأبى عليهم وبناها كما كانت ، وأما الصبي الآخر ، فإن امرأة كان معها صبي لها ترضعه ، إذ مر بها شاب جميل الوجه ذو شارة ، فقالت : اللهم اجعل ابني مثل هذا ! فقال الصبي : اللهم لا تجعلني مثله ، قال محمد قال أبو هريرة : كأني أنظر إلى النبي ﷺ حين كان يحكي الغلام ، وهو يرضع ، ثم مرت بها أيضاً امرأة ، فذكروا أنها سرقت ، وزنت ، وعوقبت ، فقالت : اللهم لا تجعل ابني مثل هذه ! فقال : اللهم اجعلني مثلها ! فقالت له أمه في ذلك : فقال : إن الشاب جبار من الجبابرة ، وإن هذه قيل : إنها زنت ولم تزن . وقيل سرقت ولم تسرق ، وهي تقول : حسبي الله . وهذا الخبر روي في الصحيح[1] .

وزيد على الثلاثة سبعة :

أحدهم : شاهد يوسف عليه السلام ، حيث قال : انظروا إن كان قميصه قدّ من قبل . . الآية . رواه الطبراني .

الثاني : ابن ماشطة فرعون ، حيث قال لأمه لما اطلع فرعون على إيمانها ، وأراد إلقاءها في النار : اصبري فإنا على الحق ، رواه الطبراني .

وروي أن المتكلم : بنت الماشطة ، وأنه كان لها ابنتان ، فذبح الكبرى على صدرها ، وقال لها : إن لم تكفري بالله ذبحت الصغرى وكانت رضيعة ، فأبت ، فأتى بها ، فلما أضجعت على صدرها وأرادوا ذبحها ، جزعت الأم ، فقالت ابنتها : يا أماه لا تجزعي ، فقد بنى الله لك بيتاً في الجنة ، فاصبري ،

---

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٣٦) ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٠) .

فذبحت ، فلم تلبث الأم أن ماتت ، فأسكنها الله الجنة .

الثالث : صاحب الأخدود ، فقد كان ملك من ملوك حمير بنجران قبل مولد النبي ﷺ خدَّ أخدوداً ، وملأه ناساً ، ثم عرض مَن أَسْلَمَ رجلاً رجلاً ، فمن رجع عن الإسلام تركه ، ومن أبى ألقاه في النار فأحرقه ، وكانت امرأة ولها ثلاثة أولاد ، أحدهم رضيع ، فقال لها الملك : ارجعي عن دينك فأبت ، فألقى أحدهم في النار ، ثم قال لها : مثل ذلك : فأبت ، فألقى الآخر فيها ، ثم قال لها مثل ذلك فأبت فأخذوا الصبي منها ليلقوه فيها فهمَّت بالرجوع ، فقال لها الصبي : يا أماه لا ترجعي عن الإسلام فإنك على الحق ، ولا بأس عليك ، فألقي الصبي في النار ، ثم ألقيت أمه فيها على أثره . رواه مسلم .

الرابع : يحيى عليه السلام . رواه الثعالبي .

الخامس : إبراهيم الخليل عليه السلام . ذكره البغوي .

السادس : نبينا ﷺ في أوائل ما ولد . رواه الدارقطني .

السابع : مبارك اليمامة ، وكان في زمن النبي ﷺ . رواه البيهقي .

وقوله ﷺ لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة ، كان قبل أن يعلم الزيادة على الثلاثة .

ومن ذلك حديث الغار رواه ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم ، فآواهم المبيت إلى غار ، فدخلوه ، فانحدرت صخرة من الجبل . فسدت عليهم الغار ، فقالوا : إنه والله لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعو الله بصالح أعمالكم ، فقال رجل منهم ، اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران ، وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً ، فنأى بي طلب الشجر يوماً ، فلم أرح عليهما حتى ناما . فحلبت لهما غبوقهما ، فجئتهما به فوجدتهما نائمين ، فتحرجت أن أوقظهما ، وكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً ، فقمت والقدح على يديّ أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر ، فاستيقظا فشربا غبوقهما ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا

ما نحن فيه ، فانفرجت انفراجاً لا يستطيعون الخروج منه ، فقال رسول الله ﷺ : وقال الآخر : اللهم كانت لي بنت عم وكانت أحبّ الناس إليّ ، فراودتها عن نفسها فامتنعت ، حتى ألمّتْ بها سنة من السنين ، فجاءتني ، فأعطيتها عشرين ومئة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ، ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها ، قالت : لا يحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه ! فتحرجت من الوقوع عليها ، فانصرفت عنها ، وهي أحب الناس إليّ ، وتركت الذهب الذي أعطيتها ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة إلا أنهم لا يستطيعون الخروج منها ، قال رسول الله ﷺ : ثم قال الثالث : اللهم إني استأجرت أجراء فأعطيتهم أجورهم غير رجل واحد منهم ، ترك الذي له وذهب ، فثمّرت أجره ، فجاءني بعد حين ، فقال : يا عبد الله أدّ إليّ أجرتي ، فقلت له : كل ما ترى من أجرتك . من الإبل والبقر والغنم والرقيق ، فقال : يا عبد الله لا تستهزىء بي . فقلت : إني لا أستهزىء ، فأخذ ذلك كله ، فاستاقه ولم يترك منه شيئاً . اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة . فخرجوا من الغار يمشون »[1] .

والثاني أقواهم ، ترك شهوته مع تيسرها وكمال محبته ، وبذله لها المال .

ومن ذلك الحديث الذي قال النبي ﷺ فيه : إن البقرة كلمتهم . فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « بينا رجل يسوق بقرة ، قد حمل عليها ، التفتت البقرة وقالت : إني لم أُخلق لهذا ، إنما خُلقت للحرث ، فقال الناس : سبحان الله ، فقال النبي ﷺ : آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر »[2] .

ومن ذلك حديث أويس القرني وما شهد له به عمر بن الخطاب من حاله وقصته ، ثم التقاؤه مع هرم بن حيان ، (أويس) وتسليم أحدهما على صاحبه

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢١٠٢) ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٤٣) .

(٢) أخرجه البخاري في المزارعة (٢١٩٩) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨٨) .

من غير معرفة تقدمت بينهما .

وكل ذلك أحوال ناقضة للعادة ، وقد تركنا شرح حديث أويس لشهرته ، وحاصله أن عمر رضي الله عنه اجتمع به في عرفات ، وعرفه بصفة النبي ﷺ التي وصفها له ، وسأله أن يثبت له حتى يرجع ، فقال له : لا تراني ولا أراك بعد اليوم ، وكان يرعى الإبل في صورة العبيد ، فبقي عمر ينادي عليه في كل موسم فلا يجد من يدُلّه عليه لخفاء أمره ، وقلة شهرته ، حتى دل عليه رجل قرني من أهله ، ثم قال له : وما تسأل عن ذلك يا أمير المؤمنين ؟ والله ما فينا أحمق منه ، ولا أجنّ ولا أدنى ، فبكى عمر وقال : ما سألت عنه ، إلا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول : يدخل في شفاعته الجنة مثل ربيعة ومضر . وقال هرم بن حيان : فلما سمعت ذلك من عمر ، قدمت الكوفة ، فلم يكن لي هم إلا أن أطلب وأسأل عنه ، حتى سقطت عليه جالساً على شاطىء الفرات نصف النهار يتوضأ ، ويغسل ثوبه ، فعرفته بالنعت الذي نعت به ، فإذا رجل لحيم ، شديد السمرة ، محلوق الرأس ، كث اللحية ، متغير جداً ، كريه الوجه ، مهيب المنظر ، فسلمت عليه ، فردّ عليّ ، فقلت : حياك الله من رجل ، فمددت يدي لأصافحه ، فأبى أن يصافحني ، فقلت : رحمك الله يا أويس ، وغفر لك ، كيف أنت ؟ قال : وأنت حياك الله يا هرم بن حيان ، كيف أنت يا أخي ؟ ومن دلّك عليّ ، قلت الله ، قال : لا إله إلا الله ، سبحان الله ! إن كان وعد ربنا لمفعولًا ، قال : فعجبت حين عرفني ، ولا رأيته قبل ذلك ، ولا رآني ، فقلت له : من أين عرفت اسمي واسم أبي ، وما رأيتك قبل اليوم ؟ قال : نبأني به العليم الخبير ، وعرفت روحي روحك ، حين كلمت نفسي نفسك ، إن الأرواح لها أنفس كأنفس الأجساد ، وإن المؤمنين ليعرف بعضهم بعضاً ، ويتحابّون بروح الله وإن لم يلتقوا .

ومن كراماته : ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : مات أويس بسجستان ، فوجد معه أكفان ، وروي فإذا قبر محفور ، وماء مسكوب ، وكفن ، وحنوط ، فغسلناه وكفناه ، وصلّينا عليه ودفناه ، فقال

بعضنا لبعض : لو رجعنا فعلّمنا قبره بشيء لنستغفر له فرجعنا ، فإذا لا قبر ولا أثر ، عملاً مما كان يحبه في حياته من إخفاء عمله .

ولقد ظهر على السلف من الصحابة والتابعين ثم على من بعدهم من الكرامات ، ما بلغ حد الاستفاضة .

فمنها : أن ابن عمر رضي الله عنهما ، كان في بعض الأسفار ، فلقي جماعة وقفوا على الطريق من خوف السبع ، فطرد السبعَ من طريقهم ، ثم قال : إنما يُسلَّط على ابن آدم ما يخافه ، ولو أنه لم يخف غير الله لما سلط عليه شيء .

وفي دعاء إبراهيم بن أدهم إذا أصبح وإذا أمسى الإنسان : اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام ، واحفظنا بركنك الذي لا يرام ، وارحمنا بقدرتك علينا ، فلا نهلك وأنت الرجاء . علّمه جماعة خافوا من السبع فنحّاه عنهم .

وروي أن الرسول ﷺ بعث العلاء بن الحضرمي في غزاة ، فحال بينهم وبين الموضع قطعة من البحر ، فدعا الله باسمه الأعظم ومشوا على الماء .

روي أن ما دعا به العلاء : يا علي يا عظيم ، يا عليم يا حكيم ، إنا عبيدك ، نقاتل في سبيلك ، فاجعل لنا إليهم سبيلاً ، ثم ضرب فرسه فخاض البحر .

وروي أن عتّاب بن بشير وأسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله ﷺ فأضاء لهما رأس عصا أحدهما كالسراج .

وروي أنه كان بين يدي سلمان وأبي الدرداء قصعة ، فسبّحت حتى سمعا التسبيح .

وروي أن النبي ﷺ قال : « كم من أشعث أغبر ذي طمرين ، لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره »(١) ، ولم يفرق ﷺ بين شيء وشيء ، فيما يقسم به على الله ، وهذه الأخبار لشهرتها أضربنا عن ذكر أسانيدها .

---

(١) أخرجه الترمذي عن أنس رضي الله عنه .

وحكي عن سهل بن عبد الله أنه قال : من زهد في الدنيا أربعين يوماً صادقاً من قلبه مخلصاً في ذلك ظهرت له الكرامات ، ومن لم تظهر له فإنه عدم الصدق في زهده . فقيل لسهل : كيف تظهر له الكرامة ؟ فقال : يأخذ ما يشاء كما يشاء من حيث يشاء .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « بينا رجل ذكر كلمة إذ سمع رعداً في سحاب ، فسمع صوتاً في السحابة : أن اسق حديقة فلان ، فجاء ذلك السحاب إلى شرجة فأفرغ ماءه فيها فاتبع السامع السحاب فإذا رجل قائم في حديقة فقال : ما اسمك ؟ قال : فلان بن فلان باسمه ، قال : فما تصنع بحديقتك هذه ؟ إذا صرمتها ؟ قال : وَلِمَ تسأل عن ذلك ؟ قال : إني سمعت صوتاً في السحاب : أن اسق حديقة فلان ، قال فلان أما إذ قلت : فإني أجعلها أثلاثاً ، فأجعل لنفسي وأهلي ثلثاً وأرد عليها ثلثاً وأجعل للمساكين وابن السبيل ثلثاً »[١] .

قال أبو نصر السرَّاج : دخلنا تستر ، فرأينا في قصر سهل بن عبد الله بيتاً كان الناس يسمونه بيت السبع ، فسألنا الناس عن ذلك ، فقالوا : كانت السباع تجيء إلى سهل ، فكان يدخلهم في هذا البيت ، ويضيفهم ، ويطعمهم اللحم ، ثم يخليهم ، قاله أبو نصر : ورأيت أهل تستر كلهم متفقين على هذا لا ينكرونه وهم الجمع الكثير .

وقال حمزة العلوي : دخلت على أبي الخير التيناتي ، وكنت اعتقدت في نفسي أن أسلم عليه ، وأخرج ولا آكل عنده طعاماً ، فلما خرجت من عنده ومشيت قدراً ، فإذا به خلفي ، وقد حمل طبقاً عليه طعام ، فقال : يا فتى كل هذا فقد خرجت الساعة من اعتقادك . وأبو الخير التيناتي مشهور بالكرامات ، وحكي عن إبراهيم الرقي أنه قال : قصدته مسلِّماً عليه ، فصلَّى صلاة المغرب ، فلم يقرأ الفاتحة مستوياً ، فقلت في نفسي : ضاعت سفرتي ، فلما

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٧٣٩٨) .

سلمت خرجت للطهارة ، فقصدني السبع ، فعدت إليه وقلت : إن الأسد قصدني ، فخرج وصاح على الأسد ، وقال : ألم أقل لك لا تتعرض لضيفاني ، فتنحَّى فتطهَّرت ، فلما رجعت ، قال : اشتغلتم بتقويم الظواهر فخفتم الأسد ، واشتغلنا بتقويم القلب فهابنا الأسد .

وقيل : كان لجعفر الخلدي فصّ ، فوقع يوماً في الدجلة ، وكان عنده دعاء مجرب للضالة ترد ، فدعا به فوجد الفص في أوراق كان يتصفحها .

والدعاء : يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، اجمع عليّ ضالتي .

وقال أبو نصر السرَّاج : سألت أحمد الطابراني السرخسي فقلت : هل ظهر لك شيء من الكرامات ؟ فقال في وقت إرادتي وابتداء أمري ، ربما كنت أطلب حجراً أستنجي به فلم أجده فتناولت شيئاً من الهواء ، فكان جوهراً فاستنجيت به وطرحته ، ثم قال : وأي خطر للكرامات ؟ إنما المقصود منه زيادة اليقين في التوحيد ، فمن لا يشهد غيره موجوداً في الكون ، فسواء أبصر فعلاً معتاداً أو ناقضاً للعادة .

كان بعبّادان رجل أسود فقير ، يأوي إلى الخرابات ، فحملت معي شيئاً وطلبته ، فلما وقع عينه عليّ تبسم ، وأشار بيده إلى الأرض ، فرأيت الأرض كلها ذهباً يلمع ، قال : هات ما معك فناولته ، وهالني أمره فهربت .

وقال أحمد بن عطاء الروذباري : كان لي استقصاء في أمر الطهارة ، فضاق صدري ليلة لكثرة ما صببت من الماء ، ولم يسكن قلبي ، فقلت : يا رب عفوك ! فسمعت هاتفاً يقول : العفو في العلم . فزال عني ذلك ، وقعد على الأرض في الصحراء ، وكان عليها آثار الغنم بلا سجّادة ، فقلت : أيها الشيخ هذه آثار الغنم ـ القائل منصور المغربي ـ فقال : اختلف الفقهاء فيه .

ركب أبو سليمان الخوَّاص الحمارَ يوماً ، وكان الذباب يؤذيه ، فيطأطىء رأسه ، فكان يضرب رأسه بخشبة في يده ، فرفع الحمار رأسه وقال : اضرب فإنك على رأسك هو ذا تضرب .

وقال أبو الحسين النوري : كان في نفسي شيء من هذه الكرامات ،

فأخذت قصبة من الصبيان ، وقمت بين زورقين ، ثم قلت : وعزتك لئن لم تخرج لي سمكة فيها ثلاثة أرطال من اللحم لأغرقن نفسي ، قال : فأخرج لي سمكة فيها ثلاثة أرطال من اللحم ، فبلغ ذلك الجنيد ، فقال : حكمه أن تخرج له أفعى فتلدغه .

قال أبو جعفر الحداد أستاذ الجنيد : كنت بمكة فطال شعري ، ولم يكن معي قطعة آخذ بها شعري ، فتقدمت إلى مزيّن توسمت فيه الخير ، فقلت : تأخذ شعري لله تعالىٰ ، فقال : نعم وكرامة ، وكان بين يديه رجل من أبناء الدنيا ، فصرفه ، وأجلسني ، وحلق شعري ، ثم دفع إليّ قرطاساً فيه دراهم ، وقال لي : استعن بها على بعض حوائجك . فأخذتها ، واعتقدت أن أدفع إليه أول شيء يفتح علي به ، قال : فدخلت المسجد فاستقبلني بعض أصحابي وقال : جاء بعض إخوانك بِصُرّة من البصرة ، من بعض إخوانك فيها ثلاثمئة دينار ، تصرفها في بعض أمورك ، فأخذت الصرة ، وجئت بها إلى المزيّن ، وقلت : هذه ثلاثمئة دينار تصرفها في بعض أمورك ، فقال : ألا تستحي يا شيخ ، تقول : احلق شعري لله تعالىٰ ، ثم آخذ عليه شيئاً ، انصرف عافاك الله .

لما مات إسحاق بن أحمد ، دخل عليه سهل بن عبد الله صومعته ، فوجد فيها سفطاً فيه قارورتان ، في واحدة منهما شيء أحمر ، وفي الأخرى شيء أبيض ، ووجد شوشقة (قطعة) ذهب وشوشقة فضة ، قال : فرمى بالشوشقتين في دجلة ، وخلط ما في القارورتين بالتراب ، وكان علىٰ إسحاق دين ، قيل لسهل : إيش كان في القارورتين ؟ قال : شيئان أحدهما وهو الأحمر لو طرح منه وزن درهم على مثاقيل من النحاس صارت ذهباً ، والآخر لو طرح منه مثقال على مثاقيل من رصاص صارت فضة ، فقلت له : وإيش عليه لو أظهر هذا ثم قضى منه دينه ؟ فقال لي : أي دوست (يا صاحبي) خاف على إيمانه .

فيه : تنبيه على أن إسحاق لم يعمل بهما شيئاً ، فخاف إن جرب ذلك

سكنت نفسه إليه ، دون ربه ، فينتقص إيمانه ودرجته .

حكي عن النوري أنه خرج ليلة إلى شط الدجلة ، فوجدها وقد التزق الشطان ، فانصرف وقال : وعزتك لا أجوزها إلا في زورق .

قال محمد بن يوسف البنّاء : كان أبو تراب النخشبي صاحب كرامات ، فسافرت معه سنة ، وكان معه أربعون نفساً ، ثم أصابتنا مرة فاقة ، فعدل أبو تراب عن الطريق ، وجاء بعزق موز فتناولنا وفينا شاب ، فلم يأكل ، فقال له أبو تراب : كل ، فقال : الحال الذي اعتقدته ترك المعلومات ، فصرت أنت معلومي فلا أصحبك بعد هذا . فقال له أبو تراب : كن مع ما وقع لك . وحكى أبو نصر السراج عن أبي يزيد قال : دخل علي أبو علي السندي ، وكان أستاذه ، وبيده جراب ، فصبّه فإذا هي جواهر ، فقلت من أين لك هذا ؟ فقال : وافيت وادياً هاهنا ، فإذا هو يضيء كالسراج ، فحملت هذا فقلت : كيف كان وقتك الذي وردت فيه الوادي فقال : وقت فترة عن الحال التي كنت فيها .

وقيل لأبي يزيد : فلان يمشي في ليلة إلى مكة ، فقال : الشيطان يمشي في ساعة من المشرق إلى المغرب في لعنة الله . وقيل له : فلان يمشي على الماء فقال : الطير يطير في الهواء ، والسمك يمر على وجه الماء .

وقال سهل بن عبد الله : أكبر الكرامات أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاقك .

كان رجل يقال له عبد الرحمن بن أحمد ، يصحب سهل بن عبد الله ، فقال له يوماً : ربما أتوضأ للصلاة ، فيسيل الماء بين يديّ قضبان ذهب وفضة ، فقال سهل : أما علمت أن الصبيان إذا بكوا يعطون خشخاشة ليشتغلوا بها .

قال الجنيد : دخلت على السريِّ يوماً فقال : عصفور كان يجيء كل يوم ، وأفتّ له الخبز فيأكل من يدي ، فنزل وقتاً من الأوقات ، فلم يسقط على يدي ، فتذكرت في نفسي : إيش السبب ، فذكرت أني أكلت ملحاً بإبزار

(أبازير) فقلت في نفسي : لا آكل بعدها وأنا تائب منه ، فسقط على يدي وأكل .

وقال أبو عمرو الأنماطي : كنت مع أستاذي في البادية فأخذنا المطر فدخلنا مسجداً ، نستكنّ فيه ، وكان السقف يَكفُ ، فصعدنا السطح ومعنا خشبة ، نريد إصلاح السقف ، فقصر الخشب عن الجدار ، فقال لي أستاذي : مدّها ، فمددتها ، فركبت الحائط من هاهنا وهاهنا .

وقال الدقَّاق : كنت ماراً في تيه بني إسرائيل ، فخطر ببالي : أن علم الحقيقة مباين لعلم الشريعة ، فهتف بي هاتف من تحت الشجرة ، كل حقيقة لا تتبعها شريعة فهي كفر .

جاء رجلٌ خيرَ النسَّاج فقال : أيها الشيخ رأيتك يوم أمس وقد بعت الغزل بدرهمين ، فجئت خلفك فحللتهما من طرف إزارك وقد صارت يدي منقبضة على الدرهمين في كفي ، قال : فضحك خير وأومأ بيده إلى يدي ففتحها ، ثم قال : امض واشتر بهما لعيالك شيئاً ، ولا تعد لمثله .

وقال أحمد السلمي : دخلت على ذي النون المصري يوماً ، فرأيت بين يديه طشتاً من ذهب ، وحوله النَّدُ والعنبر يسجر ، فقال لي : أنت ممن يدخل على الملوك في حال بسطهم ، ثم أعطاني درهماً فأنفقت منه إلى بلخ .

حكي عن أبي سعيد الخرَّاز قال : كنت في بعض أسفاري ، وكان يظهر لي كل ثلاثة أيام شيء ، فكنت آكله وأستقل ، أي : أكتفي به . فمضى عليّ ثلاثة أيام وقتاً من الأوقات لم يظهر شيء فضعفت ، وجلست ، فهتف بي هاتف ، قال لي : أيما أحب إليك سبب أو قوة ؟ فقلت : القوة . فقمت من وقتي ، ومشيت اثني عشر يوماً ، لم أذق فيها شيئاً ولم أضعف .

وقال الخوَّاص : تهت في البادية أياماً ، فجاءني شخص وسلّم عليّ ، وقال لي : تهتَ ؟ فقلت : نعم ، فقال : ألا أدلك على الطريق ، ومشى بين يديّ خطوات ، ثم غاب عن عيني ، وإذا أنا على الجادّة ، فبعد ذلك ما تهت، ولا أصابني في سفري جوع ولا عطش .

وقال ابن الجلاّء : لما مات أبي ضحك على المغتسل ، فلم يجسر أحد من أترابه غسله .

وكان سهل يصبر عن الطعام سبعين يوماً ، وكان إذا أكل ضعف ، وإذا جاع قوي .

وقال أبو الحارث الأولاسي : مكثت ثلاثين سنة ما يسمع لساني إلا من سرّي ، أي : لا ينطق لساني إلا من سرِّي ، ثم تغيرت الحال ، فمكثت ثلاثين سنة لا يسمع سري إلا من ربي ، وكان سهل بن عبد الله أصابته زمانة في آخر عمره ، فكان إذا حضر وقت الصلاة انتشرت يداه ورجلاه ، فإذا فرغ من الفرض عاد إلى حال الزمانة .

وحكي عن أبي عمران الواسطي ، قال : انكسرت السفينة ، وبقيت أنا وامرأتي على لوح ، وقد ولدت في تلك الحالة صبية ، فصاحت بي : وقالت لي : يقتلني العطش ! فقلت : هو ذا يرى حالنا ! فرفعت رأسي ، فإذا رجل في الهواء جالس ، وفي يده سلسلة من ذهب ، وفيها كوز من ياقوت أحمر ، وقال : هاك ، اشربا ! قال : فأخذت الكوز وشربنا منه ، وإذا هو أطيب من المسك ، وأبرد من الثلج ، وأحلى من العسل ، فقلت : من أنت رحمك الله ؟ فقال : عبد لمولاك ، فقلت : بم وصلت إلى هذا ، فقال : تركت هواي لمرضاته ، فأجلسني في الهواء ، ثم غاب عني ولم أره .

وقال ذو النون المصري : رأيت شاباً عند الكعبة يكثر الركوع والسجود ، فدنوت منه وقلت : إنك تكثر الصلاة ، فقال : أنتظر الإذن من ربي في الانصراف . من أنه إذا دخل في عبادة لازمها ، إلى أن يحضره واجب ، أو يأتيه إذن من ربه بالانصراف ، قال ذو النون : فرأيت رقعة سقطت عليه ، مكتوب فيها : من العزيز الغفور إلى عبدي الصادق ، انصرف مغفوراً لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر .

وقال بعضهم : كنت بمدينة الرسول ﷺ في مسجده مع جماعة نتحاكى كرامات الأولياء ، ورجل ضرير بالقرب منا يسمع ، فتقدم إلينا ، وقال : أنست

بكلامكم ، اعلموا أنه كان لي صبية وعيال ، وكنت أخرج إلى البقيع أحتطب ، فخرجت يوماً ، فرأيت شاباً عليه قميص كتان ، ونعله في أصبعه ، فتوهمت أنه تائه ، فقصدته أسلب ثوبه ، فقلت له : انزع ما عليك ، فقال : سر في حفظ الله ، فقلت الثانية والثالثة ، فقال : لابد ، فقلت له : لا بد ، فأشار من بعيد بإصبعيه إلى عيني ، فسقطتا ، فقلت : بالله عليك من أنت ؟ فقال : إبراهيم الخوَّاص .

وقال ذو النون المصري : كنت وقتاً في السفينة ، فسرقت قطيفة ، فاتهموا بها رجلاً ، فقلت : دعوه حتى أرفق به ، وإذا الشاب نائم في عباءة ، فأخرج رأسه من العباءة ، فقال له ذو النون في ذلك المعنى ، فقال : إليّ تقول ذلك ؟ أقسمت عليك يا رب ألا تدع واحداً من الحيتان إلا جاء بجوهرة ، قال : فرأينا وجه الماء حيتاناً في أفواهها الجواهر ، ثم ألقى بنفسه في البحر ، ومر إلى الساحل ، وغاب عنا .

وحكي عن إبراهيم الخوَّاص قال : دخلت البادية مرة ، فرأيت نصرانياً على وسطه زنار ، فسألني الصحبة ، فأجبته ، فمشينا سبعة أيام ، فقال : يا راهب الحنيفية : هات ما عندك من الانبساط ، فقد جعنا ، فقلت : إلهي لا تفضحني مع هذا الكافر ، فرأيت طبقاً عليه خبز وشواء ورطب وكوز ماء ، فأكلنا ، وشربنا ، ومشينا سبعة أيام ، ثم بادرت ، وقلت : يا راهب النصارى هات ما عندك ؟ فقد انتهت النوبة إليك فاتكأ على عصاه ودعا ، وإذا بطبقين عليهما كأضعاف ما كان على طبقي ، قال : فتحيرت ، وتغيرت ، وأبيت أن آكل ، فألح علي فلم أجبه ، فقال : كل ، فإني أبشرك ببشارتين : إحداهما أني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وحل الزنار من وسطه . والأخرى أني قد قلت : اللهم إن كان لهذا العبد خطر عندك ، فافتح عليّ بهذا ، ففتح . فقال : فأكلنا ، ومشينا ، وحججنا ، وأقمنا بمكة سنة ، ثم إنه مات ودفن بالبطحاء .

وقال محمد بن المبارك : كنت مع إبراهيم بن أدهم في طريق بيت

المقدس ، فنزلنا وقت القيلولة تحت شجرة رمان . فصلَّيت ركعات ، فسمعت صوتاً من أصل الرمان ، يا أبا إسحاق : أكرمنا بأن تأكل منا شيئاً ، فطأطأ إبراهيم رأسه فقال : ثلاث مرات ثم قال : يا محمد كن شفيعاً إليه ليتناول منا شيئاً ، فقال : يا أبا إسحاق ! لقد سمعت فقام ، وأخذ رمانتين فأكل واحدة ، وناولني الأخرى فأكلتها ، وهي حامضة ، وكانت شجرة قصيرة ، فلما رجعنا مررنا بها ، وإذا هي شجرة عالية ، ورمانها حلو وهي تثمر في كل عام مرتين ، وسموها رمانة العابدين ، ويأوي إلى ظلها العابدون .

قال جابر الرحبي : أكثر أهل الرحبة على الإنكار في باب الكرامات ، فركبت السبع يوماً ، ودخلت الرحبة ، وقلت : أين الذين يكذبون أولياء الله ؟ قال : فكفوا بعد ذلك عني .

رأى بعضهم الخضر عليه السلام ، فقال له : هل رأيت فوقك أحداً ؟ فقال : نعم . كان عبد الرزاق بن همام يروي الأحاديث بالمدينة والناس حوله يستمعون ، فرأيت شاباً بالبعد منهم رأسه على ركبتيه ، فقلت له : يا هذا عبد الرزاق يروي أحاديث رسول الله ﷺ فلم لا تسمع منه ؟ فقال : إنه يروي عن ميت ، وأنا لست بغائب عن الله تعالىٰ ، فقلت له : إن كنت كما تقول ، فمن أنا ، فرفع رأسه ، وقال : أنت أخي أبو العباس الخضر ، فعلمت أن لله عباداً لم أعرفهم .

وقيل : كان لإبراهيم بن أدهم صاحب يقال له يحيى يتعبد في غرفة ليس إليها سلم ولا درج ، فكان إذا أراد أن يتطهر يجيء إلى باب الغرفة ويقول لا حول ولا قوة إلا بالله ، ويمر في الهواء كأنه طير ، ثم يتطهر فإذا فرغ يقول لا حول ولا قوة إلا بالله ويعود إلى غرفته .

قال أبو محمد جعفر الحذَّاء : كنت أتأدب بأدب أبي عمر الإصطخري ، فكان إذا خطر لي خاطر ، أخرج إلى إصطخر ، فربما أجابني عما أحتاج إليه من غير أن أسأله ، وربما سألته فأجابني ، ثم شغلت عن الذهاب ، فكان إذا خطر على سرّي مسألة أجابني من إصطخر فيخاطبني بما يرد علي .

وحكي عن إبراهيم الآجرّي ، قال : جاءني يهودي يتقاضى عليّ في دين كان له عليّ ، وأنا قاعد عند الأتون أوقد تحت الآجر ، فقال لي اليهودي : يا إبراهيم أرني آية أسلم عليها ! فقلت له : تفعل ، فقال : نعم ، فقلت : انزع ثوبك فنزعه ، فلففته ولففت على ثوبه ثوبي وطرحته في النار ، ثم دخلت الأتون ، وأخرجت الثوب من وسط النار ، وخرجت من الباب الآخر فإذا ثيابي بحالها لم يصبها شيء ، وثيابه في وسطها صارت حرّاقة ، فأسلم اليهودي .

وقيل : كان حبيب العجمي يرى بالبصرة يوم التروية ويوم عرفة بعرفات .

تزوج عبَّاس بن المهتدي امرأة ، فلما كانت ليلة الدخول وقعت عليه ندامة ، فلما أراد الدنو منها زجر عنها ، فامتنع من وطئها ، وخرج فبعد ثلاثة أيام ظهر لها زوج . قال الأستاذ القشيري : هذه هي الكرامة على الحقيقة حيث حفظ عليه العلم ، وهذا يشبه ما جرى للمحاسبي في كونه إذا مدَّ يده إلى طعام فيه شبهة ، ضرب على يده عرق .

وقيل : كان الفضيل بن عياض على جبل من جبال منى ، فقال : لو أن ولياً من أولياء الله تعالىٰ أمر هذا الجبل أن يميد لماد ، قال : فتحرَّك الجبل ، فقال : اسكن لم أردك بهذا ، فسكن الجبل .

وقال عبد الواحد بن زيد لأبي عاصم البصري : كيف صنعت حين طلبك الحجَّاج ؟ قال : كنت في غرفتي ، فدقوا عليّ الباب ، فدخلوا ، فدفعت بي دفعة ، فإذا أنا على جبل أبي قبيس بمكة ، فقال له عبد الواحد : من أين كنت تأكل ؟ قال : كانت تصعد إليّ عجوز كل وقت إفطاري بالرغيفين اللذين كنت آكلهما بالبصرة ، فقال عبد الواحد : تلك الدنيا أمرها الله أن تخدم أبا عاصم .

وقيل : كان عامر بن عبد قيس يأخذ عطاءه ، ولا يستقبله أحد إلا أعطاه شيئاً ، فكان إذا أتى منزله ، رمى إليه بالدراهم ، فتكون بمقدار ما أخذه لم ينقص .

قال الزجَّاجي : دخلت على الجنيد ، وكنت أريد أن أخرج إلى الحج ، فأعطاني درهماً صحيحاً ، فشددته على مئزري فلم أدخل منزلاً ، إلا وجدت

فيه رفقة ، فلم أحتج إلى الدرهم فلما حججت ، ورجعت إلى بغداد ودخلت على الجنيد ، فمد يده ، وقال : هات ! فناولته الدرهم ، فقال : كيف كان ؟ فقلت : كان الحتم نافذاً .

وحكى الأعور قال : كنا عند ذي النون المصري ، فتذاكرنا حديث طاعة الأشياء للأولياء ، فقال ذو النون المصري : من الطاعة أن أقول لهذا السرير يدور في أربع زوايا البيت ثم يرجع إلى مكانه فيفعل ، قال : فدار السرير في أربع زوايا البيت ، وعاد إلى مكانه ، وكان هناك شاب فأخذ يبكي حتى مات في الوقت .

وقيل : إن واصلاً الأحدب قرأ ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٢] فقال : رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض ، والله لا طلبته أبداً ، فدخل خربة ، ومكث يومين ، فلم يظهر له شيء ، واشتد عليه ، فلما كان اليوم الثالث إذا بدَوْخَلَةٍ من رطب (هي ما ينسج من الخوص ليجعل فيه الرطب) وكان له أخ أحسن منه نيّة ، فصار معه فإذا قد صار دوخلتين ، فلم يزل تلك حالهما حتى فرّق بينهما الموت .

وقال بعضهم : أشرفت على إبراهيم بن أدهم ، وهو في بستان يحفظه ، وقد أخذه النوم ، وإذا حية في فيها طاقة نرجس تُروّحه بها .

وقيل : كان جماعة مع أيوب السختياني في السفر ، فأعياهم طلب الماء ، فقال أيوب : أتسترون عليّ ما عشت ؟ فقالوا : نعم ، فدوّر دائرة فنبع الماء ، قال : فشربنا ، فلما دخلنا البصرة أخبر به حماد بن زيد ، فقال عبد الواحد بن زيد : شهدت معه ذلك اليوم .

وقال بكر بن عبد الرحمن : كنا مع ذي النون المصري في البادية ، فنزلنا تحت شجرة أم غيلان ، فقلنا : ما أطيب هذا الموضع ! لو كان فيه رطب ! فتبسم ذو النون وقال : تشتهون الرطب ! وحرّك الشجرة ، وقال : أقسمت عليك بالذي ابتدأك ، وخلقك شجرة ، إلا نثرت علينا رطباً جنياً ، ثم حرَّكها ، فنثرت علينا رطباً جنياً ، فأكلنا ، وشبعنا ، ثم نمنا فانتبهنا ، وحرَّكنا

الشجرة فنثرت علينا شوكاً .

وحكي عن أبي القاسم بن مروان النهاوندي ، قال : كنت أنا وأبو بكر الوراق ، مع أبي سعيد الخرَّاز ، نمشي على ساحل البحر ، نحو صيدا ، فرأى شخصاً من بعيد فقال : اجلسوا ، لا يخلو هذا أن يكون ولياً من أولياء الله . قال : فما لبثنا أن جاء شاب حسن الوجه ، ومعه ركوة ومحبرة ، وعليه مرقعة ، فالتفت إليه أبو سعيد منكراً عليه ، لحمله المحبرة مع الركوة ، فقال له : يا فتى ! كيف الطريق إلى الله تعالىٰ ؟ فقال : يا أبا سعيد أعرف إلى الله طريقين : طريقاً خاصاً ، وطريقاً عامّاً ، فأما الطريق العام فالذي أنت عليه ، وأما الطريق الخاص فهلمّ ، ثم مشى على الماء ، حتى غاب عن أعيننا ، فبقي أبو سعيد حيران مما رأى .

وقال الجنيد : جئت مسجد الشونيزية ، فرأيت فيه جماعة من الفقراء يتكلمون في الآيات ، فقال فقير منهم : أعرف رجلاً لو قال لهذه الأسطوانة : كوني ذهباً نصفك وفضة نصفك ، كانت . قال الجنيد : فنظرت فإذا الأسطوانة نصفها ذهب ، ونصفها فضة .

وقيل : حجَّ سفيان الثوري مع شيبان الراعي فعرض لهما سبع ، فقال سفيان لشيبان : أما ترى هذا السبع ؟ فقال : لا تخف فأخذ شيبان أذنه فعركها ، فبصبص وحرك ذنبه ، فقال سفيان : ما هذه الشهرة ؟ فقال : لولا مخافة الشهرة لما وضعت زادي إلا على ظهره ، حتى آتي مكة .

وحكي أن السريَّ لما ترك التجارة ، كانت أخته تنفق عليه من ثمن غزلها ، فأبطأت يوماً ، فقال لها السريّ : لم أبطأت ؟ فقالت : لأن غزلي لم يشتر ، وذكروا أنه مخلّط ، فامتنع السري من طعامها ، ثم إن أخته دخلت عليه يوماً ، فرأت عنده عجوزاً تكنس بيته ، وتحمل إليه كل يوم رغيفين ، فحزنت أخته ، وشكت إلى أحمد بن حنبل ، فقال أحمد بن حنبل للسري فيه ، فقال : لما امتنعت من أكل طعامها ، قيض الله لي الدنيا لتنفق عليّ وتخدمني .

قال محمد بن منصور الطوسي ، كنت عند أبي محفوظ معروف الكرخي ،

فدعا لي ، فرجعت إليه من الغد ، وفي وجهه أثر ، فقال له إنسان : يا أبا محفوظ كنا عندك بالأمس ولم يكن بوجهك هذا الأثر ، فما هذا ؟ فقال : سل عما يعنيك ، فقال الرجل : بمعبودك أن تقول . فقال : صليت البارحة هاهنا ، واشتهيت أن أطوف بالبيت فمضيت إلى مكة ، وطفت ، ثم ملت إلى زمزم لأشرب من مائها ، فزلقت على الباب ، فأصاب وجهي ما تراه .

وقيل : كان عتبة الغلام يقعد ، فقال : يا ورشان إن كنتَ أطوعَ لله عز وجل مني فتعالَ واقعد على كفي ، فيجيء الورشان ، ويقعد على كفه . الورشان : طائر .

وحكي عن أبي علي الرازي قال : مررت يوماً على الفرات ، فعرضت لنفسي شهوة السمك الطري ، فإذا الماء قذف سمكة نحوي ، وإذا رجل يعدو ويقول : أشويها لك ؟ فقلت : نعم ، فشواها فقعدت وأكلتها .

وقيل : كان إبراهيم بن أدهم في رفقة ، فعرض لهم السبع ، فقالوا : يا أبا إسحاق ، قد عرض لنا السبع ، فجاء إبراهيم وقال : يا أسد إن كنت أمرت فينا بشيء فامض ، وإلا فارجع ، فرجع الأسد ، ومضوا .

وقال حامد الأسود : كنت مع الخوَّاص في البرية ، فبتنا عند شجرة ، إذ جاء السبع ، فصعدت الشجرة إلى الصباح ، لا يأخذني النوم ، ونام إبراهيم الخوَّاص والسبع يشمه ، من رأسه إلى قدمه ، ثم مضى ، فلما كانت الليلة الثانية ، بتنا في مسجد بقرية ، فوقعت بقة على وجهه فقرصته ، فأنّ أنّة ، فقلت : هذا عجب ، البارحة لم تجزع من الأسد ، والليلة تضج من البق ، فقال : أماالبارحة فتلك حالة كنتُ فيها بالله تعالىٰ ، وأما الليلة فهذه حالة أنا فيها بنفسي .

وحكي عن عطاء الأزرق : أنه دَفعت إليه امرأته درهمين من ثمن غزلها ، ليشتري لهم شيئاً من الدقيق ، فخرج من بيته فلقي جارية تبكي ، فقال لها : ما بالك ؟ فقالت : دفع إليّ مولاي درهمين أشتري لهم شيئاً ، فسقطا مني ، فأخاف أن يضربني ، فدفع عطاء الدرهمين إليها ومرّ ، وقعد على حانوت

صديق ، ممن يشق الساج ، وذكر له الحال ، وما يخاف من سوء خلق امرأته ، فقال له صاحبه : خذ من هذه النشارة ، في هذا الجراب لعلكم تنتفعون بها في سجر التنور ، إذ ليس يساعدني الإمكان في شيء آخر ، فحمل النشارة وفتح باب داره ، ورمى بالجراب وردَّ الباب ، ودخل المسجد إلى ما بعد العتمة ، ليكون النوم أخذهم، ولا تستطيل عليه المرأة، فلما فتح الباب وجدهم يخبزون الخبز . فقال لهم : من أين لكم هذا الخبز ؟ فقالوا له : من الدقيق الذي كان في الجراب ، لا تشتر من غير هذا الدقيق ، فقال : أفعل إن شاء الله تعالىٰ .

قال أبو جعفر بن بركات : كنت أجالس الفقراء ، ففتح علي بدينار ، فأردت أن أدفعه لهم ، ثم قلت في نفسي : لعلي أحتاج إليه ، فهاج بي وجع الضرس ، فقلعت سناً فوجعت الأخرى حتى قلعتها ، فهتف بي هاتف ، إن لم تدفع إليهم الدينار ، لا يبقى في فيك سن واحدة .

قال الأستاذ القشيري : وهذا في باب الكرامة أتم من أن يفتح عليه دنانير كثيرة تنقض العادة .

وقال الأستاذ : كرامة الحفظ من الزلل ، أحسن من كثير من العمل .

وحكى أبو سليمان الداراني قال : خرج عامر بن عبد قيس إلى الشام ومعه ركوة (قربة) إذا شاء صبَّ منها ماء ليتوضأ للصلاة ، وإذا شاء صبَّ منها لبناً يشربه .

وروى عثمان بن أبي العاتكة قال : كنا في غزاة في أرض الروم ، فبعث الوالي سرية إلى موضع ، وجعل الميعاد في يوم كذا ، قال : فجاء الميعاد ، ولم تقدم السرية ، فبينا أبو مسلم الخولاني يصلي إلى رمحه الذي ركزه بالأرض ، إذ جاء طائر إلى رأس السنان ، وقال : إن السرية قد سلمت ، وغنمت ، وسيردون عليكم ، يوم كذا في وقت كذا ، فقال أبو مسلم للطير : من أنت رحمك الله ؟ فقال : أنا مذهب الحزن عن قلوب المؤمنين . فجاء أبو مسلم إلى الوالي وأخبره بذلك ، فلما كان اليوم الذي قال : أتت السرية على الوجه الذي قال .

كان أبو مسلم صاحب كرامات ، حرقه العنسيُّ بالنار فلم تضره ، فنفاه من أرضه لئلا يفسد عليه من اتبعه ، من أهل الضلال ، فوصل إلى المدينة بعد موت النبي ﷺ ، واستخلاف أبي بكر رضي الله عنه ، فربط دابته ، ودخل يصلي في مسجد النبي ﷺ ، فبصر به عمر رضي الله عنه فسلم عليه وقال : من الرجل ؟ فقال : من أهل اليمن . فقال : فما فعل الذي أحرقه الكذاب ؟ قال : ذاك عبد الله بن ثوب . قال له عمر : أنشدك الله أأنت هو ؟ قال : نعم . وهذا من فراسة عمر ، فاعتنقه ، وقبّله بين عينيه ، وأتى به إلى أبي بكر ، وأجلسه بينهما ، وقال : الحمد لله الذي لم يمتنا حتى رأينا في أمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الرحمن .

وسافر مع أصحابه في غزاة ، حال بينه وبين الكفار البحر ، فضرب فرسه وخاض البحر هو والعسكر على وجه الماء ، فهذه كرامة أخرى .

وعن بعضهم قال : كنا في مركب ، فمات رجل كان معنا عليل ، فأخذنا في جهازه ، وأردنا أن نلقيه في البحر ، فصار البحر جافاً ، ونزلت السفينة على الأرض ، فخرجنا وحفرنا له قبراً ، ودفناه ، فلما فرغنا استوى الماء وارتفع المركب ، وسرنا .

وقيل : إن الناس أصابتهم مجاعة في البصرة ، فاشترى حبيب العجمي طعاماً بالنسيئة ، وفرّقه على المساكين ، وأخذ كيسه وجعله تحت رأسه ، فلما جاؤوا يتقاضونه ، أخذه وإذا هو مملوء دراهم فقضى منها ديونهم .

وقيل : أراد إبراهيم بن أدهم أن يركب سفينة ، فأبوا إلا أن يعطيهم ديناراً ، فصلى على الشط ركعتين ، وقال : إنهم سألوني ما ليس عندي ، فصار الرمل بين يديه دنانير .

كان أبو معاوية الأسود ضريراً ، فإذا أراد أن يقرأ القرآن نشر المصحف ، فيرد الله عليه بصره ، فإذا أطبق المصحف ذهب بصره .

وقال أحمد بن الهيثم المتطيب ، قال لي بشر الحافي : قل لمعروف الكرخي : إذا صليت جئتك ، فأديت الرسالة ، وانتظرته ، فصلينا الظهر ولم

يجيء ، ثم صلينا العصر ، ثم صلينا المغرب ، ثم العشاء ، فقلت في نفسي : سبحان الله ، مثل بشر يقول شيئاً ، ثم لا يفعل ، لا يجوز ألا يفعل ، فانتظرته وأنا فوق مسجد على مشرعة (مورد الشاربة) فجاء بشر بعد هويٍّ من الليل على رأسه سجادة ، فتقدم إلى الدجلة ، ومشى على وجه الماء ، فرميت بنفسي من السطح ، وقبلت يديه ورجليه ، وقلت له : ادع الله لي ، فدعا لي وقال : استره عليّ ، قال : فلم أتكلم بهذا حتى مات .

قال قاسم الجرعي : رأيت رجلاً في الطواف لا يزيد على قوله : إلهي قضيت حوائج الكل ، ولم تقض حاجتي . فيه تدلل ، وقلة أدب ، فقد جاء في الخبر : « لا يقولن أحدكم دعوت فلم يستجب لي »[1] فقلت : مالك لا تزيد على هذا الدعاء ؟ فقال : أحدثك : اعلم أنا كنا سبعة أنفس من بلدان شتى ، فخرجنا إلى الجهاد ، فأسرنا الروم ومضوا بنا لنقتل ، فرأيت سبعة أبواب ، فتحت من السماء ، وعلى كل باب جارية حسناء من الحور العين فقدّم واحد منا فضربت عنقه ، فرأيت جارية منهن هبطت إلى الأرض ، وبيدها منديل فقبضت روحه ، حتى ضربت أعناق ستة منا ، فاستوهبني بعض رجالهم ، فقالت الجارية : أي شيء فاتك يا محروم ! وأغلقت الأبواب ، فأنا يا أخي متأسف متحسر على ما فاتني .

قال قاسم الجرعي : أراه أفضلهم ، لأنه رأى ما لم يروه ، وعمل على الشوق بعدهم ، ما لم يعملوه بالقلوب والجوارح .

وقال أبو بكر الكتاني : كنت في طريق مكة في وسط السنة ، فإذا أنا بهميان ملآن يلتمع دنانير ، فهممت أن أحمله ، لأفرقه بمكة على الفقراء ، فهتف بي هاتف : إن أخذته سلبناك فقرك .

إذا افتقروا عضّوا على الفقر خيفةً ... وإن أيسروا عادوا سريعاً إلى الفقر

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٤٠) ومسلم (٢٧٣٥) وأبو داود (١٤٨٤) والترمذي (٣٩٠٢) عن أبي هريرة .

وقال أبو العباس الشرقي : كنا مع أبي تراب النخشبي في طريق مكة ، فعدل عن الطريق إلى ناحية ، فقال له بعض أصحابه : أنا عطشان ، فضرب برجله الأرض فإذا عين من ماء زلال ، فقال الفتى : أحب أن أشربه في قدح ، فضرب بيده إلى الأرض ، فناوله قدحاً من زجاج أبيض ، كأحسن ما رأيت ، فشرب وسقانا ، وما زال القدح معنا إلى مكة ، فقال لي أبو تراب يوماً : ما يقول أصحابك في هذه الأمور التي يكرم الله بها عباده ؟ فقلت : ما رأيت أحداً إلا وهو يؤمن بها ، فقال لي : من لم يؤمن بها فقد كفر ، إنما سألتك عن طريق الأحوال ، فقلت له : ما أعرف لهم قولًا فيه ، فقال : بلى قد زعم أصحابك ، أنها خدع من الحق ، وليس الأمر كذلك ، إنما الخدع في حال السكون إليها ، فأما من لم يقترح ذلك ، ولم يساكنها ، فتلك مرتبة الربانيين .

وقال أبو عبد الله بن الجلاَّء : كنا في غرفة السري السقطي ببغداد ، فلما ذهب من الليل شيء لبس قميصاً نظيفاً وسراويل ورداء ونعلاً ، وقام ليخرج ، فقلت : إلى أين في هذا الوقت ؟ فقال : أعود فتحاً الموصلي ، فلما مشى في طرقات بغداد أخذه العسس وحبسوه ، فلما كان من الغد أمر بضربه مع المحبوسين ، فلما رفع الجلاَّد يده ليضربه وقفت يده فلم يقدر أن يحرّكها ، فقيل للجلاد : اضرب . فقال : بحذائي شيخ واقف يقول لي لا تضربه ، فتقف يدي ولا تتحرك ، فنظروا من الرجل ، فإذا هو فتح الموصلي ، فلم يضربوه .

وقال سعيد البصري : كان أناس من قريش ، يجلسون إلى عبد الواحد بن زيد ، فأتوه يوماً وقالوا : إنا نخاف من الضيقة والحاجة ، فرفع رأسه إلى السماء وقال : اللهم إني أسألك باسمك المرتفع ، الذي تكرم به من شئت من أوليائك ، وتلهمه الصفيّ من أحبابك ، أن تأتينا برزق من لدنك ، تقطع به علائق الشيطان من قلوبنا ، وقلوب أصحابنا هؤلاء ، فأنت الحنان المنان القديم الإحسان ، اللهم الساعة الساعة ، قال : فسمعت والله قعقعة للسقف ، ثم تناثرت علينا دراهم ودنانير ، فقال عبد الواحد بن زيد : استغنوا بالله عن غيره ، فأخذوا ذلك ، ولم يأخذ عبد الواحد بن زيد شيئاً .

قال الكتَّاني : رأيت بعض الصوفية ، وكان غريباً ما كنت أثبته ، قد تقدَّم إلى الكعبة وقال : يا رب ما أدري ما يقول هؤلاء : يعني الطائفين ، فقيل له : انظر ما في هذه الرقعة ، قال فطارت الرقعة في الهواء ، وغابت .

وقال ابن الجلاّء : اشتهت والدتي على والدي يوماً من الأيام سمكاً ، فمضى والدي إلى السوق وأنا معه ، فاشترى سمكاً ، ووقف ينتظر من يحمله ، فرأى صبياً وقف بحذائه مع صبي ، فقال : يا عم تريد من يحمله ؟ فقال : نعم ، ومشى معنا ، فسمعنا الأذان ، فقال الصبي : يا عم أذَّن المؤذن ، وأحتاج أن أتطهر وأصلي ، فإن رضيت وإلا فاحمل السمك ، ووضع الصبي السمك ، ومرّ ، فقال أبي فنحن أولى أن نتوكل في السمك ، فدخلنا المسجد وصلينا ، وجاء الصبي وصلى ، فلما خرجنا ، فإذا بالسمك موضوع مكانه ، فحمله الصبي ومضى معنا إلى دارنا ، فذكر والدي ذلك لوالدتي ، فقالت له : قل له حتى يقيم عندنا ، ويأكل معنا ، فقلنا له : فقال : إني صائم . فقلنا : فتعود إلينا بالعشيّ ، فقال : إذا حملت مرة في اليوم ، لا أحمل ثانياً ، ولكني سأدخل المسجد إلى المساء ، ثم أدخل عليكم ، فمضى ، فلما أمسينا : دخل الصبي وأكلنا ، فلما فرغنا دللناه على موضع الطهارة ، ورأينا فيه أنه يؤثر الخلوة ، فتركناه في بيت ، فلما كان في بعض الليل ، وكان لقريب لنا ابنة زمنة ، فجاءت تمشي فسألناها عن حالها ، فقالت : قلت : يا رب بحرمة ضيفنا أن تعافيني . فقامت ، قال : فمضينا نطلب الصبي فإذا الأبواب مغلقة كما كانت ، ولم نجد الصبي ، فقال أبي : فمنهم صغير ، ومنهم كبير .

وقال سعيد البصري : أتيت عبد الواحد بن زيد ، وهو جالس في ظل ، فقلت له : لو سألت الله تعالىٰ أن يوسع عليك الرزق ، لرجوت أن يفعل ، فقال : ربي أعلم بمصالح عباده ، ثم أخذ حصى من الأرض ثم قال : اللهم إن شئت أن تجعلها ذهباً فعلت ، فإذا هي والله في يده ذهب ، فألقاها إليّ ليعرّفني أن الله على كل شيء قدير ، وقال : أنفقها أنت فلا خير في الدنيا إلا للآخرة .

وقال أبو يعقوب السوسي : غسلت مريداً ، فأمسك بإبهامي ، وهو على المغتسل ، فقلت : يا بني خل يدي وأنا أدري أنك لست بميت ، وإنما هي نقلة من دار إلى دار ، فخلّى يدي .

وقال إبراهيم بن شيبان : صحبني شاب حسن الإرادة ، فمات فاشتغل قلبي به جداً ، وتوليت غسله ، فلما أردت غسل يديه ، بدأت بشماله من الدهشة ، فأخذها مني ، وناولني يمينه ، فقلت : صدقت يا بنيّ ، أنا غلطت .

وقال أبو يعقوب السوسي : جاءني مريد بمكة ، فقال : يا أستاذ أنا غداً أموت وقت الظهر ، فخذ هذا الدينار ، واحفر لي بنصفه ، وكفني بنصفه الآخر ، ثم لما كان الغد جاء وطاف بالبيت ، ثم تباعد ومات ، فغسلته وكفنته ، ووضعته في اللحد ، ففتح عينيه ، فقلت : أحياة بعد موت ؟ فقال : أنا حي وكل محب لله حي .

تكلَّم سهل بن عبد الله يوماً في الذكر ، فقال : إن الذاكر لله على الحقيقة ، لو همَّ أن يحيي الموتى لفعل ، ومسح يده على عليل بين يديه فبرىء وقام .

وقال بشر بن الحارث : كان عمرو بن عتبة يصلي ، والغمام فوق رأسه ، والسباع حوله تحرك أذنابها .

وقال الجنيد : كانت معي أربعة دراهم ، فدخلت على السريّ يوماً ، وقلت : هذه أربعة دراهم حملتها إليك ، فقال : أبشر يا غلام بأنك تفلح ! كنت أحتاج إلى أربعة دراهم ، فقلت : اللهم ابعثها على يد من يفلح عندك .

وقال أبو إبراهيم اليماني : خرجنا نسير على ساحل البحر ، مع إبراهيم بن أدهم ، فانتهينا إلى غيضة ، فيها حطب يابس كثير وبالقرب منه حصن ، فقلنا لإبراهيم بن أدهم : لو أقمنا الليلة هاهنا ، وأوقدنا من هذا الحطب ، فقال : افعلوا . فطلبنا النار من الحصن وأوقدنا ، وكان معنا الخبز فأخرجنا نأكل ، فقال واحد منا : ما أحسن هذا الجمر ، لو كان لنا لحم نشويه عليه ، فقال إبراهيم بن أدهم : إن الله تعالىٰ لقادر أن يطعمكموه ، قال : فبينا نحن كذلك

فإذا بأسد يطرد أيلاً (الذكر من الأوعال) فلما قرب منا وقع ، فاندقت عنقه ، فقام إبراهيم بن أدهم ، وقال : اذبحوه ، فقد أطعمكم الله تعالىٰ فذبحناه ، وشوينا من لحمه ، والأسد واقف ينظر إلينا .

وقال حامد الأسود : كنت مع إبراهيم الخوَّاص في البادية سبعة أيام ، على حال واحدة ، فلما كان اليوم السابع ضعفت ، فجلست ، فالتفت إليّ ، وقال : مالك ؟ فقلت : ضعفت ، فقال : أيما أغلب عليك الماء ، أو الطعام ؟ فقلت : الماء ، فقال لي الماء وراءك ، فالتفتّ فإذا عين ماء كاللبن (الحليب) ، فشربت وتطهرت منه ، وإبراهيم ينظر ، ولم يقربه ، فلما أردت القيام هممت أن أحمل منه ، فقال : أمسك فإنه ليس مما يتزود منه .

قالت « زيتونة » خادمة أبي الحسين النوري : كان يوم بارد ، فقلت للنوري أحمل إليك شيئاً ، فقال : نعم ، فقلت إيش تريد ؟ فقال : خبز ولبن ، فحملت وكان بين يديه فحم ، وكان يقلبها بيده وقد اشتغلت يده بسواد الفحم ، فأخذ يأكل الخبز ، واللبن يسيل على يده وعليها مواد الفحم ، فقلت في نفسي : ما أقذر أولياءك يا رب ! ما فيهم أحد نظيف ، قالت : فخرجت من عنده ، فتعلّقت بي امرأة ، وقالت : سرقت لي رزمة ثياب ، وجروني إلى الشرطي ، فأخبر النوري بذلك ، فخرج وقال للشرطي : لا تتعرضوا لها ، فإنها ولية من أولياء الله تعالىٰ ، فقال الشرطي : كيف أصنع والمرأة تدّعي ؟ قال : فجاءت جارية ومعها الرزمة المطلوبة ، فاسترد النوري المرأة ، وقال لها : تقولين بعد هذا : ما أقذر أولياءك ! قالت : فقلت : قد تبت .

قال الخوَّاص : عطشت في بعض أسفاري ، وسقطت من العطش ، فإذا أنا بماء رش على وجهي ، ففتحت عيني فإذا برجل حسن الوجه ، راكب دابةً شهباء ، فسقاني الماء ، وقال : كن رديفي ، وكنت بالحجاز فما لبثت إلا يسيراً ، فقال لي : ما ترى فقلت : أرى المدينة ، فقال : انزل ، وأقرىء رسول الله ﷺ مني السلام وقل له : أخوك الخضر يقرئك السلام .

وقال المظفّر الجصَّاص : كنت أنا ونصر الخرَّاط ليلةً في موضع ، فتذاكرنا

شيئاً من العلم ، فقال الخرّاط : إن الذاكر لله تعالىٰ فائدته في أول ذكره أن يعلم أن الله تعالىٰ ذَكَرَه ، فبذكر الله ذكره ، قال : فخالفته ، فقال : لو كان الخضر عليه السلام هاهنا ، لشهد بصحته ، قال : فإذا نحن بشيخ يجيء بين السماء والأرض ، حتى بلغ إلينا ، وسلّم وقال : صدق الذاكر لله تعالىٰ بفضل ذكر الله له ذكره ، فعلمنا أنه الخضر .

جاء رجل إلى سهل بن عبد الله وقال : إن الناس يقولون : إنك تمشي على الماء ، فقال : سل مؤذن المحلة فإنه رجل صالح لا يكذب ، قال : فسألته فقال له المؤذن : لا أدري هذا ؟ ولكنه كان في بعض الأيام ، نزل الحوض ليتطهر فوقع في الماء ، فلو لم أكن أنا لبقي فيه ، قال الأستاذ أبو علي : إن سهلاً كان بتلك الحال الذي وصف به ، ولكن الله تعالىٰ يريد أن يستر أولياءه ، فأجرى ما وقع من حديث المؤذن والحوض ستراً لحال سهل ، وسهل كان صاحب الكرامات .

وفي قريب من هذا المعنى : ما حكي عن أبي عثمان المغربي : رأيته بخط أبي الحسين الجرجاني رضي الله عنه ، كما قال الأستاذ القشيري : قال أردت مرة أن أمضي إلى مصر ، فخطر لي أن أركب السفينة ، ثم خطر ببالي أني أعرف هناك ، فخفت الشهرة ، فمر المركب فبدا لي أن أمضي إليها فمشيت على الماء ، ولحقت بالمركب ، ودخلت السفينة والناس ينظرون ، ولم يقل أحد إن هذا ناقض للعادة ، وغير ناقض ، فعرفت أن الولي مستور ، وإن كان مشهوراً .

قال أحمد بن أبي الحواري : حججت أنا وأبو سليمان ، فبينا نحن نسير إذ سقطت القربة مني ، فقلت لأبي سليمان : فقدت القربة ، وبقينا بلا ماء ، وكان برد شديد ، فقال أبو سليمان : يا راد الضالة ، ويا هادي من الضلالة ، اردد علينا الضالة ، فإذا واحد ينادي : من ذهبت له قربة ؟ قال : فقلت : أنا ، فأخذتها ، فبينا نحن نسير ، وقد تدرّعنا بالفراء من شدة البرد ، فإذا نحن بإنسان عليه طمران ، وهو يترشح عرقاً ، فقال أبو سليمان : تعال حتى ندفع

إليك شيئاً مما علينا من الثياب ، فقال يا أبا سليمان : تشير إلى الزهد وأنت تجد البرد ، أنا أسيح في هذه البرية منذ ثلاثين سنة ، ما انتقضت ، ولا ارتعدت ، يلبسني في البرد فيحاً من محبته ، ويلبسني في الصيف مذاق برد محبته ، ومرَّ .

وقال الخوَّاص : كنت في البادية مرة فسرت في وسط النهار ، فوصلت إلى شجرة ، وبالقرب منها ماء ، فنزلت ، فإذا أنا بسبع عظيم ، أقبل ، فاستسلمت ، فلما قرب مني إذا هو يَعرج ، فحمحم وبرك بين يدي ، ووضع يده في حجري ، فنظرت فإذا يده منتفخة ، فيها قيح ودم ، فأخذت خشبة ، وشققت الموضع الذي فيه القيح ، وشددت على يده خرقة ، فمضى ، فإذا أنا به بعد ساعة ومعه شبلان ، فبصبصاني وحملا إليّ رغيفاً .

واشتكى محمد بن السَّمّاك ، فأخذ أحمد بن أبي الحواري ماءه ، وانطلق به إلى طبيب نصراني ، فبينما هم يسيرون بين الحيرة والكوفة ، استقبلنا رجل حسن الوجه طيب الرائحة نقي الثوب، فقال لنا: إلى أين تمرون ؟ فقلنا: نريد فلاناً الطبيب نريه ماء ابن السَّمَّاك فقال: سبحان الله تستعينون على ولي الله بعدو الله. اضربوا به الأرض، وارجعوا إلى ابن السمّاك ، وقولوا له : ضع يدك على الوجع وقل: ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ [الإسراء : ١٠٥] ثم غاب عنا ، فلم نره ، فرجعنا إلى ابن السَّمَّاك فأخبرناه بذلك ، فوضع يده على موضع الوجع ، وقال ما قاله الرجل فعوفي في الوقت ، وكان ذلك الخضر عليه السلام .

قال البسطامي : كنا قعوداً في مجلس أبي يزيد ، فقال : قوموا بنا نستقبل ولياً من أولياء الله تعالىٰ ، فقمنا معه ، فلما بلغنا الدرب فإذا إبراهيم بن شيبة الهروي ، فقال له أبو يزيد : وقع في خاطري أن أستقبلك وأشفع لك إلى ربك ، فقال إبراهيم بن شيبة : ولو شفعت في جميع الخلق لم يكن بكثير ، إنما هم قطعة طين . فتحيَّر أبو يزيد من جوابه ، وكرامة إبراهيم في استصغار ذلك ، أتم من كرامة أبي يزيد فيما حصل له من الفراسة ، وصدق له من الحال في باب الشفاعة .

سأل سالم المغربي ذا النون المصري عن سبب توبته ، فقال : خرجت من مصر إلى بعض القرى ، فنمت في الطريق ، فانتبهت وفتحت عيني ، فإذا أنا بقنبَرة عمياء سقطت من شجرة على الأرض ، فانشقت الأرض فخرج منها سكرجتان ، إحداهما من ذهب ، والأخرى من فضة ، وفي إحداهما سمسم ، وفي الأخرى ماء ورد ، فأكلت من هذه ، وشربت من هذه ، فقلت : حسبي تبت ، ولزمت الباب إلى أن قبلني .

أصاب عبد الواحد بن زيد فالج ، فدخل وقت الصلاة ، واحتاج إلى الوضوء ، فقال مَن هاهنا : فلم يجبه أحد ، فخاف فوت الوقت ، فقال : يا رب أحللني من وثاقي حتى أقضي طهارتي ، ثم شأنك وأمرك ، قال : فصحَّ حتى أكمل طهارته ، ثم عاد إلى فراشه ، وصار كما كان .

وقال أبو أيوب الحمَّال : كان أبو عبد الله الديلمي إذا نزل منزلًا في سفره عمد إلى حماره وقال في أذنه : كنت أريد أن أشدّك ، فالآن لا أشدك ، وأرسلك في هذه الصحراء لتأكل الكلأ ، فإذا أردنا الرحيل فتعال ، فإذا كان وقت الرحيل ، يأتيه الحمار .

وقيل : زوّج أبو عبد الله الديلمي ابنته ، واحتاج إلى ما يُجهِّزها به ، وكان له ثوب يخرج به كل وقت فيشتري بدينار ، فخرج له ثوب ، فقال له البياع : إنه يساوي أكثر من دينار ، فلم يزل يزيدون في ثمنه حتى بلغ مئة دينار ، فجهَّزها .

وقال النضر بن شميل : ابتعت إزاراً فوجدته قصيراً ، فسألت ربي أن يمغط لي ذراعاً ففعل . أي : يمد لي ، من مغط القوس : مدَّه ، قال النضر بن شميل ولو استزدته لزادني .

وقيل : كان عامر بن عبد قيس سأل الله أن يهوّن عليه طهوره في الشتاء ، فكان يؤتى به وله بخار ، وسأل ربه أن ينزع شهوة النساء من قلبه ، فكان لا يبالي بهن ، وسأله أن يمنع الشيطان من قلبه وهو في صلاته فلم يجبه إليه .

وقال بشر بن الحارث : دخلت الدار ، فإذا أنا برجل ، فقلت : من أنت ؟

دخلتَ داري بغير إذني ؟ فقال : أخوك الخضر ، فقلت ادع الله لي ، فقال هوّن الله عليك طاعته ، فقلت : زدني فقال : وسترها عليك .

وقال إبراهيم الخوَّاص : دخلت خربة في بعض الأسفار في طريق مكة بالليل ، فإذا فيها سبع عظيم ، فخفت ، فهتف بي هاتف : اثبت ، فإن حولك سبعين ألف ملك يحفظونك .

دخل النوري الماء ليتطهر ، فجاء لص فأخذ ثيابه ، ثم إنه بعد جاء ومعه الثياب ، وقد جفت يده ويبست ، فقال النوري : قد ردَّ علينا الثياب فَرُدَّ عليه يدَه ، فعوفي .

وقال الشبلي : اعتقدت وقتاً ألا آكل إلا من الحلال ، فكنت أدور في البراري ، فرأيت شجرة تين ، فمددت يدي إليها لآكل ، فنادتني الشجرة احفظ عقدك ، لا تأكل مني فإني ليهودي .

وقال أبو عبد الله بن خفيف : دخلت بغداد قاصداً إلى الحج وفي نفسي نخوة الصوفية ، ولم آكل الخبز أربعين يوماً ، ولم أدخل على الجنيد وخرجت ، ولم أشرب الماء إلى زبالة (موضع) وكنت على طهارتي ، فرأيت ظبياً على رأس البئر وهو يشرب ، وكنت عطشان ، فلما دنوت من البئر ولَّى الظبي نافراً ، وإذا الماء في أسفلها . وقلت : يا سيدي ما لي محل هذا الظبي فسمعت هاتفاً من خلفي : جرَّبناك فما صبرت ، ارجع وخذ الماء ، فرجعت فإذا البئر ملأى ماء ، فملأت ركوتي ، وكنت أشرب منه وأتطهر إلى المدينة ، ولم ينفد ، ولما استقيت سمعت هاتفاً يقول : إن الظبي جاء بلا ركوة ولا حبل ، وأنت جئت مع الحبل والركوة ، فلما رجعت من الحج ، دخلت الجامع ، فلما وقع بصر الجنيد عليّ ، قال : لو صبرت لنبع الماء من تحت رجلك ، لو صبرت صبر ساعة ، صبر ساعة .

قال محمد بن سعيد البصري : بينا أنا أمشي في بعض طرق البصرة ، إذ رأيت أعرابياً يسوق جملاً ، فالتفت ، فإذا الجمل وقع ميتاً ، ووقع الرجل والقتب فمشيت ، ثم التفتّ ، فإذا الأعرابي يقول : يا مسبب كل سبب ، ويا

مولى من طلب ، ردّ عليّ ما ذهب ، من جمل يحمل الرحل والقتب ، وإذا الجمل قائم والرحل والقتب فوقه .

وقيل : إن شبلاً المروزي اشتهى لحماً ، فأخذه بنصف درهم ، فاستلبته منه حدأة ، فدخل شبل مسجداً يصلي ، فلما رجع إلى منزله ، قدّمت امرأته إليه لحماً ، فقال : من أين هذا ؟ فقالت له : تنازعت حدأتان فسقط هذا منهما ، فقال : الحمد لله الذي لم ينس شبلاً ، وإن كان شبل كثيراً ينساه .

قال ابن أبي عبيد البسري يحدث عن أبيه أنه غزا سنة من السنين ، فخرج في السرية ، فمات المهر الذي كان تحته ، وهو في السرية ، فقال : يا رب أعرناه إلى بسرى ، يعني قريته ، فإذا المهر قائم ، فلما غزا ورجع إلى بسرى ، قال : يا بني خذ هذا السرج عن المهر فقلت له : إنه عرق فإن أخذت السرج عنه داخله الريح ، فقال : يا بني إنه عارية ، قال : فلما أخذت السرج عنه وقع المهر ميتاً .

وقيل : كان بعضهم نبَّاشاً فتوفيت امرأة ، فصلَّى الناس عليها ، وصلَّى هذا النبَّاش ليعرف القبر ، فلما جن عليه الليل نبش قبرها ، فقالت : سبحان الله رجل مغفور له ، أخذ كفن مغفورة ، قال : هبي أنك مغفور لك ، فأنا من أين ؟ فقالت : إن الله غفر لي ، ولجميع من صلى عليّ ، وأنت قد صليت عليّ ، فتركتها ورددت التراب عليها ، ثم تاب الرجل وحسنت توبته .

قال نعمان الحيري : رأيت ذا النون المصري ، وقد تقاتل اثنان أحدهما من أولياء السلطان ، والآخر من الرعية ، فعدا الذي من الرعية عليه فكسر ثنيته ، فتعلَّق الجندي بالرجل ، وقال بيني وبينك الأمير ، فجازوا بذي النون ، فقال لهم الناس : اصعدوا إلى الشيخ ، فصعدوا إليه فعرّفوه ما جرى ، فأخذ السنّ ثم بلّها بريقه ، وردّها إلى فم الرجل في الموضع الذي كانت فيه ، وحرّك شفتيه بالدعاء ، فتعلقت بإذن الله ، فبقي الرجل يفتش فاه ، فلم يجد الأسنان إلا سواء .

عن أبي سبرة النخعي : أقبل رجل من اليمن ، فلما كان في بعض الطريق

نفَق حماره ، فقام وتوضأ وصلّى ركعتين ، ثم قال : اللهم إني جئت مجاهداً في سبيلك ، ابتغاء مرضاتك ، وأشهد أنك تحيي الموتى ، وتبعث من في القبور ، لا تجعل لأحد عليّ منة ، اليوم أطلب منك أن تبعث حماري ، فقام الحمار ينفض أذنيه .

قال أبو بكر الهمداني : بقيت في برّيّة الحجاز أياماً لم آكل شيئاً ، فاشتهيت باقلا حاراً وخبزاً من باب الطاق (موضع بالعراق) فقلت : أنا في البرية بيني وبين العراق مسافة بعيدة ، فلم أتم خاطري إلا وأعرابي من بعيد ينادي يا باقلا حار وخبز ، فتقدَّمت إليه فقلت : عندك باقلا حار وخبز ؟ فقال : نعم ، وبسط مئزراً كان عليه ، وأخرج باقلّا حاراً وخبزاً ، وقال لي : كل ، فأكلت ، ثم قال لي : كل فأكلت ، ثم قال : كل فأكلت ، فلما قال لي في الرابعة ، قلت : بحق الذي بعثك إليّ إلا ما قلت لي من أنت ؟ فقال : أنا الخضر ، وغاب عني فلم أره .

وقال أبو جعفر الحدَّاد : جئت الثعلبية وهو خراب ، ولي سبعة أيام لم آكل شيئاً ، فدخلت القبة ، وجاء قوم خراسانيون ، أصابهم جهد ، فطرحوا أنفسهم على باب القبة ، فجاء أعرابي على راحلته وصب تمراً بين أيديهم ، فاشتغلوا بأكل ، ولم يقولوا لي شيئاً ، ولم يرني الأعرابي ، فلما كان بعد ساعة ، فإذا بالأعرابي جاء وقال لهم : هل معكم غيركم ؟ فقالوا : نعم ، هذا الرجل داخل القبة ، فدخل الأعرابي وقال : إيش أنت لِمَ لم تتكلم ؟ مضيت ، فعارضني إنسان ، فقال لي خلّفت إنساناً لم تطعمه ، ولم يمكني أن أمضي ، فتطوّلت عليّ الطريق لأني رجعت عن أميال ، وصبَّ بين يديّ تمراً كثيراً ، ومضى فدعوتهم ، فأكلوا وأكلت .

وقال أحمد بن عطاء : كلمني جمل في طريق مكة ، فرأيت جمالًا والمحامل عليها ، وقد مدت أعناقها في الليل ، فقلت : سبحان من يحمل عنها ما هي فيه ! فالتفت إليّ جمل وقال : قل : جلّ الله ، فقلت : جلّ الله .

قال أبو زرعة الجنبي : مكرت بي امرأة ، فقالت : ألا تدخل الدار فتعود

مريضاً ، فدخلت فأغلقت الباب ولم أر أحداً ، فعلمت ما فعلت ، فقلت : اللهم سودها فاسودت ، فتحيَّرت وفتحت الباب وخرجتُ ، فقلتُ اللهم رُدّها إلى حالها فردها إلى ما كانت عليه .

قال خليل الصيَّاد : غاب ابني محمد ، فوجدنا عليه وجداً شديداً ، فأتيت معروفاً الكرخي ، فقلت : يا أبا محفوظ غاب ابني ، وأمه واجدة عليه ، فقال : ما تشاء ؟ فقلت : ادع الله أن يردّه ، فقال : اللهم إن السماء سماؤك والأرض أرضك ، وما بينهما لك ، ائت بمحمد ، قال خليل : فأتيت باب الشام ، فإذا هو واقف ، فقلت : يا محمد ! فقال : يا أبت كنت الساعة بالأنبار .

قال الأستاذ القشيري : والحكايات في هذا الباب تزيد على الحصر ، والزيادة على ما ذكرناه تخرج عن المقصود ، وفيما ذكرناه مقنع في هذا الباب ، وإنكار جوازها فمن باب الضلال والعمى .

* * * *

١٣ ـ باب رؤيا القوم في النوم

قال الله تعالىٰ : ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [يونس : ٦٤] .

قيل : هي الرؤيا الحسنة يراها المرء أو ترى له .

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سألت النبي ﷺ عن هذه الآية : ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [يونس : ٦٤] . قال ﷺ : « ما سألني عنها أحد قبلك ، هي الرؤيا الحسنة يراها المرء وترى له »[(١)] . وقال ﷺ : « الرؤيا من الله تعالىٰ ، والحلم من الشيطان ، فإذا رأى أحدكم رؤيا يكرهها فلا يخبرْ بها ، وليتفل عن يساره ، وليتعوَّذ فإنها لن تضرّه »[(٢)] .

وعن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله ﷺ : « من رآني في المنام فقد رآني ، فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي »[(٣)] . ومعنى الخبر أن تلك الرؤيا رؤيا صدق ، وتأويلها حق ، وإن الرؤيا نوع من أنواع الكرامات .

وحقيقة الرؤيا الحسنة : أن يخلق الله في قلب النائم ، أو في حواسّه الأشياء كما يخلقها في اليقظان ، فربما يقع ذلك في اليقظة ، كما رآه ، وربما جعل من رآه علماً على أمور أخر يخلقها في ثاني الحال ، أو كان قد خلقها فتقع تلك ، كما جعل الله الغيم علامة على المطر .

وتحقيق الرؤيا خواطر ترد على القلب ، وأحوال تتصور في الوهم ، إذا لم يستغرق النوم جميع الاستشعار ، فيتوهم الإنسان عند اليقظة ، أنه كان رؤية في الحقيقة ، وإنما كان ذلك تصوّراً وأوهاماً للخلق ، تقررت في قلوبهم ، وحين زال عنهم الإحساس الظاهر ، تجرَّدت تلك الأوهام من المعلومات بالحس

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٥) . .

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٩٦) والبخاري (٧٠٠٥) ومسلم (٢٢٦١) (١) .

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٤٠٠) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

والضرورة ، فقويت تلك الحال عند صاحبها ، فإذا استيقظ ، ضعفت تلك الأحوال التي تصوّرها ، بالإضافة إلى حال إحساسه ، بالمشاهدات وحصول العلوم الضرورية ، ومثاله : كالذي يكون في ضوء السراج عند اشتداد الظلمة ، فإذا طلعت الشمس عليه غلبت ضوء السراج ، فيتقاصر نور السراج بالإضافة إلى ضياء الشمس ، فمثال حال النوم كمن هو في ضوء السراج ، ومثال المتيقظ كمن تعالىٰ عليه النهار ، فإن المستيقظ يتذكر ما كان متصوَّراً له في حال نومه ، ثم إن تلك الخواطر والأحاديث التي ترد على قلبه في حال نومه ، مرة تكون من قبل الشيطان ، ومرة عن هواجس النفس ، ومرة تكون بخواطر الملك ، ومرة تكون تعريفاً من الله تعالىٰ ، يخلق تلك الأحوال في قلبه ابتداءً .

وفي الخبر : « أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً »[١] .

واعلم أن النوم على أقسام : نوم غفلة ، ونوم عادة ، وذلك غير محمود ، بل معلول ، لأنه أخو الموت ، وقال الله تعالىٰ : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الأنعام : ٦٠] . وقال تعالىٰ : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ [الزمر : ٤٢] . وقيل : لو كان في النوم خير لكان في الجنة نوم .

قال الدقَّاق رحمه الله : لما قال إبراهيم عليه السلام ، لإسماعيل عليه السلام : يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك . فقال إسماعيل : يا أبت هذا جزاء من نام عن حبيبه ، لو لم تنم لما أمرت بذبح الولد .

وقيل : أوحى الله تعالىٰ إلى داود عليه السلام : يا داود كذب من ادعى محبتي ، فإذا جنه الليل نام عني . والنوم ضد العلم ، ولهذا قال الشبلي : نعسة في ألف سنة فضيحة . وقال الشبلي : اطلع الحق على الخلق فقال : من نام غفل ، ومن غفل حجب ، فكان الشبلي يكتحل بالملح بعده ، حتى كان

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٦٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه .

لا يأخذه النوم ، وفي معناه أنشدوا :

عجباً للمحبِّ كيف ينام　　　كل نوم على المحبِّ حرام

وقيل : المريد أكله فاقة ، ونومه غلبة ، وكلامه ضرورة ، وقيل : لما نام آدم عليه السلام في الحضرة ، قيل له : هذه حواء لتسكن إليها ، قال القشيري : هذا جزاء من نام بالحضرة ، وقيل : إن كنت حاضراً فلا تنم ، فإن النوم في الحضرة سوء أدب ، وإن كنت غائباً فأنت من أهل الحسرة ، والمصيبة والمصاب لا يأخذه نوم ، وأما أهل المجاهدات فنومهم صدقة من الله تعالىٰ عليهم ، وإن الله تعالىٰ يباهي بالعبد إذا نام في سجوده ، يقول : انظروا إلى عبدي نام وروحه عندي ، وجسده بين يدي ، قال الأستاذ القشيري : أي روحه في محل النجوى ، وبدنه على بساط العبادة .

وقيل : كل من نام على الطهارة ، يؤذن لروحه أن تطوف بالعرش ، وتسجد لله تعالىٰ ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ [النبأ : ٩] .

قال الدقَّاق : شكا رجل إلى بعض المشايخ من كثرة النوم ، فقال : اذهب فاشكر الله تعالىٰ على العافية ، فكم من مريض في شهوة غمضة من النوم الذي تشكو منه ، وقيل : لا شيء أشد على إبليس من نوم العاصي ، يقول : متى يتنبه ويقوم حتى يعصي الله تعالىٰ .

وقيل : أحسن أحوال العاصي أن ينام ، إن لم يكن الوقت له لم يكن عليه ، قال الدقَّاق : تعود شاه الكرماني السهر فغلبه النوم مرة فرأى الحق تعالىٰ في النوم . فكان يتكلف النوم بعد ذلك ، فقيل له في ذلك ، فقال :

رأيت سرور قلبي في منامي　　　فأحببت التنعّس والمناما

فالنوم أقسام : نوم غفلة ، نوم عادة ، وهما مذمومان ، ونوم ضرورة ، وهو ممدوح للحاجة إليه ، ونوم استعانة على فعل الأفضل ، كأن ينام أول الليل ليقوم آخره ، وهو أيضاً ممدوح .

وقيل : كان شيخ له تلميذان ، فاختلفا فيما بينهما ، فقال أحدهما : النوم

خير للإنسان ، لا يعصي الله تعالىٰ في تلك الحالة ، وقال الآخر : اليقظة خير لأنه يعرف الله في تلك الحالة ، فتحاكما إلى ذلك الشيخ ، فقال : أما أنت الذي قلت بتفضيل النوم فالموت خير لك من الحياة ، وأما أنت الذي قلت بتفضيل اليقظة فالحياة خير لك من الموت .

وقيل : اشترى رجل مملوكة ، فلما دخل الليل : قال افرشي الفراش ، فقالت المملوكة : يا مولاي : ألك مولى ؟ فقال : نعم ، فقالت : ينام مولاك ؟ فقال : لا ، فقالت : ألا تستحي أن تنام ، ومولاك لا ينام .

وقيل : قالت بنيّة لسعيد بن جبير : لم لا تنام ؟ فقال : إن جهنم لا تدعني أن أنام . وقيل : قالت بنت لمالك بن دينار : لم لا تنام ؟ فقال : إن أباك يخاف البيات (يعني الموت في نومه غافلاً عما خلق له) .

وقيل : لما مات الربيع بن خيثم ، قالت بنية لأبيها : الأسطوانة التي كانت في دار جارنا أين ذهبت ؟ فقال : إنه كان جارنا الرجل الصالح يقوم من أول الليل إلى آخره ، فتوهمت البنيّة أنه كان سارية ، لأنها كانت لا تصعد السطح إلا بالليل .

وقال بعضهم : في النوم معان ، ليست في اليقظة ، منها أنه يرى فيه المصطفى ﷺ ، والصحابة والسلف الماضيين في النوم ، ولا يراهم في اليقظة ، وكذلك يرى الحقَّ في النوم ، وهذه مزية عظيمة .

وقيل : رأى أبو بكر الآجري الحقَّ تعالىٰ في المنام ، فقال له الحقُّ : سل حاجتك ! فقال : اللهم اغفر لعصاة أمة محمد ﷺ ، فقال : أنا أولى بهذا منك ، سل حاجتك ! .

وقال الكتّاني : رأيت النبي ﷺ في المنام فقال : من تزين للناس بشيء يعلم الله منه خلافه ، شانه الله .

وقال أيضاً : رأيت النبي ﷺ في المنام فقلت : ادع الله لي ألا يميت قلبي ، فقال : قل كل يوم أربعين مرة : يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت .

ورأى الحسن بن علي عيسى بن مريم في المنام ، فقال : إني أريد أن

أتخذ خاتماً ، فما الذي أكتب عليه فقال : اكتب عليه : لا إله إلا الله الحق المبين ، فإنه آخر الإنجيل .

وروي عن أبي يزيد البسطامي أنه قال : رأيت ربي عز وجل في المنام ، فقلت : كيف الطريق إليك ؟ فقال : اترك نفسك وتعال .

وقيل : رأى أحمد بن خضرويه ربَّه في المنام ، فقال : يا أحمد كل الناس يطلبون مني إلا أبا يزيد فإنه يطلبني .

وقال يحيى بن سعيد القطَّان : رأيت ربي في المنام فقلت : يا رب كم أدعوك ولا تستجيب لي ؟ فقال تعالىٰ : يا يحيى أحب أن أسمع صوتك .

وقال بشر بن الحارث رأيت أمير المؤمنين علياً رضي الله عنه في المنام فقلت : يا أمير المؤمنين : عظني . فقال : ما أحسن عطف الأغنياء على الفقراء ! طلباً لثواب الله ، وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ثقةً بالله ، فقلت : يا أمير المؤمنين زدني ، فقال :

قد كنت ميتاً فصرت حياً   وعن قريب تصير ميتاً
عزّ بدار الفناء بيت   فابن بدار البقاء بيتا

وقيل : رؤي سفيان الثوري في المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : رحمني ، فقيل له : ما حال عبد الله بن المبارك ؟ فقال : هو ممن يلج على ربه كل يوم مرتين .

كان الزجَّاجي يقول : بوعيد الأبد ، لأن توعد الله من باب الخبر وخبره صدق ، فرأى أبو سهل الصعلوكي في المنام الزجاجي ، فقال له : ما فعل الله بك ؟ فقال الزجاجي : الأمر هاهنا أسهل مما كنا نظنه .

رؤي الحسن بن عصام الشيباني في المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : وإيش يكون من الكريم إلا الكرم .

ورؤي بعضهم في المنام ، فسئل عن حاله فقال :

حاسبونا فدققوا   ثم منّوا فأعتقوا

هكذا سيمة الملوك   بالمماليك يرفقوا

ورؤي حبيب العجمي في المنام ، فقيل له : أنت حبيب العجمي ؟ فقال : هيهات ذهبت العجمة وبقيت في النعمة .

وقيل : دخل الحسن البصري مسجداً ليصلي فيه المغرب ، فوجد إمامهم حبيباً العجمي ، فلم يصل خلفه ، لأنه خاف أن يلحن لعجمة كانت في لسانه ، فرأى في المنام في تلك الليلة قائلاً يقول له : لم لم تصل خلفه ؟ لو صليت خلفه لغفر لك ما تقدم من ذنبك .

ورؤي مالك بن أنس في المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي بكلمة كان يقولها عثمان رضي الله عنه عند رؤية الجنازة ، سبحان الحي الذي لا يموت .

ورؤي الليلة التي مات فيها الحسن البصري : كأن أبواب السماء مفتحة ، وكان منادياً ينادي ألا إن الحسن البصري قدم على الله تعالىٰ ، وهو عنه راض .

وقال أبو بكر بن أبي شكيب : رأيت الأستاذ الصعلوكي في المنام على حالة حسنة ، فقلت : يا أستاذ : بم وجدت هذا ؟ فقال : بحسن ظني بربي ، بحسن ظني بربي .

وقيل : رؤي الجاحظ في المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال :

فلا تكتب بكفك غير شيء   يسرك في القيامة أن تراه

وقيل : رأى الجنيد إبليس في منامه عرياناً ؟ فقال له : ألا تستحي من الناس ؟ فقال : هؤلاء ناس ؟ إنما الناس أقوام في مسجد الشونيزية ، أضنوا جسدي ، وأحرقوا كبدي ، قال الجنيد رحمه الله : فلما انتبهت غدوت إلى المسجد ، فرأيت جماعة وضعوا رؤوسهم على ركبهم ، يتفكرون ، فلما رأوني قالوا مكاشفة : لا يغرنك حديث الخبيث .

ورؤي أبو القاسم النصرأباذي بمكة بعد موته في النوم ، فقيل له : ما فعل

الله بك ؟ فقال : عوتبت عتاب الأشراف ، ثم نوديت : يا أبا القاسم ـ نودي بكنيته زيادة في فضله ـ أبعد الاتصال انفصال ؟ فقلت : لا يا ذا الجلال ، فما وضعت باللحد حتى لحقت بالأحد . ورؤي ذو النون المصري في المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : كنت أسأله ثلاث حوائج في الدنيا ، فأعطاني البعض ، وأرجو أن يعطيني الباقي ، كنت أسأله أن يعطيني من العشرة التي على يد رضوان واحدة ، ويعطيني بنفسه ، وأن يعذبني عن الواحدة التي بيد مالك بعشرة ، ويتولى هو العشرة بنفسه، وأن يرزقني أن أذكره بلسان الأبدية .

وقيل : رؤي الشبلي في المنام بعد موته فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : لم يطالبني بالبراهين على الدعاوى ، إلا على شيء واحد ، قلت يوماً لا خسارة أعظم من خسران الجنة ، ودخول النار ، فقال : وأي خسارة أعظم من خسران لقائي .

ورأى الجريري الجنيد في المنام ، فقال له : كيف حالك يا أبا القاسم ؟ فقال : طاحت تلك الإشارات ، وبادت تلك العبارات ، وما نفعنا إلا تسبيحات كنا نقولها بالغدوات .

وقال النباجي : تشهيت يوماً شيئاً ، فرأيت في المنام ، كأن قائلاً يقول : أيجمل بالحر المريد أن يتذلل للعبيد ، وهو يجد من مولاه ما يريد .

وقال ابن الجلاّء : دخلت المدينة وبي فاقة فتقدمت إلى القبر وقلت : أنا ضيفك يا نبي الله ، فغفوت إغفاءة ، فرأيت النبي ﷺ في نومي قد أعطاني رغيفاً ، فأكلت نصفه ، وانتبهت وبيدي النصف .

وقال بعضهم : رأيت النبي ﷺ في المنام يقول : زوروا ابن عون ، فإنه يحب الله ورسوله .

وقيل : رأى عتبة الغلام حوراء في المنام ، على صورة حسنة ، فقالت له : يا عتبة ! أنا لك عاشقة ! فانظر ألا تعمل من الأعمال شيئاً ! يحال بيني وبينك ! فقال لها عتبة : طلقت الدنيا ثلاثاً لا رجعة لي عليها حتى ألقاك .

قال منصور المغربي : رأيت شيخاً في بلاد الشام ، كبير الشأن وكان الغالب عليه الانقباض ، فقيل لي : إن أردت أن ينبسط هذا الشيخ معك ، فسلم عليه وقل : رزقك الله الحور العين ، فإنه يرضى منك بهذا الدعاء ، فسألت عن سببه فقيل : إنه رأى شيئاً من الحور في منامه ، فبقي في قلبه شيء من ذلك ، فمضيت ، وسلمت عليه وقلت : رزقك الله الحور العين ، فانبسط الشيخ معي .

وقيل : رأى أيوب السختياني جنازة عاص ؟ فدخل دهليزاً لئلا يحتاج إلى الصلاة عليها ، فرأى بعضهم الميت في المنام ، فقال له : ما فعل الله بك ، فقال : غفر لي ، وقال لي : قل لأيوب : ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ﴾ [الإسراء : ١٠٠] .

وقال بعضهم : رأيت الليلة التي مات فيها داود الطائي ، نوراً والملائكة صعوداً ، وملائكة نزولاً ، فقلت : أي ليلة هذه ؟ فقالوا : ليلة مات فيها داود الطائي ، وقد زخرفت الجنة ، لقدوم روحه على أهلها .

وقيل : رؤي الليلة التي مات فيها مالك بن دينار ، كأن أبواب السماء فتحت ، وقائل يقول : ألا إن مالك بن دينار أصبح من سكان الجنة .

رأى القشيري الدقَّاق في المنام رحمه الله ، فقال له : ما فعل الله بك ، فقال : ليس للمغفرة هاهنا كبير خطر ، أقل من حضر هاهنا خطراً فلان ، أعطي كذا وكذا ، ووقع لي في ذلك المنام ، أن ذلك الإنسان الذي عناه ، قتل نفساً بغير حق .

ولما مات كرز بن وبرة ، رؤي في المنام ، كأن أهل القبور خرجوا من قبورهم وعليهم ثياب جدد بيض ، فقيل : ما هذا ؟ قيل : إنّ أهل القبور كسوا ثياباً جدداً ، لقدوم كرز بن وبرة عليهم .

ورؤي يوسف بن الحسين في المنام ، فقيل : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي ، فقيل له : بماذا ؟ فقال : لأني ما خلطت جداً بهزل قط .

ورؤي أبو عبد الله الزرَّاد في المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال :

أوقفني وغفر لي كل ذنب أقررت به في الدنيا إلا ذنباً واحداً استحييت أن أقرّ به ، فوقفني في العرق حتى سقط لحم وجهي ، فقيل له : وما ذاك ؟ فقال : نظرت يوماً إلى شخص جميل بشهوة ، فاستحييت أن أذكره .

وقال أبو سعيد الشحَّام : رأيت الشيخ الصعلوكي في المنام ، فقلت له : أيها الشيخ ! فقال : دع الشيخ ، فقلت : وتلك الأحوال التي شاهدتها . فقال : لم تغن عنا شيئاً ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي بمسائل ، كانت تسأل العُجَّزُ عنها ، فأجبتهم عليها .

وقال أبو بكر الرشيدي : رأيت محمداً الطوسي المعلم في المنام ، فقال لي : قل لأبي سعيد الصفّار المؤدب :

وكنا على ألا نحول عن الهوى ... فقد وحياة الحب حلتم وما حلنا
تشاغلتم عنا بصحبة غيرنا ... وأظهرتم الهجران ما هكذا كنا
لعل الذي يقضي الأمور بعلمه ... سيجمعنا بعد الممات كما كنا

قال : فانتبهت ، وقلت ذلك لأبي سعيد الصفَّار ، فقال : كنت أزور قبره كل يوم جمعة فلم أزره هذه الجمعة .

وحكي عن بعضهم أنه قال : رأيت في المنام رسول الله ﷺ وحوله جماعة من الفقراء ، فبينا هو كذلك إذ نزل من السماء ملكان ، وبيد أحدهما طست ، وبيد الآخر إبريق فوضع الطست بين يدي رسول الله ﷺ فغسل يده الكريمة ، ثم أمر الملكين حتى غسلوا أيديهم ، ثم وضع الطست بين يديّ ، فقال أحدهما للآخر : لا تصب على يده فإنه ليس منهم ، فقلت : يا رسول الله : أليس قد روي عنك أنك قلت : « المرء مع من أحب » فقال : بلى . فقال : أنا أحبك وأحب هؤلاء الفقراء فقال ﷺ : « صبّ على يده فإنه منهم » .

وحكي عن عمر الحمَّال أنه كان يقول أبداً : العافية العافية . فقيل له : ما معنى هذا الدعاء ؟ فقال : كنت حمَّالًا في ابتداء أمري ، وكنت حملت يوماً صدراً من الدقيق (شيء ثقيل) فوضعته لأستريح ، فكنت أقول : يا رب لو أعطيتني كل يوم رغيفين من غير تعب ، لكنت أكتفي بهما ، فإذا رجلان

يختصمان ، فتقدمت أصلح بينهما ، فضرب أحدهما رأسي بشيء أراد أن يضرب به خصمه ، فدمى وجهي ، فجاء صاحب الربع (المحلة) فأخذهما ، فلما رآني ملوثاً بالدم أخذني وظنَّ أني ممن تشاجر فأدخلني السجن ، فبقيت في السجن مدة أوتى كل يوم برغيفين ، فرأيت ليلة في المنام قائلاً يقول لي : إنك سألته الرغيفين كل يوم من غير نصب ، ولم تسألْ العافية ، فأعطاك ما سألت ، فانتبهت وقلت : العافية ، العافية ، فرأيت باب السجن يقرع . وقيل أين عمر الحمَّال ؟ فأطلقوني وخلّوا سبيلي .

وحكي عن الكتَّاني أنه قال : كان عندنا رجل من أصحابنا ، هاجت عينه ، فقيل له : ألا تعالجها ؟ فقال : عزمت على ألا أعالجها حتى تبرأ ، قال : فرأيت في المنام : كأن قائلاً يقول : لو كان هذا العزم عند أهل النار كلهم لأخرجناهم من النار .

وحكي عن الجنيد أنه قال : رأيت في المنام كأني أتكلم على الناس ، فوقف عليّ ملَك ، وقال : أقرب ما تقرب به المتقربون إلى الله تعالىٰ ماذا ؟ فقلت : عمل خفيّ بميزان وفيّ ، قال : فولّى المَلَك عني وهو يقول : كلام موفق والله .

وقال رجل للعلاء بن زياد : رأيت في المنام كأنك من أهل الجنة ، فقال : لعل الشيطان أراد أمراً ، فعصمت منه ، فأشخص إليّ رجلاً بعينه على مقصوده من إضلالي .

وقيل : رؤي عطاء السلمي في المنام ، فقيل له : لقد كنت طويل الحزن ، فما فعل الله بك ؟ فقال : أما والله لقد أعقبني ذلك راحة طويلة ، وفرحاً دائماً ، فقيل له : ففي أي الدرجات أنت ؟ فقال : ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ ﴾ . . إلخ [النساء : ٦٩] .

ورؤي الأوزاعي في النوم ، فقال : ما رأيت هاهنا درجة أرفع من درجة العلماء ، ثم درجة المحزونين .

وقال النباجي : قيل لي في المنام : من وثق بالله في رزقه زيد في حسن

خلقه ، وسمحت نفسه في نفقته ، وقلّت وساوسه في صلاته .

وقيل : رؤيت زبيدة في النوم ، فقيل لها : ما فعل الله بك ؟ فقالت : غفر لي ، فقيل : بكثرة نفقتك في طريق مكة ، فقالت : لا ، إن أجرها عاد إلى أربابها ، ولكن غفر لي بنيتي .

ورؤي سفيان الثوري في المنام ، فقيل له : مافعل الله بك ؟ فقال : وضعت أول قدمي على الصراط ، والثاني في الجنة .

وقال أحمد بن أبي الحواري : رأيت في النوم جارية ما رأيت أحسن منها ، يتلألأ وجهها نوراً ، فقلت : ما أنور وجهك ؟ فقالت : تذكر الليلة التي بكيت فيها ؟ فقلت : نعم . فقالت : حملت إليّ دمعتك ، فمسحت بها وجهي ، فصار وجهي هكذا .

وقيل : رأى يزيد الرقاشي النبي ﷺ في المنام ، فقرأ عليه : فقال له : هذه القراءة فأين البكاء ؟ .

وقال الجنيد : رأيت في المنام كأن ملَكين نزلا من السماء ، فقال أحدهما : ما الصدق ؟ فقلت : الوفاء بالعهد ، فقال الآخر : صدق ، ثم صعدا .

ورؤي بشر الحافي في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي ، وقال : أما استحييت يا بشر مني ، كنت تخافني كل ذلك الخوف ؟ .

وقيل : رؤي أبو سليمان الداراني في المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي ! وما كان شيء أضرّ عليّ من إشارات القوم .

وقال عليّ بن الموفق : كنت أفكر يوماً في سبب عيالي ، والفقر الذي بهم ، فرأيت في المنام رقعة مكتوب فيها : بسم الله الرحمن الرحيم : يابن الموفق أتخشى الفقر وأنا ربك ؟ فلما كان وقت الغلس أتاني رجل بكيس فيه خمسة آلاف دينار ، وقال لي : خذها إليك يا ضعيف اليقين ! .

وقال الجنيد : رأيت في المنام ، كأني واقف بين يدي الله تعالىٰ ، فقال

لي : يا أبا القاسم من أين لك هذا الكلام الذي تقولُ ؟ فقلت : لا أقول إلا حقاً . فقال : صدقت .

وقال أبو بكر الكتَّاني : رأيت في المنام شاباً لم أر أحسن منه ، فقلت له : من أنت ؟ فقال : التقوى ، فقلت : وأين تسكن ؟ قال : في كل قلب حزين ، ثم التفتُّ فإذا امرأة سوداء كأوحش ما يكون ، فقلت : من أنتِ ؟ فقالت : الضحك فقلت : وأين تسكنين ؟ فقالت : في قلب كل فرح مرح ، قال : فانتبهتُ ، واعتقدتُ ألا أضحك إلا غلبة .

وحكي عن أبي عبد الله بن خفيف قال : رأيت رسول الله ﷺ في المنام كأنه قال لي : من عرف طريقاً إلى الله تعالىٰ يسلكه ، ثم رجع عنه ، عذَّبه الله عذاباً لم يعذبه أحداً من العالمين . وقيل : رؤي الشبلي في المنام : فقيل له : ما فعل الله بك؟ فقال : ناقشني حتى أيست ، فلما رأى إياسي تغمدني برحمته.

وقال أبو عثمان المغربي : رأيت في النوم كأن قائلاً يقول لي : يا أبا عثمان اتق الله في الفقر ، ولو بقدر سمسمة .

وقيل : كان لأبي سعيد الخرَّاز ابن مات قبله ، فرآه في المنام فقال له : يا بني أوصني : فقال : يا أبت لا تعامل الله على الجبن ، فقال : يا بني زدني ، فقال : لا تخالف الله تعالىٰ فيما يطالبك به ، فقال : زدني ، فقال : لا تجعل بينك وبين الله قميصاً ، قال : فما لبست القميص ثلاثين سنة .

وقيل : كان بعضهم يقول في دعائه : اللهم الشيء الذي لا يضرك وينفعنا ، لا تمنعه عنا ، فرأى في المنام كأنه قيل له : وأنت فالشيء الذي يضرك ولا ينفعك فدعه .

وحكي عن أبي الفضل الأصبهاني أنه قال : رأيت رسول الله ﷺ في المنام ، فقلت : يا رسول الله ! سل الله ألا يسلبني الإيمان ، فقال : ذلك شيء قد فرغ الله منه .

وحكي عن أبي سعيد الخرَّاز أنه قال : رأيت إبليس في المنام ، فأخذت عصاي لأضربه ، فقيل له : إنه لا يفزع من هذا ، إنما يفزع هذا من نور يكون

في القلب . وقال بعضهم : كنت أدعو لرابعة العدوية ، فرأيتها في المنام تقول : هداياك تأتينا على أطباق من نور مخمّرة بمناديل من نور .

ويروى عن سماك بن حرب أنه قال : كف بصري فرأيت في المنام كأن قائلاً يقول لي : ائت الفرات فاغتمس فيه ، وافتح عينيك ، قال : ففعلت ، فأبصرت .

وقيل : رؤي بشر الحافي في المنام ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : لما رأيت ربي عز وجل ، قال لي : مرحباً يا بشر لقد توفيتك يوم توفيتك ، وما على الأرض أحبَّ إليّ منك .

* * * *

١٤ ـ باب الوصية للمريدين

قال الأستاذ القشيري : لما أثبتنا طرفاً من سير القوم ، وضممنا إلى ذلك أبواباً من المقامات ، أردنا أن نختم هذه الرسالة بوصية للمريدين ، نرجو من الله سبحانه ، حسن توفيقهم لاستعمالها ، وألا يحرمنا القيام بها ، وألا يجعلها حجَّة علينا ، فأول قدم للمريد في هذه الطريقة :

ينبغي أن يكون على الصدق ، ليصح له البناء على أصل صحيح ، فإن الشيوخ قالوا : إنما حرموا الوصول لتضييعهم الأصول ، كذلك سمعت الأستاذ أبا علي الدقَّاق رحمه الله يقول ، فتجب البداية بتصحيح اعتقاد بينه وبين الله ، صاف عن الظنون والشبه ، خال من الضلالة والبدع ، صادر عن البراهين والحجج . ويقبح بالمريد أن ينتسب إلى مذهب من مذاهب من ليس من هذه الطريقة ، وليس انتساب الصوفي إلى مذهب من مذاهب المختلفين سوى طريق الصوفية ، إلا نتيجة جهلهم ، بمذاهب أهل هذه الطريقة ، فإن هؤلاء حججهم في مسائلهم أظهر من حجج كل أحد ، وقواعد مذهبهم أقوى من قواعد كل مذهب ، والناس إما أصحاب النقل والأثر ، وإما أرباب العقل والفكر ، وشيوخ الطائفة هذه ارتقوا عن هذه الجملة ، فالذي للناس غيب فهو لهم ظهور ، والذي للخلق مقصود فلهم من الحق سبحانه موجود ، فهم أهل الوصال والناس أهل الاستدلال ، وهم كما قال القائل :

ليلي بوجهك مشرق   وظلامه في الليل ساري
والناس في سدف الظلام   ونحن في وضح النهار

ولم يكن عصر من الأعصار في مدة الإسلام إلا وفيه شيخ من شيوخ هذه الطائفة ، ممن له علوم التوحيد ، وإمامة القوم ، إلا وأئمة ذلك الوقت من العلماء ، استسلموا لذلك الشيخ ، وتواضعوا له وتبرّكوا به ، ولولا مزية

وخصوصية لهم ، وإلا كان الأمر بالعكس ، هذا أحمد بن حنبل كان عند الشافعي ، فجاء شيبان الراعي ، فقال أحمد : أريد أبا عبد الله أن أنبّه هذا على نقصان علمه ، ليشتغل بتحصيل بعض العلوم ، فقال : لا تفعل . فلم يقنع ، فقال لشيبان : ما تقول فيمن نسي صلاة من خمس صلوات في اليوم والليلة ، ولا يدري أي صلاة نسيها ؟ ما الواجب عليه يا شيبان ؟ فقال شيبان : يا أحمد هذا قلب غفل عن مولاه ، فالواجب أن يؤدب حتى لا يغفل عن مولاه بعد ، قال : فغشي على أحمد ، فلما أفاق قال له الشافعي : ألم أقل لك لا تحرك هذا . وشيبان الراعي كان أمّيّاً منهم ، فإذا كان حال الأمي منهم هكذا ، فما الظن بأئمتهم .

وقد حكي أن فقيهاً من أكابر الفقهاء ، كانت حلقته بجنب حلقة الشبلي بجامع المنصور ، وكان يقال لذلك الفقيه : أبو عمران ، وكان يتعطل عليهم حلقتهم لكلام الشبلي ، برفع صوته ، فسأل أصحاب أبي عمران يوماً الشبلي عن مسألة في الحيض وقصدوا إخجاله ، فذكر مقالات الناس في تلك المسألة والخلاف فيها ، فقام أبو عمران : وقبّل رأس الشبلي ، وقال : يا أبا بكر استفدت في هذه المسألة عشر مقالات لم أسمعها ، وكان عندي من جملة ما قلت ثلاثة أقاويل .

وقيل : اجتاز أبو العباس بن سريج الفقيه بمجلس الجنيد ، فسمع كلامه ، فقيل له : ما تقول في هذا ؟ فقال : ما أدري ما يقول : ولكن أرى لهذا الكلام صولة ، ليست بصولة مبطل .

وقيل لعبد الله بن سعيد بن كلاب ، أنت تتكلم على كل أحد ، وهاهنا رجل يقال له الجنيد ، فانظر هل تعترض عليه أم لا ؟ فحضر حلقته ، فسأل الجنيد عن التوحيد فأجابه ، فتحير أبو عبد الله ، وقال : أعد عليّ ما قلت ؟ فأعاده ولكن لا بتلك العبارة ، فقال له عبد الله : هذا شيء آخر ، لم أحفظه تعيده عليّ مرة أخرى ؟ فأعاده بعبارة أخرى ، فقال عبد الله : ليس يمكنني حفظ ما تقول ! أمله علينا ! فقال : إن كنت أجزته فأنا أمليه ، فقام عبد الله

وقال بفضله ، واعترف بعلو شأنه ، فإذا كان أصول هذه الطائفة أصح الأصول ، ومشايخهم أكبر الناس ، وعلماؤهم أعلم الناس ، فالمريد الذي له إيمان بهم إن كان من أهل السلوك والتدرج إلى مقاصدهم ، فهو يساهمهم فيما خصوا به من مكاشفات الغيب ، فلا يحتاج إلى التطفل على من هو خارج عن هذه الطائفة ، وإن كان مريداً طريقة الاتباع ، وليس بمستقل بحاله ، ويريد أن يعرّج في أوطان التقليد ، إلى أن يصل إلى التحقيق ، فليقلد سلفه ، وليجر على طريقة هذه الطائفة ، فإنهم أولى به من غيرهم .

قال الشبلي سائلاً : ما ظنك بعلم ، علم العلماء فيه تهمة ؟! .

قال سهل التستري : شكر العلم العمل به ، وشكر العمل زيادة العلم ، وما من قلب إلا والله مطلع عليه في ساعات الليل والنهار ، فأيهما رأى فيه حاجة إلى من سواه ، سلّط عليه إبليس .

قال الجنيد : لو علمت أن لله علماً تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيه مع أصحابنا وإخواننا ، لسعيت إليه ولقصدته ، وإذا أحكم المريد بينه وبين الله عقده ، فيجب أن يحصل من علم الشريعة ، إما بالتحقيق ، وإما بالسؤال عن الأئمة ، ما يؤدي به فرضه ، وإن اختلف عليه فتاوى الفقهاء يأخذ بالأحوط ، ويقصد الخروج من الخلاف ، فإن الرخص في الشريعة للمستضعفين ، وأصحاب الحوائج ، والأشغال ، وهؤلاء الطائفة ليس لهم شغل سوى القيام بحقه سبحانه ، ولهذا قيل : إذا انحط الفقير عن درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة ، فقد فسخ عقده مع الله تعالىٰ ونقض عهده ، فيما بينه وبين الله .

ثم يجب على المريد أن يتأدَّبَ بشيخ ، فإن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبداً ، هذا أبو يزيد يقول : من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان ، وقال الدقّاق : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارس ، فإنها تورق ولكن لا تثمر ، كذلك المريد إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقته ، نَفَساً ، فنَفَسَاً ، فهو عابد هواه ، لا يجد نفاذاً .

ثم إذا أراد السلوك فبعد هذه الجملة يجب أن يتوب إلى الله من كل زلّة ، فيدع جميع الزلّات ، سرّها وجهرها ، صغيرها وكبيرها ، ويجتهد في إرضاء الخصوم أولًا ، ومن لم يرض خصومه ، لا يفتح له من هذ الطريقة بشيء ، وعلى هذا النحو جروا . ثم بعد هذا يعمل في حذف العلائق والشواغل ، فإن بناء هذا الطريق على فراغ القلب ، وكان الشبلي يقول للحصري في ابتداء أمره : إن خطر ببالك من الجمعة إلى الجمعة الثانية التي تأتينا غير الله ، فحرام عليك أن تحضرني .

وإذا أراد المريد الخروج عن العلائق ، فأولها الخروج عن المال ، فإن ذلك الذي يميل به عن الحق ، ولم يوجَدَه مريد ، دخل في هذا الأمر ، ومعه علاقة من الدنيا ، إلا جرّته تلك العلاقة عن قريب ، إلى ما منه خرج ، فإذا خرج عن المال ، فالواجب عليه الخروج من الجاه ، فإن ملاحظة حب الجاه مقطعة عظيمة ، وما لم يستو عند المريد قبول الخلق وردهم ، لا يجيء منه شيء ، بل أضر الأشياء له ملاحظة الناس إياه بعين الإثبات ، والتبرك به ، لإفلاس الناس عن هذا الحديث ، وهو بعد لم يصحح الإرادة ، فكيف يصح أن يتبرك به ، فخروجهم من المال واجب عليهم ، لأن ذلك سم قاتل لهم .

فإذا خرج عن ماله وجاهه ، فيجب عليه أن يصحح عقده بينه وبين الله تعالىٰ ، وهو لا يخالف شيخه في كل ما يشير عليه ، فإن الخلاف للمريد في ابتداء أمره عظيم الضرر ، لأن ابتداء حاله دليل على جميع عمره ، ومن شرطه ألا يكون بقلبه اعتراض على شيخه ، فإذا خطر ببال المريد أن له في الدنيا والآخرة قدراً أو قيمة ، أو على بسيط الأرض أحد دونه ، لم يصح له في الإرادة قدم ، لأنه يجب أن يجتهد ليعرف ربه ، لا ليحصل لنفسه قدراً ، وفرق بين من يريد الله وبين من يريد جاه نفسه ، إما في عاجله ، وإما في آجله ، ثم يجب عليه حفظ سره حتى عن زره ، إلا عن شيخه ، ولو كتم نفساً من أنفاسه عن شيخه فقد خانه في حق صحبته ، ولو وقعت له مخالفة فيما أشار إليه شيخه ، فيجب أن يقر بين يديه في الوقت ، ثم يستسلم لما يحكم به عليه

شيخه ، عقوبة له على مخالفته وجنايته ، إما بسفر يكلفه ، أو أمر يراه .

ولا يصح للشيوخ التجاوز عن زلات المريدين ، لأن ذلك تضييع لحقوق الله ، وما لم يتجرد المريد عن كل علاقة ، لا يجوز لشيخه أن يلقّنه شيئاً من الأذكار ، بل يجب عليه أن يقدم التجربة ، فإذا شهد قلبه للمريد بصحة العزم ، فحينئذ يشترط عليه أن يرضى بما يستقبله في هذه الطريقة ، من فنون تصاريف القضاء ، فيأخذ عليه العهد ، بألا ينصرف عن هذه الطريقة بما يستقبله من الضرر والذل والفقر والأسقام والآلام ، وألا يجنح بقلبه إلى السهولة ، ولا يترخص عند هجوم الفاقات ، وحصول الضرورات ، وألا يؤثر الدعة ، ولا يستشعر الكسل ، فإن وقفة المريد شر من فترته .

والفرق بين الفترة والوقفة ، أن الفترة رجوع عن الإرادة ، وخروج منها ، والوقفة سكون عن السير ، باستحلاء حالات الكسل ، وكل مريد وقف في ابتداء إرادته ، لا يجيء منه شيء ، فإذا جرَّبه شيخه فعليه أن يلقنه ذكراً من الأذكار ، على ما يراه شيخه ، فيأمره أن يذكر ذلك الاسم بلسانه ، ثم يأمره أن يسوي قلبه مع لسانه ، فيقول له : اثبت على استدامة هذا الذكر ، كأنك مع ربك أبداً بقلبك ، ولا يجري على لسانك غير هذا الاسم ما أمكنك ، ثم يأمره أن يكون أبداً في الظاهر على الطهارة ، وألا يكون نومه إلا غلبة ، وأن يقلل من غذائه ، بالتدريج شيئاً بعد شيء ، حتى يقوى على ذلك ، ولا يأمره أن يترك عادته بمرة ، فإن في الخبر : « إن المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى »[(١)] .

ثم يأمره بإيثار الخلوة والعزلة ، ويجعل اجتهاده في هذه الحالة لا محالة في نفي الخواطر الدنية ، والهواجس الشاغلة من القلب .

واعلم أن في هذه الحالة قلّما يخلو المريد في أوان خلوته ، في ابتداء إرادته ، من الوساوس في الاعتقاد ، لا سيما إذا كان في المريد كياسة قلب ،

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٣/ ١٩) والبزار كما في مجمع الزوائد ، للهيثمي (١/ ٦٢) .

وقلّ مريد لا تستقبله هذه الحالة ، في ابتداء إرادته ، وهذه من الامتحانات التي تستقبل المريدين ، فالواجب على شيخه إن رأى منه كياسة ، أن يحيله على الحجج العقلية ، فإن بالعلم يتخلص لا محالة المتعرف مما يعتريه من الوساوس ، وإن تفرَّس شيخه فيه القوة والثبات في الطريقة أمره بالصبر ، واستدامة الذكر ، حتى يسطع في قلبه أنوار القبول ، ويطلع في سره شموس الوصول ، وعن قريب يكون ذلك ، ولكن لا يكون هذا العلاج إلا لأفراد المريدين ، فأما الغالب فأن تكون معالجتهم بالرد إلى النظر ، وتأمل الآيات بشرط تحصيل علم الأصول على قدر الحاجة الداعية للمريد .

واعلم أنه يكون للمريدين على الخصوص بلايا من هذا الباب ، وذلك أنهم إذا خلوا في مواضع ذكرهم ، أو كانوا في مجالس سماع أو غير ذلك ، فيهجس في نفوسهم ويخطر ببالهم أشياء منكرة ، يتحققون أن الله منزه عن ذلك ، وليس يعتريهم شبهة في أن ذلك باطل ، ولكن يدوم ذلك فيشتد تأذيهم به ، حتى يبلغ ذلك حداً يكون أصعب شتم ، وأقبح قول ، وأشنع خاطر ، بحيث لا يمكن للمريد إجراء ذلك على اللسان ، ولا إبداؤه لأحد ، وهذا أشد شيء يقع لهم ، فالواجب عند هذا ترك مبالاتهم بتلك الخواطر ، واستدامة الذكر ، والابتهال إلى الله عز وجل ، باستدفاع ذلك عنهم ، وتلك الخواطر ليست من وساوس الشيطان ، وإنما هي من هواجس النفس ، فإذا قابلها العبد بترك المبالاة بها ، ينقطع ذلك عنه .

ومن أدب المريد بل من فرائض حاله أن يلازم موضع إرادته ، وألا يسافر قبل أن تقبله الطريق ، وقبل الوصول بالقلب إلى الرب سبحانه ، فإن السفر للمريد في غير وقته سم قاتل ، ولا يصل أحد منهم إلى ما كان يرجى له ، إذا سافر في غير وقته ، فإذا أراد الله بمريد خيراً ثبّته في أوّل إرادته ، وإذا أراد الله بمريد شراً ردَّه إلى ما خرج عنه من حرفته أو حالته ، وإذا أراد الله بمريد محنة شرّده في مطارح غربته ، هذا إذا كان المريد يصلح للوصول .

فأما إذا كان شاباً طريقته الخدمة في الظاهر بالنفس للفقراء ، وهو

أدونهم في هذه الطريقة رتبة ، فهو وأمثاله يكتفون بالترسم في الظاهر ، فينقطعون في الأسفار ، وغاية نصيبهم من هذه الطريقة حجَّات يحصلونها وزيارات لموضع يرتحل إليها ، ولقاء شيوخ بظاهر سلام ، فيشهدون الظواهر ويكتفون بما في هذا الباب من السير ، فهؤلاء الواجب لهم دوام السفر ، حتى لا تؤديهم الدعة إلى ارتكاب محظور ، فإن الشاب إذا وجد الراحة والدعة ، كان في معرض الفتنة ، وإذا توسط المريد جمع الفقراء والأصحاب في بدايته ، فهو مضر له جداً .

فإن امتحن واحد بذلك فليكن سبيله احترام الشيوخ والخدمة للأصحاب ، وترك الخلاف عليهم ، والقيام بما فيه راحة فقير ، والجهد في أن لا يستوحش منه قلب شيخ ، ويجب أن يكون في صحبته مع الفقراء أبداً ، خصمهم على نفسه ، ولا يكون خصم نفسه عليهم ، ويرى لكل واحد عليه حقاً واجباً ، ولا يرى لنفسه واجباً على أحد ، ويجب ألا يخالف المريد أحداً ، وإن علم أن الحق معه يسكت ، ويظهر الوفاق لكل أحد .

وكل مريد يكون فيه ضحك ولجاج ومماراة فإنه لا يجيء منه شيء ، وإذا كان المريد في جمع من الفقراء إما في سفر أو حضر فينبغي ألا يخالفهم بسره ، وقلبه ، فيحفظ قلبه مع الله ، وإذا أشاروا عليه بالأكل مثلاً ، يأكل لقمة أو لقمتين ، ولا يعطي النفس شهوتها ، وليس من أدب المريد كثرة الأوراد في الظاهر ، فإن القوم في مكابدة إخلاء خواطرهم ، ومعالجة أخلاقهم ، ونفي الغفلة عما في قلوبهم ، لا في تكثير أعمال البر ، والذي لا بد لهم منه إقامة الفرائض والسنن الراتبة ، فأما الزيادة من الصلوات النافلة ، فاستدامة الذكر بالقلب أتم لهم .

ورأس مال المريد الاحتمال عن كل أحد ، بطيبة النفس ، وتلقي ما يستقبله بالرضا والصبر ، على الضر والفقر ، وترك السؤال والمعارضة في القليل والكثير ، فيما هو حظ له ، ومن لم يصبر على ذلك فليدخل السوق ، فإن من اشتهى ما يشتهيه الناس ، فالواجب أن يحصل شهوته ، من حيث

يحصلها الناس ، من كد اليمين وعرق الجبين .

وإذا التزم المريد استدامة الذكر ، وآثر الخلوة ، فإن وجد في خلوته ما لم يجده قلبه ، إما في النوم ، وإما في اليقظة ، أو بين اليقظة والنوم ، من خطاب يسمع ، أو معنى يشاهد ، مما يكون نقضاً للعادة ، فينبغي ألا يشتغل بذلك البتة ، ولا يسكن إليه ، ولا ينبغي له أن ينتظر حصول أمثال ذلك ، فإن هذه كلها شواغل عن الحق سبحانه ، ولابد في هذه الأحوال من وصف ذلك لشيخه ، حتى يصير قلبه فارغاً من ذلك ، ويجب على شيخه أن يحفظ عليه سره ، ويكتم عن غيره أمره ، ويصغّر ذلك في عينه ، فإن ذلك كله اختبارات ، والمساكنة إليها مكر ، فليحذر المريد عن ذلك وعن ملاحظتها ، وليجعل همته فوق ذلك .

واعلم أن أضرَّ الأشياء بالمريد استئناسه بما يلقىٰ إليه في سرّه ، من تقريبات الحق سبحانه له ، ومنته عليه ، بأني خصصتك بهذا وأفردتك عن أشكالك ، فإنه لو قال بترك هذا ، فعن قريب يستخطف عن ذلك ، مما يبدو له من مكاشفات الحقيقة ، وشرح هذه الجملة بإثباته في الكتب متعذر ، لأن مواجيد القلوب لا تنحصر بالعبارة وإنما يشار إليها إشارة .

ومن أحكام المريد إذا لم يجد من يتأدب به في موضعه ، أن يهاجر إلى ما هو منصوب في وقته ، لإرشاد المريدين ثم يقيم عليه ، ولا يبرح عن سُدّته إلى وقت الإذن .

واعلم أن تقديم معرفة رب البيت ، على زيارة البيت واجب ، فلولا معرفة رب البيت ما وجبت زيارة البيت ، والشبّان الذين يخرجون إلى الحج ، ثم زيارة البيت من هؤلاء القوم من غير إشارة الشيوخ ، فهي بدلالات نشاط النفس ، فهم متوسمون بهذه الطريقة ، وليس سفرهم على أصل ، والذي يدل على ذلك أنه لا يزداد سفرهم إلا وتزداد تفرقة قلوبهم ، ولو أنهم ارتحلوا من عند أنفسهم بخطوة ، لكان أحظى لهم من ألف سَفرة .

ومن شرط المريد إذا زار شيخاً أن يدخل عليه بالحرمة والأدب ، وينظر

إليه بالحشمة ، فإن أهّله الشيخ لشيء من الخدمة عدّ ذلك من جزيل النعمة .

فصل :

ولا ينبغي للمريد أن يعتقد في المشايخ العصمة ، بل الواجب أن يذرهم وأحوالهم ، فيحسن بهم الظن ويراعي مع الله حدّه ، فيما يتوجه عليه من الأمر والعلم ، كافية في التفرقة بين ما هو محمود وما هو معلول ، وكل مريد بقي في قلبه لشيء من عروض الدنيا مقدار وخطر ، فاسم الإرادة له مجاز ، وإذا بقي في قلبه اختيار فيما يخرج عنه من معلومه فيريد أن يخص به نوعاً من أنواع البر ، أو شخصاً دون شخص ، فهو متكلف في حاله ، وبالخطر أن يعود سريعاً إلى الدنيا ، لأن قصد المريد في حذف العلائق الخروج منها لا السعي في أعمال البر ، وقبيح بالمريد أن يخرج من معلومه من رأس ماله وقنيته ، ثم يكون أسير حرفة وينبغي أن يستوي عنده وجود ذلك وعدمه ، حتى لا ينافر لأجله فقيراً ، ولا يضايق به أحداً ، ولو مجوسياً .

فصل :

وقبول قلوب المشايخ للمريد أصدق شاهد لسعادته ، ومن رده قلب شيخ ، فلا محالة أنه يرى غبّ (عاقبة) ذلك ولو بعد حين ، ومن خذل بترك حرمة الشيوخ ، فقد أظهر رقم شقاوته ، وذلك لا يخطيء ، ومن دخل على شيخ ليختبره فهو جاهل .

ومن أصعب الآفات في هذه الطريقة صحبة الأحداث ، ومن ابتلاه الله بشيء من ذلك ، فبإجماع الشيوخ : ذلك عبد أهانه الله تعالىٰ وخذله ، بل عن نفسه شغله ، ولو بألف كرامة أهّله .

وهب أنه بلغ رتبة الشهداء لما في الخبر ، تلويح بذلك ، أليس قد شغل ذلك القلب بمخلوق ، وأصعب من ذلك تهوين ذلك على القلب ، حتى يعدّ ذلك يسيراً ، وقد قال تعالىٰ : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ١٥] .

لأن صحبة الأحداث ولا سيما إذا كانوا من أهل الجمال ، وذلك لأنهم إن لم يكونوا مظان الشهوة بواسطة قوة ، لتحفُّظ ، فلا أقل من كونهم سبباً للوقيعة في العرض ، والتعرض لذلك مهلكة عظيمة .

وهذا الواسطي رحمه الله يقول : إذا أراد الله هوان عبد ألقاه إلى هؤلاء الأنتان ، والجيف .

قال فتح الموصلي : صحبت ثلاثين شيخاً ، كانوا يعدون من الأبدال ، كلهم أوصوني عند فراقي إياهم ، وقالوا لي : اتق معاشرة الأحداث ، ومخالطتهم .

قال الإمام القشيري : ومن ارتقى في هذا الباب عن حالة الفسق ، وصحب الأحداث لتعليمهم العبادات ، والآداب ، ولامتحان نفسه ، هل ارتفعت عن هذا العالم الشهواني ، فيكون ذلك شاهداً بموت شهواته أولًا فيكون ذلك شاهداً عليه .

وأشار إلى أن ذلك من بلاء الأرواح ، وأنه لا يضر المريد ، وإلى ما قالوه من وساوس القائلين بالشاهد ، وإيراد حكايات عن بعض الشيوخ ، بما كان الأولى بهم الستر على هناتهم ، وآفاتهم الصادرة عنهم ، فذلك نظير الشرك ، وقرين الكفر ، فليحذر المريد من مجالسة الأحداث ومخالطتهم ، فإن اليسير منه فتح باب الخذلان ، وبدء حال الهجران ، ونعوذ بالله من قضاء السوء .

فصل :

ومن آفات المريد : ما يتداخل النفس من خفيّ الحسد للإخوان ، والتأثر بما يفرد الله تعالىٰ به أشكاله من هذه الطريقة ، وحرمانه إياه ذلك ، وليعلم أن الأمور قِسَمٌ ، وإنما يتخلص العبد عن هذا باكتفائه بوجود الحق ، وقدمه عن مقتضى جوده ونعمه ، فكل من رأيت أيها المريد ، قدّم الحق سبحانه رتبته فاحمل أنت غاشيته ، لتنال بذلك مناله ، وإياك أن تحسده فيرجع ضرر حسده عليك ، فإن الظرفاء من القاصدين على ذلك استمرّت سنتهم .

فصل :

واعلم أن من حقِّ المريد ، إذا اتفق وقوعه في جمع إيثار الكل بالكل ، فيقدم الجائع الشبعان على نفسه ، ويتتلمذ لكل من أظهر عليه التشيخ ، وإن كان هو أعلم منه ، ولا يصل إلى ذلك إلا بتبرّيه عن حوله ، وقوته ، وتوصله إلى ذلك ، بطَوْل الحق ومنّته .

فصل :

وأما آداب المريد في السماع ، فالمريد لا تسلم له الحركة في السماع بالاختيار البتة ، فإن ورد عليه وارد حركة ، ولم يكن فيه فضل قوة ، فبمقدار الغلبة يعذر ، فإن زالت الغلبة ، يجب عليه القعود والسكون ، فإن استدام الحركة مستحلياً للوجد ، من غير غلبة وضرورة ، لم يصح ، فإن تعوّد ذلك ، بقي متخلّفاً ، لا يكاشف بشيء من الحقائق ، فغاية أحواله حينئذ ، أن يطيب قلبه ، وفي الجملة : إن الحركة تأخذ من كل متحرك ، وتنقص من حاله ، مريداً كان أو شيخاً ، إلا أن تكون الحركة بإشارة ناشئة من الوقت ، أو غلبة تأخذ عن التمييز ، فإن كان مريداً أشار عليه الشيخ بالحركة ، فتحرك على إشارته ، فلا بأس ، إن كان الشيخ له حكم على أمثاله ، بأن يكون ممن له اطلاع على باطنه ، وأما إذا أشار إليه الفقراء بالمساعدة في الحركة ، فليساعدهم في القيام في أداء ما لا يجد منه بداً ، مما يراعى عن الاستيحاش لقلوبهم ، كل ذلك بشرط السلامة مما يخالف الشريعة ، من رياء ، وعجب .

ثم إن صدقه في حاله يمنع قلوب الفقراء من سؤالهم ، عند المساعدة معهم . ومن تبرَّك بمريد ، فقد جار عليه لأنه يضره ، لقلة قوته ، فالواجب على المريد ترك تربية الجاه ، عند من قال بتركه ، وإثباته ، وإن ابتلي مريد بجاه ، أو معلوم ، أو صحبة حدث ، أو ميل إلى امرأة ، أو استنامة إلى معلوم ، وليس هناك شيخ ، يدله على حيلة يتخلص من ذلك ، فعند ذلك حل له السفر ، والتحول عن ذلك الموضوع ، لئلا يشوش على نفسه تلك الحالة ،

ولا شيء أضر بقلوب المريدين من حصول الجاه لهم قبل خمود بشريتهم .

ومن آداب المريد ألا يسبق علمه في هذه الطريقة منازلته ، فإنه إذا تعلّم سير هذه الطائفة ، وتكلّف الوقوف على معرفة مسائلهم وأحوالهم ، قبل تحققه بها ، أي : بالمنازلة والمعاملة بعد وصوله إلى هذه المعاني ، ولهذا قال المشايخ : إذا حدّث العارف عن المعارف فجهلوه ، فإن الإخبار عن المنازل ، دون المعارف ، ومن غلب علمه منازلته ، فهو صاحب علم لا صاحب سلوك .

ومن آداب المريدين ألا يتعرَّضوا للتصدر ، وأن يكون للخلق تلميذاً ومريداً ، فإن المريد إذا صار مراداً قبل خمود بشريته ، وسقوط آفته فهو محجوب عن الحقيقة ، لا ينفع أحداً إشارته ، ولا تعليمه ، ومن آدابه ألا يتبع من المشايخ ، إلا من يقع له في قلبه حرمته ، وهيبته ، ويعلم أنه يؤدبه ويهديه وأنه أعلم منه في الطريق .

وإذا خدم المريد الفقراء ، فخواطرُ الفقراء رسلهم إليه ، فلا ينبغي أن يخالف المريد ، ما حكم به باطنه عليه ، من الخلوص في الخدمة ، وبذل الوسع والطاقة .

ومن شأن المريد إذا كانت طريقته خدمة الفقراء ، الصبر على جفاء القوم معه ، وأن يعتقد أنه يبذل روحه في خدمتهم ، ثم لا يحمدون له أثراً ، فيعتذر إليهم من تقصيره ، ويقرّ بالجناية على نفسه تطييباً لقلوبهم ، وإنه علم أنه بريء الساحة منها ، وإذا زادوه في الجفاء ، فيجب أن يزيدهم في الخدمة ، والبر .

قال الأستاذ أبو بكر بن فورك في المثل : إذا لم تصبر على ضرب المطرقة ، فلماذا كنت سنداناً ؟ وفي معناه أنشدوا :

ربمـــا جئتـــه لأسلفـــه العـــذ ر لبعض الذنوب قبل التجني

وبناء هذا الأمر وملاكه على حفظ آداب الشريعة ، وصون اليد عن المد إلى الحرام ، والشبهة ، وحفظ الحواس عن المحظورات ، وعد الأنفاس مع الله سبحانه وتعالىٰ عن الغفلات ، وألا يستحلّ مثلاً سمسمة فيها شبهة ، في

أوان الضرورات ، فكيف عند الاختيار ووقت الراحات ، ومن شأن المريد دوام المجاهدة في ترك الشهوات ، فإن من وافق شهوته ، عُدِم صفوته . وأقبح الخصال بالمريد رجوعه إلى شهوة تركها لله تعالىٰ .

ومن شأن المريد حفظ عهوده مع الله تعالىٰ ، فإن نقض العهد في طريق الإرادة ، كالردة عن الدين لأهل الظاهر ، ولا ينبغي للمريد أن يعاهد الله تعالىٰ على شيء باختياره ما أمكنه ، فإن في لوازم الشرع ما يستوفى منه كل وسع ، قال الله تعالىٰ في صفة قوم : ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ [الحديد : ٢٧] أي الرهبانية (وهي رفض النساء واتخاذ الصوامع) ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي : ما أمرناهم بها إلا (لكن فعلوها) ابتغاء رضوان الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد : ٢٧] .

ومن شأن المريد قصر الأمل ، فإن الفقير ابن وقته ، فإذا كان له تدبير في المستقبل ، وتطلع لغير ما هو فيه من الوقت ، وأمّل ، فيما يستأنفه ، لا يجيء منه شيء .

ومن شأن المريد ألا يكون له معلوم وإن قلّ ، لا سيما إذا كان بين الفقراء ، فإن ظلمة الاعتماد على المعلوم تطفىء نور الوقت ، إلا أن يتوكل على الله ، ويعتقد أن ما بين يديه أنه ملك الله ، وهو المتصرف فيه بإذن الله ، فيكون اعتماده على الله ، ولا يلزم منه فوات التوكل ، والتفويض لأمر الله .

ومن شأن المريد بل من طريقة سالكي هذا المذهب ترك الارتفاق والانتفاع بما في أيدي النساء ، فكيف التعرض لهن ، لاستجلاب ما في أيديهن ، وعلى هذا درج شيوخهم ، وبذلك نفذت وصاياهم ، ومن عدّ قبول الارتفاق منهن صغيراً فعن قريب يفتضح أمره .

ومن شأن المريد التباعد عن أبناء الدنيا ، فإن صحبتهم سمّ مجرب ، لأنهم ينتفعون به ، وهو ينتقص بهم قال الله تعالىٰ : ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الكهف : ٢٨] . وإن الزهّاد يخرجون المال عن الكيس تقرباً

إلى الله تعالىٰ ، وأهل الصفاء يخرجون الخلق والمعارف من القلب ، تحققاً بالله عز وجل .

فهذه وصيتنا للمريدين نسأل الله الكريم لهم التوفيق ، وألا يجعلها وبالاً علينا .

وقد انتهى اختصار هذه الرسالة المباركة الموسومة بـ « الجد في السلوك إلى ملك الملوك » (مختصر الرسالة القشيرية) في غرة جمادى الأولى سنة ألف وأربعمئة وإحدى وعشرين هجرية ، جعل الله تعالىٰ لها القبول آمين آمين آمين ، وآخر دعوانا الحمد لله رب العالمين .

١ جمادى الأولى ١٤٢١هـ

كتبه حامداً ومصلياً الفقير إلى عفو ربه
أسعد بن محمد سعيد الصاغرجي

خاتمة

سند المؤلف وإجازته

وهذا سندي في أخذي هذا العلم عام : **ألف وتسعمئة وستين للميلاد** :

أخذت هذه الطريقة عن العالم العامل سيدي الشيخ سعيد البرهاني ، عن سيدي الشيخ محمد الهاشمي ، عن الشيخ سيدي أحمد بن عليوه ، عن الشيخ سيدي محمد البوزيدي ، عن سيدي محمد بن قدور ، عن سيدي أبي عزة المهاجي ، عن سيدي العربي البرقاوي ، عن الشيخ علي بن عبد الرحمن العمراني ، عن سيدي العربي بن عبد الله ، عن سيدي أحمد بن عبد الله ، عن سيدي قاسم الخصاصي ، عن سيدي محمد بن عبد الله ، عن سيدي عبد الرحمن الفاسي ، عن سيدي يوسف الفاسي ، عن سيدي عبد الرحمن المجذوب ، عن سيدي عليّ الصنهاجي ، عن سيدي إبراهيم أفحام ، عن سيدي أحمد زروق ، عن سيدي أحمد بن عقبة الحضرمي ، عن سيدي يحيى القادري ، عن سيدي علي بن وفا ، عن سيدي محمد وفا ، عن سيدي داود الباخلي ، عن سيدي أحمد بن عطاء الله ، عن سيدي أبي العباس المرسي ، عن سيدي أبي الحسن الشاذلي ، عن سيدي عبد السلام بن مشيش ، عن سيدي عبد الرحمن المدني ، عن سيدي تقيّ الدين الفقيّر ، عن سيدي فخر الدين ، عن سيدي نور الدين أبو الحسن ، عن سيدي تاج الدين ، عن سيدي شمس الدين ، عن سيدي زين الدين القزويني ، عن سيدي إبراهيم البصري ، عن سيدي أحمد المرواني ، عن سيدي سعيد ، عن سيدي سعد ، عن سيدي فتح السعود ، عن سيدي سعيد الغزواني ، عن سيدي أبي محمد جابر ، عن سيدنا الحسن بن علي ، عن سيدنا عليّ ، عن سيدنا النبي ﷺ ، عن سيدنا جبريل ، عن الله تبارك وتعالى .

وقد أجازني خليفة مولانا الشيخ سعيد البرهاني نجلُه العالم العامل ، والداعية إلى الله بحاله وقالِه : سيدي الشيخ محمد هشام البرهاني ـ حفظه الله تعالى ، وأمتع المسلمين بحياته ـ بالورد الخاص ، ومن قبله سيدي الشيخ سعيد البرهاني بالورد العام ، عام ألف وتسعمئة وثلاث وستين . والحمد لله رب العالمين .

أسعد محمد سعيد الصاغرجي

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

❊ ❊ ❊ ❊



صدر للمؤلف

الشيخ أسعد محمد سعيد الصاغرجي

عن دار الكلم الطيب بدمشق

ص ب/ ٣٠٥٥٢ ت/ ٢١١١١٤٠ تلفاكس/ ٢١٢٩٨٨٦

١ ـ شعب الإيمان ١/ ٤ مجلد . (الطبعة الثانية ـ ٢٠٠١م)

٢ ـ سيدنا محمد رسول الله ﷺ . ١/ ٢ مجلد (الطبعة الثانية ـ ١٩٩٩م)

٣ ـ فقه السنة النبوية من العهود المحمدية . ١ مجلد (الطبعة الثانية ٢٠٠١م)

٤ ـ الفقه الحنفي وأدلته . ١/ ٣ مجلد (الطبعة الثانية ـ ٢٠٠٠م)

٥ ـ المسلم الحق (عقيدة وعبادة وسلوكاً) . ١ غلاف (الطبعة الثانية ـ ٢٠٠١م)

٦ ـ الصلاة (شروطها ـ إقامتها) . ١ غلاف (الطبعة الأولى ـ ٢٠٠١م)

٧ ـ الجد في السلوك إلى ملَكِ الملوك ـ مختصر الرسالة القشيرية ١ مجلد ـ (الطبعة الأولى ـ ٢٠٠١م)

صدر عن دار الكلم الطيب

عام ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م

١ ـ عمل اليوم والليلة ، للنسائي ـ ١/ مجلد فني ـ ٧٣٥ صفحة
تحقيق : أ. د. فاروق حمادة .

٢ ـ الفرائض والمواريث والوصايا ـ ١/ مجلد ـ ٦٥٧ صفحة
تأليف : أ. د. محمد الزحيلي .

٣ ـ الشامل في القراءات ـ ١/ مجلد فني ـ ٣٠٧ صفحة
تأليف : د. محمد الحبش .

٤ ـ القباني في ميزان الإسلام ـ ١/ غلاف ـ ٢٤٨ صفحة
تأليف : د. شكري محمد سمارة .

٥ ـ المرشد الطبي ـ للأسرة ـ ١/ غلاف ـ ١٦٠ صفحة
تأليف : د. سمير إسماعيل الحلو .

